التفسير المحرر

للقرآن الكريم

من سورة الحاقة إلى سورة الجن

إعداد

القسم العلمي بمؤسسة الدرر السنية

مراجعة وتدقيق

الشيخ الدكتور خالد بن عثمان السبت
أستاذ التفسير بجامعة عبد الرحمن بن فيصل

الشيخ الدكتور أحمد سعد الخطيب
أستاذ التفسير وعلوم القرآن في جامعة الأزهر سابقا

الإشراف العام

الشيخ علوي بن عبد القادر السقاف

المجلد الأربعون

الدرر السنية
www.dorar.net

الدرر السنية
www.dorar.net

التَّفْسِيرُ المُحَرَّرُ

للقُرآنِ الكَرِيمِ

(من سورة الحاقة إلى سورة الجن)

ح مؤسسة الدرر السنية للنشر ـ ١٤٤٣ هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
القسم العلمي بمؤسسة الدرر السنية
التفسير المحرر للقرآن الكريم - من سورة الحاقة إلى سورة الجن - المجلد
الأربعون/ القسم العلمي بمؤسسة الدرر السنية - ط١- الظهران، ١٤٤٣ هـ
٤١٦ ص، ١٧ سم × ٢٤ سم
ردمك: ١-٠٦-٨٣٥٨-٦٠٣-٩٧٨
١- القرآن- التفسير الحديث أ- العنوان
ديوي ٢٢٧,٦ ١٤٤٣/٩٦٥٦

رقم الإيداع: ١٤٤٣/٩٦٥٦
ردمك: ١-٠٦-٨٣٥٨-٦٠٣-٩٧٨

الطبعة الأولى
١٤٤٤ هـ - ٢٠٢٢ م

(ساهم في تخفيض سعر الكتاب أوقاف الشيخ أحمد محمد بغلف)

الدرر السنية
www.dorar.net
المملكة العربية السعودية
٠١٣٨٦٨٠١٢٣ ٠٥٥٦٩٨٠٢٨٠ nashr@dorar.net
dorarnet dorarnet dorarrnet dorartv

التَّفْسيرُ المُحَرَّرُ

للقُرآنِ الكَريمِ

(من سورة الحاقة إلى سورة الجن)

إعدادُ

القِسمِ العِلميِّ بمُؤسَّسةِ الدُّرَرِ السَّنِيَّةِ

مراجعة وتدقيق

الشيخ الدكتور خالد بن عثمان السَّبت
أستاذ التفسير بجامعة عبد الرحمن بن فيصل

الشيخ الدكتور أحمد سعد الخطيب
أستاذ التفسير وعلوم القرآن في جامعة الأزهر - قنا

الإشرافُ العامُّ

الشيخ علوي بن عبد القادر السَّقَّاف

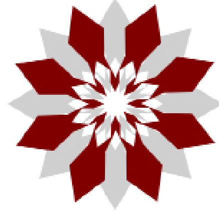
المجلد الأربعون

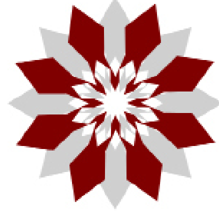
الدُّرَرُ السَّنِيَّة
www.dorar.net

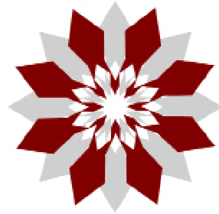
بسم الله الرحمن الرحيم

تَفْسِيرُ

سُورَةِ الحاقَّةِ







سورةُ الحاقَّةِ

أسماءُ السُّورةِ:

سُمِّيتْ هذه السُّورةُ بسُورةِ (الحاقَّة)[١].

بيانُ المكِّيِّ والمَدَنيِّ:

سُورةُ (الحاقة) مكِّيَّةٌ[٢]، ونقَلَ الإجماعَ على ذلك غيرُ واحدٍ مِن المفسِّرينَ[٣].

مَقاصِدُ السُّورةِ:

مِن أهمِّ مقاصِدِ السُّورةِ:

١- الحديثُ عن يومِ القيامةِ، وأحوالِ النَّاسِ فيه[٤].

٢- إقامةُ الأدِلَّةِ على صِدقِ الرَّسولِ، وأنَّ هذا القرآنَ مِن عندِ اللهِ تَعالى[٥].

مَوضوعاتُ السُّورةِ:

مِن أهمِّ الموضوعاتِ الَّتي اشتَمَلَتْ عليها السُّورةُ:

١- افتُتِحَت السُّورةُ بتَهويلِ شَأنِ يومِ القيامةِ، والتَّعظيمِ لأمْرِه.

٢- التَّذكيرُ بما حلَّ بالأُمَمِ الَّتي كذَّبَت بالقيامةِ.

---

(١) وجْهُ التَّسميةِ وُقوعُ هذه الكلمةِ في أوَّلِها، ولم تقَعْ في غيرِها مِن سُوَرِ القرآنِ الكريمِ. يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٤٧٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١١١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٠٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣٤٣)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٩٨).

(٣) ممَّن نقَل الإجماعَ على ذلك: ابنُ عطيَّةَ، وابنُ الجَوزيِّ، والقُرطبيُّ، والبِقاعي. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٢٨)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٣٢٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٥٦)، ((مصاعد النظر)) للبقاعي (٣/ ١١٥).

(٤) يُنظر: ((التفسير الوسيط)) لطنطاوي (١٥/ ٦٥).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

٣- وصْفُ أهوالِ يومِ القيامةِ، وبيانُ حالِ السُّعداءِ ممَّن يُؤتَونَ كُتُبَهم بأيْمانِهم، وحالِ الأشقياءِ الَّذين يُؤتَون كُتبَهم بشَمائلِهم.

٤- التَّنويهُ بالقرآنِ الكريمِ، وتَأكيدُ نُزولِه مِن عندِ اللهِ، وصِدقِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فيما يُبلِّغُه عن ربِّه.

٥- بَيانُ أنَّ القرآنَ تَذكِرةٌ للمؤمنِ، وحَسرةٌ على الكافرِ.

٦- خُتِمَت السُّورةُ بالأمرِ بتَسبيحِ اللهِ تَعالى.



الآيات (١-٨)

﴿ٱلۡحَآقَّةُ ۝١ مَا ٱلۡحَآقَّةُ ۝٢ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡحَآقَّةُ ۝٣ كَذَّبَتۡ ثَمُودُ وَعَادُۢ بِٱلۡقَارِعَةِ ۝٤ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهۡلِكُواْ بِٱلطَّاغِيَةِ ۝٥ وَأَمَّا عَادٞ فَأُهۡلِكُواْ بِرِيحٖ صَرۡصَرٍ عَاتِيَةٖ ۝٦ سَخَّرَهَا عَلَيۡهِمۡ سَبۡعَ لَيَالٖ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومٗاۖ فَتَرَى ٱلۡقَوۡمَ فِيهَا صَرۡعَىٰ كَأَنَّهُمۡ أَعۡجَازُ نَخۡلٍ خَاوِيَةٖ ۝٧ فَهَلۡ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٖ ۝٨﴾.

غَريبُ الكَلِمات:

﴿ٱلۡحَآقَّةُ﴾: أي: القيامةُ الصَّادِقةُ، الواجِبةُ الوُقوعِ، سُمِّيَت بذلك؛ لأنَّ فيها حواقَّ الأُمورِ. وقيل غيرُ ذلك، وأصلُ (حقق): يدُلُّ على إحكامِ الشَّيءِ وصِحَّتِه[(١)].

﴿بِٱلۡقَارِعَةِ﴾: أي: القيامةِ الَّتي تَقرَعُ قُلوبَ العِبادِ بالمَخافةِ، وسُمِّيَت بذلك؛ لأنَّها تَقرَعُ النَّاسَ بالأهوالِ الشَّديدةِ، وأصلُ (قرع): يدُلُّ على ضَربِ الشَّيءِ[(٢)].

﴿بِٱلطَّاغِيَةِ﴾: أي: بالصَّيحةِ الطَّاغيةِ الَّتي جاوَزَت مِقدارَ الصِّياحِ. والطَّاغي مِن كُلِّ شَيءٍ: ما تجاوَزَ القَدْرَ، وأصلُ (طغي): يدُلُّ على تجاوُزِ الحَدِّ[(٣)].

﴿صَرۡصَرٍ﴾: أي: شَديدةِ البَردِ والصَّوتِ، والصَّرصَرُ: الرِّيحُ العاصِفةُ الَّتي يكونُ لها صَرصَرةٌ، أي: دَوِيٌّ في هُبوبِها؛ مِن شِدَّةِ سُرعةِ تنقُّلِها، والتَّضعيفُ فيه

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٨٣)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٠٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٩٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٤٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٥٧).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٨٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٧٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤١٢).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٨٣)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٠٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤١٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٢٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٢٣).

للمُبالَغةِ في شِدَّتِها، والصَّرصرُ: الباردةُ تُهلِكُ بشدَّةِ بردِها، مأخوذٌ مِن الصِّرِّ: وهو البَردُ الَّذي يَصُرُّ، أي: يَجمَعُ ويَقبِضُ(١).

﴿عَاتِيَةٍ﴾: أي: قاهِرَةٍ، بالِغةٍ مُنتهاها في القُوَّةِ والشِّدَّةِ، والعُتُوُّ: الخروجُ عن الطَّاعةِ، وأصلُ (عتو): يدُلُّ على استِكبارٍ(٢).

﴿سَخَّرَهَا﴾: أي: سلَّطها وأرْسَلها، والتَّسْخيرُ: سياقةٌ إلى الغَرَضِ المختصِّ قَهرًا، أو: استِعمالُ الشَّيءِ على وجهِ الاستِعلاءِ والاقتِدارِ، وأصلُ (سخر): يدُلُّ على استِذلالٍ(٣).

﴿حُسُومًا﴾: أي: تِباعًا، مُتواليةً، مَشائِمَ، قاطِعةً لهم، والحُسومُ: التَّتابُعُ؛ إذا تتابَعَ الشَّيءُ فلم يَنقَطِعْ أوَّلُه عن آخِرِه، قيل له: حُسومٌ، والحَسمُ كذلك: القَطعُ بالاستِئصالِ، وأصلُ (حسم): يدُلُّ على قَطعِ الشَّيء عن آخِرِه(٤).

﴿صَرْعَىٰ﴾: مَوْتى، وأصلُ (صرع): يدُلُّ على سُقوطِ شَيءٍ إلى الأرضِ(٥).

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٨٨)، ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٢٧٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٨٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٣٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٦٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢١١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٢٢٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٤٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٠٨).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٤٤)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٣٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٠٢)، ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٢٥١).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٨٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٠١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٥٧)، ((البسيط)) للواحدي (٢٢/ ١٣٩، ١٤٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٣٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤١٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٢٣).

(٥) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٤٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٨٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٦١)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٦٥، ٥٦٧).

﴿أَعۡجَازُ﴾: أي: أصولُ، وأصلُ (عجز) هنا: يدُلُّ على مُؤَخَّرِ الشَّيءِ(١).

﴿خَاوِيَةٖ﴾: أي: ساقِطةٍ، خالِيةِ الأجوافِ، وأصلُ (خوي): يدُلُّ على الخُلُوِّ والسُّقوطِ(٢).

﴿بَاقِيَةٖ﴾: أي: بقاءٍ أو أثَرٍ، وأصلُ (بقي): يدُلُّ على دَوامٍ(٣).

المعنى الإجماليُّ:

افتَتَح اللهُ تعالى هذه السُّورةَ الكريمةَ بذِكرِ القيامةِ، فقال: القيامةُ الصَّادِقةُ الوُقوعِ، الَّتي تَظهَرُ فيها الحقائِقُ، أيُّ شَيءٍ هِي؟ وما حالُها وصِفتُها؟ وما أدراك ما الحاقَّةُ وصِفَتُها وحالُها وأهوالُها؟!

ثمَّ ذكَرَ اللهُ تعالى مَن كَذَّبَ بالقيامةِ، وما حَلَّ بهم بسَبَبِ التَّكذيبِ، فقال: كذَّبت ثَمودُ قَومُ صالحٍ، وعادٌ قَومُ هودٍ؛ بالقيامةِ!

فأمَّا ثَمودُ فأُهلِكوا بصَيحةٍ فَظيعةٍ تجاوَزَ صَوتُها مِقدارَ كُلِّ صَوتٍ، وأمَّا عادٌ فأُهلِكوا بريحٍ بارِدةٍ شَديدةِ الصَّوتِ، قد تجاوَزَت شِدَّتُها في ذلك كُلَّ عاصِفةٍ، فدمَّرَتْهم تَدميرًا، سلَّط اللهُ تلك الرِّيحَ عليهم سَبْعَ لَيالٍ وثمانيةَ أيَّامٍ مُتتابِعةً عليهم، فهلكوا! فتَرى قومَ عادٍ فيها ساقِطينَ على الأرضِ مَوتى، كأنَّهم جُذوعُ نَخلٍ ساقِطةٍ خالِيةِ الأجوافِ، فهل ترى لهم مِن بقاءٍ بعْدَ أن أبادَهم اللهُ تعالى؟!

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٣٣)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢١٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٨٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٤٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٩٨).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٨٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٢٥)، ((تفسير البغوي)) (٨/ ٢٠٨).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٨٣)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢١٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٧٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤١٢).

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿الْحَاقَّةُ ۝١﴾.

أي: القيامةُ الثَّابِتةُ المَجيءِ، الصَّادِقةُ الوُقوعِ، الَّتي تَظهَرُ فيها الحقائِقُ، ويتحَقَّقُ فيها وَعدُ اللهِ تعالى ووَعيدُه[1].

كما قال تعالى: ﴿وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ﴾ [الأنبياء: ٩٧].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٠٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٤٣)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٩٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٠٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣٣٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٢).

قال الواحدي: (﴿الْحَاقَّةُ﴾ يعني: القيامةَ، في قَولِ جميعِ المفَسِّرينَ). ((الوسيط)) (٤/ ٣٤٣).

وقال الزمخشري: (﴿الْحَاقَّةُ﴾ السَّاعةُ الواجِبةُ الوُقوعِ، الثَّابتةُ المَجيءِ، الَّتي هي آتيةٌ لا ريْبَ فيها. أو الَّتي فيها حَواقُّ الأمورِ مِن الحِسابِ والثَّوابِ والعِقابِ. أو الَّتي تحقُّ فيها الأمورُ، أي: تُعرَفُ على الحقيقةِ). ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٩٨).

وقال الشوكاني: (قوله: ﴿الْحَاقَّةُ﴾ هي القيامةُ؛ لأنَّ الأمرَ يحِقُّ فيها، وهي تحِقُّ في نفْسِها مِن غيرِ شكٍّ). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٣٣).

وقال الثعلبي: (سُمِّيَتْ حاقَّةً؛ لأنَّها حقَّتْ فلا كاذِبةَ لها، ولأنَّ فيها حَواقَّ الأمورِ وحقائقَها، ولأنَّ فيها يحقُّ الجزاءُ على الأعمالِ، أي: يجِبُ). ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ٢٥). ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٠٥).

وقال البقاعي: (﴿الْحَاقَّةُ﴾ أي: السَّاعةُ الَّتي يُكذِّبُ بها هؤلاء وهي أثبَتُ الأشياءِ وأجلاها، فلا كاذِبةَ لها، ولا لشَيءٍ عنها، فلا بُدَّ مِن حُقوقِها؛ فهي ثابتةٌ في نفْسِها، ومِن إحضارِ الأمورِ فيها بحقائقِها، والمُجازاةِ عليها بالحقِّ الَّذي لا مِرْيةَ فيه لأحدٍ مِن الخَلقِ، فهي فاعِلةٌ بمعنَى مفعولٍ فيها، وهي فاعلةٌ أيضًا لأنَّها غالبةٌ لكلِّ خصمٍ، مِن حاقَقْتُه فحَقَقْتُه أَحُقُّه، أي غالَبْتُه في الحقِّ فغَلَبْتُه فيه، فهي تحِقُّ الحقَّ ولا بُدَّ، فتَعلو الباطِلَ فتَدْمَغُه وتُزهِقُه، فتُحِقُّ العذابَ للمجرمينَ، والثَّوابَ للمُسلمينَ، وكلُّ ما فيها دائرٌ على الثَّباتِ والبيانِ؛ لأنَّ ذلك مُقتضى الحِكمةِ، ولا يُرضى لأحدٍ مِن الحُكَّامِ تركُ رعيَّتِه بغيرِ إنصافٍ بيْنَهم على زعمِه، فكيف بالحكيمِ العليمِ؟!). ((نظم الدرر)) (٢٠/ ٣٣٨، ٣٣٩).

وعنِ ابنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: كان النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إذا تهجَّدَ مِنَ اللَّيلِ قال: ((اللَّهمَّ رَبَّنا لك الحَمدُ، أنت قَيِّمُ السَّمَواتِ والأرضِ، ولك الحَمدُ أنت رَبُّ السَّمَواتِ والأرضِ ومَن فيهِنَّ، ولك الحَمدُ أنت نُورُ السَّمَواتِ والأرضِ ومَن فِيهنَّ، أنت الحَقُّ، وقَولُك الحَقُّ، ووعَدُك الحَقُّ، ولِقاؤك الحَقُّ، والجنَّةُ حَقٌّ، والنَّارُ حَقٌّ، والسَّاعةُ حَقٌّ))[1].

﴿مَا ٱلْحَآقَّةُ ۝٢﴾.

أي: أيُّ شَيءٍ تلك السَّاعةُ الحاقَّةُ، العَظيمةُ الشَّأنِ؟ وما حالُها وصِفتُها[2]؟

﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَآقَّةُ ۝٣﴾.

أي: وما الَّذي يُعَرِّفُك ما الحاقَّةُ وصِفتُها وحالُها وأهوالُها[3]؟!

---

(١) رواه البخاري (٧٤٤٢) واللَّفظُ له، ومسلم (٧٦٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٠٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٤٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٢١)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٣٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٠٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٤٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٥٦).

قيل: الخِطابُ هنا للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم. وممَّن قال بهذا: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٤٢١)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٠٧).

وقيل: الخِطابُ لغَيرِ مُعَيَّن. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١١٣).

أمَّا معنى الآيةِ فقيل: المرادُ: كأنَّك لَسْتَ تَعلَمُها؛ إذ لم تُعايِنْها حقيقةً، ولم تَرَ ما فيها مِن أهوالٍ. وممَّن قال بهذا المعنى: الواحديُّ، والقرطبي، والشوكاني. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٤٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٥٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٣٣).

قال الزمخشري: (يعني: أنَّك لا عِلمَ لك بكُنْهِها ومدى عِظَمِها، على أنَّه مِن العِظَمِ والشِّدَّةِ بحيث لا يَبلُغُه دِرايةُ أحدٍ ولا وَهمُه، وكيفما قدَّرْتَ حالَها فهي أعظَمُ مِن ذلك!). ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٩٨).

وقال القاسمي: (﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَآقَّةُ﴾ قال بعضُهم: مِن عوائدِ العَرَبِ في مُحاوَراتِهم اللَّطيفةِ، =

﴿كَذَّبَتۡ ثَمُودُ وَعَادُۢ بِٱلۡقَارِعَةِ ٤﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذكَرَ الحاقَّةَ وفخَّمَها؛ أتْبَعَ ذِكرَ ذلك ذِكرَ مَن كذَّب بها، وما حلَّ بهم بسَببِ التَّكذيبِ؛ تَذكيرًا لأهلِ مكَّةَ، وتخويفًا لهم مِن عاقبةِ تَكذيبِهم[1].

وأيضًا فإنَّ اللهَ تَعالى ذكَرَ نَموذجًا مِن أحوالِ القيامةِ الموجودةِ في الدُّنيا المشاهَدةِ فيها، وهو ما أحلَّه مِن العُقوباتِ البَليغةِ بالأُمَمِ العاتيةِ[2].

﴿كَذَّبَتۡ ثَمُودُ وَعَادُۢ بِٱلۡقَارِعَةِ ٤﴾.

أي: كذَّبت قَبيلةُ ثَمودَ قَومِ صالحٍ، وقبيلةُ عادٍ قَومِ هودٍ؛ بالقيامةِ، فأنكَروا بَعْثَ النَّاسِ بعْدَ مَوتِهم، وقيامَهم للحِسابِ والجَزاءِ[3]!

= إذا أرادوا تشويقَ المُخاطَبِ في مَعرفةِ شَيءٍ ودرايته، أتَوا بإجمالٍ وتفصيلٍ، أيْ: أيُّ شَيءٍ أعلَمَ المُخاطَبَ ما هي؟ تأكيدًا لتَفخيمِ شأنِها، حتَّى كأنَّها خرَجَت مِن دائرةِ عِلمِ المُخاطَبِ، على معنَى: أنَّ عِظَمَ شَأنِها وما اشتمَلَت عليه مِن الأوصافِ: مِمَّا لم تَبلُغْه درايةُ أحدٍ مِن المُخاطَبينَ، ولم تَصِلْ إليه مَعرفةُ أحدٍ مِن السَّامِعينَ، ولا أدركَه وَهمُه، وكيفما قَدَّرَ حالَها فهي وراءَ ذلك وأعظَمُ. ومنه يُعلَمُ أنَّ الاستفهامَ كِنايةٌ عن لازِمِه، مِن أنَّها لا تُعلَمُ، ولا يَصِلُ إليها درايةُ دارٍ، ولا تَبلُغُها الأفكارُ). ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٣٠٨). ويُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١١٣).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦٢١).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٠٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٤٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٥٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣٤٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١١٥).

قال ابن جرير: (القارعةُ أيضًا اسمٌ مِن أسماءِ القيامة). ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٠٧).

وقال البقاعي: (﴿بِٱلۡقَارِعَةِ﴾ أي: الَّتي تَقرَعُ، أي: تَضربُ ضَربًا قويًّا، وتَدُقُّ دقًّا عنيفًا شديدًا للأسماعِ وجميعِ العالَمِ، بانفِطارِ السَّمَوات، وتناثُرِ النَّيِّراتِ، ونَسْفِ الجِبالِ الرَّاسياتِ، فلا يَثبُتُ لذلك الهَولِ شَيءٌ!). ((نظم الدرر)) (٢٠/ ٣٤٢).

﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ ۝٥﴾.

أي: فأمَّا ثَمودُ فأُهلِكوا بالصَّيحةِ الطَّاغيةِ الفَظيعةِ الَّتي تجاوَزَ صَوتُها مِقدارَ كُلِّ صَوتٍ مُرتَفِعٍ، فرجَفَت منها الأرضُ والقُلوبُ، وماتوا مِن شِدَّتِها[1]!

كما قال تعالى: ﴿وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّى حِينٍ * فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنْظُرُونَ﴾ [الذاريات: ٤٣، ٤٤].

﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ۝٦﴾.

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٠٨، ٢٠٩)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١١٢٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٥٦، ٣٥٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٠٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣٤٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١١٦).

قال ابن الجوزي: (فأمَّا ﴿بِالطَّاغِيَةِ﴾ ففيها ثلاثةُ أقوالٍ؛ أحدُها: أنَّها طُغيانُهم وكُفرُهم، قاله ابنُ عبَّاسٍ، ومجاهدٌ، ومقاتلٌ، وأبو عُبَيْدةَ، وابنُ قُتَيْبةَ. قال الزَّجَّاجُ: ومعنَى الطَّاغيةِ عندَ أهلِ اللُّغةِ: طُغيانُهم. و «فاعِلة» قد يأتي بمعنَى المصادرِ، نحو: عاقِبة، وعافِيَة. والثَّاني: بالصَّيحةِ الطَّاغيةِ، قاله قَتادةُ؛ وذلك أنَّها جاوزَتْ مِقْدارَ الصِّياحِ، فأهلَكَتْهم. والثَّالثُ: أنَّ الطَّاغيةَ: عاقِرُ النَّاقةِ، قاله ابنُ زَيدٍ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٣٢٨). ويُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٢١٣).

ممَّن اختار أنَّ المرادَ بالطَّاغيةِ: الصَّيحةُ: ابنُ جرير، وابنُ عطية، وابنُ جُزَي، وجلال الدين المحلي، والعُلَيمي، والشوكاني، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٠٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٥٦، ٣٥٧)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٠٤)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٧٦١)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ١٤١)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٣٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٢).

وممَّن اختار في الجملةِ أنَّ المرادَ بالطَّاغيةِ: بطُغْيانِهم وكُفرِهم وعِصْيانِهم: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وأبو عُبَيْدةَ، وابنُ قُتَيْبةَ، والسَّمَرْقَنْديُّ، والثعلبي، والبغوي، والخازن. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٤٢١)، ((مجاز القرآن)) لأبي عبيدة (٢/ ٢٦٧)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٨٣)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٤٨٨)، ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ٢٦)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ١٤٤)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٣٣٣).

وقال الواحدي: (أكثَرُ أهلِ التَّفسيرِ والعربيَّةِ على أنَّ الطَّاغيةَ هاهنا بمعنى الطُّغْيانِ). ((البسيط)) (٢٢/ ١٣٤).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَر المُهلَكينَ بالصَّيحةِ مِن أجْلِ التَّكذيبِ بالقارعةِ؛ تحذيرًا لِمَن يكَذِّبُ بها؛ أتْبَعَه المُهلَكينَ بما هو سَبَبٌ لإنفاذِ الصَّيحةِ وتَقويتِها؛ دَلالةً على تمامِ القُدرةِ على كُلِّ نَوعٍ مِن العذابِ بالاختيارِ(١).

﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ (٦)﴾.

أي: وأمَّا عادٌ فأُهلِكوا بريحٍ عَظيمةٍ باردةٍ شَديدةِ الصَّوتِ، قد تجاوَزَتْ شِدَّتُها في ذلك كُلَّ عاصِفةٍ أُخرَى، فدمَّرَتْهم تَدميرًا(٢)!

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣٤٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٠٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٥٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٥٩)، ((روضة المحبين)) لابن القيم (ص: ٥٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٠٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣٤٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٢).

قال ابن عطية: («الصَّرْصَرُ» يحتَمِلُ أن يكونَ مِنَ الصِّرِّ، أي: البَرد، وهو قَولُ قَتادةَ. ويحتمِلُ أن يكونَ مِن صَرَّ الشَّيءُ: إذا صَوَّتَ، فقال قومٌ: صَوتُ الرِّيحِ صَرصَرٌ، كأنَّه يَحكي هذَينِ الحَرفَينِ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٥٧).

وممَّن قال بالمعنى الأوَّلِ: مقاتِلُ بنُ سُلَيمانَ، والزَّجَّاجُ، والسَّمرقنديُّ، والقُرطبي، وابنُ كثير، والشَّوكاني. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٤٢١)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٢١٤)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٤٨٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٥٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٠٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٣٤).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلَفِ: ابنُ عبَّاسٍ، وقَتادةُ، والضَّحَّاكُ، وعِكْرِمةُ، والحسَنُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢١٠)، ((تفسير الماوردي)) (٦/ ٧٧)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٨/ ٢٦٥).

وممَّن قال بالمعنى الثَّاني: الرازيُّ، والخازن، والسعدي، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦٢١)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٣٣٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١١٦).

وممَّن قال بهذا القولِ مِنَ السَّلَفِ: مجاهدٌ. يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٦/ ٧٧). =

= وقال ابنُ جَريرٍ، ومكِّيٌّ، والقاسميُّ: هي شديدةُ العُصوفِ، مع شِدَّةِ بَرْدِها. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٠٩)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٢/ ٧٦٦٣)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٣٠٩).

وقال البِقاعي: (هي في غايةِ ما يكونُ مِن شِدَّةِ البرْدِ والصَّوتِ، كأنَّه كُرِّرَ فيها البرْدُ حتَّى صار يحرِقُ بشِدَّته، والصَّوتُ حتَّى صار يُصِمُّ بقُوَّته). ((نظم الدرر)) (٢٠/ ٣٤٣).

وجمَعَ ابنُ كثيرٍ بيْن المعاني السَّابقةِ في تفسيرِ قولِه تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا﴾ [فصلت: ١٦]، فقال: (والحقُّ أنَّها متَّصِفةٌ بجَميعِ ذلك [أي: كَونِها شَديدةَ الهُبوبِ، باردةً، لها صَوتٌ]؛ فإنَّها كانت رِيحًا شَديدةً قويَّةً؛ لِتَكونَ عُقوبتُهم مِن جنسِ ما اغتَرُّوا به مِن قُواهم، وكانت باردةً شديدةَ البرْدِ جِدًّا، كقولِه تعالى: ﴿بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾، أي: باردةٍ شَديدةٍ، وكانت ذاتَ صَوتٍ مُزعِجٍ). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٦٩).

والعاتية: الَّتي جاوَزَتِ المِقْدارَ. قاله ابنُ الجوزيِّ، والرَّسْعَنيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٣٢٨)، ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٢٥١).

وقال الزمخشري: (﴿عَاتِيَةٍ﴾ شديدةِ العَصفِ). ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٩٩).

وقال القاسمي: (﴿عَاتِيَةٍ﴾ أي: مُتجاوِزةٍ الحدَّ المعروفَ في الهُبوبِ والبُرودةِ). ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٣٠٩).

قال مكِّي: (وقولُه: ﴿عَاتِيَةٍ﴾ ليس هو مِن العُتُوِّ الَّذي هو العِصيانُ، إنَّما هو مِن العُتوِّ الَّذي هو بُلوغُ الشَّيءِ وانتهاؤُه في قوَّته وقَدْرِه). ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) (١٢/ ٧٦٦٢، ٧٦٦٣).

وقال الماوَرْدي: (وفي تسميتِها عاتيةً وجْهانِ؛ أحدُهما: لأنَّها عتَتْ على القَومِ بلا رحمةٍ ولا رأفةٍ، قاله ابنُ عبَّاسٍ. الثَّاني: لأنَّها عتتْ على خُزَّانِها بإذْنِ الله). ((تفسير الماوردي)) (٦/ ٧٧).

ممَّن قال الوجهِ الأوَّلِ: ابنُ جُزَي، والسعديُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٠٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٢).

وممَّن قال بالوجهِ الثَّاني: ابنُ جرير، والسمرقنديُّ، والثعلبي، والواحدي، والسمعاني، والبغوي، والعُلَيمي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٠٩)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٤٨٨)، ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ٢٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٤٤)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٣٥)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ١٤٤)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ١٤١).

وقال ابن عطيَّةَ: («العاتية» معناه: الشَّديدةُ، المُخالِفةُ، فكانت الرِّيحُ عتَتْ على الخُزَّانِ بخِلافِها، وعتت على قومِ عادٍ بشِدَّتِها). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٥٧).

كما قال تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِيٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْيِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [فصلت: ١٦].

وقال الله سُبحانَه وتعالى: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ * إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ * تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ * فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ [القمر: ١٨ - ٢١].

وعن ابنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عنهما، أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((نُصِرْتُ بالصَّبا، وأُهْلِكَتْ عادٌ بالدَّبور[(١)]))[(٢)].

﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ۝٧﴾.

﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا﴾.

أي: سلَّط اللهُ تلك الرِّياحَ العاصِفةَ على عادٍ، وأرسَلَها عليهم سَبْعَ لَيالٍ وثمانيةَ أيَّامٍ كَوامِلَ، مَشائيمَ، تتابَعَت عليهم حتَّى هَلَكوا[(٣)]!

---

(١) الصَّبا: هي الرِّيحُ الشَّرقيَّةُ، والدَّبورُ: هي الرِّيحُ الغَربيَّةُ. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (٦/ ١٩٧).

(٢) رواه البخاري (١٠٣٥)، ومسلم (٩٠٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢١١ - ٢١٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٤٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٠٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣٤٤، ٣٤٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١١٧).

قال الرازي: (قولُه تعالى: ﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا﴾ قال مقاتلٌ: سلَّطها عليهم. وقال الزَّجَّاجُ: أقامها عليهم. وقال آخَرونَ: أرسَلَها عليهم. هذه هي الألفاظُ المنقولةُ عن المفسِّرينَ). ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦٢٢). ويُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٤٢١)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٢١٤).

وقال الثعلبيُّ، والسمعانيُّ، وابن الجوزيِّ، والقرطبيُّ: ﴿سَخَّرَهَا﴾: أرسَلَها وسلَّطها. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ٢٦)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٣٥)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٣٢٩)، =

كما قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا صَرۡصَرٗا فِي يَوۡمِ نَحۡسٖ مُّسۡتَمِرّٖ﴾ [القمر: ١٩].

﴿فَتَرَى ٱلۡقَوۡمَ فِيهَا صَرۡعَىٰ﴾.

أي: فتَرى قومَ عادٍ في تلك اللَّيالي والأيَّامِ مَطروحينَ على الأرضِ مَوتى(١)!

= ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٥٩).

قال البِقاعي: (قد لَزِمَ مِن زيادةِ عَدَدِ الأيَّامِ أنَّ الابتداءَ كان بها قَطْعًا، وإلَّا لم تكن اللَّيالي سَبْعًا؛ فتأمَّلْ ذلك). ((نظم الدرر)) (٢٠/ ٣٤٥).

وقال الماوَرْديُّ: (وفي قولِه: ﴿حُسُومٗا﴾ أربعةُ تَأويلاتٍ؛ أحدُها: مُتتابِعاتٍ. قاله ابنُ عباسٍ، وابنُ مسعودٍ، ومجاهدٌ، والفرَّاءُ... الثَّاني: مَشائيمَ. قاله عِكْرِمةُ والرَّبيعُ. الثَّالثُ: أنَّها حَسَمَت اللَّياليَ والأيَّامَ حتَّى استوفَتْها؛ لأنَّها بدَأَت طُلوعَ الشَّمسِ مِن أوَّلِ يومٍ، وانقطَعَت مع غُروبِ الشَّمسِ مِن آخِرِ يومٍ. قالَه الضَّحَّاكُ. الرَّابعُ: لأنَّها حَسَمَتْهم ولم تُبْقِ منهم أحدًا. قاله ابنُ زَيدٍ). ((تفسير الماوردي)) (٦/ ٧٧). ويُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ١٨٠).

ونسَبَ الواحديُّ والرَّازيُّ إلى أكثَرِ المفسِّرينَ أنَّ ﴿حُسُومٗا﴾ أي: مُتتابِعةً. يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (٢٢/ ١٣٨)، ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦٢٢).

قال الرازي: (وعلى هذا القولِ: حُسومٌ جمْعُ حاسمٍ، كشُهودٍ وقُعودٍ، ومعنى الحَسم في اللُّغةِ: القطعُ بالاستِئْصالِ... فلمَّا كانت تلك الرِّياحُ مُتتابِعةً ما سكنَتْ ساعةً حتَّى أتتْ عليهم، أشْبَهَ تَتابُعُها عليهم تَتابُعَ فِعلِ الحاسِمِ في إعادةِ الكَيِّ على الدَّاءِ كَرَّةً بعدَ أخرى حتَّى يَنحسِمَ). ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦٢٢).

وقال ابنُ فارسٍ: (أمَّا قولُه تعالى: ﴿وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومٗا﴾ فيُقالُ: هي المتتابِعةُ. ويُقالُ: الحسومُ الشؤمُ. ويُقالُ: سُمِّيَتْ حسومًا؛ لأنَّها حسَمت الخيرَ عن أهلِها. وهذا القولُ أقيسُ). ((مقاييس اللغة)) (٢/ ٥٧).

وقال ابن كثير: (﴿... حُسُومٗا﴾ أي: كَوامِلَ، مُتَتابِعاتٍ، مَشائيمَ). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٠٨).

وقيل: الحُسومُ مَصدَرٌ، كالشُّكورِ والكُفورِ، وعلى هذا التَّقديرِ فإمَّا أن يَنتصِبَ بفِعلِه مُضمَرًا، والتَّقديرُ: تَحسِمُ حُسومًا، يعني: تَستأصِلُ استِئْصالًا، أو يكونَ صِفةً، كقولِك: ذاتُ حُسومٍ، أو يكونَ مفعولًا له، أي: سخَّرَها عليهم للاستِئْصالِ. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٩٩)، ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦٢٢). ويُنظر ما يأتي (ص: ٣٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢١٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٤٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٨٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٥٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٦١)، =

﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾.

أي: صارت جُثَثُهم بعْدَ هَلاكِهم مِثلَ جُذوعِ نَخلٍ ساقِطةٍ خالِيةِ الأجوافِ(١).

= ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٣٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣٤٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٣٥).

قيل: الخِطابُ في قَولِه تعالى: ﴿فَتَرَى﴾: لمحمَّدٍ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ. وممَّن قال بهذا: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، ومكِّي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٤٢١)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢١٥)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٢/ ٧٦٦٧).

وقِيل: الخِطابُ لكلِّ مَن يَصلُحُ له، على تَقدير: أنَّه لو كان حاضرًا حينَئذٍ لَرأى ذلك، أي: فيَرى الرَّائي لو كان راءٍ. وممَّن اختار هذا المعنى في الجُملةِ: الشَّوكانيُّ، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٣٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١١٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢١٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٤٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٥٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٦١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١١٨).

ممَّن اختار أنَّ الأعجازَ هي الأصولُ: مقاتلُ بنُ سُليمانَ، وابنُ جرير، والزَّجَّاجُ، والثعلبي، ومكِّي، والواحدي، والسمعاني، وابن الجوزي، والرازي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٤٢٢)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢١٥)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٢١٤)، ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ٢٧)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٢/ ٧٦٦٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٤٤)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٣٥)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٣٢٩)، ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦٢٢).

قيل: المعنى: أنَّها صارت جُذوعًا باليةً لَيستْ لها رُؤوسٌ، قد بَقِيَت أصولُها، وذهَبَت أعناقُها. وممَّن ذهَبَ إلى هذا: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٤٢٢).

وممَّن قال بنحْوِ هذا القولِ مِن السَّلَفِ: قَتادةُ. يُنظر: ((الدر المنثور)) للسيوطي (٨/ ٢٦٦).

وممَّن قال في الجُملةِ: إنَّ ﴿خَاوِيَةٍ﴾ أي: مُنقلِعةٍ ساقِطةٍ، قد اجتُثَّتْ مِن أُصولِها: السَّمرقنديُّ، والثَّعلبي، والبَغَوي، والخازنُ، والقاسمي، والسعدي. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٤٨٩)، ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ٢٧)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ١٤٥)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٣٣٤)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٣٠٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٢). ويُنظر أيضًا: ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٣٥).

وقيل: المعنى: كأنَّهم أصولُ نَخلٍ خاليةِ الأجوافِ لا شَيءَ فيها. وممَّن قال بهذا: الرازيُّ، =

كما قال تعالى: ﴿تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمۡ أَعۡجَازُ نَخۡلٖ مُّنقَعِرٖ﴾ [القمر: ٢٠].

﴿فَهَلۡ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٖ ۝٨﴾.

أي: فهل تَرى لكُفَّارِ عادٍ مِن بقاءٍ بعْدَ أن أبادَهم اللهُ تعالى[(١)]؟

= والبيضاوي، وأبو السعود. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦٢٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٣٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٢٢). ويُنظر أيضًا: ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٢/ ٧٦٦٧).

وقيل: الخاويةُ: الفارغةُ السَّاقطةُ، مُتآكِلةُ الأجوافِ، الَّتي قد خَلَت أعجازُها بِلًى وفَسادًا. وممَّن قال بهذا في الجُملةِ: ابنُ عطيَّةَ، والبِقاعيُّ، والعُلَيمي. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٥٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣٤٥)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ١٤١).

قال الماوَرْدي: (في تَشبيهِهم بالنَّخلِ الخاويةِ ثَلاثةُ أوجُهٍ؛ أحَدُها: أنَّ أبدانَهم خَوَت مِن أرواحِهم، مِثلُ النَّخلِ الخاويةِ. قاله يحيى بنُ سلَّامٍ. الثَّاني: أنَّ الرِّيحَ كانت تَدخُلُ في أجوافِهم مِن الخَيْشومِ، وتَخرُجُ من أدبارِهم، فصاروا كالنَّخلِ الخاويةِ. حكاه ابنُ شَجَرةَ. الثَّالثُ: أنَّ الرِّيحَ قَطَعَت رُؤوسَهم عن أجسادِهم، فصاروا بقَطْعِها كالنَّخلِ الخاويةِ). ((تفسير الماوردي)) (٦/ ٧٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢١٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٤٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٠٩).

الخِطابُ في قوله تعالى: ﴿تَرَىٰ﴾ قيل: هو لمحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم. وممَّن قال بهذا: ابنُ جرير، ومكِّي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢١٥)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٢/ ٧٦٦٨).

وقيل: هو لغيرِ مُعَيَّن. وممَّن ذهب إلى هذا: البِقاعي، وابنُ عاشور. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣٤٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١١٩).

قال ابنُ الجوزي: (قَولُه عزَّ وجلَّ: ﴿فَهَلۡ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٖ﴾ فيه ثلاثةُ أقوالٍ:

أحدُها: مِن بقاءٍ. قاله الفرَّاءُ.

والثَّاني: مِن بَقيَّةٍ. قاله أبو عُبَيْدةَ. قال: وهو مَصدَرٌ، كالطَّاغيةِ.

والثَّالثُ: هل ترَى لهم مِن أثَرٍ. قاله ابنُ قُتَيْبةَ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٣٢٩).

ممَّن اختار القولَ الأوَّلَ: الفرَّاءُ، وابنُ جرير، والثعلبيُّ، والغَزْنَوي، والعُلَيمي. يُنظر: ((معاني =

كما قال تعالى: ﴿رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ * تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ﴾ [الأحقاف: ٢٤، ٢٥].

وقال سُبحانَه: ﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ * مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ﴾ [الذاريات: ٤١، ٤٢].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿الْحَاقَّةُ * مَا الْحَاقَّةُ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ﴾ [الحاقة: ١ - ٣] عظَّم تعالى شأنَ القيامةِ وفَخَّمَه؛ فإنَّ لها شأنًا عَظيمًا، وهَولًا جَسيمًا[1].

٢- عن سُفْيانَ بنِ عُيَيْنَةَ، قال: (ما في القرآنِ: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ﴾ فلم يُخبِرْه، وما كان ﴿وَمَا أَدْرَاكَ﴾ فقد أخْبَرَه)[2].

٣- قال اللهُ تعالى: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾، ولم يقُلْ: (صَرصَرةٍ)، كما قال: ﴿عَاتِيَةٍ﴾، مع أنَّ الرِّيحَ مُؤنَّثةٌ؛ لأنَّ (الصَّرصَرَ) وَصفٌ مُختَصٌّ بالرِّيحِ،

= القرآن)) للفراء (٣/ ١٨٠)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٩٦)، ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ٢٧)، ((باهر البرهان في معاني مشكلات القرآن)) للغزنوي (٣/ ١٥٣٩)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ١٤٢).

وممَّن اختار القولَ الثَّانيَ: أبو عُبَيْدَةَ، وابنُ أبي زَمَنِين، وابنُ جُزَي، وابنُ كثير. يُنظر: ((مجاز القرآن)) لأبي عبيدة (٢/ ٢٦٧)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٥/ ٢٧)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٠٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٠٩).

وممَّن اختار أنَّ المرادَ: مِن نفْسٍ باقِيَةٍ: السَّمْعانيُّ، والبغوي، والواحدي، والخازن. يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٣٥)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ١٤٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٤٤)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٣٣٤).

ويجوزُ أنْ تكونَ بمعنى: فرقةٍ باقيةٍ. يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (٢٢/ ١٤٢).

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٢).

(٢) أخرجه ابن جرير في ((تفسيره)) (٢٣/ ٢٠٧).

ويُنظر ما يأتي في البلاغة (ص: ٢٦).

فأشبَهَ بابَ (حائِضٍ، وطامثٍ، وحامِلٍ)، بخِلافِ (عاتيةٍ)؛ فإنَّ غيرَ الرِّيحِ مِن الأسماءِ المُؤنَّثةِ يُوصَفُ به[١].

٤- قولُه تَعالى: ﴿فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ﴾ فيه أنَّه لم يَبْقَ لهم نَسْلٌ يُذْكَرون بهم، بلْ أُهلِكوا بأجْمَعِهم، وانقطَعَ نَسْلُهم، وانقطَعَ عنهم الذِّكرُ إلَّا بالسُّوءِ، وإلَّا كان يُرى لهم باقيةٌ، ففيه أنَّهم استُؤصِلوا، وعمَّ العَذابُ الكبيرَ والصَّغيرَ[٢].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿ٱلْحَاقَّةُ ۞ مَا ٱلْحَاقَّةُ ۞ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَاقَّةُ﴾

- قولُه: ﴿ٱلْحَاقَّةُ﴾ هو صِيغةُ فاعِلٍ مِن: حقَّ الشَّيءُ؛ إذا ثبَتَ وُقوعُه، والهاءُ فيها لا تَخْلو عن أنْ تكونَ هاءَ تأنيثٍ؛ فتكونَ ﴿ٱلْحَاقَّةُ﴾ وصْفًا لِمَوصوفٍ مُقدَّرٍ مُؤنَّثِ اللَّفظِ، أو أنْ تكونَ هاءَ مَصدرٍ، على وزْنِ (فاعِلةٍ)، مِثلُ الكاذِبةِ للكذِبِ، والخاتمةِ للختْمِ، والباقيةِ للبقاءِ، والطَّاغيةِ للطُّغيانِ، والنَّافلةِ، والخاطئةِ، وأصلُها تاءُ المرَّةِ، ولكنَّها لَمَّا أُريدَ المصدرُ قُطِعَ النَّظرُ عن المرَّةِ، مِثلُ كثيرٍ مِن المصادرِ الَّتي على وزْنِ فَعلةٍ غيرُ مُرادٍ به المرَّةُ، مِثلُ قولِهم: ضَربةُ لازِبٍ. فالحاقَّةُ إذنْ بمعنى الحقِّ، كما يُقالُ: مِن حاقِّ كذا، أي: مِن حقِّه. وعلى الوجهَينِ فيَجوزُ أنْ يكونَ المرادُ بالحاقَّةِ المعنى الوَصْفيَّ، أي: حادِثةٌ تَحِقُّ، أو حقٌّ يَحِقُّ. ويجوزُ أنْ يكونَ المرادُ بها لَقَبًا ليوم القيامةِ، فلُقِّبَ بذلك يومُ القيامةِ؛ لأنَّه يومٌ مُحقَّقٌ وُقوعُه، كما قال تعالَى: ﴿وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [الشورى: ٧]، أو لأنَّه تَحِقُّ فيه الحقوقُ، ولا يُضاعُ الجزاءُ عليها؛ قال تعالَى: ﴿وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ [النساء: ٧٧]، وقال: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ

---

(١) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٧٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الماتريدي)) (١٠/ ١٦٨). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦٢٣).

ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧، ٨].

وإيثارُ هذه المادَّةِ وهذه الصِّيغةِ يَسمَحُ باندِراجِ مَعانٍ صالحةٍ بهذا المقامِ، فيكونُ ذلك مِن الإيجازِ البديعِ؛ لتَذهَبَ نُفوسُ السَّامِعينَ كلَّ مَذهبٍ ممْكنٍ مِن مَذاهبِ الهَولِ والتَّخويفِ بما يحِقُّ حُلولُه بهم، فيَجوزُ أيضًا أنْ تكونَ ﴿ٱلْحَآقَّةُ﴾ وصْفًا لِمَوصوفٍ مَحذوفٍ تَقديرُه: السَّاعةُ الحاقَّةُ، أو الواقعةُ الحاقَّةُ؛ فيَكونَ تَهديدًا بيومٍ أو وقْعةٍ يكونُ فيها عِقابٌ شَديدٌ للمُعرِّضِ بهم، مِثلُ يومِ بدْرٍ أو وَقْعتِه، وأنَّ ذلك حقٌّ لا رَيبَ في وُقوعِه، أو وصْفًا للكلمةِ، أي: كلمةُ الله الَّتي حقَّت على المشركين مِن أهلِ مكَّةَ، ويجوزُ أنْ تكونَ مَصدرًا بمعْنى الحقِّ، فيَصِحُّ أنْ يكونَ وصْفًا ليومِ القيامةِ بأنَّه حقٌّ، كقولِه تعالَى: ﴿وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ﴾ [الأنبياء: ٩٧]، أو وصْفًا للقرآنِ، كقولِه: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ﴾ [آل عمران: ٦٢]، أو أُريدَ به الحقُّ كلُّه ممَّا جاء به القرآنُ مِن الحقِّ؛ قال تعالَى: ﴿هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ﴾ [الجاثية: ٢٩]، وقال: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ﴾[1] [الأحقاف: ٣٠]. وقيل: ﴿ٱلْحَآقَّةُ﴾ وصْفٌ حُذِف مَوصوفُه؛ للإيذانِ بكَمالِ ظُهورِ اتِّصافِه بهذه الصِّفةِ، وجَريانِها مجرَى الاسمِ[2].

- وافتتاحُ السُّورةِ بهذا اللَّفظِ تَرويعٌ للمشركين[3].

- والاستِفهامُ ﴿مَا ٱلْحَآقَّةُ﴾ مُستعمَلٌ في التَّهويلِ والتَّعظيمِ والتَّفخيمِ لشأنِها؛ لأنَّ الأمرَ العظيمَ مِن شأنِه أنْ يُستفهَمَ عنه، فصار التَّعظيمُ والاستفهامُ مُتلازِمَين. ولك أنْ تَجعَلَ الاستِفهامَ إنكاريًّا، أي: لا يَدْري أحدٌ كُنْهَ هذا الأمرِ، والمقصودُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١١١ - ١١٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٢١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١١٣).

مِن ذلك على كِلا الاعتبارَين هو التَّهويلُ(١).

- وفي قولِه: ﴿مَا ٱلۡحَآقَّةُ﴾ وضْعُ الظاهرِ مَوضعَ المضمَرِ، فلمْ يقُلْ: ما هي؟ والفائدةُ منه زِيادةُ التَّهويلِ والتَّفخيمِ لشَأنِها(٢).

- والاستِفهامُ في قولِه: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ﴾ مُكنًّى به عن تَعذُّرِ إحاطةِ عِلمِ النَّاسِ بكُنْهِ الحاقَّةِ ببَيانِ خُروجِها عن دائرةِ عُلومِ المخلوقاتِ؛ لأنَّ الشَّيءَ الخارجَ عن الحدِّ المألوفِ لا يُتصوَّرُ بسُهولةٍ، فمِن شأنِه أنْ يُتساءلَ عن فَهْمِه(٣).

- جُملةُ ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡحَآقَّةُ﴾ مَعطوفةٌ على ما قبْلَها مِن الجُملةِ الواقعةِ خبَرًا لقولِه تعالَى: ﴿ٱلۡحَآقَّةُ﴾، مُؤكِّدةٌ لهَولِها(٤).

- ويجوزُ أنْ تكونَ مُعترِضةً بيْنَ جُملةِ ﴿مَا ٱلۡحَآقَّةُ﴾ وجُملةِ ﴿كَذَّبَتۡ ثَمُودُ وَعَادُۢ بِٱلۡقَارِعَةِ﴾ [الحاقة: ٤]، والواوُ اعتراضيَّةٌ(٥).

- وتَركيبُ (ما أدراكَ كذا) ممَّا جَرَى مَجرى المثَلِ، فلا يُغيَّرُ عن هذا اللَّفظِ، وأصلُ الكلامِ قبْلَ التَّركيبِ بالاستِفهامِ أنْ تقولَ: دريتُ الحاقَّةَ أمرًا عظيمًا،

(١) يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٤٣)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٩٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٣٩)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٥٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٢١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١١٣، ١١٤)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ١٩١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٩٨)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٥٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٢١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١١٣)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ١٩١).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٩٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٣٩)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٥٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٢١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١١٣)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ١٩١).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٢١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١١٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١١٣).

ثمَّ صار: أدراني فُلانٌ الحاقَّةَ أمْرًا عظيمًا[(١)].

- واستِعمالُ (ما أدْراك) غيرُ استعمالِ (ما يُدْريك) في قولِه تعالَى: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾ [الأحزاب: ٦٣]، وقولِه: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾ [الشُّورى: ١٧]، فمَفعولُ (ما أدراك) مُحقَّقُ الوقوعِ؛ لأنَّ الاستِفهامَ فيه للتَّهويلِ، ومَفعولُ (ما يُدْريك) غيرُ مُحقَّقِ الوقوعِ؛ لأنَّ الاستِفهامَ فيه للإنكارِ، وهو في معْنى نفْيِ الدِّرايةِ. وكلُّ مَوضعٍ ذُكِرَ في القرآنِ (وما أدراك) فقدْ عُقِّبَ ببَيانِه؛ نحوُ قولِ الله تعالى: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ * نَارٌ حَامِيَةٌۢ﴾ [القارعة: ١٠، ١١]، ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ * لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾ [القدر: ٢، ٣]، ﴿ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ * يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا﴾ [الانفطار: ١٨، ١٩]، ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَآقَّةُ * كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌۢ بِٱلْقَارِعَةِ﴾[(٢)].

- ولَمَّا كان ذلك كلُّه أمرًا رائعًا للعقولِ، هازًّا للقلوبِ، مُزعِجًا للنُّفوسِ، وكان رُبَّما تَوقَّفَ فيه الجِلْفُ الجافي؛ أكَّدَ أمْرَه وزادَ في تَهويلِه، وأطْنَبَ في تَفخيمِه وتَبجيلِه؛ إشارةً إلى أنَّ هَوْلَه يَفوتُ الوصفُ بقولِه، مُعلِمًا أنَّه ممَّا يَحِقُّ له أنْ يُستفهَمَ عنه، سائقًا له بأداةِ الاستفهامِ مُرادًا بها التَّعظيمُ للشَّأنِ، وأنَّ الخبَرَ ليس كالعِيانِ ﴿مَا ٱلْحَآقَّةُ﴾؛ فأداةُ الاستفهامِ مُبتدأٌ أُخبرَ عنه بالحاقَّةِ، وهما خبَرٌ عن الأُولى، الرَّابطُ تَكريرُ المُبتدَأِ بلَفْظِه، وأكثَرُ ما يكونُ ذلك إذا أُرِيدَ معْنى التَّعظيمِ والتَّهويلِ[(٣)].

وقيل: مُقتضَى التَّحقيقِ أنْ تكونَ (ما) الاستِفهاميَّةُ في قولِه: ﴿مَا ٱلْحَآقَّةُ﴾ خبَرًا لِما بعْدَها؛ فإنَّ مَناطَ الإفادةِ بيانُ أنَّ الحاقَّةَ أمْرٌ بديعٌ، وخَطْبٌ فَظيعٌ، كما يُفيدُه

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١١٣).

(٢) يُنظر: ((المفردات في غريب القرآن)) للراغب (ص: ٣١٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١١٤).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣٣٩).

كونُ (مَا) خبَرًا، لا بَيانُ أنَّ أمرًا بَديعًا الحاقَّةُ، كما يُفيدُه كونُها مُبتدَأً، وكونُ ﴿ٱلۡحَآقَّةُ﴾ خبرًا[(١)].

٢- قولُه تعالَى: ﴿كَذَّبَتۡ ثَمُودُ وَعَادُۢ بِٱلۡقَارِعَةِ ۞ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهۡلِكُواْ بِٱلطَّاغِيَةِ﴾

- قولُه: ﴿كَذَّبَتۡ ثَمُودُ وَعَادُۢ بِٱلۡقَارِعَةِ﴾ استِئنافٌ مَسوقٌ لإعلامِ بَعضِ أحوالِ الحاقَّةِ لهُ -عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ- إثرَ تَقريرِ أنَّه ما أدْراهُ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ بها أحدٌ[(٢)]. فعلى أنَّ قولَه: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡحَآقَّةُ﴾ [الحاقة: ٣] نِهايةُ كَلامٍ؛ فمَوقِعُ قولِه: ﴿كَذَّبَتۡ ثَمُودُ وَعَادُۢ بِٱلۡقَارِعَةِ﴾ وما اتَّصَلَ به استِئنافٌ، وهو تَذكيرٌ بما حَلَّ بثَمودَ وعادٍ لتَكذيبِهم بالبعثِ والجزاءِ؛ تَعريضًا بالمشركينَ مِن أهلِ مكَّةَ بتَهديدِهم أنْ يَحِقَّ عليهم مِثلُ ما حلَّ بثَمودَ وعادٍ؛ فإنَّهم سواءٌ في التَّكذيبِ بالبعثِ، وعلى هذا يكونُ قولُه: ﴿ٱلۡحَآقَّةُ﴾ [الحاقة: ١] إلخ تَوطئةً له وتمْهيدًا لهذه الموعظةِ العظيمةِ؛ استرهابًا لنُفوسِ السَّامعينَ. وإنْ جعَلْتَ الكلامَ مُتَّصلًا بجُملةِ ﴿كَذَّبَتۡ ثَمُودُ وَعَادُۢ بِٱلۡقَارِعَةِ﴾، وعيَّنْتَ لَفظَ ﴿ٱلۡحَآقَّةُ﴾ [الحاقة: ١] ليومِ القيامةِ؛ كانت هذه الجُملةُ خبَرًا ثالثًا عن ﴿ٱلۡحَآقَّةُ﴾ [الحاقة: ١]، والمعنى: الحاقَّةُ كذَّبَتْ بها ثَمودُ وعادٌ، فكان مُقْتضى الظَّاهرِ أنْ يُؤتَى بضَميرِ ﴿ٱلۡحَآقَّةُ﴾ [الحاقة: ١]، فيُقالُ: كذَّبَتْ ثَمودُ وعادٌ بها، فعُدِلَ إلى إظهارِ اسمِ (القارعةِ)؛ لأنَّ (القارعة) مُرادِفةُ الحاقَّةِ -في أحدِ مَحملَي لَفظِ ﴿ٱلۡحَآقَّةُ﴾-، وهذا كالبَيانِ للتَّهويلِ الَّذي في قولِه: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡحَآقَّةُ﴾[الحاقة: ٣]، ولتَدُلَّ (القارعة) على معْنى القرْعِ، زِيادةً في وصْفِ شِدَّتِها، وتَشديدًا لِهَوْلِها[(٣)].

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٢١).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٢٢)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ١٨٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٩٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٣٩)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٥/ ٦٠٨)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٥٤)، ((تفسير أبي السعود)) =

- قولُه: ﴿كَذَّبَتۡ ثَمُودُ وَعَادُۢ بِٱلۡقَارِعَةِ﴾ ابتُدِئَ بثَمودَ وعادٍ في الذِّكرِ مِن بيْنِ الأُمَمِ المكذِّبةِ؛ لأنَّهما أكثرُ الأُمَمِ المكذِّبةِ شُهرةً عندَ المشركينَ مِن أهلِ مكَّةَ؛ لأنَّهما مِن الأُمَمِ العربيَّةِ، ولأنَّ ديارَهما مُجاورةٌ شمالًا وجنوبًا(١).

- القارعةُ، أي: الَّتي تُصيبُ النَّاسَ بالأهوالِ والأفزاعِ، أو الَّتي تُصيبُ الموجوداتِ بالقَرْعِ؛ مِثلُ دكِّ الجبالِ، وخسْفِ الأرضِ، وطمْسِ النُّجومِ، وكُسوفِ الشَّمسِ كُسوفًا لا انجلاءَ له، فشُبِّهَ ذلك بالقرْعِ(٢).

٣- قولُه تعالَى: ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهۡلِكُواْ بِٱلطَّاغِيَةِ﴾ ابتُدِئَ بذِكرِ ثَمودَ مِن حيثُ إنَّ بلادَهم أقرَبُ إلى قُريشٍ، وواعظُ القُربِ أكبَرُ، وإهلاكهم بالصَّيحةِ، وهي أشْبَهُ بصَيحةِ النَّفخِ في الصُّورِ، المُبَعْثِرِ لِما في القُبورِ(٣). أو لأنَّ العذابَ الَّذي أصابَهم مِن قَبيلِ القرْعِ؛ إذ أصابَتْهم الصَّيحةُ الَّتي أُطلِق عليها الصَّاعِقةُ في بعضِ الآياتِ، ولأنَّ الكلامَ على مَهلكِ عادٍ أنسَبُ، فأُخِّرَ لذلك أيضًا(٤)، فاللهُ تعالى ذكَرَ تفصيلَ إهلاكِ عادٍ بخِلافِ ثَمودَ، فلعلَّ تأخيرَ ذِكْرِهم لِما تَبِعَه مِن تفصيلٍ.

- وجِيءَ في الخبرِ عن هاتَينِ الأُمَّتينِ -ثَمودَ وعادٍ- بطَريقةِ اللَّفِّ والنَّشرِ(٥)؛

= (٩/ ٢١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١١٤، ١١٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١١٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣٤٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١١٦).

(٥) اللَّف والنَّشْر: هو ذِكرُ شيئَينِ أو أشياءَ، إمَّا تفصيلًا -بالنَّصِّ على كلِّ واحدٍ، أو إجمالًا -بأن يُؤتَى بلَفظٍ يشتمِلُ على مُتعدِّدٍ- ثمَّ يُذكرُ أشياءُ على عدَدِ ذلك، كلُّ واحدٍ يرجِعُ إلى واحدٍ مِن المتقدِّمِ، ويُفوَّضُ إلى عقلِ السَّامعِ ردُّ كلِّ واحدٍ إلى ما يَليقُ به. فاللَّفُّ يُشارُ به إلى المتعدِّدِ الَّذي يُؤتَى به أوَّلًا. والنَّشرُ يُشارُ به إلى المتعدِّدِ اللَّاحقِ الَّذي يتعلَّقُ كلُّ واحدٍ منه بواحدٍ مِن السَّابقِ دونَ تعيينٍ. مِثلُ قولِه تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَن يَدۡخُلَ ٱلۡجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰ﴾ [البقرة: ١١١]، =

لأنَّهما اجتَمَعتا في مُوجِبِ العُقوبةِ، ثمَّ فُصِّلَ ذِكرُ عَذابِهما[(١)].

- وإنَّما سُمِّيت الصَّيحةُ بالطَّاغيةِ؛ لأنَّها كانتْ مُتجاوِزةً الحالَ المُتعارَفَ في الشِّدَّةِ، فشُبِّهَ فِعلُها بفِعلِ الطَّاغي المُتجاوِزِ الحدَّ في العُدوانِ والبطْشِ[(٢)].

٤- قولُه تعالَى: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾

- قولُه: ﴿عَاتِيَةٍ﴾ أصْلُ العُتُوِّ والعُتِيِّ: شِدَّةُ التَّكبُّرِ، فعُبِّرَ به عن الشَّيءِ المُتجاوِزِ الحدَّ المعتادَ؛ تَشبيهًا بالتَّكبُّرِ الشَّديدِ في عدَمِ الطَّاعةِ، والجرْيِ على المعتادِ[(٣)].

قيل: عَتَتْ على خُزَّانِها، فخَرَجَت بلا كيلٍ ولا وزْنٍ، وهذا كِنايةٌ عن الشِّدَّةِ والإفراطِ فيها، لا أنَّها عَتَت على الخُزَّانِ حقيقةً[(٤)].

٥- قولُه تعالَى: ﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾

= أي: وقالت اليهودُ: لن يَدخُلَ الجنَّةَ إلَّا اليهودُ، وقالت النَّصارى: لن يدخُلَ الجنَّةَ إلَّا النَّصارى، وهذا لَفٌّ ونَشْرٌ إجماليٌّ. واللَّفُّ المُفصَّلُ يأتي النَّشرُ اللَّاحقُ له على وجهَينِ؛ الوجهُ الأوَّلُ: أنْ يأتيَ النَّشرُ على وَفْقِ ترتيبِ اللَّفِّ، ويُسَمَّى «اللَّفَّ والنَّشرَ المرتَّبَ». الوجهُ الثَّاني: أنْ يأتيَ النَّشرُ على غيرِ تَرتيبِ اللَّفِّ، ويُسمَّى «اللَّفَّ والنَّشرَ غيرَ المُرتَّبِ»، وقد يُعَبَّرُ عنه بـ «اللَّفِّ والنَّشرِ المُشَوَّشِ»، أو «المعكوس». يُنظر: ((مفتاح العلوم)) للسكاكي (ص: ٤٢٥)، ((الإتقان في علوم القرآن)) للسيوطي (٣/ ٣٢٠)، ((البلاغة العربية)) لعبدالرحمن حَبَنَّكَة الميداني (٢/ ٤٠٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١١٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٩٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٣٩)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٥٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٢٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١١٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٩٩)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٥٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١١٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٩٩)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٥/ ٦١٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٢٢).

- قولُه: ﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا﴾ استِئنافٌ جِيءَ به بَيانًا لكَيفيَّةِ إهلاكِهم بالرِّيحِ. وقيل: هو استِئنافٌ أو صِفةٌ جِيءَ به لنفْيِ ما يُتوهَّمُ مِن أنَّها كانتْ مِن اتِّصالاتٍ فَلَكيَّةٍ؛ إذ لو كانتْ لَكان هو المقدِّرَ لها والمسبِّبَ[١].

- والتَّسخيرُ: الغصْبُ على عمَلٍ، وعُبِّرَ به عن تَكوينِ الرِّيحِ الصَّرصرِ تَكوينًا مُتجاوِزًا المُتعارَفَ في قوَّةِ جِنسِها، فكأنَّها مُكرَهةٌ عليه، وعُلِّقَ به ﴿عَلَيْهِمْ﴾؛ لأنَّه ضُمِّنَ معْنى أرْسَلَها[٢].

- و(حُسومٌ) يَجوزُ أنْ يكونَ جمْعَ حاسمٍ، مِثلُ قُعودٍ جمْعُ قاعدٍ، وشُهودٍ جمْعُ شاهدٍ، غُلِّبَ فيه الأيَّامُ على اللَّيالي؛ لأنَّها أكثَرُ عَددًا؛ إذ هي ثَمانيةُ أيَّامٍ، وهذا له مَعانٍ؛ أحدُها: أنْ يكونَ المعنى: يُتابِعُ بعضُها بعضًا، أي: لا فصْلَ بيْنَها. وقيل: الحُسومُ مُشتَقٌّ مِن حَسْمِ الدَّاءِ بالمِكواةِ؛ إذ يُكوى ويُتابَعُ الكَيُّ أيَّامًا. المعْنى الثَّاني: أنْ يكونَ مِن الحسْمِ، وهو القطْعُ، أي: حاسِمةً مُستأصِلةً. ومنه سُمِّيَ السَّيفُ حُسامًا؛ لأنَّه يَقطَعُ، أي: حسَمَتْهم فلم تُبْقِ منهم أحدًا، وعلى هذَينِ المعْنيَينِ فهو صِفةٌ لـ﴿سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ﴾، أو حالٌ منها. المعْنى الثَّالثُ: أنْ يكونَ حُسومٌ مَصدرًا، كالشُّكورِ والدُّخولِ، فيَنتصِبَ على المفعولِ مِن أجْلِه، وعامِلُه ﴿سَخَّرَهَا﴾، أي: سخَّرَها عليهم لاستِئْصالِهم، وقطْعِ دَابِرِهم. وكلُّ هذه المعاني صالحٌ لأنْ يُذكَرَ مع هذه الأيَّامِ، فإيثارُ هذا اللَّفظِ مِن تَمامِ بَلاغةِ القرآنِ وإعجازِه[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٣٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٢٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١١٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٩٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٣٩)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٥٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٢٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١١٧)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ١٩٠).

- قولُه: ﴿فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ الرُّؤيةُ عِلميَّةٌ لا بَصريَّةٌ؛ لأنَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ما أبْصَرَهم صَرْعى فيها ولا رآهُم، فصار المعْنى: فتَعلَمُهم صَرعى فيها بإعلامِنا حتَّى كأنَّك تُشاهِدُهم[١].

أو الخِطابُ لغيرِ مُعيَّن، أي: فيَرى الرَّائي لو كان راءٍ، وهذا أُسلوبٌ في حِكايةِ الأمورِ العظيمةِ الغائبةِ؛ تُستحضَرُ فيه تلك الحالةُ كأنَّها حاضرةٌ، ويُتخيَّلُ في المقامِ سامعٌ حاضرٌ شاهدٌ مُهْلَكَهم أو شاهَدَهم بعْدَه، وكِلا المُشاهدتَين مُنتَفٍ في هذه الآيةِ، فيُعتبَرُ خِطابًا فَرَضيًّا، فليس هو بالْتِفاتٍ[٢]، ولا هو من خِطابِ غيرِ المعيَّنِ[٣].

- والتَّعريفُ في ﴿ٱلْقَوْمَ﴾ للعهْدِ الذِّكريِّ. والقومُ: القَبيلةُ، وهذا تَصويرٌ لهلاكِ جَميعِ القبيلةِ[٤].

- قولُه: ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ تَشبيهٌ مُرسَلٌ[٥]؛ فقد شبَّهَهم بالجُذوعِ لطُولِ

(١) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٧٨، ٥٧٩).

(٢) الالتفات: هو نقلُ الكلامِ مِن أسلوبٍ إلى أسلوبٍ آخَرَ؛ تطريةً واستدرارًا للسَّامعِ، وتجديدًا لنَشاطِه، وصيانةً لخاطِرِه مِن المَلالِ والضَّجرِ بدَوامِ الأسلوبِ الواحدِ على سمعِه؛ كالانتِقالِ من الخِطابِ إلى الغَيبةِ، أو تغييرِ ضميرِ المتكلِّمِ نفْسِه: تارةً بجَعلِه تاءً على جهةِ الإخبارِ عن نفْسِه، وتارةً يجعله كافًا، فيجعلُ نفْسَه مُخاطَبًا، وتارةً يجعلُه هاءً، فيُقيمُ نفْسَه مُقامَ الغائبِ. وشرطُه أن يكونَ الضَّميرُ في المُتنقَلِ إليه عائدًا في نفْسِ الأمرِ إلى الملتفَّتِ عنه، وللمُتكلِّمِ والخِطابِ والغَيبةِ مقاماتٌ، والمشهورُ أنَّ الالتفاتَ هو الانتقالُ مِن أحَدِها إلى الآخَرِ بعدَ التَّعبيرِ بالأوَّلِ. يُنظر: ((مفتاح العلوم)) للسكاكي (ص: ٢٠٠، ٢٠١)، ((البرهان في علوم القرآن)) للزركشي (٣/ ٣١٤)، ((موجز البلاغة)) لابن عاشور (ص: ١٥٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٣٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٢٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١١٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١١٨).

(٥) التَّشبيهُ: هو إلحاقُ شَيءٍ بذِي وصْفٍ في وَصْفِه. وقيل: هو إثباتُ حُكمٍ مِن أحكامِ المُشبَّهِ =

قاماتِهم[(١)].

أو وجْهُ التَّشبيهِ بها: أنَّ الَّذين يَقطَعون النَّخلَ إذا قَطَعوه للانتِفاعِ بأعوادِه في إقامةِ البيوتِ للسُّقُفِ والعِضاداتِ، انْتَقَوا منه أصولَه؛ لأنَّها أغلَظُ وأملأُ، وتَركوها على الأرضِ حتى تَيبَسَ وتَزولَ رُطوبتُها، ثمَّ يَجعَلوها عَمَدًا وأساطينَ[(٢)].

- ووصْفُ نَخْلٍ بأنَّها خاويةٌ باعتِبارِ إطلاقِ اسمِ النَّخلِ على مكانِه بتَأويلِ الجنَّةِ أو الحديقةِ، ففيه استِخدامٌ[(٣)]، والمعْنى: خاليةٌ مِن النَّاسِ، وهذا الوصْفُ لتَشويهِ المشبَّهِ به بتَشويهِ مكانِه، ولا أثَرَ له في المشابَهةِ، وأحسَنُه ما كان فيه مُناسَبةٌ للغرَضِ مِن التَّشبيهِ كما في الآيةِ؛ فإنَّ لهذا الوصْفِ وقْعًا في التَّنفيرِ مِن حالتِهم؛ ليُناسِبَ الموعظةَ والتَّحذيرَ مِن الوُقوعِ في مِثلِ أسبابِها[(٤)].

= به للمُشبَّه. ويَنقسِمُ التشبيهُ عِدَّةَ تَقسيماتٍ باعتباراتٍ عِدَّة؛ فمنه: التَّشبيهُ البليغُ: وهو ما كانتْ أداةُ التَّشبيهِ فيه مَحذوفةً. ويَنقسِمُ التَّشبيهُ باعتبارٍ آخَرَ إلى مُؤكَّدٍ: وهو ما حُذِفتْ فيه الأداةُ، نحو: ﴿وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾ [النمل: ٨٨]، أي: مِثلَ مرِّ السحابِ. ومُرْسَلٍ: وهو ما لم تُحذَفْ فيه الأداةُ. يُنظر: ((مفتاح العلوم)) للسكاكي (ص: ٣٣٢ وما بعدها)، ((البرهان)) للزركشي (٣/ ٤١٤، ٤٢٢)، ((الإتقان في علوم القرآن)) للسيوطي (٣/ ١٤٦)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١/ ٦٦)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن حَبَنَّكَة الميداني (٢/ ١٦١).

(١) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ١٩١، ١٩٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١١٨).

(٣) الاستخدام: هو ذِكرُ اللَّفظِ بمعنًى وإعادةُ ضميرٍ أو إشارةٍ عليه بمعنًى آخَرَ، أو إعادةُ ضَميرَينِ عليه تُريدُ بثانيهما غيرَ ما تُريدُ بأوَّلِهما. يُنظر: ((جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع)) للهاشمي (ص: ٣٠١)، ((علوم البلاغة: البيان، المعاني، البديع)) للمراغي (ص: ٢٣٩)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٧/ ٤٩٨)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن حَبَنَّكَة الميداني (٢/ ٤٠١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١١٩).

٦- قولُه تعالَى: ﴿فَهَلۡ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٖ﴾ تَفريعٌ على مَجموعِ قِصَّتَيْ ثَمودَ وعادٍ، فهو فَذْلَكةٌ[١] لِما فُصِّلَ مِن حالِ إهلاكِهما، وذلك مِن قَبيلِ الجمْعِ بعْدَ التَّفريقِ، فيكونُ في الآياتِ جمْعٌ، ثمَّ تَفريقٌ، ثمَّ جمْعٌ[٢].

- والاستفهامُ معْناهُ النَّفيُ، أي: لا تَرى لهم[٣].

- والباقيةُ: إمَّا اسمُ فاعلٍ على بابِه، والهاءُ: إمَّا للتَّأنيثِ بتأْويلِ (نفْسٍ)، أي: فما تُرى منهم نفْسٌ باقيةٌ، أو بتأْويلِ (فِرقةٍ)، أي: ما تُرى فِرقةٌ منهم باقيةٌ. ويجوزُ أنْ تكونَ ﴿بَاقِيَةٖ﴾ مَصدرًا على وزْنِ فاعلةٍ، أي: فما ترَى لهم بَقاءً، أي: هَلَكوا على بَكرةِ أبيهم[٤].

- واللَّامُ في قولِه: ﴿لَهُم﴾ يَجوزُ أنْ تُجعَلَ لشِبْهِ المِلْكِ، أي: باقيةٍ مِن أجْلِ النَّفعِ. ويجوزُ أنْ يكونَ اللَّامُ بمعْنى (مِن)، مِثلُ قولِهم: سمِعْتُ له صُراخًا. ويجوزُ أنْ تكونَ اللَّامَ الَّتي تُنْوى في الإضافةِ إذا لم تكُنِ الإضافةُ على معْنى (مِن)، والأصلُ: فهلْ تَرى باقيَتَهم، فلمَّا قُصِدَ التَّنصيصُ على عُمومِ النَّفيِ،

(١) الفَذْلَكة: مِن فَذْلَكَ حِسابَه فَذْلَكةً، أي: أَنْهاهُ وفَرَغ منه، وذكَر مُجمَلَ ما فُصِّل أوَّلًا وخُلاصتَه. و(الفَذْلَكَةُ) كلمةٌ منحوتةٌ كـ(البَسملةِ) و(الحَوقلةِ)، مِن قولِهم: (فذَلِكَ كذَا وكذَا عددًا). ويُرادُ بالفَذْلَكةِ النَّتيجةُ لِمَا سبَق مِن الكلامِ، والتَّفريعُ عليه، ومنها فَذْلَكةُ الحسابِ، أي: مُجمَلُ تفاصيلِه، وإنهاؤه، والفراغُ منه. يُنظر: ((تاج العروس)) (٢٧/ ٢٩٣) للزَّبيدي، ((كناشة النوادر)) لعبد السلام هارون (ص: ١٧)، ((مفاتيح التفسير)) لأحمد سعد الخطيب (ص: ٦٣٨، ٦٣٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١١٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١١٩)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ١٩١).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٠٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٣٩)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٥٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٢٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١١٩).
ويُنظر ما تقدَّم (ص: ٢١).

واقْتَضى ذلك جلْبَ (مِن) الزَّائدةِ؛ لَزِمَ تَنكيرُ مَدخولِ (مِن) الزَّائدةِ، فأُعطِيَ حقُّ معْنى الإضافةِ بإظهارِ اللَّامِ الَّتي الشَّأنُ أنْ تُنْوى، كما في قولِه تعالَى: ﴿بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ﴾ [الإسراء: ٥]؛ فإنَّ أصْلَه: عِبادَنا[١].



(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١١٩، ١٢٠).

الآيات (٩-١٢)

﴿وَجَآءَ فِرۡعَوۡنُ وَمَن قَبۡلَهُۥ وَٱلۡمُؤۡتَفِكَٰتُ بِٱلۡخَاطِئَةِ ۝٩ فَعَصَوۡاْ رَسُولَ رَبِّهِمۡ فَأَخَذَهُمۡ أَخۡذَةٗ رَّابِيَةً
۝١٠ إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلۡمَآءُ حَمَلۡنَٰكُمۡ فِي ٱلۡجَارِيَةِ ۝١١ لِنَجۡعَلَهَا لَكُمۡ تَذۡكِرَةٗ وَتَعِيَهَآ أُذُنٞ وَٰعِيَةٞ ۝١٢﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿وَٱلۡمُؤۡتَفِكَٰتُ﴾: أي: مَدائِنُ قَومِ لُوطٍ؛ ائتَفَكَت بهم، أي: انقَلَبَت، وأصلُ (أفك): يدُلُّ على قَلبِ الشَّيءِ، وصَرفِه عن جِهَتِه[١].

﴿رَّابِيَةً﴾: أي: شديدةً، زائِدةً، عاليةً، وأصلُ (ربو): يدُلُّ على عُلُوٍّ[٢].

﴿طَغَا﴾: أي: كثُر، وتَجاوَزَ في الارتفاعِ والعُلوِّ، وخرَج عن الحدِّ حتَّى علا كلَّ شَيءٍ، وارتفَع فوقَه، وأصلُ الطُّغْيانِ: مُجاوَزةُ الحدِّ[٣].

﴿ٱلۡجَارِيَةِ﴾: أي: السَّفينةِ الَّتي تَجري في البَحرِ، وأصلُ (جري): يدُلُّ على انسياحِ الشَّيءِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٩٠)، ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥٥٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١١٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٤٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٢٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٨٢).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٨٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٤٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤١٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٢٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٨٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢١٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣١٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤١٢)، ((البسيط)) للواحدي (٢٢/ ١٤٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٢٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٣٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٨٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٢٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٧٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤٤٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٩٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤١٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٦٣).

﴿وَتَعِيَهَآ﴾: أي: تَحفَظَها، والوعيُ: حِفظُ الحديثِ ونحوِه، وأصلُ (وعي): يدُلُّ على ضمِّ شَيءٍ[1].

المعنى الإجماليُّ:

يُبيِّنُ اللهُ تعالى عاقبةَ أقوامٍ آخَرينَ كفَروا وكذَّبوا، فيقولُ: وجاء فِرعَونُ ومَنْ قَبْلَه مِن الكُفَّارِ، وقَومُ لُوطٍ؛ أصحابُ القُرى الَّتي انقَلَبَت بهم؛ جاؤُوا جميعًا بالفَعْلةِ الخاطِئةِ مِنَ الكُفرِ والشِّركِ، والتَّكذيبِ والظُّلمِ، فعَصَوا رَسولَ رَبِّهم الَّذي أُرْسِل إليهم، فأهلَكهم اللهُ إهلاكًا عَظيمًا زائِدًا عن الحَدِّ.

ثمَّ يُشيرُ سُبحانَه إلى ما جرَى لقومِ نوحٍ عليه السَّلامُ، فيقولُ: إنَّا لَمَّا كَثُرَ الماءُ، وتَجاوَزَ حَدَّه المعروفَ؛ لإغراقِ قَومِ نُوحٍ، حمَلْنا آباءَكم في سَفينةِ نوحٍ؛ لِنَجعَلَها لكم -أيُّها المؤمِنونَ- تَذكيرًا ومَوعِظةً، وتَحفَظَها أُذنٌ مِن شأنِها أن تَحفَظَ وتَعقِلَ عن الله ما سمِعَتْ، وتَنتَفِعَ به.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَجَآءَ فِرۡعَوۡنُ وَمَن قَبۡلَهُۥ وَٱلۡمُؤۡتَفِكَٰتُ بِٱلۡخَاطِئَةِ ٩﴾.

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

١- قِراءةُ: ﴿قِبَلَهُۥ﴾ أي: ومَن عِندَ فِرعَونَ مِنَ الأتْباعِ مِن كُفَّارِ القِبطِ[2].

٢- قِراءةُ: ﴿قَبۡلَهُۥ﴾ أي: ومَن تَقَدَّمَه مِن الكُفَّارِ[3].

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٢٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٧٧)، ((عمدة الحفاظ)) للسمين الحلبي (٤/ ٣٢٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٢١).

(٢) قرأ بها أبو عَمرٍو، والكِسائيُّ، ويعقوبُ. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٨٩).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((الحجة)) لابن خالويه (ص: ٣٥١)، ((معاني القراءات)) للأزهري (٣/ ٨٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٠٩).

(٣) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٨٩). =

﴿وَجَآءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُۥ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتُ بِٱلْخَاطِئَةِ ﴿٩﴾﴾.

أي: وجاء فِرعَونُ مَلِكُ مِصرَ، ومَنْ كان قَبْلَه مِن الكُفَّار[1]، وقَومُ لُوطٍ؛ أصحابُ القُرى الَّتي انقَلَبَت بهم، حتَّى صار عاليها سافِلَها[2]، كلُّ هؤلاءِ قد جاؤُوا بالفَعْلةِ الخاطِئةِ مِنَ الكُفرِ والشِّركِ، والتَّكذيبِ والظُّلمِ، وما انضَمَّ إلى ذلك مِن أنواعِ

= ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((الحجة)) لابن خالويه (ص: ٣٥١)، ((معاني القراءات)) للأزهري (٣/ ٨٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٠٩).

(١) قيل: المرادُ: عُمومُ الكُفَّارِ الَّذين سَبَقوا فِرعَونَ، كقَومِ عادٍ وثمودَ. وممَّن ذهب إلى هذا القَولِ: ابنُ جرير، والواحديُّ، والقرطبي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢١٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٤٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٦٢).

وقال ابن جُزَي: (﴿وَمَن قَبْلَهُۥ﴾ يريدُ: مَن تقَدَّمَ قَبْلَه مِنَ الأُمَمِ الكافِرة، وأقرَبُهم إليه قومُ شُعَيبٍ، والظَّاهِرُ أنَّهم المرادُ؛ لأنَّ عادًا وثمودَ قد ذُكِرَا، وقومَ لُوطٍ هم المؤتَفِكاتُ، وقَومَ نُوحٍ قد أُشيرَ إليهم في قَولِه: ﴿لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ﴾). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٠٥).

وقال ابن كثير: (أي: ومَن قَبْلَه مِنَ الأُمَمِ المُشبِهينَ له). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٠٩).

(٢) وممَّن قال في الجملةِ بأنَّ المرادَ بالمؤتَفِكاتِ قَومُ لوطٍ: مقاتِلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، والواحديُّ، والقرطبي، وابن جُزَي، والبِقاعي، والسعدي، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٤٢٢)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢١٦)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٤٧٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٦٢)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٠٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣٤٧، ٣٤٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٢١).

ونسَبَ ابنُ الجَوزيِّ هذا القولَ للأكثرينَ. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٣٢٩).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: قَتادةُ، وابنُ زيدٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢١٦)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٨/ ٢٦٦).

وقال الزَّجَّاج: (﴿وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتُ﴾ الَّذين ائتَفَكوا بذُنوبِهم، أي: أُهْلِكوا بذُنوبِهم الَّتي أعظَمُها الإفكُ، وهو الكَذِبُ في أمرِ اللهِ، بأنَّهم كفروا وكَذَّبوا بالرُّسُلِ؛ فلذلك قيل لهم: مؤتَفِكونَ، وكذلك الَّذين ائتَفَكت بهم الأرضُ، أي: خُسِفَ بهم، إنَّما معناه: انقَلَبَت بهم كما يَقلِبُ بهم الكذَّابُ الحَقَّ إلى الباطِلِ). ((معاني القرآن وإعرابه)) (٥/ ٢١٥).

وقال ابنُ كثيرٍ: (﴿وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتُ﴾ وهم: المكَذِّبونَ بالرُّسُلِ). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٠٩).

الفواحِشِ والفُسوقِ؛ فأهلَكَهم اللهُ تعالى(١).

كما قال تعالى: ﴿وَفِي مُوسَىٰٓ إِذْ أَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ * فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ وَقَالَ سَٰحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ * فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِي ٱلْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ [الذاريات: ٣٨ - ٤٠].

وقال سُبحانَه: ﴿وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ * فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ﴾ [النجم: ٥٣، ٥٤].

﴿فَعَصَوْا۟ رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً ١٠﴾.

﴿فَعَصَوْا۟ رَسُولَ رَبِّهِمْ﴾.

أي: فخالَفَ كلٌّ مِن فِرعَونَ ومَن قَبْلَه وقَومُ لُوطٍ: رَسولَ رَبِّهم الَّذي أرسَلَه إليهم(٢).

كما قال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ * وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ * وَأَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ﴾ [ق: ١٢ - ١٤].

﴿فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً﴾.

أي: فأهلَكْنا كُلَّ أمَّةٍ مِنهم إهلاكًا شَديدًا عَظيمًا زائِدًا عن الحَدِّ؛ لزيادةِ أعمالِهم

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢١٥، ٢١٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٦٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣٤٧، ٣٤٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢١٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢١٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣٤٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٢).

قال ابنُ جُزَي: (إنْ عاد الضَّميرُ على فِرعَونَ وقَومِه، فالرَّسولُ مُوسى عليه السَّلامُ، وإن عاد على ﴿وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتُ﴾ فالرَّسولُ لوطٌ عليه السَّلامُ، وإن عاد على الجَميعِ: فالرَّسولُ اسمُ جِنسٍ أو بمعنى الرِّسالةِ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٠٥).

وممَّن ذهَب إلى العمومِ: ابنُ جرير، وابن كثير، والبِقاعي، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢١٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢١٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣٤٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٢).

في السُّوءِ والقُبْحِ[(١)].

﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ (١١)﴾.

أي: إنَّا لَمَّا كَثُرَ الماءُ وارتفَعَ حتَّى تجاوَزَ حَدَّه المعروفَ؛ لإغراقِ قَومِ نُوحٍ، حمَلْنا آباءَكم في سَفينةِ نوحٍ الجاريةِ على الماءِ[(٢)].

كما قال تعالى: ﴿وَآيَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ﴾ [يس: ٤١].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢١٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٦٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢١٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣٤٩).

قال القرطبي: (﴿فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً﴾ أي: عاليةً زائدةً على الأخَذاتِ، وعلى عذابِ الأُمَمِ). ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٦٢).

وقال البقاعي: (فأغرَقَ فِرعونَ وجُنودَه، وأغرَقَ كلَّ مَن كذَّب نوحًا عليه السَّلامُ، وهم كلُّ أهلِ الأرضِ غيرَ مَن ركِب معه في السَّفينةِ، وحمَل مدائنَ لُوطٍ عليه السَّلامُ بعدَ أنْ نَتَقَها مِن الأرضِ على مَتنِ الرِّيحِ بواسِطةِ مَن أمَره بذلك مِن الملائكةِ ثمَّ قلَبَها، وأتْبَعها الحِجارةَ، وخسَفَ بها، وغمَرَها بالماءِ المُنتِنِ الَّذي ليس في الأرضِ ما يُشبِهُه). ((نظم الدرر)) (٢٠/ ٣٤٩).

وقال ابن عاشور: (﴿أَخْذَةً﴾: واحدة مِن الأخْذِ، فيُرادُ بها أخْذُ فِرعَونَ وقَومِه بالغرَقِ، كما قال تعالى: ﴿فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ [القمر: ٤٢]. وإذا أُعيدَ ضميرُ الغائبِ إلى فِرعونَ ومَن قَبْلَه والمؤتَفِكاتِ كان إفرادُ الأخْذةِ كإفرادِ رسولِ ربِّهم، أي: أخَذْنا كلَّ أمَّةٍ منهم أَخْذةً). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٢٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢١٩، ٢٢٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢١٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٢٣).

قال الرازي: (سائرُ المفَسِّرينَ قالوا: ﴿طَغَا الْمَاءُ﴾ أي: تَجاوَزَ حَدَّه حتَّى علا كلَّ شَيءٍ، وارتَفَع فَوقَه). ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦٢٣).

وقال القرطبي: (مَنَّ عليهم بأنْ جعَلَهم ذُرِّيَّةَ مَن نجا من الغَرَقِ، بقَولِه: ﴿حَمَلْنَاكُمْ﴾ أي: حمَلْنا آباءَكم، وأنتم في أصلابِهم. ﴿فِي الْجَارِيَةِ﴾ أي: في السُّفُنِ الجاريةِ، والمحمولُ في الجاريةِ نوحٌ وأولادُه، وكُلُّ مَن على وجهِ الأرضِ: مِن نَسلِ أولئك). ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٦٢). ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٢١)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٠٠).

﴿لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ ﴿١٢﴾﴾.

﴿لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً﴾.

أي: لِنَجعَلَها لكم[(١)] -أيُّها المؤمنونَ- تَذكيرًا ومَوعِظةً، فتَتَذكَّروا أنَّ اللهَ أهلَك الكافِرينَ، وأنجى المؤمِنينَ، وتَستَدِلُّوا بذلك على كَمالِ قُدرةِ اللهِ وحِكمتِه، وقَهْرِه لأعدائِه، ورحمتِه بأوليائِه[(٢)].

(١) قيل: الضَّميرُ في قَولِه تعالى: ﴿لِنَجْعَلَهَا﴾ يعودُ إلى سفينةِ نوحٍ عليه السَّلامُ. وممَّن ذهب إلى هذا القولِ: ابنُ جرير، ومكِّي، وهو ظاهرُ اختيارِ القرطبيِّ، واختاره أبو حيَّان. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٢١)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٢/ ٧٦٧٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٦٣)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٥٦).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: قَتادةُ، وابنُ جُرَيج. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٢١).

وقيل: المرادُ: لِنَجعَلَ تلك الفَعْلَةَ، وهي إنجاءُ المؤمِنينَ وإغراقُ الكافِرينَ. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: الزَّجَّاجُ، والواحديُّ، والبغوي، والزمخشري، والبيضاوي، والنَّسَفي، والخازن. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٢١٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٤٥)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ١٤٥)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٠٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٤٠)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٥٣٠)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٣٣٤).

وممَّن جمَع بيْنَ القولَين: البِقاعي. يُنظر: ((نظم الدرر)) (٢٠/ ٣٥١).

وقيل: المرادُ: جِنسُ السُّفُنِ. وممَّن ذهب إلى هذا القولِ: ابنُ كثير، والسعديُّ. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢١٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٣). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٠٥).

قال الشوكاني: (﴿لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً﴾ أي: لِنَجعلَ هذه الأمورَ المذكورةَ لكم، يا أمَّةَ محمَّدٍ، عِبْرةً ومَوعظةً تَستَدِلُّونَ بها على عظيمِ قُدرةِ اللهِ، وبديعِ صُنعِه. أو لِنَجعلَ هذه الفَعلةَ الَّتي هي عبارةٌ عن إنجاءِ المؤمنينَ وإغراقِ الكافِرينَ لكم تَذكِرةً). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٣٦).

وقال ابنُ جزي: (الضَّميرُ للفعلةِ، وهي الحملُ في السَّفينة). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٠٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٢١)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٥/ ٢٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٤٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٤٠)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٠٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٣٦)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٣١٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٢٣).

كما قال تعالى: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ * ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ ٱلْبَاقِينَ * إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً﴾ [الشعراء: ١١٩ - ١٢١].

وقال سُبحانَه وتعالى: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [العنكبوت: ١٥].

﴿وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ﴾.

أي: تَحفَظَها أُذُنٌ مِن شأنِها أن تَحفَظَ وتَعقِلَ عن الله ما سمِعَتْ، وتَنتفِعَ به، ولا تُضَيِّعَه بتَرْكِ العملِ به(١).

كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الزمر: ١٨].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَجَآءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُۥ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتُ بِٱلْخَاطِئَةِ * فَعَصَوْا۟ رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً * إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ * لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ﴾ المقصودُ مِن قَصَصِ هذه الأُمَمِ، وذِكرِ ما حَلَّ بهم مِنَ العَذابِ: زَجرُ هذه الأُمَّةِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٢١)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٣٦)، ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٢٥٤)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٠٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣٥١)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٣٦).

قال ابن جُزَي: (الضَّميرُ [أي: في ﴿وَتَعِيَهَآ﴾] يعودُ على ما عاد عليه ضميرُ ﴿لِنَجْعَلَهَا﴾). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٠٥).

وقال ابنُ عطيَّة: (قَولُه تعالى: ﴿وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ﴾ عبارةٌ عن الرَّجُلِ الفَهِمِ المنوَّرِ القَلبِ، الَّذي يَسمَعُ القَولَ فيَتلَقَّاه بفَهمٍ وتدَبُّرٍ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٥٨).

وقال البيضاوي: (﴿أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ﴾ مِن شأْنِها أن تحفَظَ ما يجبُ حِفظُه؛ بتذكُّرِه، وإشاعتِه، والتَّفكُّرِ فيه، والعمَلِ بمُوجَبِه). ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٤٠). ويُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٠٠).

عن الاقتِداءِ بهم في مَعصيةِ الرَّسولِ[١].

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ ۝ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ﴾ فيه تذكيرٌ بنِعمةِ اللهِ على البَشَرِ؛ إذ أبقَى نَوعَهم بالإنجاءِ مِن الطُّوفانِ[٢].

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ﴾، أي: ليَعقِلَها أولو الألبابِ، ويَعرِفوا المقصودَ منها، ووَجْهَ الآيةِ بها، وهذا بخِلافِ أهلِ الإعراضِ والغَفلةِ، وأهلِ البَلادةِ وعَدَمِ الفِطنةِ؛ فإنَّهم ليس لهم انتِفاعٌ بآياتِ اللهِ؛ لعَدَمِ وَعْيِهم عن اللهِ، وفِكْرِهم بآياتِ اللهِ[٣].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

جعَلَ اللهُ سبحانَه مصالحَ العبادِ في معاشِهم ومعادِهم، والثوابَ والعقابَ، والحدودَ والكفَّاراتِ، والأوامرَ والنواهيَ، والحِلَّ والحرمةَ؛ كلَّ ذلك مرتبطًا بالأسبابِ، قائمًا بها، بل العبدُ نفسُه وصفاتُه وأفعالُه سببٌ لما يصدُرُ عنه، بل الموجوداتُ كلُّها أسبابٌ ومُسبَّباتٌ، والشَّرعُ كلُّه أسبابٌ ومُسبَّباتٌ، والمقاديرُ أسبابٌ ومُسبَّباتٌ، والقدرُ جارٍ عليها، متصرِّفٌ فيها، فالأسبابُ محلُّ الشرعِ والقدَرِ، والقرآنُ مملوءٌ مِن إثباتِ الأسبابِ، كقولِه تعالى: ﴿فَعَصَوْا۟ رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً﴾، وقولِه: ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ﴾ [الحاقة: ٢٤]، وقولِه: ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: ١٠٥]، وقولِه: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ﴾ [الحج: ١٠]، وقولِه: ﴿فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [الشورى: ٣٠]، وقولِه: ﴿جَزَآءً وِفَاقًا﴾ [النبأ: ٢٦]، وقولِه: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ

(١) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٦٣)، ((تفسير الشربيني)) (٤/ ٣٧٠).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١١١).
(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٢).

أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا * وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰاْ وَقَدْ نُهُواْ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ ﴾ [النساء: ١٦٠]، إلى غيرِ ذلك وهذا أكثرُ مِن أنْ يُستوعَبُ[١].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿وَجَآءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُۥ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتُ بِٱلْخَاطِئَةِ﴾ عطْفٌ على جُملةِ ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌۢ بِٱلْقَارِعَةِ﴾ [الحاقة: ٤]، وقد جُمِعَ في الذِّكرِ هنا عدَّةُ أُمَمٍ تقدَّمَت قبْلَ بَعثةِ مُوسى عليه السَّلامُ إجمالًا وتَصريحًا، وخُصَّ منهم بالتَّصريحِ قومُ فِرعونَ والمؤتفكاتُ؛ لأنَّهم مِن أشهَرِ الأُمَمِ ذِكرًا عندَ أهلِ الكتابِ المختلِطينَ بالعرَبِ والنَّازلينَ بجِوارِهم، فمِنَ العرَبِ مَن يَبلُغُه بعضُ الخبَرِ عن قِصَّتِهم[٢].

- وفي عطْفِ هؤلاء على ثَمودَ وعادٍ في سِياقِ ذِكرِ التَّكذيبِ بالقارعةِ إيماءٌ إلى أنَّهم تَشابَهوا في التَّكذيبِ بالقارعةِ، كما تَشابَهوا في المجيءِ بالخاطئةِ، وعِصيانِ رُسلِ ربِّهم، فحَصَل في الكلامِ احتباكٌ[٣].

- والمرادُ بفِرعونَ: فِرعونُ الَّذي أُرسِلَ إليه مُوسى عليه السَّلامُ، وإنَّما

---

(١) ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ١٨٨).

قال ابنُ القيِّم: (وقد جاء التعليلُ في الكتابِ العزيزِ بالباءِ تارةً، وباللامِ تارةً، وبـ «أنْ» تارةً، وبمجموعِهما تارةً، وبـ «كي» تارةً، ومِن أجلِ تارةً، وترتيب الجزاءِ على الشَّرطِ تارةً، وبالفاءِ المؤذنةِ بالسَّببيةِ تارةً، وترتيبِ الحكمِ على الوصفِ المقتضي له تارةً، وبـ «لمَّا» تارةً، وبـ «أنَّ» المشددةِ تارةً، وبـ «لعلَّ» تارةً، وبالمفعولِ له تارةً). ((إعلام الموقعين)) (١/ ١٥١).

وذكَر مِن أمثلةِ الفاءِ المؤذنةِ بالسببيةِ قولَه تعالى: ﴿فَعَصَوْاْ رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً﴾.

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٢٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

والاحتِباك: هو الحذفُ مِن الأوائلِ لدَلالةِ الأواخِرِ، والحذفُ مِن الأواخرِ لدَلالةِ الأوائلِ، إذا اجتمَع الحَذفانِ معًا، وله في القرآنِ نَظائرُ. يُنظر: ((الإتقان)) للسيوطي (٣/ ٢٠٤)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن حَبَنَّكَة الميداني (١/ ٣٤٧).

أُسنِدَ الخِطْءُ إليه؛ لأنَّ مُوسى أُرسِلَ إليه ليُطلِقَ بني إسرائيلَ مِن العُبوديَّةِ؛ قال تعالَى: ﴿ٱذۡهَبۡ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾ [النازعات: ١٧]، فهو المؤاخَذُ بهذا العِصيانِ، وتَبِعَه القِبطُ امتِثالًا لأمْرِه، وكذَّبوا مُوسى، وأعْرَضوا عن دَعوتِه[١].

- قولُه: ﴿وَٱلۡمُؤۡتَفِكَٰتُ﴾ قُرى لوطٍ الثَّلاثُ، وأُريدَ بالمؤتَفِكاتِ سُكَّانُها، وهم قومُ لُوطٍ، وخُصُّوا بالذِّكرِ؛ لشُهرةِ جَريمتِهم، ولِكَونِهم كانوا مَشهورينَ عندَ العرَبِ؛ إذ كانت قُراهم في طَريقِهم إلى الشَّامِ؛ قال تعالَى: ﴿وَإِنَّكُمۡ لَتَمُرُّونَ عَلَيۡهِم مُّصۡبِحِينَ * وَبِٱلَّيۡلِۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ [الصافات: ١٣٧، ١٣٨]، وقال: ﴿وَلَقَدۡ أَتَوۡاْ عَلَى ٱلۡقَرۡيَةِ ٱلَّتِيٓ أُمۡطِرَتۡ مَطَرَ ٱلسَّوۡءِۚ أَفَلَمۡ يَكُونُواْ يَرَوۡنَهَا﴾ [الفرقان: ٤٠]. ووُصِفتْ قُرى قَومِ لوطٍ بالمؤتَفِكاتِ، جمعُ مؤتَفِكةٍ، اسمُ فاعِلِ: ائْتَفَك، مُطاوِعُ أفَكَه، إذا قَلَبه، فهي المُنقَلِباتُ، أي: قلَبَها قالِبٌ، أي: خُسِف بها؛ قال تعالى: ﴿جَعَلۡنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا﴾[٢] [هود: ٨٢].

- والخاطِئةُ: إمَّا مَصدرٌ بوزْنِ (فاعِلةٍ)، وهاؤُه هاءُ المرَّةِ الواحدةِ، فلمَّا استُعمِلَ مَصدرًا قُطِعَ النَّظَرُ عن المرَّةِ، فهو مَصدرُ (خَطِئَ)، إذا أذْنَبَ، والذَّنْبُ: الخِطْءُ. وإمَّا اسمُ فاعِلِ (خَطِئَ)، وتأنيثُه بتأويلِ الفِعلةِ ذاتِ الخِطْءِ، فهاؤُه هاءُ تأْنيثٍ. والتَّعريفُ فيه تَعريفُ الجِنسِ على كِلا الوجهَينِ، فالمعْنى: جاء كلٌّ منهم بالذَّنْبِ المستحِقِّ للعِقابِ[٣].

٢- قولُه تعالَى: ﴿فَعَصَوۡاْ رَسُولَ رَبِّهِمۡ فَأَخَذَهُمۡ أَخۡذَةً رَّابِيَةً﴾ تَفريعٌ على ذَنْبِهم المعبَّرِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٢٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ١٢١).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٠٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٤٠)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٥٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٢٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٢١).

عنه بالخاطئةِ تَفريعَ بَيانٍ على المبيَّنِ[(١)].

- يَجوزُ أنْ يَرجِعَ ضَميرُ (عَصَوا) إلى ﴿فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُۥ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتُ﴾. و﴿رَسُولَ رَبِّهِمْ﴾ هو الرَّسولُ المرسَلُ إلى كلِّ قومٍ مِن هؤلاء؛ فإفرادُ ﴿رَسُولَ﴾ مُرادٌ به التَّوزيعُ على الجماعاتِ، أي: رسول اللهِ لكلِّ جماعةٍ منهم، والقرينةُ ظاهرةٌ، وهو أجْمَلُ نظْمًا مِن أنْ يُقالَ: (فعَصَوا رُسلَ ربِّهم)؛ لِما في إفرادِ رسولٍ مِن التَّفنُّنِ في صِيَغِ الكَلِمِ مِن جمْعٍ وإفرادٍ تَفاديًا مِن تَتابُعِ ثلاثةِ جُموعٍ؛ لأنَّ صِيغَ الجمْعِ لا تَخلو مِن ثِقَلٍ؛ لقِلَّةِ استعمالِها، وعكْسُه قولُه في سُورةِ (الفرقانِ) [الآية: ٣٧]: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَٰهُمْ﴾، وإنَّما كذَّبوا رسولًا واحدًا، وقولُه: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ وما بعْدَه في سُورةِ (الشُّعراءِ) [الآية: ١٠٥].

ويجوزُ أنْ يَرجِعَ ضَميرُ (عَصَوْا) إلى فرعونَ باعتبارِه رأسَ قومِه، فالضَّميرُ عائِدٌ إليه وإلى قَوْمِه، وعلى هذا الاعتبارِ في مَحَلِّ ضَميرِ (عَصَوْا) يكونُ المرادُ بـ﴿رَسُولَ رَبِّهِمْ﴾ مُوسى عليه السَّلامُ، وتَعريفُه بالإضافةِ لِما في لَفظِ المضافِ إليه مِن الإشارةِ إلى تَخطئتِهم في عِبادةِ فِرعونَ، وجَعْلِهم إيَّاهُ إلهًا لهم[(٢)].

- والرَّابيةُ: اسمُ فاعلٍ مِن رَبَا يَرْبو؛ إذا زاد، وعُبِّرَ بها عن الشِّدَّةِ[(٣)].

٣- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ * لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ﴾ لَمَّا شَمِلَ قولُه تعالَى: ﴿وَمَن قَبْلَهُۥ﴾ [الحاقة: ٩] قومَ نوحٍ عليه السَّلامُ -وهم أوَّلُ الأُمَمِ كذَّبوا الرُّسلَ-، حسَّن اقتِضابَ التَّذكيرِ بأخْذِهم؛ لِما فيه مِن

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٢١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ١٢١، ١٢٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٠٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٤٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٢٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٢٢).

إدماج امتِنانٍ على جَميعِ النَّاسِ الَّذين تَناسَلوا مِن الفئةِ الَّذين نَجَّاهم اللهُ مِن الغَرَقِ؛ لِيُتَخلَّصَ مِن كَونِه عِظةً وعِبرةً إلى التَّذكيرِ بأنَّه نِعمةٌ، وهذا مِن قَبيلِ الإدماجِ[(١)]، وقد بُنِيَ على شُهرةِ مُهْلَكِ قومِ نوحٍ اعتِبارُه كالمذكورِ في الكلامِ، فجُعِل شَرْطًا لـ﴿لَمَّا﴾ في قولِه: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ﴾، أي: في ذلك الوقتِ المعروفِ بطُغيانِ الطُّوفانِ[(٢)].

- وطُغيانُ الماءِ مُعبَّرٌ به عن شِدَّتِه الخارقةِ للعادةِ، تَشبيهًا لها بطُغيانِ الطَّاغي على النَّاسِ تَشبيهَ تَقريبٍ؛ فإنَّ الطُّوفانَ أقوى شِدَّةً مِن طُغيانِ الطَّاغي[(٣)].

- قولُه: ﴿حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ﴾، أي: حمَلْنا آباءَكُم في السَّفينةِ الجاريةِ؛ لأنَّهم إذا كانوا مِن نَسْلِ المحمولينَ النَّاجينَ، كان حمْلُ آبائِهم مِنَّةً عليهم، وكأنَّهم هم المحمولونَ؛ لأنَّ نَجاتَهم سَببُ وِلادتِهم[(٤)].

- والمرادُ بحمْلِهم فيها رفعُهم فوقَ الماءِ إلى انقضاءِ أيَّامِ الطُّوفانِ، لا مُجرَّدُ رَفْعِهم إلى السَّفينةِ، كما يُعربُ عنهُ كلمةُ (في)؛ فإنَّها ليستْ بصِلةٍ للحمْلِ، بلْ مُتعلِّقةٌ بمَحذوفٍ هو حالٌ مِن مَفعولِه، أي: رفَعْناكُم فوقَ الماءِ،

---

(١) الإدماجُ: أنْ يُدمِجَ المتكلِّمُ غرَضًا في غرَضٍ، أو بديعًا في بديعٍ، بحيثُ لا يَظهرُ في الكلامِ إلَّا أحدُ الغرَضينِ أو أحدُ البَديعَينِ؛ فهو مِن أفانينِ البَلاغةِ، ويكونُ مرادُ البليغِ غَرَضينِ فيَقرِنُ الغرضَ المَسوقَ له الكلامُ بالغرضِ الثَّاني، وفيه تَظهرُ مَقدرةُ البليغِ؛ إذ يأتي بذلك الاقترانِ بدونِ خروجٍ عن غَرَضِه المَسوقِ له الكلامُ ولا تَكلُّفٍ، بمعنى: أن يَجعلَ المتكلِّمُ الكلامَ الَّذي سِيق لِمَعنًى -مِن مَدحٍ أو غيرِه- مُتضمِّنًا معنًى آخَرَ. يُنظر: ((الإتقان)) للسيوطي (٣/ ٢٩٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٣٣٩)، ((علوم البلاغة البيان المعاني البديع)) للمراغي (ص: ٣٤٤)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن حَبَنَّكَة الميداني (٢/ ٤٢٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٥٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٢٢، ١٢٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٢٣)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ١٩٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٠٠).

وحِفظْناكُم حالَ كونِكُم في السَّفينةِ الجاريةِ بأمْرِنا وحِفْظِنا[١].

- والجاريةُ: صِفةٌ لمَحذوفٍ، وهو السَّفينةُ[٢].

- قولُه: ﴿لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ﴾ فيه ذِكْرُ إحْدى الحِكَمِ والعِلَلِ لهذا الحمْلِ، وهي حِكمةُ تَذكيرِ البشَرِ به على تَعاقُبِ الأعصارِ؛ لِيَكونَ لهم باعثًا على الشُّكرِ، وعِظةً لهم مِن أسواءِ الكُفْرِ، وليُخبرَ بها مَن عَلِمَها قَومًا لم يَعلَموها، فتَعِيَها أسماعُهم[٣].

- قولُه: ﴿وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ﴾ هذا تَعريضٌ بالمشركين؛ إذ لم يتَّعِظوا بخبَرِ الطُّوفانِ والسَّفينةِ الَّتي نَجا بها المؤمنونَ، فتَلقَّوه كما يَتلقَّون القصصَ الفُكاهيَّةَ[٤].

- وقيل: ﴿أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ﴾ على التَّوحيدِ والتَّنكيرِ؛ للإيذانِ بأنَّ الوُعاةَ فيهم قِلَّةٌ، ولتَوبيخِ النَّاسِ بقِلَّةِ مَن يَعِي منهم[٥].



(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٢٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٠٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٤٠)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٥٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٢٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٢٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٢٣).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٠٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٤٠)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٥٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٢٣).

الآيات (١٢ - ١٨)

﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ نَفۡخَةٞ وَٰحِدَةٞ ١٣ وَحُمِلَتِ ٱلۡأَرۡضُ وَٱلۡجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةٗ وَٰحِدَةٗ ١٤ فَيَوۡمَئِذٖ
وَقَعَتِ ٱلۡوَاقِعَةُ ١٥ وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِيَ يَوۡمَئِذٖ وَاهِيَةٞ ١٦ وَٱلۡمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرۡجَآئِهَاۚ وَيَحۡمِلُ عَرۡشَ
رَبِّكَ فَوۡقَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ ثَمَٰنِيَةٞ ١٧ يَوۡمَئِذٖ تُعۡرَضُونَ لَا تَخۡفَىٰ مِنكُمۡ خَافِيَةٞ ١٨﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ٱلصُّورِ﴾: أي: القَرنِ الَّذي يَنفُخُ فيه إسرافيلُ[١].

﴿فَدُكَّتَا﴾: أي: فُتِّتَتَا وكُسِرَتا، وأصلُ (دكك): يدُلُّ على تَطامُنٍ وانسِطاحٍ[٢].

﴿وَاهِيَةٞ﴾: أي: ضعيفةٌ، يُقالُ: وهَى البِناءُ يَهِي وَهْيًا فهو واهٍ: إذا ضَعُف جدًّا. ويُقالُ: كلامٌ واهٍ، أي: ضعيفٌ. أو المعنى: مُنشَقَّةٌ مُتصَدِّعةٌ، يُقال: وهَى الشَّيءُ: إذا انخرَق، والوَهْيُ: شقٌّ في الأديمِ والثَّوبِ ونحوِهما. أو المعنى: مُسترخيةٌ ساقطةُ القوَّةِ، وكلُّ شيءٍ استرخى رِباطُه فقد وَهِيَ[٣].

﴿أَرۡجَآئِهَا﴾: أي جوانبِها ونواحيها، وأصلُ (رجو) هنا: يدُلُّ على ناحيةِ الشَّيءِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٥، ٢٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٠٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٩٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٩٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٦٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٢٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٥٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣١٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٥٣).

(٣) يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ١٨١)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٢٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٨٥)، ((الغريبين في القرآن والحديث)) للهروي (٦/ ٢٠٤١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٨٧، ٨٨٨)، ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦٢٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٦٥).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٨٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٨٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٩٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤١٢).

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ الله تعالى مفصِّلًا أهوالَ يومِ القيامةِ: فإذا نَفَخ المَلَكُ يومَ القيامةِ في القَرْنِ الموَكَّلِ به نفخةً واحدةً، ورُفِعَت الأرضُ والجِبالُ وأُزيلَتا مِن أماكنِهما، فدُقَّتا دَقَّةً واحِدةً؛ فيَومَئذٍ تَقَعُ السَّاعةُ، وتتصَدَّعُ السَّماءُ وتَنشَقُّ، فتكونُ يومَ القيامةِ ضَعيفةً لا قُوَّةَ لها، مُتشَقِّقةً، لا تتماسَكُ، والملائِكةُ على أطرافِ السَّماءِ وحافَاتِها، ويَحمِلُ عَرْشَ رَبِّك فَوقَ رُؤوسِهم يومَئذٍ ثمانيةٌ مِنَ الملائِكةِ! يَومَئذٍ تُعرَضُونَ -أيُّها النَّاسُ- على اللهِ تعالى؛ لِمُحاسَبتِكم، ولا يَخفى عليه سُبحانَه أيُّ شَيءٍ مِن أُمورِكم!

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ نَفۡخَةٞ وَٰحِدَةٞ ١٣﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذكَرَ اللهُ تَعالى ما فَعَله بالمكذِّبين لرُسلِه، وكيف جازاهُم، وعجَّلَ لهم العُقوبةَ في الدُّنيا، وأنَّ اللهَ نجَّى الرُّسلَ وأتْباعَهم؛ كان هذا مُقدِّمةً لِذكرِ الجزاءِ الأُخرويِّ، وتَوفيةِ الأعمالِ كاملةً يومَ القيامةِ، فذكَرَ أمْرَ الآخرةِ وما يَعرِضُ فيها لأهلِ السَّعادةِ وأهلِ الشَّقاوةِ، وبدَأَ بالأمورِ الهائلةِ الَّتي تَقَعُ أمامَ القيامةِ، وأوَّلُ ذلك: أنَّه يَنفُخُ إسرافيلُ في الصُّورِ[1].

وأيضًا فإنَّ اللهَ تَعالى لَمَّا حكَى هذه القَصصَ السَّابقةَ، ونبَّهَ بها على ثُبوتِ القُدرةِ والحِكمةِ له سُبحانَه؛ فحينَئذٍ ثَبَت بثُبوتِ القُدرةِ إمكانُ القيامةِ، وثَبَت بثُبوتِ الحِكمةِ إمكانُ وُقوعِ القيامةِ. ولَمَّا ثَبَت ذلك؛ شَرَع سُبحانَه في تَفاصيلِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٥٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٣).

أحوالِ القيامةِ، فذَكَر أوَّلًا مُقدِّماتِها[1].

﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ نَفۡخَةٞ وَٰحِدَةٞ ١٣﴾.

أي: فإذا نَفَخ المَلَكُ في القَرنِ الموَكَّلِ به، نفخةً واحدةً لا يُحتاجُ لحُصولِ المُرادِ منها إلى تَكَرُّرِها؛ فأمْرُ الله لا يُخالَفُ ولا يُمانَعُ[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦٢٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٢٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٢٥).

قيل: المرادُ: النَّفخةُ الأولى. وممَّن اختاره: ابنُ جرير، والثعلبيُّ، والواحدي، والسمعاني، والبغوي، والزمخشري، وابن الجوزي، والرازي، والبيضاوي، والخازن، وابن جُزَي، وأبو السعود. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٢٤)، ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ٢٨)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١١٢٧)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٣٧)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ١٤٥)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٠١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤١٢)، ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦٢٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٤٠)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٣٣٤)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٠٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٢٣).

قال الرَّسْعَني: (قال عَطاءٌ: هي النَّفخةُ الأولى؛ لأنَّ عندَها خرابُ هذا العالَمِ). ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٢٥٦).

وقال القرطبي: (قال ابنُ عبَّاسٍ: هي النَّفخةُ الأولى لقيامِ السَّاعةِ، فلم يَبْقَ أحدٌ إلَّا مات). ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٦٤).

ممَّن نص على أنَّها نفخةُ الفزَعِ: ابنُ عطيَّة، وأبو حيَّان، والكوراني. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٥٨)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٥٧)، ((تفسير الكوراني)) (ص: ٢٢١).

قال أبو حيَّان: (هذه النَّفخةُ نفخةُ الفزَعِ. قال ابنُ عبَّاسٍ: وهي النَّفخةُ الأولى الَّتي يَحصُلُ عنها خرابُ العالَمِ، ويؤيِّدُ ذلك قولُه: ﴿وَحُمِلَتِ ٱلۡأَرۡضُ وَٱلۡجِبَالُ﴾). ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٥٧).

وقال ابن عطيَّة: (والنَّفخةُ المُشارُ إليها في هذه الآيةِ: نفخةُ القيامةِ الَّتي للفزَعِ، ومعها يكونُ الصَّعقُ، ثمَّ نفخةُ البعثِ، وقيل: هي نفَخاتٌ ثلاثةٌ: نفخةُ الفزَعِ، ونفخةُ الصَّعقِ، ثمَّ نفخةُ البعثِ، والإشارةُ بآياتنا هذه إلى نفخةِ الفزَعِ؛ لأنَّ حمْلَ الجبالِ هو بَعْدَها). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٥٨).

=

عن عَبدِ اللهِ بنِ عَمرِو بنِ العاصِ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: ((جاء أعرابيٌّ إلى النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فقال: ما الصُّورُ؟ قال: قَرنٌ يُنفَخُ فيه))(١).

= وقال النَّسَفي: (هي النَّفخةُ الأولى، ويموتُ عندَها النَّاسُ). ((تفسير النسفي)) (٣/ ٥٣٠). ويُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (١/ ٥٧٩).

وقيل: هي النَّفْخةُ الآخِرةُ نفخةُ البعثِ والنُّشورِ والقيامِ لرَبِّ العالَمينَ؛ للفصلِ بيْن الخلائقِ. وممَّن ذهب إلى هذا في الجملةِ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ أبي زَمَنِين، والطُّوفي، وابن كثير، وجلال الدين المحلي، والسعدي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٤٢٢)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٥/ ٢٨)، ((الإشارات الإلهية إلي المباحث الأصولية)) للطوفي (ص: ٦٥٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢١١)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٧٦٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٣).

قال أبو حيَّان: (وعلى هذا لا يكونُ الدَّكُّ بعدَ النَّفخِ، والواوُ لا ترتِّبُ). ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٥٧).

لكنْ قال الألوسي بعدَ أنْ ذكَر أنَّ القولَ الأوَّلَ هو المناسِبُ لمَا بَعْدُ: (وإن كانت الواوُ لا تدُلُّ على التَّرتيبِ، لكنْ مُخالَفةُ الظَّاهرِ مِن غيرِ داعٍ ممَّا لا حاجةَ إليه). ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٤٩).

وقال الطوفي: (هذه نفخةُ البعثِ في وقتِها الخاصِّ، بدليلِ تنزيلِ الملائكةِ، وظُهورِ عرشِ الرَّحمنِ جلَّ جلالُه). ((الإشارات الإلهية إلي المباحث الأصولية)) (ص: ٦٥٤).

وقال الرَّسْعَني: (قال ابنُ السَّائبِ ومقاتلٌ: هي النَّفخةُ الثَّانيةُ؛ لقولِه تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ﴾ [الحاقة: ١٨] عَقِيبَ ذِكرِ النَّفخةِ.

ويُجابُ عن هذا بأن يقالَ: المرادُ بقولِه: ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ الحينُ الواسعُ الَّذي يقعُ فيه [النَّفختانِ] والنُّشورُ والحسابُ، كما تقولُ: رأيتُه في عامِ كذا، أو في يومِ كذا، وإنَّما كانت رؤيتُك إيَّاه في جزءٍ منه). ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٢٥٦). ويُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٤٢٢). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٠١)، ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦٢٥).

وقد اختلَف العلماءُ في عددِ النَّفخِ في الصُّورِ. يُنظر ما تقدَّم في هذا التَّفسيرِ: (٢٢/ ٣٨٠).

(١) أخرجه أبو داودَ (٤٧٤٢)، وأحمدُ (٦٥٠٧) باختلافٍ يسيرٍ، والترمذيُّ (٢٤٣٠)، والنسائيُّ (١١٤٥٦) واللَّفظُ لهما.

حسَّنه الترمذيُّ، وصحَّح إسنادَه الحاكمُ في ((المستدرك)) (٢/ ٥٥٠)، وذكر ثبوتَه ابنُ كثير في ((تفسير القرآن)) (٥/ ٣٠٨)، وصحَّحه الألباني في ((صحيح سنن الترمذي)) (٢٤٣٠).

وعن أبي سعيدٍ الخُدْريِّ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((كيف أنعَمُ وقد التَقَم صاحِبُ القَرنِ القَرْنَ، وحنَى جَبهتَه، وأصغى سَمْعَه، ينتَظِرُ أن يُؤمَرَ أن يَنفُخَ، فيَنفُخُ. قال المسلِمونَ: فكيف نقولُ يا رَسولَ اللهِ؟ قال: قولوا: حَسْبُنا اللهُ ونِعْمَ الوكيلُ، توكَّلْنا على اللهِ رَبِّنا))(١).

﴿وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً ١٤﴾.

أي: وإذا رُفِعَت الأرضُ والجِبالُ وأُزيلَتا مِن أماكِنِهما، فدُقَّتا دَقَّةً واحِدةً شَديدةً حتَّى تفتَّتَا وكُسِرتا(٢).

كما قال تعالى: ﴿كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا﴾ [الفجر: ٢١].

---

(١) أخرجه الترمذيُّ (٣٢٤٣) واللَّفظُ له، وأحمدُ (١١٠٣٩).

حسَّنه الترمذيُّ، وصحَّح الحديثَ الألبانيُّ في ((صحيح سنن الترمذي)) (٣٢٤٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٢٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٦٤)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ١٤٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٢٥).

قال أبو حيَّان: (المرادُ جملةُ الأرضِ وجُملةُ الجِبالِ، أي: ضُرِبَ بَعضُها ببعضٍ حتَّى تفتَّتَت). ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٥٨).

وقال البِقاعي: (﴿فَدُكَّتَا﴾ أي: مُسِحَت الجُمْلَتانِ؛ الأرضُ وأوتادُها، وبُسِطَتا ودُقَّ بَعضُها ببعض ﴿دَكَّةً وَٰحِدَةً﴾ أي: فصارَتا كَثِيبًا مَهِيلًا، وسُوِّيَتا بأيسَرِ أمرٍ، فلم يُمَيَّزْ شَيءٌ منهما مِن الآخَرِ، بل صارَا في غايةِ الاستواءِ، مِن قولِهم: ناقةٌ دكَّاءُ، أي: لا سَنامَ لها، وأرضٌ دكَّاءُ، أي: مُتَّسِعةٌ مُستويةٌ). ((نظم الدرر)) (٢٠/ ٣٥٣).

قال السمعاني: (﴿فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً﴾ أي: زُلْزِلَتا زَلْزَلةً واحدةً. ويُقَال: فُتَّتَا فتةً واحدةً. وقيل: ضُرِب أحَدُهما بالآخَرِ فانهَدَمَتا وهلَكَتا). ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٣٧).

وقال ابنُ كثيرٍ بناءً على تفسيرِه للنَّفخةِ بأنَّها نفخةُ البعثِ والنُّشورِ: (﴿وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً﴾، أي: فمُدَّتْ مَدَّ الأديمِ العُكاظي [نسبة الى عُكاظ]، وتَبَدَّلت الأرضُ غيرَ الأرضِ). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢١١).

وقيل: بُسِطَتا بسطةً واحدةً، فصارَتا أرضًا لا ترى فيها عِوَجًا ولا أَمْتًا، مِن قولِك: اندَكَّ السَّنامُ، إذا انفَرَش. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٠١).

وقال الله سُبحانَه وتعالى: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا﴾ [المزمل: ١٤].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا * فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا * لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا﴾ [طه: ١٠٥ - ١٠٧].

﴿فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ﴿١٥﴾﴾.

أي: فيومَ يُنفَخُ في الصُّورِ، وتُدَكُّ الأرضُ والجِبالُ، تَقَعُ السَّاعةُ، وتقومُ القيامةُ حينَئذٍ(١).

﴿وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِىَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴿١٦﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى تأثيرَ النَّفخةِ في العالَمِ السُّفليِّ؛ ذكَر العلويَّ، فقال(٢):

﴿وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِىَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴿١٦﴾﴾.

أي: وتتصَدَّعُ السَّماءُ وتَنشَقُّ، فتكونُ يومَ القيامةِ مُتشَقِّقةً ضَعيفةً خَفيفةً لا تتماسَكُ(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٢٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢١١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣٥٤)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٥٠).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣٥٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٢٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٦٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣٥٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٣).

ممَّن اختار أنَّ ﴿وَاهِيَةٌ﴾ أي: ضعيفةٌ: الزَّجَّاجُ، وابنُ أبي زَمَنِين، والثعلبيُّ، والسمعاني، والبغوي، والرَّسْعَني، والقرطبي، وجلال الدين المحلي، والعُلَيمي، والألوسي، وابن عثيمين. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٢١٦)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٥/ ٢٨)، ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ٢٨)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٣٧)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ١٤٥)، ((تفسير =

كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتۡ وَرۡدَةٗ كَٱلدِّهَانِ﴾ [الرحمن: ٣٧].

﴿وَٱلۡمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرۡجَآئِهَاۚ وَيَحۡمِلُ عَرۡشَ رَبِّكَ فَوۡقَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ ثَمَٰنِيَةٞ ١٧﴾.

﴿وَٱلۡمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرۡجَآئِهَا﴾.

أي: ويكونُ الملائِكةُ على أطرافِ السَّماءِ وحافَاتِها حينَ تَنشَقُّ، خاضِعينَ للهِ، مُستَكينينَ لعَظَمتِه(١).

= الرسعني)) (٨/ ٢٥٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٦٥)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٧٦٢)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ١٤٤)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٥١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٩٤).

ممَّن اختار أنَّ ﴿وَاهِيَةٌ﴾ أي: مُتشَقِّقةٌ مُتصَدِّعةٌ: الفرَّاءُ، وابنُ جرير، ومكِّي. يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ١٨١)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٢٤)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٢/ ٧٦٧٣).

وقال السمرقندي: (ضعيفةٌ مُنشَقَّةٌ متمَزِّقةٌ). ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٤٩٠).

وقال ابن عبَّاس: متمزِّقةٌ ضعيفةٌ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٢٥).

وقيل: المعنى: ضعيفةٌ، ساقطةُ القوَّةِ، مسترخيةٌ. وممَّن اختاره: الزمخشريُّ، والرازي، والبيضاوي، والنَّسَفي، وأبو السعود، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٠١)، ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦٢٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٤٠)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٥٣٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٢٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٣٧).

وقال البِقاعي: (﴿وَاهِيَةٌ﴾ أي: ضعيفةٌ مُتساقِطةٌ، خفيفةٌ لا تَتماسَكُ). ((نظم الدرر)) (٢٠/ ٣٥٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٢٥)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ١٤٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٥٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٦٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢١٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٢٧).

قال الواحدي: (قولُه تعالى: ﴿وَٱلۡمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرۡجَآئِهَا﴾ معنى الأرجاءِ في اللُّغةِ: النَّواحي... والمفسِّرون يَقولون: على حَافَاتِها وأطرافِها ونَواحيها وأقطارِها. كلُّ هذا مِن ألفاظِهم). ((البسيط)) (٢٢/ ١٥٦).

وقال ابن عطية: (قال جمهورُ المفسِّرينَ: الضَّميرُ في ﴿أَرۡجَآئِهَا﴾ عائدٌ على السَّماءِ، أي: الملائكةُ على نَواحيها وما لم يَهِ منها ... وقال الضَّحَّاكُ أيضًا وابنُ جُبَيرٍ: الضَّميرُ في ﴿أَرۡجَآئِهَا﴾ عائدٌ على الأرضِ وإن كان لم يتقدَّمْ لها ذِكرٌ قريبٌ؛ لأنَّ القصَّةَ واللَّفظَ يَقتضي إفهامَ ذلك). =

كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنْزِيلًا﴾ [الفرقان: ٢٥].

وقال سُبحانَه: ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر: ٢٢].

﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ﴾.

أي: ويَحمِلُ عَرْشَ رَبِّك فَوقَ رُؤوسِهم يومَ القيامةِ ثمانيةٌ مِنَ الملائِكةِ[1].

كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ [غافر: ٧].

وعن جابرِ بنِ عبدِ اللهِ رَضِيَ اللهُ عنهما، عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((أُذِنَ لي أن أُحدِّثَ عن ملَكٍ مِن ملائكةِ اللهِ مِن حَمَلةِ العَرشِ، إنَّ ما بيْنَ شَحْمةِ أُذُنِه إلى عاتِقِه مَسيرةَ سبعِمِئةِ عامٍ!))[2].

﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ (١٨)﴾.

أي: يَومَ القيامةِ الَّذي تقَعُ فيه جميعُ تلك الأمورِ تُعرَضُونَ -أيُّها النَّاسُ- على

= ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٥٩).

(١) يُنظر: ((معاني القرآن)) للزجاج (٥/ ٢١٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٤٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢١٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٣).

قال ابنُ عاشور: (المرادُ بالثَّمانيةِ الَّذين يحمِلونَ العَرشَ: ثمانيةٌ مِن الملائِكةِ؛ فقيل: ثمانيةُ شُخوصٍ. وقيل: ثمانيةُ صُفوفٍ... وهذا مِن أحوالِ الغَيبِ الَّتي لا يتعَلَّقُ الغَرَضُ بتَفصيلِها). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٢٧).

(٢) أخرجه أبو داودَ (٤٧٢٧) واللَّفظُ له، والطَّبَرانيُّ في ((المعجم الأوسط)) (٤٤٢١) بلفظ: ((سبعين))، والبيهقيُّ في ((الأسماء والصفات)) (٨٤٦).

صحَّح إسنادَه الذَّهبيُّ في ((العلو)) (ص: ٩٧)، وجوَّد إسنادَه ابنُ كثير في ((تفسير القرآن)) (٨/ ٢٣٩)، وقال ابنُ حجر في ((فتح الباري)) (٨/ ٥٣٣): إسنادُه على شرطِ الصَّحيحِ، وصحَّح الحديثَ الألبانيُّ في ((صحيح سنن أبي داود)) (٤٧٢٧).

اللهِ تعالى؛ لِمُحاسَبتِكم دونَ أن يَخفى عليه أيُّ شَيءٍ مِنكم(١)!

كما قال تعالى: ﴿وَحَشَرۡنَٰهُمۡ فَلَمۡ نُغَادِرۡ مِنۡهُمۡ أَحَدٗا * وَعُرِضُواْ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفّٗا لَّقَدۡ جِئۡتُمُونَا كَمَا خَلَقۡنَٰكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةِۭ﴾ [الكهف: ٤٧، ٤٨].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ نَفۡخَةٞ وَٰحِدَةٞ * وَحُمِلَتِ ٱلۡأَرۡضُ وَٱلۡجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةٗ وَٰحِدَةٗ﴾ سؤالٌ: أنَّه ليس في القرآنِ لفظةٌ زائدةٌ لا تُفيدُ معنًى، ولا كلمةٌ قد فُهِمَ معناها ممَّا قَبْلَها فأُعِيدتْ لا لمعنًى، أو لمجرَّدِ التَّأكيدِ المَحْضِ دونَ فائدةٍ جديدةٍ! فما وجْهُ ذِكْرِ النَّفخةِ الواحدةِ والدَّكَّةِ الواحدةِ؟

الجوابُ: أنَّ ذلك ليس على وجهِ التَّأكيدِ المُجَرَّدِ، بلِ المرادُ: التَّقييدُ بالمَرَّةِ الواحدةِ، ولَمَّا كانتِ النَّفخةُ قد يُرادُ بها الواحدةُ مِن الجنسِ، وقد يُرادُ بها مُطْلَقة -كما في البقلةِ، وحَبَّةِ الحِنطةِ، واللَّعْنةِ، والهِمَّةِ، ونحوِها- وكان المرادُ التَّقييدَ بالمَرَّةِ الواحدةِ مِن هذا الجنسِ؛ أتَى بالواحدةِ لِيَدُلَّ على هذا المعنى، أي: أنَّ النَّفخَ لم يكنْ نفختَينِ، ولم يَكُ دَكُّ الأرضِ والجبالِ بعْدَ حمْلِهما دكَّتَينِ، بل واحِدةً فقط؛ فِعْلَ المُقْتَدِرِ على الشَّيءِ المتمكِّنِ منه، ونظيرُه قولُه تعالى: ﴿إِن كَانَتۡ إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ فَإِذَا هُمۡ جَمِيعٞ لَّدَيۡنَا مُحۡضَرُونَ﴾ [يس: ٥٣]، ونظيرُه قولُه تعالى: ﴿إِن كَانَتۡ إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ فَإِذَا هُمۡ خَٰمِدُونَ﴾ [يس: ٢٩] أي: لم يُتابِعْ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٣٠، ٢٣١)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٦٧، ٢٦٨)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٠٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢١٢، ٢١٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٣).
قال السعدي: (﴿يَوۡمَئِذٖ تُعۡرَضُونَ﴾ على الله ﴿لَا تَخۡفَىٰ مِنكُمۡ خَافِيَةٞ﴾ لا مِن أجسامِكم وأجسادِكم، ولا مِن أعمالِكم وصِفاتِكم؛ فإنَّ اللهَ تعالى عالِمُ الغَيبِ والشَّهادةِ، ويَحشُرُ العِبادَ حُفاةً عُراةً غُرْلًا، في أرضٍ مستويةٍ، يُسْمِعُهم الدَّاعي، ويَنْفُذُهم البصرُ، فحينَئذٍ يُجازيهم بما عَمِلوا). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٣).

عليهمُ الصَّيحةَ، بل أهلكَهم مِن صَيحةٍ واحِدةٍ[١].

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَٱلۡمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرۡجَآئِهَا﴾ فيه سُؤالٌ: الملائِكةُ يموتونَ في الصَّعقةِ الأُولى؛ لقَولِه تعالى: ﴿فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [الزمر: ٦٨] -وذلك على القول بأنَّ المرادَ بالنَّفخةِ: الأولى-، فكيف يُقالُ: إنَّهم يَقِفونَ على أرجاءِ السَّماءِ؟

الجوابُ مِن وَجهَينِ:

الوَجهُ الأوَّلُ: أنَّهم يَقِفونَ لحظةً على أرجاءِ السَّماءِ، ثمَّ يموتونَ.

الوَجهُ الثَّاني: أنَّ المرادَ الَّذين استثناهم اللهُ في قَولِه تعالى: ﴿إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾[٢] [الزمر: ٦٨].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَيَحۡمِلُ عَرۡشَ رَبِّكَ فَوۡقَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ ثَمَٰنِيَةٞ﴾ رَدٌّ على مَن يَزْعُمُ -مِن المعتزلةِ- أنَّ العَرشَ مُلْكُه، فكيف يكونُ مُلْكُه محمولًا؟! أَمْ كيف يكونُ الملائكةُ خارجينَ مِن المُلْكِ؟! فقد بان بغيرِ إشكالٍ أنَّه السَّريرُ[٣].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ نَفۡخَةٞ وَٰحِدَةٞ﴾

- هو شُروعٌ في بَيانِ نفْسِ الحاقَّةِ، وكَيفيَّةِ وُقوعِها، إثرَ بَيانِ عِظَمِ شأْنِها بإهلاكِ مُكذِّبيها[٤].

---

(١) يُنظر: ((جامع المسائل)) لابن تيمية (٨/ ٣٤٣).
ويُنظر ما يأتي في البلاغة (ص: ٥٨، ٥٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦٢٥).

(٣) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٣٩٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٢٣)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ١٩٤).

- والفاءُ في ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ﴾ لتَفريعِ ما بعْدَها على التَّهويلِ الَّذي صُدِّرت به السُّورةُ مِن قولِه: ﴿ٱلْحَاقَّةُ ۞ مَا ٱلْحَاقَّةُ ۞ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَاقَّةُ﴾ [الحاقة: ١- ٣]، فعُلِمَ أنَّه تَهويلٌ لأمْرِ العذابِ الَّذي هُدِّد به المشركون مِن أمثالِ ما نال أمْثالَهم في الدُّنيا ومِن عَذابِ الآخرةِ الَّذي يَنتظِرُهم، فلمَّا أتمَّ تَهديدَهم بعَذابِ الدُّنيا؛ فرَّعَ عليه إنْذارَهم بعَذابِ الآخرةِ الَّذي يحُلُّ عندَ القارعةِ الَّتي كذَّبوا بها كما كذَّبت بها ثَمودُ وعادٌ، فحَصَل مِن هذا بَيانٌ للقارعةِ بأنَّها ساعةُ البعثِ، وهي الواقعةُ(١). وهذا على القولِ بأنَّ المرادَ بالنَّفخةِ نفخةُ البعثِ والنُّشور.

- وإنَّما حسُنَ إسنادُ الفِعلِ ﴿نُفِخَ﴾ إلى المصدرِ ﴿نَفْخَةٌ﴾؛ لتَقيُّدِه بالوحدةِ والمرَّةِ لا نفخًا مجرَّدًا مبهَمًا، وحسُنَ تَذكيرُه؛ للفصْلِ؛ ولأنَّ تأنيثَ النَّفخِ غيرُ حقيقيٍّ(٢).

- قولُه: ﴿نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ﴾ وصْفُ النَّفخةِ بواحدةٍ تأكيدٌ لإفادةِ الوَحدةِ مِن صِيغةِ الفَعلةِ؛ تَنْصيصًا على الوَحدةِ المفادةِ مِن التَّاءِ، والتَّنصيصُ على هذا للتَّنبيهِ على التَّعجيبِ مِن تأثُّرِ جَميعِ الأجسادِ البشريَّةِ بنَفخةٍ واحدةٍ دونَ تَكريرٍ؛ تَعجيبًا من عَظيمِ قُدرةِ الله ونُفوذِ أمْرِه؛ لأنَّ سِياقَ الكلامِ مِن مَبدأِ السُّورةِ تَهويلُ يَومِ القيامةِ، فتَعدادُ أهوالِه مَقصودٌ، ومن أجْلِ القصدِ إليه هنا لم يُذكَرْ وصْفُ واحدٍ في قولِه تعالَى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ﴾ في سُورةِ (الرُّوم) [الآية: ٢٥]، فحصَلَ مِن ذِكرِ ﴿نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ﴾ تأكيدُ معْنى النَّفخِ، وتأْكيدُ معْنى الوَحدةِ،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٢٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٠١)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٤٠)، ((تفسير الخلوتي)) (١٠/ ١٣٧)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٥٠).

فليس المرادُ بوَصْفِها بواحدةٍ أنَّها غيرُ مُتْبَعةٍ بثانيةٍ؛ فقد جاء في آياتٍ أُخرى أنَّهما نَفختانِ، بل المرادُ أنَّها غيرُ مُحتاجٍ حُصولُ المرادِ منها إلى تَكرُّرِها؛ كِنايةً عن سُرعةِ وُقوعِ الواقعةِ، أي: يومِ الواقعةِ. وأمَّا ذِكرُ كَلمةِ ﴿نَفْخَةٌ﴾ فلِيَتأتَّى إجراءُ وصْفِ الوَحدةِ عليها، فذِكرُ ﴿نَفْخَةٌ﴾ تَبَعٌ غيرُ مَسوقٍ له الكلامُ، فتَكونُ هذه النَّفخةُ هي الأُولى -على قولٍ في التَّفسيرِ-، وهي المؤْذِنةُ بانقراضِ الدُّنيا، ثمَّ تقَعُ النَّفخةُ الثَّانيةُ الَّتي تكونُ عندَ بَعثِ الأمواتِ(١).

- وقد أكَّد النَّفخةَ بأنَّها ﴿وَٰحِدَةٌ﴾؛ لأنَّ أمرَ الله لا يُخالَفُ ولا يُمانَعُ، ولا يحتاجُ إلى تَكرارٍ وتأكيدٍ(٢).

٢- قولُه تعالَى: ﴿وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً﴾

- بُنِيَت أفعالُ ﴿نُفِخَ﴾، ﴿وَحُمِلَتِ﴾، و﴿فَدُكَّتَا﴾ للمجهولِ؛ لأنَّ الغرَضَ مُتعلِّقٌ ببَيانِ المفعولِ لا الفاعلِ، أو للعِلمِ بالفاعلِ(٣).

٣- قولُه تعالَى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ﴾

- قولُه: ﴿فَيَوْمَئِذٍ﴾ تأْكيدٌ لمعْنى ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ ...﴾ إلخ؛ لأنَّ تَنوينَ (يومَئذٍ) عِوَضٌ عن جُملةٍ تدُلُّ عليها جُملةُ ﴿نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ﴾ إلى قولِه: ﴿دَكَّةً وَٰحِدَةً﴾، أي: فيومَ إذ نُفِخَ في الصُّورِ... إلى آخِرِه، وَقَعَت الواقعةُ، وهو تأْكيدٌ لَفظيٌّ بمُرادِفِ المؤكَّدِ؛ فإنَّ المُرادَ بـ (يوم) مِن قولِه: ﴿فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ﴾ مُطلَقُ الزَّمانِ، كما هو الغالبُ في وُقوعِه مُضافًا إلى (إذا)(٤).

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٥/ ٦١٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٢٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢١١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٢٥)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ١٩٥، ١٩٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٢٦).

- قولُه: ﴿وَقَعَتِ ٱلۡوَاقِعَةُ﴾، أي: تَحقَّقَ ما كان مُتوقَّعًا وُقوعُه؛ لأنَّهم كانوا يُتوعَّدون بواقعةٍ عَظيمةٍ، فيومَئذٍ يَتحقَّقُ ما كانوا يُتوعَّدون به، فعُبِّرَ عنه بفِعلِ المُضيِّ؛ تَنبيهًا على تَحقيقِ حُصولِه، والمعْنى: فحينَئذٍ تقَعُ الواقعةُ[1].

- والواقعةُ: مُرادِفةٌ للحاقَّةِ والقارعةِ، فذِكرُها إظهارٌ في مَقامِ الإضمارِ؛ لزِيادةِ التَّهويلِ، وإفادةِ ما تَحْتوي عليه مِن الأحوالِ الَّتي تُنبئُ عنها مَواردُ اشتِقاقِ أوصافِ الحاقَّةِ والقارعةِ والواقعةِ[2].

٤- قولُه تعالَى: ﴿وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِيَ يَوۡمَئِذٖ وَاهِيَةٞ﴾ يَجوزُ أنْ يكونَ مَعطوفًا على جُملةِ ﴿نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ﴾، فيكونَ مُلحَقًا بشرْطِ (إذا)، وتأْخيرُ عطْفِه مِن أجْلِ ما اتَّصَلَ بهذا الانشقاقِ مِن وصْفِ الملائكةِ المحيطينَ بها، ومِن ذِكرِ العرشِ الَّذي يُحيطُ بالسَّمواتِ، وذِكرِ حَمَلتِه[3].

- وتَقييدُ الوَهْيِ بـ﴿يَوۡمَئِذٖ﴾ يُفيدُ أنَّ الوَهْيَ طرَأَ عليها بعْدَ أنْ كانتْ صُلْبةً بتَماسُكِ أجْزائِها، أي: فهي يومَئذٍ مَطروقةٌ مَسلوكةٌ[4].

٥- قولُه تعالَى: ﴿وَٱلۡمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرۡجَآئِهَاۚ وَيَحۡمِلُ عَرۡشَ رَبِّكَ فَوۡقَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ ثَمَٰنِيَةٞ﴾ المَلَكُ: أصْلُه الواحدُ مِن الملائكةِ، وتَعريفُه هنا تَعريفُ الجِنسِ، وهو في معْنى الجمْعِ، أي: جِنسُ المَلَكِ، أي: جَماعةٌ مِن الملائكةِ، أو جميعُ الملائكةِ إذا أُريدَ الاستِغراقُ، والمَلَكُ أعمُّ مِن الملائكةِ، ألَا ترى أنَّ قولَك: ما مِن مَلَكٍ إلَّا وهو شاهدٌ، أعمُّ مِن قولِك: ما مِن ملائكةٍ، واستِغراقُ المفردِ أصرَحُ في الدَّلالةِ على

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٢٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ١٢٧).

الشُّمولِ[١]. أو إنَّما جِيءَ به مُفرَدًا؛ لأنَّه أخفُّ[٢].

- ويَتعلَّقُ ﴿فَوْقَهُمْ﴾ بقولِه: ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ﴾، وهو تأْكيدٌ لِما دلَّ عليه (يَحْمِلُ) مِن كونِ العرْشِ عاليًا[٣].

- قولُه: ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ﴾ كأنَّ الدَّاعيَ إلى ذِكرِ الحَمَلةِ إجْمالًا هو الانتِقالُ إلى الإخبارِ عن عرْشِ اللهِ؛ لئلَّا يكونَ ذِكرُه اقتِضابًا بعْدَ ذِكرِ الملائكةِ[٤].

- إضافةُ عرْشٍ إلى اللهِ تعالَى في قولِه: ﴿عَرْشَ رَبِّكَ﴾ إضافةُ تَشريفٍ[٥].

٦- قولُه تعالَى: ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ﴾

- جُملةُ ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ﴾ مُستأنَفةٌ، أو هي بَيانٌ لجُملةِ ﴿فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ﴾، أو بدَلُ اشتِمالٍ منها[٦].

- والعرْضُ: إمرارُ الأشياءِ على مَن يُريدُ التَّأمُّلَ منها، مِثلُ عرْضِ السِّلعةِ على المشتري، وعرْضِ الجَيشِ على أميرِه، وأُطلِقَ هنا كِنايةً عن لازِمِه، وهو المحاسَبةُ، مع جَوازِ إرادةِ المعْنى الصَّريحِ[٧].

- وتأْنيثُ ﴿خَافِيَةٌ﴾؛ لأنَّه وصْفٌ لموصوفٍ مُؤنَّثٍ يُقدَّرُ بالفَعلةِ مِن أفعالِ

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٠١)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٤٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٢٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٥٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٢٨).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ١٢٩).

(٧) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ١٢٨).

العِبادِ، أو يُقدَّرُ بنفْسٍ، أي: لا تَختبِئُ مِن الحسابِ نفْسٌ، أي: أحدٌ، ولا يَلتبِسُ كافرٌ بمؤمنٍ، ولا بارٌّ بفاجرٍ(١).

- وتَكريرُ لَفظِ ﴿يَوۡمَئِذٖ﴾ لتَهويلِ ذلك اليومِ الَّذي مَبْدؤُه النَّفخُ في الصُّورِ، ثمَّ يَعقُبُه ما بعْدَه ممَّا ذُكِر في الجُمَلِ بعْدَه، فقدْ جَرى ذِكرُ ذلك اليوم خمْسَ مرَّاتٍ؛ لأنَّ ﴿فَيَوۡمَئِذٖ وَقَعَتِ ٱلۡوَاقِعَةُ﴾ تَكريرٌ لـ (إذا) مِن قولِه: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ﴾؛ إذ تَقديرُ المضافِ إليه في ﴿يَوۡمَئِذٖ﴾ هو مَدلولُ جُملةِ ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ﴾، فقدْ ذُكِرَ زَمانُ النَّفخِ أوَّلًا، وتَكرَّرَ ذِكرُه بعْدَ ذلك أربعَ مرَّاتٍ(٢).



(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٢٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الآيات (١٩-٢٤)

﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ ﴿١٩﴾ إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ
﴿٢٠﴾ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾ فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٢٣﴾ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔا
بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿هَآؤُمُ﴾: أي: خُذُوا أو تعالَوا[(١)].

﴿قُطُوفُهَا﴾: جمعُ قِطْفٍ، أي: ثَمَرُها، وأصلُ (قطف): يدُلُّ على أخذِ ثَمرةٍ مِن شَجَرةٍ[(٢)].

﴿دَانِيَةٌ﴾: أي: قريبَةُ المتناوَلِ، تُنالُ على كلِّ حالٍ مِن قيامٍ وقعودٍ واضطجاعٍ، ولا يَمنَعُ منها بُعْدٌ ولا شوكٌ، والدُّنوُّ: القُربُ بالذَّاتِ، أو بالحُكمِ، ويُستعمَلُ في المكانِ والزَّمانِ والمنزلةِ، وأصلُ (دنو): المُقارَبةُ[(٣)].

﴿هَنِيٓـًٔا﴾: أي: لا تكديرَ عليكم، ولا تنغيصَ، والهَنيءُ: كلُّ ما لا يَلحَقُ فيه مَشَقَّةٌ، ولا يُعقِبُ وخامةً، وأصلُه في الطَّعامِ، يُقالُ: هَنِئَ الطَّعامُ فهو هَنِيءٌ، وأصلُ (هنأ): يدُلُّ على إصابةِ خَيرٍ مِن غيرِ مشَقَّةٍ[(٤)].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٨٤)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٣١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٩٤).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٨٤، ٥٠٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٠٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤١٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٢٤).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٠٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٨٤)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٤٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣١٨).

(٤) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ٦٨)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٦١١)، ((تفسير السمعاني)) (١/ ٣٩٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٤٦).

﴿أَسْلَفْتُمْ﴾: أي: قدَّمْتُم، والسَّلَفُ: المتقدِّمُ، وأصلُ (سلف): يدُلُّ على تَقَدُّمٍ وسَبْقٍ(١).

﴿الْخَالِيَةِ﴾: أي: الماضيةِ في الدُّنيا، وأصلُ (خلو): يدُلُّ على تعَرِّي الشَّيءِ مِنَ الشَّيءِ(٢).

المعنى الإجماليُّ:

يُبيِّنُ الله تعالى ما أعدَّه لِمَن أُوتيَ كتابَه بيَمينِه في هذا اليَومِ، فيقولُ: فأمَّا مَن أُعطِيَ كِتابَ أعمالِه بيَمينِه فيَقولُ مُستَبشِرًا فَرِحًا: خُذُوا اقرؤُوا كتابي، وانظُروا ما فيه مِن حَسَناتي! إنِّي تيَقَّنْتُ في الدُّنيا أنِّي سأُبعَثُ وألْقَى حِسابي يومَ القيامةِ؛ فهو في عِيشةٍ حَسَنةٍ، في جنَّةٍ مُرتَفِعةٍ، عاليةِ المباني والقُصورِ والأشجارِ، ثمارُها قَريبةٌ، يَسهُلُ تَناوُلُها، يُقالُ لهم: كُلُوا واشرَبوا مُتهَنِّئينَ بسببِ ما قدَّمْتُموه مِنَ الأعمالِ الصَّالحةِ في أيَّامِ الدُّنيا الماضيةِ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ (١٩)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

بعدَ أنْ ذكَرَ الله تعالى أنَّهم يُعرَضونَ عليه، ولا يَخفَى عليه شيءٌ مِن أعمالِهم- فصَّلَ أحكامَ هذا العرضِ(٣)، فقال:

﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ (١٩)﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٣٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٩٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٢٠)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ١١٦).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٠٤)، ((البسيط)) للواحدي (٢٢/ ١٧٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣٦٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير المراغي)) (٢٩/ ٥٦).

أي: فأمَّا مَن أُعطِيَ كِتابَ أعمالِه بيَدِه اليُمنى -وذلك دليلُ نَجاتِه- فإنَّه يقولُ فَرِحًا مُستَبشِرًا: خُذُوا اقرؤُوا كتابي، وانظُروا ما فيه مِن حَسَناتي[(١)]!

كما قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ * فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا * وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا﴾ [الانشقاق: ٧ - ٩].

وعن ابنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: سَمِعتُ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٣١)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٤٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٦٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢١٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٣٠، ١٣١).

قال البِقاعي: (خُذُوا أيُّها الحاضِرونَ مِنَ الخَلائِقِ الملائِكةُ وغَيرُهم). ((نظم الدرر)) (٢٠/ ٣٦٠).

وقال ابنُ عاشور: (الخِطابُ في قولِه: ﴿هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟﴾ للصَّالحينَ مِن أهلِ المَحشَرِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٣١).

ممَّن اختار أنَّ معنى ﴿هَآؤُمُ﴾: خُذُوا: الزمخشريُّ، والرازي، والرَّسْعَني، والبيضاوي، وابن كثير، والبِقاعي، والعُلَيمي، وجلال الدين المحلي، ونَسَبَه الواحديُّ إلى أهلِ اللُّغةِ. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٠٢)، ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦٢٧)، ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٢٥٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٤١)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢١٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣٦٠)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ١٤٦)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٧٦٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٤٦).

وقيل: معنى قَولِه: ﴿هَآؤُمُ﴾: تعالَوا. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: ابنُ جرير، والسمرقنديُّ، والثعلبي، والواحدي، والسمعاني، وابن عطية. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٣١)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٤٩١)، ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ٣٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٤٦)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٣٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٦٠).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلَفِ: ابنُ زَيد. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٣١).

وقال ابنُ عاشور: (﴿هَآؤُمُ﴾ بتَصاريفِه مُعَتَبرٌ اسمَ فِعلِ أمرٍ، بمعنى: خُذْ... وبمعنى: تعالَ أيضًا). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٣١).

وقال السعدي: (﴿هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ﴾ أي: دُونَكم كِتابي فاقرَؤُوه؛ فإنَّه يُبشِّرُ بالجنَّاتِ، وأنواعِ الكراماتِ، ومَغفرةِ الذُّنوبِ، وسَترِ العُيوبِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٣).

يقولُ: ((إنَّ اللهَ يُدْني المؤمِنَ، فيَضَعُ عليه كَنَفَه[١] ويَستُرُه، فيقولُ: أتَعْرِفُ ذَنْبَ كَذا؟ أتعرِفُ ذَنبَ كَذا؟ فيقولُ: نعم، أيْ رَبِّ! حتَّى إذا قرَّرَه بذُنوبِه، ورأى في نَفْسِه أنَّه هَلَكَ، قال: ستَرْتُها عليك في الدُّنيا، وأنا أغفِرُها لك اليَومَ، فيُعطَى كِتابَ حَسَناتِه))[٢].

﴿إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَٰقٍ حِسَابِيَهۡ ۝٢٠﴾.

أي: إنِّي كُنتُ قد عَلِمتُ وأيقَنْتُ في الدُّنيا أنِّي سأُبعَثُ، وألْقَى حِسابي يومَ القيامةِ، فحرَصْتُ على القيامِ بالصَّالحاتِ؛ تأهُّبًا لذلك اليَومِ[٣].

﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٖ رَّاضِيَةٖ ۝٢١﴾.

أي: فهو في عِيشةٍ حَسَنةٍ، شَديدُ الرِّضا بها، قد وَجَد فيها عظيمَ الثَّوابِ، والأمنَ والسَّلامةَ مِن العِقابِ[٤].

(١) كَنَفَه: سَتْرَه. يُنظر: ((خلق أفعال العباد)) للبخاري (ص: ٧٨)، ((شرح النووي على مسلم)) (١٧/ ٨٧).

(٢) رواه البخاري (٢٤٤١) واللفظ له، ومسلم (٢٧٦٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٣٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٦٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٧٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢١٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٣).

قال ابنُ عطية: (﴿ظَنَنتُ﴾ هنا واقِعةٌ موقِعَ تيقَّنْتُ، وهي في متيقَّنٍ لم يقَعْ بَعدُ ولا خرجَ إلى الحِسِّ، وهذا هو بابُ الظَّنِّ الَّذي يوقَعُ مَوقِعَ اليَقينِ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٦٠). ويُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٣١، ١٣٢).

قال القرطبي: (﴿إِنِّي ظَنَنتُ﴾ أي: أيقَنْتُ وعَلِمتُ، عن ابنِ عبَّاسٍ وغيرِه. وقيل: أي: إنِّي ظننتُ إنْ يؤاخِذْني اللهُ بسَيِّئاتي عذَّبَني، فقد تفضَّل علَيَّ بعَفوِه ولم يؤاخِذْني بها). ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٧٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٣٣)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٤٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٧٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢١٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣٦٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٣٢، ١٣٣). =

عن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((مَن يَدخُلُ الجنَّةَ يَنْعَمُ لا يَبْأَسُ، لا تَبْلى ثيابُه، ولا يَفْنى شَبابُه))[1].

وعن أبي سَعيدٍ الخُدْريِّ وأبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنهما، عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((يُنادي مُنادٍ: إنَّ لكم أن تَصِحُّوا فلا تَسْقَموا أبَدًا، وإنَّ لكم أن تَحْيَوا فلا تَموتوا أبدًا، وإنَّ لكم أن تَشِبُّوا فلا تَهرَموا أبدًا، وإنَّ لكم أن تَنْعَموا فلا تَبْأَسوا أبدًا))[2].

﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ (٢٢)﴾.

= ممَّن اختار أنَّ ﴿رَّاضِيَةٍ﴾ بمعنى مَرْضيَّة: الفرَّاءُ، وأبو عُبَيدةَ، وابنُ جرير، وابنُ أبي زَمَنِين، والثعلبيُّ، والماوَرْدي، والبغوي، وابنُ كثير، وجلال الدين المحلي، والعُلَيمي. يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٢/ ١٦)، ((مجاز القرآن)) لأبي عبيدة (٢/ ٢٦٨)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٣٣)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٥/ ٣١)، ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ٣٠)، ((تفسير الماوردي)) (٦/ ٨٣)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ١٤٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢١٤)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٧٦٣)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ١٤٦).

قال ابن جرير: (في عِيشةٍ مَرْضيَّةٍ، أو عيشةٍ فيها الرِّضا، فوُصِفَت العيشةُ بالرِّضا وهي مَرْضيَّةٌ؛ لأنَّ ذلك مدحٌ للعِيشةِ، والعربُ تفعلُ ذلك في المدحِ والذَّمِّ، فتقولُ: هذا لَيلٌ نائم، وسِرٌّ كاتمٌ، وماءٌ دافِقٌ، فيُوَجِّهونَ الفعلَ إليه، وهو في الأصلِ مفعولٌ؛ لِما يُرادُ من المدحِ أو الذَّمِّ. ومَن قال ذلك لم يَجُزْ له أن يقولَ للضَّاربِ مَضروبٌ، ولا للمَضروبِ ضارِبٌ؛ لأنَّه لا مدحَ فيه ولا ذَمَّ). ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٣٣).

وقال السَّمعانيُّ وأبو حيَّانَ: ذات رضا. يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٤٠)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٦١).

وقال الزَّجَّاجُ في نظيرِ هذه الآيةِ مِن سورةِ القارعة الآية (٧): (معنى ﴿فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾: ذاتِ رِضًا، يَرضاها مَن يعيشُ فيها. وقال قومٌ: معناه: مَرْضيَّةٍ، وهو يعودُ إلى هذا المعنى في التَّفسيرِ). ((معاني القرآن وإعرابه)) (٥/ ٣٥٥). ويُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٤٢٣).

ويُنظر ما سيأتي في البلاغةِ (ص: ٧٦).

(١) رواه مسلم (٢٨٣٦).

(٢) رواه مسلم (٢٨٣٧).

أي: في جنَّةٍ مُرتَفِعةِ المكانِ، عاليةِ المباني والقُصورِ والأشجارِ[١].

﴿قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ۝٢٣﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا وَصَفَها بالعُلُوِّ، وشأنُ المكانِ العالي أن تكونَ أشجارُه كذلك، فأزال ذلك بأنَّها مع عُلُوِّها فثِمارُها قريبةُ التَّناوُلِ، سَهلةُ المأخَذِ[٢].

﴿قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ۝٢٣﴾.

أي: ثمارُ أشجارِ تلك الجنَّةِ قَريبةٌ، يَسهُلُ تَناوُلُها لِمَن يُريدُ قَطْفَها؛ فلا كُلْفةَ ولا مَشقَّةَ عليهم في أخْذِها[٣].

كما قال تعالى: ﴿وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا﴾ [الإنسان: ١٤].

وقال سُبحانَه: ﴿وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ﴾ [الرحمن: ٥٤].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٣٣)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٠٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٦٠)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٦١)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢١٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٣).

قال الزمخشري: (﴿عَالِيَةٍ﴾ مُرتفعةِ المكانِ في السَّماءِ، أو رفيعةِ الدَّرَجاتِ، أو رفيعةِ المباني والقُصورِ والأشجارِ). ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٠٣).

وقال السعدي: (﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ﴾ المنازلِ والقصورِ، عاليةِ المحلِّ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٣).

وقال البقاعي: (﴿عَالِيَةٍ﴾ أي: في المكانِ والمكانةِ والأبنيةِ والدَّرَجاتِ والأشجارِ، وكُلِّ اعتبارٍ). ((نظم الدرر)) (٢٠/ ٣٦٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عرفة)) (٤/ ٢٨١). ويُنظر أيضًا: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣٦٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٣٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٧٠)، ((حادي الأرواح)) لابن القيم (ص: ١٧٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢١٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣٦٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٣٣).

﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾﴾.

أي: يُقالُ لأهلِ الجنَّةِ: كُلُوا مِن طعامِ الجنَّةِ، واشرَبوا مِن شَرابِها، مُتهَنِّئين في أكْلِكم وشُربِكم بالطَّيِّبِ اللَّذيذِ الَّذي لا يَصحَبُه أذًى ولا تكديرٌ ولا تنغيصٌ، وهذا الجزاءُ المقدَّمُ لكم؛ بسَبَبِ ما قدَّمْتُموه مِن الأعمالِ الصَّالحةِ في أيَّامِ الدُّنيا الماضيةِ(١).

كما قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝ لَكُمْ فِيهَا فَـٰكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ [الزخرف: ٧٢، ٧٣].

وقال سُبحانَه: ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الطور: ١٩].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- يُستحَبُّ تقديمُ اليمينِ في كلِّ ما هو مِن بابِ التَّكريمِ؛ كالوُضوءِ، والغُسلِ، والتَّيمُّمِ، ولُبسِ الثَّوبِ والنَّعلِ والخُفِّ والسَّراويلِ، ودُخولِ المَسجِدِ، والسِّواكِ، والاكتِحالِ، وتقليمِ الأظفارِ، وقَصِّ الشَّارِبِ، ونَتْفِ الإبْطِ، وحَلْقِ الرَّأسِ، والسَّلامِ مِنَ الصَّلاةِ، والأكلِ والشُّربِ، والمصافَحةِ، واستِلامِ الحَجَرِ الأسوَدِ، والخُروجِ مِنَ الخَلاءِ، والأخْذِ والعَطاءِ، وغيرِ ذلك ممَّا هو في معناه؛ قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَـٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَـٰبِيَهْ﴾، وقال تعالى: ﴿فَأَصْحَـٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَـٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ۝ وَأَصْحَـٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ مَآ أَصْحَـٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ﴾ [الواقعة: ٨، ٩]، وعن عائشة رَضِيَ اللهُ عنها، قالت: ((كان رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يُعجِبُه التَّيَمُّنُ:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٣٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٦٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٧٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣٦٤، ٣٦٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٣).
قال ابن عطيَّة: (قال وكيعٌ وابنُ جُبَيرٍ وعبدُ العزيزِ بنُ رُفَيْعٍ: المرادُ: بما أسْلَفْتُم مِن الصَّومِ. وعُمومُها في كلِّ الأعمالِ أَوْلى وأحسَنُ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٦٠).

في طُهورِه، وترَجُّلِه، وتنَعُّلِه، في شأنِه كُلِّه))[(١)]. وعنها رَضِيَ اللهُ عنها، قالت: ((كانت يدُ رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم اليُمنى لطُهورِه وطعامِه، وكانت اليُسْرى لخَلائِه وما كان مِن أذًى))[(٢)].

٢- عن الحسنِ في قولِه عزَّ وجلَّ: ﴿هَآؤُمُ ٱقۡرَءُواْ كِتَٰبِيَهۡ * إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَٰقٍ حِسَابِيَهۡ﴾ قال: (إنَّ المؤمِنَ أحسَنَ الظَّنَّ بربِّه فأحسَنَ العملَ، وإنَّ المنافقَ أساء الظَّنَّ فأساء العملَ)[(٣)].

وكان بعضُ أهلِ العلمِ يقولُ: (إنِّي وجدْتُ أكيسَ النَّاسِ مَن قال: ﴿هَآؤُمُ ٱقۡرَءُواْ كِتَٰبِيَهۡ * إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَٰقٍ حِسَابِيَهۡ﴾ ظنَّ ظنًّا يقينًا فنفَعه الله بظنِّه)[(٤)].

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ هَنِيٓـَٔۢا بِمَآ أَسۡلَفۡتُمۡ فِي ٱلۡأَيَّامِ ٱلۡخَالِيَةِ﴾ أي: مِنَ الأعمالِ الصَّالحةِ؛ مِن صَلاةٍ، وصِيامٍ، وصَدَقةٍ، وحَجٍّ، وإحسانٍ إلى الخَلقِ، وذِكرٍ للهِ، وإنابةٍ إليه؛ فالأعمالُ جعَلَها اللهُ تعالى سَبَبًا لدُخولِ الجنَّةِ، ومادَّةً لنَعيمِها، وأصلًا لسعادتِها[(٥)].

٤- قَولُه تعالى: ﴿كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ هَنِيٓـَٔۢا بِمَآ أَسۡلَفۡتُمۡ فِي ٱلۡأَيَّامِ ٱلۡخَالِيَةِ﴾ خرَج ابنُ عُمَرَ في بعضِ نواحي المَدينةِ ومعه أصحابٌ له، ووضَعوا سُفرةً لهم، فمَرَّ بهم راعي

---

(١) أخرجه البخاري (١٦٨) واللَّفظُ له، ومسلم (٢٦٨).

(٢) يُنظر: ((رياض الصالحين)) للنووي (ص: ٢٤١).

والحديث أخرجه أبو داودَ (٣٤)، وأحمدُ (٢٦٢٨٣) واللَّفظُ له.

صحَّحه النوويُّ في ((المجموع)) (٢/ ١٠٨)، والألبانيُّ في ((صحيح سنن أبي داود)) (٣٤)، وحسَّنه ابن حجر في ((نتائج الأفكار)) (١/ ١٤٤)، وصحَّح إسنادَه العراقيُّ في ((طرح التثريب)) (٢/ ٧١)، وشعيبٌ الأرناؤوط في تخريج ((سنن أبي داود)) (٣٤).

(٣) أخرجه أبو نعيم في ((حلية الأولياء)) (٢/ ١٤٤).

(٤) يُنظر: ((الدر المنثور)) للسيوطي (٨/ ٢٧٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٣).

غَنَمٍ، فَسلَّمَ، فقال ابنُ عُمَرَ: هَلُمَّ يا راعي، هَلُمَّ فأَصِبْ مِن هذه السُّفرةِ، فقال له: إنِّي صائمٌ، فقال ابنُ عُمَرَ: أتصومُ في مِثلِ هذا اليومِ الحارِّ الشَّديدِ سَمومُه، وأنت في هذه الجبالِ ترعى هذه الغنَمَ؟! فقال له: إنِّي واللهِ أبادِرُ أيَّامي الخاليةَ[١]!

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُواْ كِتَٰبِيَهْ﴾ دليلٌ على أنَّه لا يدعو إلى قراءةِ كِتابِه إلَّا وقد مُحِيَتْ منه سيِّئاتُه، وبَقِيَتْ حَسَناتُه؛ فقَرَّت بذلك عيْنُه، فعَرَضه على مَن يَقْرَؤُه وهو قريرُ العَينِ؛ إذ مُحالٌ أنْ يَعرِضَ عليهم قِراءةَ سيِّئاتِه[٢]!

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ﴾، فيه سُؤالٌ: كيف عبَّرَ بأنَّه يَظُنُّ ذلك مع أنَّه يَعلَمُه؟

الجوابُ: أنَّ الظَّنَّ يكونُ بمعنَى اليقينِ، فمعنى قولِه: ﴿إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ﴾ أي: استيَقَنْتُ[٣]، قال الضَّحَّاكُ: (كلُّ ظَنٍّ في القرآنِ مِن المؤمنِ فهو يقينٌ، ومِن الكافرِ فهو شكٌّ)[٤].

وللفرقِ بينَهما في القرآنِ ضابطان:

أحدُهما: أنَّه حيثُ وُجِد الظَّنُّ محمودًا مثابًا عليه فهو اليقينُ، وحيثُ وُجِد مذمومًا متوعَّدًا بالعقابِ عليه فهو الشَّكُّ.

الثَّاني: أنَّ كلَّ ظنٍّ يتَّصِلُ بعدَه «أنْ» الخفيفةُ فهو شكٌّ، كقولِه: ﴿إِن ظَنَّآ أَن

(١) أخرجه البيهقي في ((شعب الإيمان)) (٤٩٠٨).

(٢) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٣٩٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (١/ ٧٥). وقيل غير ذلك. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦٢٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٤١)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٢٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٦/ ٨٣).

﴿يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٣٠]، وقوله تعالى: ﴿بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ﴾ [الفتح: ١٢]. وكلَّ ظنٍّ يتَّصِلُ به «أنَّ» المشدَّدةُ فالمرادُ به اليقينُ، كقولِه: ﴿إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ﴾ [الحاقة: ٢٠] ﴿وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلْفِرَاقُ﴾ [القيامة: ٢٨]، والمعنى فيه أنَّ المشددةَ للتأكيدِ فدخَلتْ على اليقينِ، وأنَّ الخفيفةَ بخلافِها فدخَلتْ في الشكِّ، مثال الأوَّلِ قولُه سبحانَه: ﴿وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا﴾ [الأنفال: ٦٦] ذُكِر بـ «أنَّ»، وقولُه: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [محمد: ١٩]، ومثالُ الثَّاني: ﴿وَحَسِبُوٓاْ أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ [المائدة: ٧١] والحسبانُ الشَّكُّ.

فإنْ قِيل: يَرِدُ على هذا الضابطِ قولُه تعالى: ﴿وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ﴾ [التوبة: ١١٨].

قيل: لأنَّها اتَّصلتْ بالاسمِ. فتمسَّكْ بهذا الضابطِ فإنَّه مِن أسرارِ القرآنِ(١).

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ﴾ فيه سؤالٌ: أليس أنَّ مَنازلَ البَعضِ فَوقَ مَنازِلِ الآخَرينَ، فهؤلاء الَّذين تكونُ مَنازِلُهم أدنَى مِن غيرِهم لا يكونونَ في الجنَّةِ العاليةِ؟

الجوابُ: أنَّ كَونَ بَعضِها دونَ بَعضٍ لا يَقدَحُ في كَونِها عاليةً، وفوق السَّمواتِ، وإن أُريدَ العُلُوُّ في الدَّرَجةِ والشَّرَفِ فالأمرُ كذلك، وإن أُريدَ به كونُ تلك الأبنيةِ عاليةً مُشرِفةً فالأمرُ أيضًا كذلك(٢).

٤- قَولُه تعالى: ﴿كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ هَنِيٓـًٔا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِي ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ﴾ هل يُنافي ما ثَبَتَ في الصَّحيحِ عنِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أنَّه قال: ((لا يَدخُلُ أحدٌ منكم

(١) يُنظر: ((البرهان في علوم القرآن)) للزركشي (٤/ ١٥٦، ١٥٧)، ((الإتقان في علوم القرآن)) للسيوطي (٢/ ٢٣٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦٢٩).

الجنَّةَ بعَمَلِه. قالوا: ولا أنتَ يا رسولَ اللهِ؟! قال: ولا أنا إلَّا أنْ يَتغمَّدَنِيَ اللهُ منه برَحمةٍ وفَضْلٍ))[١]!

والجوابُ: أنَّ هذا لا يُنافيه؛ فإنَّ القرآنَ أثبَتَ «باءَ» السَّبَبِ، والرَّسولَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم نفى «باءَ» المقابَلةِ والمعادَلةِ[٢]، والتَّقديرُ: لن يَستَحِقَّ أحدٌ دُخولَ الجَنَّةِ بعَمَلٍ يَعمَلُه، فأزال بذلك توَهُّمَ مَن يَتَوَهَّمُ أنَّ الجَنَّةَ ثَمَنُ الأعمالِ، وأنَّ صاحِبَ العَمَلِ يَستحِقُّ على اللهِ دُخولَ الجَنَّةِ كما يَستحِقُّ مَن دَفَع ثمَنَ سِلعةٍ إلى صاحِبِها تسليمَ سِلْعَتِه، فنَفَى بذلك هذا التَّوَهُّمَ، وبَيَّنَ أنَّ العمَلَ وإنْ كان سببًا لدخولِ الجَنَّةِ فإنَّما هو مِن فَضْلِ اللهِ ورحمتِه، فصار الدُّخولُ مُضافًا إلى فَضْلِ اللهِ ورَحمتِه ومغفرتِه؛ لأنَّه هو المُتَفَضِّلُ بالسَّبَبِ والمسبَّبِ المرتَّبِ عليه، ولم يَبْقَ الدُّخولُ مُرَتَّبًا على العَمَلِ نَفْسِه[٣].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ﴾ إثباتُ الأسبابِ[٤].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ﴾ الفاءُ في ﴿فَأَمَّا﴾ تَفصيلٌ لِما يَتضمَّنُه ﴿تُعْرَضُونَ﴾ [الحاقة: ١٨]؛ إذ العرْضُ عرْضٌ للحسابِ والجزاءِ، فإيتاءُ الكتابِ هو إيقافُ كلِّ واحدٍ على صَحيفةِ أعمالِه[٥].

(١) أخرجه البخاريُّ (٥٦٧٣)، ومسلمٌ (٢٨١٦)، وأحمدُ (٧٤٧٩) واللَّفظُ له، مِن حديث أبي هُرَيرةَ رضيَ اللهُ عنه.

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١١/ ٢٥٦).

(٣) يُنظر: ((مجموع رسائل ابن رجب)) (٤/ ٣٩٣).

(٤) يُنظر: ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ١٨٨). ويُنظر ما تقدَّم (ص: ٤٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٠٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٤١)، ((تفسير أبي =

- ودلَّ قولُه: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ﴾ على كَلامٍ مَحذوفٍ للإيجازِ، تَقديرُه: فيُؤتى كلُّ أحدٍ كِتابَ أعمالِه؛ فأمَّا مَن أُوتيَ كِتابَه... إلخ[(١)].

- قولُه: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ﴾ قاله بالفاءِ، وبعْدَه: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ﴾ [الحاقة: ٢٥] بالواوِ؛ لأنَّ الأوَّلَ مُتَّصلٌ بأحوالِ القيامةِ وأهْوالِها، فاقْتَضى الفاءَ للتَّعقيبِ، والثَّانيَ مُتَّصلٌ بالأوَّلِ، فأُدخِلَ الواوُ؛ لأنَّه للجمْعِ[(٢)].

- وإيتاءُ الكتابِ باليمينِ عَلامةٌ على أنَّه إيتاءُ كَرامةٍ وتَبشيرٍ، والعرَبُ يَذْكُرون التَّناوُلَ باليمينِ كِنايةً عن الاهتِمامِ بالمأخوذِ، والاعتِزازِ به[(٣)].

- قولُه: ﴿فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُواْ كِتَٰبِيَهْ﴾ جوابُ شرْطِ (أمَّا)، وهو مُغْنٍ عن خبَرِ المُبتدَأِ، وهذا القولُ قولُ ذي بَهجةٍ وحُبورٍ يَبعثانِ على إطْلاعِ النَّاسِ على ما في كِتابِ أعمالِه مِن جَزاءٍ في مَقامِ الاغتِباطِ والفَخارِ، ففيه كِنايةٌ عن كَونه في حُبورٍ ونَعيمٍ؛ فإنَّ المعنى الكِنائيَّ هو الغرَضُ الأهمُّ مِن ذِكرِ العَرْضِ[(٤)].

- والهاءُ في ﴿كِتَٰبِيَهْ﴾ ونَظائرِها للسَّكتِ حينَ الوقْفِ، وحَقُّ هذه الهاءِ أنْ تَثبُتَ في الوقْفِ وتَسقُطَ في الوصْلِ، وقدْ أُثبِتَتْ في هذه الآيةِ في الحالَينِ عندَ جُمهورِ القُرَّاءِ[(٥)]، وكُتِبَت في المصاحفِ، فعُلِمَ أنَّها للتَّعبيرِ عن الكلامِ

= حيان)) (١٠/ ٢٦٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٢٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٢٩)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ١٩٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٣٠).

(٢) يُنظر: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ٢٣٩، ٢٤٠)، ((بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز)) للفيروزابادي (١/ ٤٧٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٣٠).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((النشر في القراءات العشر)) لابن الجزري (٢/ ١٤٢).

المحكيِّ بلُغةِ ذلك القائلِ بما يُرادِفُه في الاستِعمالِ العربيِّ؛ لأنَّ الاستِعمالَ أنْ يَأتِيَ القائلُ بهذه الهاءِ بالوقْفِ على كِلْتا الجُملتَينِ، ولأنَّ هذه الكلماتِ وقَعَت فَواصِلَ، والفواصلُ مِثلُ الأسجاعِ تُعتبَرُ بحالةِ الوقْفِ، مِثلُ القَوافي، فلو قِيل: (اقْرؤوا كِتابِيَ؛ إنِّي ظَنَنتُ أنِّي مُلاقٍ حِسابيَ) سقَطَت فاصِلَتانِ، وذلك تَفريطٌ في مُحسِّنَينِ[١].

٢- قولُه تعالَى: ﴿إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ﴾ في مَوقعِ التَّعليلِ للفرَحِ والبَهجةِ الَّتي دلَّ عليهما قولُه: ﴿هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ﴾، وبذلك يكونُ حرْفُ (إنَّ) لمجرَّدِ الاهتِمامِ، وإفادةِ التَّسبُّبِ[٢].

- وقولُه: ﴿إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ﴾ خبَرٌ مُستعمَلٌ كِنايةً عن استِعدادِه للحسابِ بتَقديمِ الإيمانِ والأعمالِ الصَّالحةِ ممَّا كان سبَبَ سَعادتِه[٣].

٣- قولُه تعالَى: ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ * فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ * قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ﴾

- مَوقعُ قولِه: ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾ مَوقعُ التَّفريعِ على ما تَقدَّمَ مِن إيتائِه كِتابَه بيَمينِه، وما كان لذلك مِن أثَرِ المَسرَّةِ والكرامةِ في المَحشرِ؛ فتَكونُ الفاءُ لتَفريعِ ذِكرِ هذه الجُملةِ على ذِكرِ ما قبْلَها. ولك أنْ تَجعَلَها بدَلَ اشتِمالٍ مِن جُملةِ ﴿فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ﴾؛ فإنَّ ذلك القولَ اشتَمَلَ على أنَّ قائلَه في نَعيمٍ، وإعادةُ الفاءِ مع الجُملةِ مِن إعادةِ العاملِ في المبدَلِ منه مع البدَلِ للتَّأكيدِ[٤].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٣١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ١٣٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ١٣١، ١٣٢).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ١٣٢).

- قولُه: ﴿رَّاضِيَةٍ﴾ فيه ثلاثةُ أقوالٍ؛ الأوَّلُ: أنَّها على النَّسبِ، أي: ذاتِ رِضًا، نحوُ (لابِنٌ وتامرٌ)؛ لصاحبِ اللَّبنِ والتَّمرِ، أي: ثابتٌ لها الرِّضا ودائمٌ لها؛ لأنَّها في غايةِ الحُسنِ والكمالِ، والعرَبُ لا تُعبِّرُ عن أكثرِ السَّعاداتِ بأكثرَ مِن العِيشةِ الرَّاضيةِ، بمعْنى أنَّ أهلَها راضُون بها، والمُعتبَرُ في كَمالِ اللَّذَّةِ الرِّضا. الثَّاني: أنَّها على إظهارِ جَعْلِ المعيشةِ راضيةً لمَحلِّها، وحُصولِها في مُستحقِّها، وأنَّه لو كان للمَعيشةِ عقْلٌ لَرَضِيَت لنفْسِها بحالتِها. الثَّالثُ: أنَّ هذا ممَّا جاء فيه فاعِلٌ بمعْنى مَفعولٍ، بمعْنى أنَّ صاحبَها يَرْضى بها ولا يَسخَطُها[1].

- والعُلوُّ: الارتفاعُ، وهو مِن مَحاسِنِ الجنَّاتِ؛ لأنَّ صاحبَها يُشرِفُ على جِهاتٍ مِن مُتَّسعِ النَّظرِ، ولأنَّه يَبدو له كثيرٌ مِن مَحاسِنِ جنَّتِه حينَ يَنظُرُ إليها مِن أعْلاها أو وَسَطِها ممَّا لا يَلوحُ لنَظَرِه لو كانت جنَّتُه في أرضٍ مُنبسِطةٍ، وذلك مِن زِيادةِ البهجةِ والمَسرَّةِ؛ لأنَّ جَمالَ المَناظرِ مِن مَسرَّاتِ النَّفْسِ ومِن النِّعَمِ. وجُوِّزَ أنْ يُرادَ أيضًا بالعُلوِّ عُلوُّ القَدْرِ، مِثلُ: فلانٌ ذو دَرجةٍ رفيعةٍ، وبذلك كان للَفْظِ ﴿عَالِيَةٍ﴾ هنا ما ليس لقولِه: ﴿كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ﴾ [البقرة: ٢٦٥]؛ لأنَّ المرادَ هنالك جنَّةٌ مِن الدُّنيا[2].

٤- قولُه تعالَى: ﴿كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ هَنِيٓـَٔۢا بِمَآ أَسۡلَفۡتُمۡ فِي ٱلۡأَيَّامِ ٱلۡخَالِيَةِ﴾ مقولُ قَولٍ مَحذوفٍ، وهو ومَقولُه في مَوضعِ صِفةٍ لـ﴿جَنَّةٍ﴾؛ إذ التَّقديرُ: يُقالُ للفريقِ

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٠٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٤١)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٢٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٣٢، ١٣٣)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٢٠٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٦١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٣٣).

الَّذين يُؤتَون كُتبَهم بأيْمانِهم حينَ يَستقِرُّون في الجنَّةِ: ﴿كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ ...﴾ إلخ. ويَجوزُ أنْ تكونَ الجُملةُ خبرًا ثانيًا عن الضَّميرِ في قولِه: ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٖ رَّاضِيَةٖ﴾[(١)].

- وإنَّما أُفرِدَت ضَمائرُ الفريقِ الَّذي أُوتِيَ كِتابَه بيَمينه فيما تَقدَّمَ، ثمَّ جاء الضَّميرُ ضَميرَ جمْعٍ عندَ حِكايةِ خِطابِهم؛ لأنَّ هذه الضَّمائرَ السَّابقةَ حُكِيَت معها أفعالٌ ممَّا يَتلبَّسُ بكلِّ فرْدٍ مِن الفريقِ عندَ إتمامِ حِسابِه. وأمَّا ضَميرُ ﴿كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ﴾ فهو خِطابٌ لجَميعِ الفريقِ بعْدَ حُلولِهم في الجنَّةِ، كما يَدخُلُ الضُّيوفُ إلى المأْدُبةِ، فيُحيِّي كلَّ داخلٍ منهم بكلامٍ يَخُصُّه، فإذا استَقرُّوا أقبَلَ عليهم مُضيِّفُهم بعِباراتِ الإكرامِ[(٢)].

وأيضًا لَمَّا كان كونُ الثِّمارِ بهذه الصِّفةِ دالًّا على كَثرةِ الريِّ، وكَثرةُ الريِّ دالَّةً على المشربِ، وكانت مِن مُفرَداتِ اللَّفظِ عامَّةَ المعنى، فكان قدْ أُفرِدَ الضَّمائرُ باعتبارِ لَفْظِها تَنصيصًا على كلِّ فرْدٍ فرْدٍ، جَمَعَ باعتبارِ المعنى إعلامًا باشتراكِ جَميعِ أهْلِها في النِّعَمِ حالَ الانفرادِ والاجتماعِ، فقال: ﴿كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ﴾[(٣)].

- قولُه: ﴿هَنِيٓـَٔۢا﴾ يَجوزُ أنْ يكونَ فَعيلًا بمعْنى فاعلٍ؛ إذا ثَبَتَ له الهناءُ، فيكونَ مَنصوبًا على النِّيابةِ عن المفعولِ المطلَقِ؛ لأنَّه وصْفُه، وإسنادُ الهناءِ للأكْلِ والشُّربِ؛ لأنَّهما مُتلبِّسانِ بالهناءِ للآكِلِ والشَّارِبِ. ويجوزُ أنْ يكونَ اسمَ فاعلٍ مِن غيرِ الثُّلاثيِّ بوزْنِ ما للثُّلاثيِّ، والتَّقديرُ: مُهنِّئًا، أي: سَببَ هَناءٍ. ويجوزُ أنْ يكونَ فَعيلًا بمعْنى مَفعولٍ، أي: مَهْنِئيًا به. وعلى الاحتِمالاتِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٣٣، ١٣٤)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٢٠١).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٣٤).
(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣٦٤).

كلِّها فإفرادُ ﴿هَنِيٓـًٔا﴾ في حالِ أنَّه وصْفٌ لشَيئينِ بِناءٌ على أنَّ فَعيلًا بمعْنى فاعلٍ لا يُطابِقُ مَوصوفَه، أو على أنَّه إذا كان صِفةً لمصدرٍ فهو نائبٌ عن مَوصوفِه، والوصفُ بالمصدرِ لا يُثنَّى ولا يُجمَعُ ولا يُؤنَّثُ[١].



(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٣٤).

الآيات (٢٥ - ٢٧)

﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾ يَٰلَيْتَهَا
كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَٰنِيَهْ ﴿٢٩﴾ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ
صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ ﴿٣٢﴾ إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾
وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣٤﴾ فَلَيْسَ لَهُ ٱلْيَوْمَ هَٰهُنَا حَمِيمٌ ﴿٣٥﴾ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ﴿٣٦﴾ لَّا
يَأْكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلْخَٰطِـُٔونَ ﴿٣٧﴾﴾.

غَريبُ الكَلِمات:

﴿فَغُلُّوهُ﴾: أي: فشُدُّوه بالأغلالِ، واجعَلوها في عُنقِه، وقَيِّدوه، أو: اجمَعوا يدَه إلى عُنقِه بالأغلالِ، وأصلُ (غلل): يدُلُّ على تخَلُّلِ شَيءٍ وثَباتِ شَيءٍ(١).

﴿صَلُّوهُ﴾: أي: اغمُروه فيها وأَورِدُوه، يُقالُ: أصلَيْتُه النَّارَ وصلَّيتُه: إذا أورَدْتَه إيَّاها، وصَلِيَ النَّارَ وصَلِيَ بها صُليًّا، وصِلِيًّا، وصلًى: قاسَى حَرَّها وشِدَّتَها، وأصلُ الصَّلَى: الإيقادُ بالنَّارِ(٢).

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣٧٥، ٣٧٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٤٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦١٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٦١)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٧٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢١٦).
قال البخاريُّ في ((صحيحه)) عقبَ حديث (٧٠١٧): (لا تَكونُ الأغلالُ إلَّا في الأعناقِ).
قال ابن حجر: (كأنَّه يُشيرُ إلى الرَّدِّ على مَن قال: قد يكونُ الغُلُّ في غيرِ العُنقِ كاليَدِ والرِّجْلِ، والغُلُّ بضَمِّ المُعجَمةِ وتشديدِ اللَّامِ: واحدُ الأغلالِ، قال: وقد أطلَق بعضُهم الغُلَّ على ما تُربَطُ به اليدُ، وممَّن ذكره أبو عليٍّ القالي وصاحِبُ «المُحكَم» وغيرُهما، قالوا: الغُلُّ جامعةٌ تُجعلُ في العُنقِ أو اليدِ، والجمعُ أغلالٌ، ويدٌ مَغلولةٌ: جُعِلت في الغُلِّ، ويؤيِّدُه قولُه تعالى: ﴿غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ﴾ [المائدة: ٦٤]، كذا استشهد به الكرمانيُّ، وفيه نظرٌ؛ لأنَّ اليدَ تُغَلُّ في العُنقِ). ((فتح الباري)) (١٢/ ٤٠٩). ويُنظر: ((المحكم والمحيط الأعظم)) لابن سِيدَه (٥/ ٣٧٠)، ((الكواكب الدراري)) للكرماني (٢٤/ ١٢١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٣٧)، ((البسيط)) للواحدي (١٤/ ٢٩٢) و(٢٢/ ١٧٧)، =

﴿فَٱسۡلُكُوهُ﴾: أي: فاجْعَلُوه فيها، وأصلُ (سلك): يدُلُّ على نُفوذِ شَيءٍ في شَيءٍ(١).

﴿حَمِيمٌ﴾: أي: قَريبٌ مُشفِقٌ، وحميمُ الرَّجُلِ: خاصَّتُه، مِنْ (حَمَّ): إذا دنا وقَرُبَ، فهو أخصُّ مِن الصَّديقِ، وأصلُ (حمم) هنا: الدُّنوُّ والحُضورُ(٢).

﴿غِسۡلِينٍ﴾: أي: غُسالةِ أهلِ النَّارِ مِن قَيحِهم وصَديدِهم، سُمِّيَ غِسْلينًا؛ لسَيَلانِه مِن أبدانِهم، كأنَّه يَنغَسِلُ منهم، وأصلُ (غسل): يدُلُّ على تطهيرِ الشَّيءِ وتَنقيتِه(٣).

﴿ٱلۡخَٰطِـُٔونَ﴾: أي: الآثِمونَ أصحابُ الخَطايا، وهم الكافِرون، والخاطئُ هو القاصدُ الذَّنْبِ، يُقالُ: خَطِئ الرَّجُلُ: إذا تعمَّدَ الذَّنْبَ، وأخْطَأَ: إذا لم يَتعمَّدْ، وقيل غيرُ ذلك. وأصلُه يدُلُّ على تَعَدِّي الشَّيءِ، والذَّهابِ عنه(٤).

= ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٩٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٧٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢١٦).

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٩٧)، ((البسيط)) للواحدي (٢٢/ ١٧٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣٧٠).

(٢) يُنظر: ((مجاز القرآن)) لأبي عبيدة (٢/ ١٩٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٣)، ((الغريبين في القرآن والحديث)) للهروي (٢/ ٤٩٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٥٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٥٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٤٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٢٤)، ((البسيط)) للواحدي (٢٢/ ١٨٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣٧٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٤١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٩٨)، ((الغريبين)) للهروي (٢/ ٥٦٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤١٣)، ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦٣٢)، ((النهاية في غريب الحديث والأثر)) لابن الأثير (٢/ ٤٤)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (٢/ ٥٥٣).

المعنى الإجماليُّ:

يُبيِّنُ اللهُ تعالى عاقِبةَ مَن أُوتيَ كتابَه بشِمالِه يومَ القيامةِ، وشِدَّةَ نَدَمِه، فيقولُ: وأمَّا مَن أُعطِيَ كِتابَ أعمالِه بشِمالِه فيَقولُ نادِمًا مُتحَسِّرًا: يا لَيْتَني لم أُعْطَ كتابَ أعمالِي السَّيِّئةِ! ولم أعلَمْ ما حِسابي؟! يا لَيْتَ مَوْتَتي في الدُّنيا كانت نهايةَ حَياتي، ما دفَعَ عنِّي مالي الَّذي جمَعْتُه في الدُّنيا! زال عنِّي مُلْكي وجاهي، وذهَبَتْ حُجَّتي!

ويأتي الأمرُ مِن اللهِ تعالى بإنزالِ العذابِ به، فيقولُ لمَلائكتِه: خُذُوا هذا الكافِرَ فضَعُوا القَيدَ في عُنُقِه، ثمَّ اغمِسُوه في النَّارِ، ثمَّ اجعَلوه في سِلْسلةٍ طُولُها سَبعونَ ذِراعًا.

ثمَّ يُبيِّنُ اللهُ تعالى الأسبابَ الَّتي أدَّت بهذا الشَّقيِّ إلى هذا العذابِ، فيقول: إنَّه كان في الدُّنيا لا يُؤمِنُ باللهِ العَظيمِ، ولا يَحُثُّ غَيرَه على إطعامِ المساكينِ؛ فليس لهذا الكافِرِ في هذا اليَومِ قَريبٌ يَنفَعُه، ولا طَعامٌ إلَّا مِن صَديدِ أهلِ النَّارِ، لا يأكُلُ هذا الطَّعامَ إلَّا الواقِعونَ في الخَطايا عَمْدًا مِن الكافرينَ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ (٢٥)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كانت العادةُ جاريةً بأنَّ أهْلَ العرْضِ يَنقَسِمونَ إلى قِسمَينِ: مَقبولٍ ومَردودٍ، وذَكَر اللهُ سُبحانَه وتَعالى المقبولَ بادئًا به؛ تَشويقًا إلى حالِه، وتَغبيطًا بعاقبتِه، وحُسنِ مآلِه- أتْبَعَه المردودَ؛ تَنفيرًا عن أعمالِه، بما ذُكِرَ مِن قَبائحِ أحوالِه[1].

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣٦٦).

﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ ﴿٢٥﴾﴾.

أي: وأمَّا مَن أُعطِيَ كِتابَ أعمالِه بيَدِه الشِّمالِ، فإنَّه يَقولُ نادِمًا مُتحَسِّرًا: يا ليتَني لم أُعْطَ كتابَ أعمالِي السَّيِّئةِ[1]!

﴿وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾﴾.

أي: ولم أعلَمْ ما حِسابي[2]؟!

﴿يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾﴾.

أي: يا ليتَ مَوْتَتي في الدُّنيا كانت نهايةَ حَياتي، ولم أُبعَثْ للحِسابِ والجَزاءِ[3]!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٣٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٤٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢١٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٣٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٣٥)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٤٩١)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٤٧).

قيل: هذه الجُملةُ جاءت عَطفًا على التَّمَنِّي، أي: يا لَيْتَني لم أدْرِ ما حِسابِيَه، أي: لم أعرِفْ حقيقتَه أو نتيجتَه. وممَّن قال بهذا المعنى في الجملةِ: ابنُ جرير، والواحديُّ، والبِقاعي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٣٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٤٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣٦٦).

ويُنظر أيضًا: ((تفسير الماوردي)) (٦/ ٨٤).

وقيل: هذه الجُملةُ في موضعِ الحالِ مِن ضميرِ (ليتني)، والمعنى: أنَّه كان مكَذِّبًا بالحِسابِ. وذهب إلى هذا المعنى: ابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٣٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٣٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٤٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٤٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٤).

قال الشوكانيُّ: (﴿يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ﴾، أي: لَيتَ المَوتةَ الَّتي مِتُّها كانت القاضيةَ، ولم أُحْيَ بعْدَها، ومعنى ﴿ٱلْقَاضِيَةَ﴾: القاطِعةَ للحياةِ، والمعنى: أنَّه تَمنَّى دَوامَ الموتِ، وعدَمَ البعثِ لِما شاهَدَ مِن سُوءِ عَمَلِه وما يَصيرُ إليه مِن العذابِ، فالضَّميرُ في «لَيْتَهَا» يَعودُ إلى المَوتةِ الَّتي قد كان ماتَها وإنْ لم تكُنْ مَذكورةً؛ لأنَّها -لظُهورِها- كانت كالمذكورةِ). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٤٠).

=

﴿مَآ أَغۡنَىٰ عَنِّي مَالِيَهۡۜ ٢٨﴾.

أي: لم يَدفَعْ عنِّي مالي الَّذي جمَعْتُه في الدُّنيا شيئًا مِن عذابِ الآخِرةِ(١)!

كما قال تعالى: ﴿يَوۡمَ لَا يَنفَعُ مَالٞ وَلَا بَنُونَ﴾ [الشعراء: ٨٨].

وقال سُبحانَه: ﴿وَمَا يُغۡنِي عَنۡهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ﴾ [الليل: ١١].

﴿هَلَكَ عَنِّي سُلۡطَٰنِيَهۡ ٢٩﴾.

أي: زال عنِّي مُلْكي وجاهي، وذهَبَتْ حُجَّتي(٢)!

= وممَّن قال بنحْوِ هذا القولِ مِن السَّلَفِ: الضَّحَّاكُ، ومحمدُ بنُ كعبٍ، والرَّبيعُ، والسُّدِّيُّ. يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٦/ ٨٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢١٥).

والوجهُ الثَّاني في تفسيرِ الآيةِ: أنَّه تمنَّى أنْ يموتَ في الحالِ، ولم يكُنْ في الدُّنيا أكرهُ إليه مِن الموتِ، قاله قَتادةُ. يُنظر: يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٣٥)، ((تفسير الماوردي)) (٦/ ٨٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٣٦)، ((البسيط)) للواحدي (٢٢/ ١٧٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢١٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٤).

قال ابن عطية: (﴿مَآ أَغۡنَىٰ﴾ يحتمِلُ أن يريدَ الاستفهامَ على معنى التَّقريرِ لِنَفْسِه والتَّوبيخِ، ويحتَمِلُ أن يريدَ النَّفيَ المحضَ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٦٠). ويُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣٦٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٤٠).

(٢) يُنظر: ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١١٢٩)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٠٤)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٠٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢١٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٣٦).

وممَّن ذهَبَ في الجُملةِ إلى أنَّ معْنى ﴿سُلۡطَٰنِيَهۡ﴾: مُلْكي وجاهي وقُدْرتي وتَسلُّطي على النَّاسِ: الزمخشريُّ، والنَّسفيُّ، وابنُ جُزَي. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٠٤)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٥٣٢)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٠٧).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلَفِ: ابنُ زَيدٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٣٧)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٣٣٢).

وذهَبَ مُقاتلُ بنُ سُليمانَ، وابنُ جريرٍ، والزَّجَّاجُ، والسَّمرقنديُّ، وأبو حيان، ونسَبَه الثَّعلبيُّ =

﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ۝٣٠﴾.

أي: يقولُ اللهُ تعالى لمَلائكتِه: خُذُوا هذا الكافِرَ فضَعُوا القَيدَ في عُنُقِه[1].

كما قال الله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَاْ وَأَغۡلَٰلًا وَسَعِيرًا﴾ [الإنسان: ٤].

﴿ثُمَّ ٱلۡجَحِيمَ صَلُّوهُ ۝٣١﴾.

= لأكثَرِ المفسِّرينَ: أنَّ المرادَ: ذهَبَت عنِّي حُجَّتي، فلا حُجَّةَ لي يومَ القيامةِ. يُنظر: ((تفسير مقاتل ابن سليمان)) (٤/ ٤٢٤)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٣٦)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٢١٧)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٤٩١)، ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ٣١)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٦٢). ويُنظر أيضًا: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣٦٨).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ، وعِكرمةُ، ومجاهدٌ، والضَّحَّاكُ، والسُّدِّيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٣٦)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٣٣٢).

قال أبو حيان: (الراجحُ قولُ ابنِ عباسٍ ومَن ذُكِر معه: أنَّ السلطانَ هنا هو الحجةُ التي كان يحتجُّ بها في الدُّنيا؛ لأنَّ ﴿مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ﴾ ليس مختصًّا بالملوكِ، بل هو عامٌّ في جميعِ أهلِ الشَّقاوةِ). ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٦٢).

وجمَعَ الواحديُّ وجلالُ الدِّينِ المحلِّيُّ بيْن القولَين؛ فقال الواحديُّ: (ذهَبَ عنِّي حُجَّتي، وزال عنِّي مُلْكي وقُوَّتي). ((الوجيز)) (ص: ١١٢٩).

وقال جلالُ الدِّينِ المحلِّي: (﴿سُلۡطَٰنِيَهۡ﴾: قُوَّتي وحُجَّتي). ((تفسير الجلالين)) (ص: ٧٦٣).

ويُنظر: ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٢٠).

وقال ابن عطيَّة: (سلطانُ كُلِّ أحدٍ ما لَه في الدُّنيا مِن عَدَدٍ وعُدَدٍ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٦١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٣٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢١٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٣٧).

قال الواحدي: (﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ﴾: اجمَعوا يَدَه إلى عُنُقِه). ((الوسيط)) (٤/ ٣٤٧).

وقال البِقاعي: (اجمَعوا يَدَيه إلى عُنُقِه ورِجْلَيه مِن وراءِ قَفاه إلى ناصيتِه!). ((نظم الدرر)) (٢٠/ ٣٦٨).

وقال السعدي: (اجعَلوا في عُنُقِه غُلًّا يَخنُقُه!). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٤).

أي: ثمَّ اغمِسُوه واغْمُروه في النَّارِ[١].

﴿ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ ٣٢﴾.

أي: ثمَّ اجعَلوه في سِلْسلةٍ طُولُها سَبعونَ ذِراعًا، فيتعَذَّبُ بها[٢]!

كما قال تعالى: ﴿إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ * فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ﴾ [غافر: ٧١، ٧٢].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٣٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٧٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢١٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣٦٨، ٣٦٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٣٧)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١١٢٩)، ((تفسير الكوراني)) (ص: ٢٢٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٤٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٣٧).

قال الشوكاني: (السِّلْسِلةُ: حِلَقٌ مُنتَظِمةٌ). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٤٠).

قيل: إنَّها تدخُلُ في دُبُره، ثمَّ تَخرُجُ مِن مَنخِرَيه. وقيل: تدخُلُ في فيه، وتخرجُ مِن دُبُرِه. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٣٧).

قال الفرَّاءُ: (والمعنى: ثمَّ اسْلُكوا فيه سِلسلةً، ولكنَّ العرَبَ تَقولُ: أدخَلْتُ رَأسي في القَلَنْسُوةِ، وأدخَلْتُها في رَأْسي، والخاتَمِ؛ يُقالُ: الخاتمُ لا يَدخُلُ في يَدي، واليدُ هي الَّتي فيه تَدخُلُ). ((معاني القرآن)) (٣/ ١٨٢).

وقيل: معنى سَلْكِه فيها: أن تُلَفَّ عليه مع ذلك الطُّولِ المُفرِطِ؛ مُبالَغةً في التَّضييقِ عليه. يُنظر: ((تفسير الكوراني)) (ص: ٢٢٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٣٧). ويُنظر أيضًا: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣٧٠).

قال ابنُ جُزَيٍ: (واختُلِفَ في هذا الذِّراعِ؛ فقيل: إنَّه الذِّراعُ المعروفُ، وقيل: بذِراعِ الملَكِ، وقيل: في الذِّراعِ سَبعونَ باعًا، كلُّ باعٍ ما بيْن مكَّةَ والكوفةِ، ولله دَرُّ الحسَنِ البصريِّ في قوله: اللهُ أعلَمُ بأيِّ ذِراعٍ هي. وجَعَلَها سَبعينَ ذِراعًا لإرادةِ وَصْفِها بالطُّولِ؛ فإنَّ السَّبعينَ من الأعدادِ الَّتي تَقصِدُ بها العرَبُ التَّكثيرَ. ويَحتمِلُ أنْ تكونَ هذه السِّلسلةُ لكلِّ واحدٍ مِن أهلِ النَّارِ، أو تكونَ بيْنَ جَميعِهم). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٠٧).

وقال ابن جرير: (ثمَّ اسلُكوه في سِلسلةٍ ذَرْعُها سَبعونَ ذراعًا، بذِراعِ اللهُ أعلَمُ بقدرِ طُولِها). ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٣٧).

﴿إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ ٣٣﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ اللهَ تَعالى لَمَّا شرَحَ هذا العذابَ الشَّديدَ؛ ذكَرَ سَببَه(١)، فقال:

﴿إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ ٣٣﴾.

أي: استَحَقَّ هذا الكافِرُ ذلك العذابَ الشَّديدَ؛ لأنَّه كان في الدُّنيا لا يُؤمِنُ باللهِ ذي العَظَمةِ التَّامَّةِ الكامِلةِ(٢).

﴿وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ٣٤﴾.

أي: ولأنَّه كان لا يَحُثُّ غَيرَه على إطعامِ المحتاجِينَ(٣).

كما حكى اللهُ تعالى سؤالَ أصحابِ اليَمينِ للمُجرِمينَ: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ * قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ * وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ﴾ [المدثر: ٤٢ - ٤٤].

﴿فَلَيْسَ لَهُ ٱلْيَوْمَ هَٰهُنَا حَمِيمٌ ٣٥﴾.

أي: فليس لهذا الكافِرِ في هذا اليَومِ في الدَّارِ الآخِرةِ أيُّ قَريبٍ يَنفَعُه، فيَدفَعُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦٣١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٣٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٤٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢١٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣٧٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٣٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٣٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٧٢، ٢٧٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٣٩).

قال ابنُ عاشور: (نفْيُ حَضِّه على طعامِ المِسكينِ يَقتَضي بطريقِ الفَحوى أنَّه لا يُطعِمُ المِسكينَ مِن مالِه؛ لأنَّه إذا كان لا يأمُرُ غَيرَه بإطعامِ المسكينِ فهو لا يُطعِمُه مِن مالِه، فالمعنى: لا يُطعِمُ المِسكينَ ولا يأمُرُ بإطعامِه). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٣٩). ويُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣٧١).

عَذابَ اللهِ عنه[١]!

كما قال تعالى: ﴿مَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنْ حَمِيـمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ [غافر: ١٨].

﴿وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ﴿٣٦﴾﴾.

أي: وليس لهذا الكافِرِ طَعامٌ إلَّا مِن صَديدِ أهلِ النَّارِ[٢].

﴿لَا يَأْكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلْخَـٰطِـُٔونَ ﴿٣٧﴾﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٣٩، ٢٤٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٤٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢١٧).

قال القُرطبي: (الحميمُ هاهنا القريبُ، أي: ليس له قَريبٌ يَرِقُّ له، ويدفَعُ عنه، وهو مأخوذٌ مِن الحَميمِ، وهو الماءُ الحارُّ، كأنَّه الصَّديقُ الَّذي يَرِقُّ ويحتَرِقُ قَلبُه له). ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٧٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٤٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٤٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٧٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢١٧).

ممَّن قال بأنَّ الغِسلينَ هو صديدُ أهلِ النَّارِ: ابنُ جرير، والزَّجَّاجُ، والواحديُّ، والقرطبي، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٤٠)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٢١٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٤٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٧٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٤). ويُنظر أيضًا: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣٧٢، ٣٧٣).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ في رِوايةٍ عنه، والكلْبيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٤٠)، ((البسيط)) للواحدي (٢٢/ ١٨٣).

قال القرطبي: (الغِسْلِينُ: فِعْلِينٌ مِنَ الغَسلِ، فكأنَّه يَنغَسِلُ مِن أبدانِهم، وهو صديدُ أهلِ النَّارِ، السَّائلُ مِن جروحِهم وفُروجِهم!). ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٧٣).

وقال السعدي: (هو في غايةِ الحَرارةِ، ونَتْنِ الرِّيحِ، وقُبحِ الطَّعمِ ومَرارتِه!). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٤).

وقال الضَّحَّاكُ، والرَّبيعُ: (شجرٌ يأكُلُه أهلُ النَّارِ). يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٣٣٣)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٨/ ٢٧٥). وقيل غيرُ ذلك. يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٦/ ٨٥).

وقال ابن عاشور: (الغِسْلِينُ -بكَسرِ الغَينِ-: ما يَدخُلُ في أفواه أهلِ النَّارِ مِن الموادِّ السَّائِلةِ مِنَ الأجسادِ، وماءِ النَّارِ، ونحوِ ذلك ممَّا يَعلَمُه اللهُ!). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٤٠).

أي: لا يأكُلُ هذا الطَّعامَ إلَّا الواقِعونَ في الخَطايا عَمْدًا، مِنَ الكافِرينَ باللهِ تعالى والمُشرِكينَ به[١].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قال اللهُ تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ ٱلۡعَظِيمِ * وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلۡمِسۡكِينِ﴾ للهِ على العِبادِ أن يُوحِّدوه ولا يُشرِكوا به شيئًا، وللعبادِ بَعضِهم على بَعضٍ حَقُّ الإحسانِ والمُعاوَنةِ على البِرِّ والتَّقْوى[٢].

٢- قَولُه تعالى: ﴿ثُمَّ فِي سِلۡسِلَةٖ ذَرۡعُهَا سَبۡعُونَ ذِرَاعٗا فَٱسۡلُكُوهُ * إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ ٱلۡعَظِيمِ * وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلۡمِسۡكِينِ﴾ عن أبي الدَّرْداءِ رَضِيَ اللهُ عنه: (أنَّه كان يحُضُّ امرأتَه على تكثيرِ المَرَقِ لأجْلِ المساكِينِ، وكان يقولُ: خلَعْنا نِصفَ السِّلسِلةِ بالإيمانِ، أفلا نخلَعُ نِصفَها الآخَرَ؟!)[٣].

٣- قال اللهُ تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ ٱلۡعَظِيمِ * وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلۡمِسۡكِينِ﴾ فيه

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٤١)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٧٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣٧٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٤٠).

وقال القرطبي: (ويجوزُ أن يُرادَ الَّذين يتخَطَّونَ الحَقَّ إلى الباطِلِ، ويتعَدَّونَ حُدودَ اللهِ عزَّ وجَلَّ). ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٧٤).

وقال السعدي: (لا يأكُلُ هذا الطَّعامَ الذَّميمَ ﴿إِلَّا ٱلۡخَٰطِـُٔونَ﴾ الَّذين أخطَؤوا الصِّراطَ المستقيمَ، وسَلَكوا سُبُلَ الجَحيمِ؛ فلذلك استحَقُّوا العذابَ الأليمَ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٤).

وقال ابن عاشور: (أي: المُرتَكِبونَ أشَدَّ الخطَأِ، وهو الإشراكُ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٤٠).

وقال ابن عطيَّة: (الخاطئُ: الَّذي يفعلُ ضدَّ الصوابِ متعمِّدًا، والمُخطئُ الَّذي يفعلُه غيرَ متعمِّدٍ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٦٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢١٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٠٥)، ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٢٦٥). ويُنظر أيضًا: ((الدر المنثور في التفسير بالمأثور)) للسيوطي (٨/ ٢٧٤).

إشارةٌ إلى أنَّ شَرَّ الخِصالِ بعْدَ الكُفرِ: البُخلُ، وقَسوةُ القَلبِ[1].

٤- قال اللهُ تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ * وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾ مدارُ السَّعادةِ ومادَّتُها أمْرانِ: الإخلاصُ للهِ -الَّذي أصلُه الإيمانُ باللهِ-، والإحسانُ إلى الخَلقِ بوُجوهِ الإحسانِ الَّتي مِن أعظَمِها دَفعُ ضَرورةِ المحتاجِينَ بإطعامِهم[2].

٥- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾ فيه دليلانِ قَويَّانِ على عِظَمِ الجُرمِ في حِرمانِ المساكينِ:

أحَدُهما: عَطْفُه على الكُفرِ، وجَعْلُه قرينةً له!

والثَّاني: ذِكرُ الحَضِّ دونَ الفِعلِ؛ لِيُعلَمَ أنَّ تارِكَ الحَضِّ بهذه المنزلةِ، فكيف بمَن يترُكُ الفِعلَ[3]؟!

٦- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾ فيه مَوعظةٌ للمُؤمنينَ زاجِرةٌ عن مَنعِ المساكينِ حَقَّهم في الأموالِ، وهو الحَقُّ المعروفُ في الزَّكاةِ والكفَّاراتِ وغَيرِها[4].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ﴾ سؤالٌ: أنَّ في سورةِ (الانشقاق) يقولُ اللهُ تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ﴾ [الانشقاق: ١٠]، فكيف يمكنُ الجَمعُ بيْن قَولِه: ﴿كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ﴾، وقوله: ﴿كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ﴾؟

الجوابُ: أنَّه يأخُذُه بشِمالِه، لكنْ تُخْلَعُ الشِّمالُ إلى الخَلفِ مِن وراءِ ظَهْرِه،

(١) يُنظر: ((تفسير الكوراني)) (ص: ٢٢٥).
(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٤).
(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦٣٢).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٣٩).

والجزاءُ مِن جنسِ العملِ، فكما أنَّ هذا الرَّجُلَ جعَل كتابَ اللهِ وراءَ ظهْرِه، أُعطيَ كتابَه يومَ القيامةِ مِن وراءِ ظهْرِه؛ جزاءً وِفاقًا[(١)]!

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ * وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ﴾ بيَّن أنَّه لَمَّا نظَر في كتابِه، وتذكَّرَ قبائِحَ أفعالِه، خَجِلَ منها، وصار العذابُ الحاصِلُ مِن تلك الخَجالةِ أَزْيَدَ مِن عَذابِ النَّارِ، فقال: لَيْتَهم عذَّبوني بالنَّارِ، وما عَرَضوا هذا الكتابَ الَّذي ذكَّرَني قبائِحَ أفعالي؛ حتَّى لا أقَعَ في هذه الخَجالةِ، وهذا يُنَبِّهُ على أنَّ العذابَ الرُّوحانيَّ أشَدُّ مِن العذابِ الجُسمانيِّ[(٢)].

٣- قَولُه تعالى: ﴿وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ﴾ استُدِلَّ به على أنَّ الكافرَ يُحاسَبُ؛ لقَولِه في آخِرِ الكلامِ: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ﴾[(٣)].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ * وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾ أنَّه قد يُنْفَى الشَّيءُ الَّذي نَفْيُه يَستلزِمُ نفْيَ غيرِه، لكنْ تُذكَرُ تلك اللَّوازمُ على سبيلِ التَّصريحِ؛ للفَرقِ بيْن دَلالةِ اللَّوازمِ ودلالةِ المُطابَقةِ، كما في قَولِه تعالى: ﴿وَلَا

---

(١) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (٣/ ١٨٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦٣٠).

(٣) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٣٩٦).

قال ابنُ تيميَّةَ -بعْدَ أنْ ذكَرَ الخلافَ في الكفَّارِ هل يُحاسَبون يومَ القيامةِ أو لا-: (وفصْلُ الخِطابِ: أنَّ الحِسابَ يُرادُ به عَرْضُ أعمالِهم عليهم، وتَوبيخُهم عليها، ويُرادُ بالحِسابِ مُوازَنةُ الحَسَناتِ بالسَّيِّئاتِ. فإنْ أُريدَ بالحِسابِ المعنى الأوَّلُ، فلا رَيبَ أنَّهم يُحاسَبون بهذا الاعتبارِ. وإنْ أُريدَ المعنى الثَّاني؛ فإنْ قُصِدَ بذلك أنَّ الكُفَّارَ تَبْقى لهم حَسناتٌ يَستحِقُّون بها الجنَّةَ، فهذا خطَأٌ ظاهِرٌ. وإنْ أُريدَ أنَّهم يتفاوَتون في العِقابِ؛ فعِقابُ مَن كَثُرَت سيِّئاتُه أعظَمُ مِن عِقابِ مَن قلَّت سَيِّئاتُه، ومَن كان له حَسناتٌ خُفِّفَ عنه العذابُ... فإذا كان بعضُ الكفَّارِ عَذابُه أشدَّ عَذابًا مِن بَعضٍ -لكَثرةِ سيِّئاتِه وقلَّةِ حَسَناتِه- كان الحِسابُ لبَيانِ مَراتبِ العَذابِ، لا لأجْلِ دُخولِهم الجنَّةَ). ((مجموع الفتاوى)) (٤/ ٣٠٥).

تَلْبِسُواْ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُواْ ٱلْحَقَّ ﴾ [البقرة: ٤٢]؛ فإنَّ كلَّ مَن لَبَّسَ بالباطلِ فلا بُدَّ أنْ يَكتُمَ بعضَ الحقِّ، وهذا ليس مِن بابِ النَّهيِ عنِ المجموعِ المقتضِي لجوازِ أحدِهما! ولا مِن بابِ النَّهيِ عن فِعلَينِ مُتباينَينِ حتَّى لا يُعادَ فيه حرفُ النَّفيِ، بل هو من بابِ النَّهيِ عنِ المتلازِماتِ،كما يُقالُ: لا تَكْفُرْ وتُكَذِّبْ بالرَّسولِ، ولا تُجادِلْ في اللهِ بغيرِ عِلْمٍ ولا هدًى ولا كتابٍ منيرٍ[١]!

٥- قولُ اللهِ تعالى: ﴿ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴾ دَلَّت الآيةُ على أنَّ الكُفَّارَ يُعاقَبونَ على تَركِ الصَّلاةِ والزَّكاةِ، وهو المرادُ مِن قَولِ: إنَّ الكُفَّارَ مُخاطَبونَ بفُروعِ الشَّرائعِ[٢]، فقد عطَف عدمَ الحضِّ على طعامِ المسكينِ، على عدمِ الإيمانِ باللهِ العظيمِ، مِمَّا يُشيرُ إلى أنَّ الكافرَ يُعَذَّبُ على الفروعِ؛ فالإيمانُ يَزيدُ بالطَّاعةِ، والمؤمنُ يُثابُ على إيمانِه وعلى طاعتِه، وكذلك الكفرُ يَزدادُ بالمعاصي، ويُجازَى الكافرُ على كفرِه وعلى عصيانِه[٣].

٦- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ﴾ فيه سؤالٌ: ما التَّوفيقُ بيْنَه وبيْنَ قَولِه تعالى: ﴿ لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ﴾ [الغاشية: ٦]، وفي آخَرَ: ﴿ إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ * طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴾ [الدخان: ٤٣، ٤٤]، وفي آخَرَ: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي

(١) يُنظر: ((درء تعارض العقل والنقل)) لابن تيمية (٥/ ٢٦٦).
(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦٣٢).
والمرادُ أنَّهم يُعاقَبون عليها إذا ماتوا على الكفرِ، لا أنَّهم مُلزَمون بها في حالِ الكفرِ؛ لأنَّنا نَدْعوهم أوَّلًا إلى الإسلامِ، ثمَّ نُلزِمُهم بأحكامِه. وأيضًا ليس معنى كَونِهم مُخاطَبينَ بها أنَّهم يُؤْمَرونَ بقضائِها. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: الفاتحة والبقرة)) (١/ ١٤٩) و(٢/ ٢٣٥).
قال ابن عاشور: (معنَى قولِ مَن قال مِن العلماءِ بأنَّ الكفَّارَ مُخاطَبونَ بفروعِ الشَّريعةِ يَعْنون خِطابَ المُؤاخَذةِ على ما نُهوا عن ارتكابِه، وليس المرادُ أنَّهم يُطلَبُ منهم العملُ؛ إذْ لا تُقْبَلُ منهم الصَّالحاتُ بدونِ الإيمانِ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٧٥).
(٣) يُنظر: ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٨/ ٢٦١).

بُطُونِهِمۡ إِلَّا ٱلنَّارَ ﴾ [البقرة: ١٧٤]؟

الجوابُ مِن وُجوهٍ؛ منها:

الأوَّلُ: لا مُنافاةَ؛ إذ يجوزُ أن يكونَ طعامُهم جميعَ ذلك.

الثَّاني: أنَّ العذابَ أنواعٌ، والمعذَّبينَ طَبَقاتٌ؛ فمنهم أكَلَةُ غِسلينٍ، ومنهم أكَلَةُ الضَّريعِ، ومنهم أكَلَةُ الزَّقُّومِ، ومنهم أكَلَةُ النَّارِ؛ لكُلِّ بابٍ مِنهم جزءٌ مَقسومٌ[(١)]. فالاختِلافُ بحسَبِ مَن يَطْعَمُ مِن أهلِ النَّارِ؛ فمَنِ اتَّصَفَ بالصِّفةِ الأُولى فطعامُه مِن غِسْلينٍ، ومَنِ اتَّصَف بالثَّانيةِ فطعامُه مِن ضَريعٍ[(٢)]. وقيل غيرُ ذلك[(٣)].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿ وَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي لَمۡ أُوتَ كِتَٰبِيَهۡ * وَلَمۡ أَدۡرِ مَا حِسَابِيَهۡ * يَٰلَيۡتَهَا كَانَتِ ٱلۡقَاضِيَةَ * مَآ أَغۡنَىٰ عَنِّي مَالِيَهۡۜ * هَلَكَ عَنِّي سُلۡطَٰنِيَهۡ ﴾

- جُملةُ ﴿ وَلَمۡ أَدۡرِ مَا حِسَابِيَهۡ ﴾ قيل: هي في مَوضعِ الحالِ مِن ضَميرِ (لَيتني)، والمعْنى: أنَّه كان مُكذِّبًا بالحسابِ، وهو مُقابِلُ قولِ الَّذي أُوتِيَ كتابَه بيَمينِه: ﴿ إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَٰقٍ حِسَابِيَهۡ ﴾ [الحاقة: ٢٠]، وجُملةُ الحالِ مُعترِضةٌ بيْن جُملتَي التَّمنِّي. ويجوزُ أنْ يكونَ عطْفًا على التَّمنِّي، أي: يا لَيتني لم أدْرِ ما حِسابِيَهْ، أي: لم أعرِفْ كُنْهَ حِسابي، أي: نَتيجتَه، وهذا وإنْ كان في معْنى

---

(١) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٧٩).

(٢) يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (٦/ ٣٣١).

قال ابنُ قُتَيبة: (النَّارُ دَرَكاتٌ، والجنَّةُ دَرَجاتٌ، وعلى قَدْرِ الذُّنوبِ والحَسَناتِ تَقَعُ العُقوباتُ والمَثوباتُ؛ فمِن أهلِ النَّارِ مَن طَعامُه الزَّقُّومُ، ومنهم مَن طعامُه غِسلينٌ!). ((تأويل مشكل القرآن)) (ص: ٤٨).

(٣) يُنظر: ((دفع إيهام الاضطراب)) للشنقيطي (ص: ٢٤٤).

التَّمنِّي الَّذي قبْلَه فإعادتُه تكريرٌ مِن أجْلِ التَّحسُّرِ والتَّحزُّن[١].

- والاستِفهامُ في ﴿مَا حِسَابِيَهْ﴾ معْناهُ التَّعظيمُ والتَّهويلُ[٢].

- وقوله: ﴿يَلَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ﴾ تمَنٍّ آخَرُ، ولم يُعطَفْ على التَّمنِّي الأوَّلِ؛ لأنَّ المقصودَ التَّحسُّرُ والتَّندُّمُ[٣].

- وجُملةُ ﴿يَلَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ﴾ مِن الكلامِ الصَّالحِ لأنْ يكونَ مَثلًا؛ لإيجازِه، ووَفْرةِ دَلالتِه، ورَشاقةِ معْناه، عبَّرَ بها عمَّا يقولُه مَن أُوتِيَ كتابَه بشِمالِه مِن التَّحسُّرِ بالعبارةِ الَّتي يَقولُها المتحسِّرُ في الدُّنيا بكلامٍ عَربيٍّ يُؤدِّي المعْنى المقصودَ[٤].

- قولُه: ﴿مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيَهْ﴾ يَجوزُ أنْ يكونَ نفْيًا مَحضًا، ومَفعولُ ﴿أَغْنَى﴾ مَحذوفٌ للتَّعميمِ؛ أخبَرَ بذلك مُتأسِّفًا على مالِه حيثُ لم يَنفَعْه. ويجوزُ أنْ يكونَ استِفهامًا للإنكارِ والتَّوبيخِ؛ وبَّخَ به نفْسَه، وقرَّرها عليه[٥].

- قولُه: ﴿مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيَهْ﴾ يقولُ ذلك مَن كان ذا مالٍ وذا سُلطانٍ مِن ذلك الفريقِ مِن جميعِ أهلِ الإشراكِ والكفرِ، فما ظنُّك بحسرةِ مَنِ اتَّبَعوهم واقتَدَوا بهم إذا رَأَوهم كذلك؟! وفي هذا تَعريضٌ بسادةِ مُشرِكي العرَبِ مِثلِ أبي

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٣٥).

(٢) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٢٠١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٣٥).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ١٣٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٠٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٤١)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٦١)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٢٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٣٦)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٢٠١، ٢٠٢).

جَهلٍ وأُميَّةَ بنِ خلَفٍ؛ قال الله تبارك وتعالَى: ﴿ وَذَرْنِي وَٱلْمُكَذِّبِينَ أُولِي ٱلنَّعْمَةِ ﴾[١] [المزمل: ١١].

- وضُمِّنَ (هَلَكَ) معْنى (غاب)؛ فعُدِّيَ بـ(عن)، أي: لم يَحْضُرني سُلْطاني الَّذي عهِدْتُه[٢].

٢- قولُه تعالَى: ﴿ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ * ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ * ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ ﴾

- قولُه: ﴿ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴾ مَقولٌ لقولٍ مَحذوفٍ مَوقعُه في مَوقعِ الحالِ مِن ضَمير ﴿فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ ﴾ [الحاقة: ٢٥]، والتَّقديرُ: يُقالُ: خُذُوه. ومَعلومٌ مِن المقامِ أنَّ المأمورينَ بأنْ يَأخُذوه هم الملائكةُ الموكَّلونَ بسَوقِ أهلِ الحسابِ إلى ما أُعِدَّ لهم[٣]. أو جُملةٌ مُستأنَفةٌ مَسوقةٌ للإجابةِ عن سُؤالٍ مُقدَّرٍ؛ كأنَّه قِيل: وما يُفعَلُ به بعْدَ هذا التَّحسُّرِ الصَّادرِ عنه؟ فقِيل: يُقالُ: خُذُوه[٤].

- وقولُه: ﴿فَغُلُّوهُ ﴾ عُطِفَ بفاءِ التَّعقيبِ؛ لإفادةِ الإسراعِ بوَضْعِه في الأغلالِ عَقِبَ أخْذِه[٥].

- قولُه: ﴿ ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴾ فيه تَقديمُ الجحيمِ على عامِلِه؛ لتَعجيلِ المَساءةِ، مع الرِّعايةِ على الفاصلةِ، وكذلك تَقديمُ ﴿فِي سِلْسِلَةٍ ﴾ على عامِلِه[٦]. أو

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٣٦).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ١٣٧).
(٤) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٢٠٢).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٣٧).
(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ١٣٨).

تَقديمُ الجَحيمِ للدَّلالةِ على التَّخصيصِ، والاهتِمامِ بذِكرِ أنواعِ ما يُعذَّبُ به، وكذلك تَقديمُ ﴿فِى سِلْسِلَةٍ﴾، أي: لا تَسلُكوه إلَّا في هذه السِّلسلةِ[١].

-و﴿ثُمَّ﴾ مِن قولِه: ﴿ثُمَّ فِى سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ﴾ للتَّراخي الرُّتبيِّ بالنِّسبةِ لمَضمونِ الجُملتينِ قبْلَها؛ لأنَّ مَضمونَ ﴿فِى سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا﴾ أعظَمُ مِن مَضمونِ ﴿فَغُلُّوهُ﴾، ومَضمونَ ﴿فَاسْلُكُوهُ﴾ دلَّ على إدخالِه الجحيمَ، فكان إسلاكُه في تلك السِّلسلةِ أعظَمَ مِن مُطلَقِ إسلاكِه الجحيمَ[٢].

- أو يُمكِنُ بَقاءُ (ثُمَّ) على مَوضوعِها مِن الدَّلالةِ على المهْلةِ الزَّمانيَّةِ، وأنَّه أوَّلًا يُؤخَذُ فيُغَلُّ، ولَمَّا لم يُعذَّبْ بالعَجَلةِ، صارت له استراحةٌ، ثمَّ جاء تَصليةُ الجَحيمِ، فكان ذلك أبلَغَ في عَذابِه؛ إذ جاءَه ذلك وقد سَكَنَت نفْسُه قليلًا، ثمَّ جاء سَلْكُه بعْدَ ذلك بعْدَ كَونِه مَغلولًا مُعذَّبًا في النَّارِ، لكنَّه كان له انتقالٌ مِن مكانٍ إلى مكانٍ، فيَجِدُ بذلك بَعضَ تَنفُّسٍ، فلمَّا سُلِكَ في السِّلسلةِ كان ذلك أشدَّ ما عليه مِن العذابِ، حيثُ صار لا حِراكَ له ولا انتقالَ، وأنَّه يُضيَّقُ عليه غايةً، فهذا يَصِحُّ فيه أنْ تكونَ (ثُمَّ) على مَوضوعِها مِن المهْلةِ الزَّمانيَّةِ[٣].

- وجُملةُ ﴿ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا﴾ صِفةُ ﴿سِلْسِلَةٍ﴾، وهذه الصِّفةُ وَقَعَت مُعترِضةً بيْنَ المجرورِ ومُتعلَّقِه؛ للتَّهويلِ على المشرِكين المكذِّبين بالقارعةِ، وليست

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٠٤، ٦٠٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٤٢)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٦١، ٢٦٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٢٦)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٢٠٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٠٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٤٢)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٦٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٢٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٣٧)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٢٠٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٦٢).

الجُملةُ ممَّا خُوطِبَ الملائكةُ الموكَّلونَ بسَوقِ المجرِمين إلى العَذابِ؛ قيل: ولذلك فعَدَدُ السَّبعينَ مُستعمَلٌ في معْنى الكثرةِ على طَريقةِ الكِنايةِ(١).

- قيل: وفي تَخصيصِ الطُّولِ بسَبعينَ ذِراعًا مُبالَغةٌ في إرادةِ الوصْفِ بالطُّولِ؛ لأنَّ السِّلسلةَ كلَّما طالت كان الإرهاقُ أشَدَّ، والعذابُ أمَضَّ، كأنَّ السِّلسةَ أفظَعُ مِن سائرِ أدواتِ الإرهاقِ؛ لأنَّها لَمَّا الْتَفَّت عليه تَضاعيفُها، صارت كأنَّها وِعاءٌ له(٢).

- واقترانُ فِعلِ ﴿فَٱسْلُكُوهُ﴾ بالفاءِ؛ إمَّا لتَأكيدِ الفاءِ الَّتي اقترَنَت بفِعلِ ﴿فَغُلُّوهُ﴾، وإمَّا للإيذانِ بأنَّ الفِعلَ مُنزَّلٌ مَنزلةَ جَزاءِ شرْطٍ مَحذوفٍ، وهذا الحذْفُ يُشعِرُ به تَقديمُ المعمولِ غالبًا، كأنَّه قِيل: مهْما فعَلْتُم به شَيئًا فاسْلُكوه في سِلسلةٍ، أو مهْما يكُنْ شَيءٌ فاسْلُكوه، والمقصودُ تأْكيدُ وُقوعِ ذلك، والحثُّ على عدَمِ التَّفريطِ في الفعلِ، وأنَّه لا يُرْجى له تَخفيفٌ(٣).

٣- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ ۞ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ۞ فَلَيْسَ لَهُ ٱلْيَوْمَ هَٰهُنَا حَمِيمٌ ۞ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ۞ لَّا يَأْكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلْخَٰطِـُٔونَ﴾

- جُملةُ ﴿إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ﴾ بدَأَ بأقْوى أسبابِ تَعذيبِه، وهو كفْرُه باللهِ، وهو في مَوضعِ العِلَّةِ للأمْرِ بأخْذِه وإصلائِه الجحيمَ على طَريقةِ الاستئنافِ للمُبالَغةِ -لأنَّ السُّؤالَ المقدَّرَ فيه تَكثيرٌ للمعْنى مع تَقليلِ لَفظِه-، كأنَّ قائلًا قال: لِمَ يُعذَّبُ هذا العذابَ البليغَ الشَّديدَ؟ فأُجِيبَ وقيل: إنَّه كان

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٣٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٠٥)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٥/ ٦٢٦)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٦٢)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٢٠٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٣٨).

لا يُؤمِنُ[(١)].

- ووصْفُ اللهِ سُبحانَه بالعظيمِ هنا إيماءٌ إلى مُناسَبةِ عِظَمِ العذابِ للذَّنْبِ؛ إذ كان الذَّنْبُ كُفرانًا بعَظيمٍ، فكان جَزاءً وِفاقًا[(٢)].

- وقدْ جُعِل عدَمُ الحضِّ على طَعامِ المسكينِ مُبالَغةً في شُحِّ هذا الشَّخصِ عن المساكينِ بمالِ غيرِه، وكِنايةً عن الشُّحِّ عنهم بمالِه[(٣)].

- ولعلَّ تَخصيصَ الأمْرَينِ بالذِّكرِ؛ لأنَّ أقبحَ العقائدِ الكفرُ باللهِ تَعالى، وأشنعَ الرَّذائلِ البُخلُ وقَسوةُ القلبِ[(٤)].

- وأضافَ الطَّعامَ إلى المسكينِ مِن حيث لم يَنسُبْه إليه؛ إذ يَستحِقُّ المسكينُ حقًّا في مالِ الغنيِّ الموسِرِ ولو بأدْنى يَسارٍ[(٥)].

- قولُه: ﴿فَلَيْسَ لَهُ ٱلْيَوْمَ هَٰهُنَا حَمِيمٌ﴾ مِن تَمامِ الكلامِ الَّذي ابتُدِئَ بقولِه: ﴿خُذُوهُ﴾، وتَفريعٌ عليه، والمقصودُ منه أنْ يَسمَعَه مَن أُوتيَ كِتابَه بشِمالِه، فيَيأَسَ مِن أنْ يَجِدَ مُدافِعًا يَدفَعُ عنه بشفاعةٍ، وتَنديمٌ له على ما أضاعَهُ في حَياتِه مِن التَّزلُّفِ إلى الأصنامِ وسَدَنتِها، وتَمويهِهم عليه أنَّه يَجِدُهم عندَ الشَّدائدِ وإلْمامِ المصائبِ، وهذا وجْهُ تَقييدِ نفْيِ الحميمِ باليومِ؛ تَعريضًا بأنَّ أحِمَّاءَهُم في

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٠٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٤٢)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٦٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٢٦)، ((حاشية الشهاب على البيضاوي)) (٨/ ٢٣٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٣٨)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٢٠٢، ٢٠٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٣٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ١٣٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٤٢)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٥/ ٦٢٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٢٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٦٣).

الدُّنيا لا يَنفَعونَهم اليومَ، كما قال تعالَى: ﴿ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ [الأنعام: ٢٢]، وقولُه عنهم: ﴿فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُواْ لَنَآ﴾ [الأعراف: ٥٣]، وغيرُ ذلك ممَّا تفرَّقَ في آيِ القرآنِ الكريمِ[١].

- والحميمُ: القريبُ، قيل: هو هنا كِنايةٌ عن النَّصيرِ؛ إذ المتعارَفُ عندَ العرَبِ أنَّ أنصارَ المرْءِ هم عَشيرتُه وقَبيلتُه[٢].

- وتَعريفُ ﴿ٱلْخَٰطِـُٔونَ﴾ للدَّلالةِ على الكَمالِ في الوَصْفِ، أي: المرْتَكِبون أشدَّ الخطَأِ، وهو الإشراكُ[٣].



(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٣٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ١٤٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الآيات (٢٨-٥٢)

﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَا تُبۡصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبۡصِرُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوۡلِ شَاعِرٖۚ
قَلِيلٗا مَّا تُؤۡمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوۡلِ كَاهِنٖۚ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ تَنزِيلٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٤٣﴾ وَلَوۡ تَقَوَّلَ عَلَيۡنَا بَعۡضَ
ٱلۡأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذۡنَا مِنۡهُ بِٱلۡيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعۡنَا مِنۡهُ ٱلۡوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ عَنۡهُ حَٰجِزِينَ
﴿٤٧﴾ وَإِنَّهُۥ لَتَذۡكِرَةٞ لِّلۡمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ وَإِنَّا لَنَعۡلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ وَإِنَّهُۥ لَحَسۡرَةٌ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾
وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلۡيَقِينِ ﴿٥١﴾ فَسَبِّحۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٥٢﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿كَاهِنٖ﴾: الكاهِنُ: الَّذي يتعاطى الخَبَرَ عمَّا يكونُ في مُستَقبَلِ الزَّمانِ بضَربٍ مِنَ الظَّنِّ، ويدَّعي مَعرِفةَ الأسرارِ[٥].

﴿ٱلۡوَتِينَ﴾: أي: نِياطَ القَلبِ، وهو عِرقٌ يَجري في الظَّهرِ حتَّى يتَّصِلَ بالقَلبِ، فإذا انقطَع بطَلَت القُوى، ومات صاحِبُه، وأصلُ (وتن): يدُلُّ على ثباتٍ ومُلازَمةٍ[٢].

﴿لَحَسۡرَةٌ﴾: الحَسْرةُ هي أشدُّ النَّدامةِ على ما فاتَ ولا يُمكِنُ ارتجاعُه؛ والغَمُّ عليه، وأصلُ (حسر): كَشْفُ الشَّيءِ؛ ومِنه الحَسرةُ، وهي انكشافٌ عن حالِ النَّدامةِ[٣].

﴿ٱلۡيَقِينِ﴾: أي: الخَبَرِ الصِّدقِ الحَقِّ الَّذي لا مِرْيةَ فيه ولا شَكَّ، وأصلُ (وقن):

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٢٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٢٨)، ((النهاية)) لابن الأثير (٤/ ٢١٤).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٨٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٩٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ٨٤)، ((البسيط)) للواحدي (٢٢/ ١٩١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٥٢).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٨٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٦٢)، ((البسيط)) للواحدي (٣/ ٤٨١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٣٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٥).

يدُلُّ على زَوالِ الشَّكِّ[(١)].

المعنى الإجماليُّ:

يقرِّرُ الله تعالى صِدقَ رسولِه صلَّى الله عليه وسلَّم، فيقولُ: فأُقسِمُ بجَميعِ ما ترَونَه وتُشاهِدونَه -أيُّها النَّاسُ- وما لا ترَونَه؛ إنَّ هذا القُرآنَ لَقولُ رَسولٍ كَريمٍ، وهو محمَّدٌ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يَتْلوه عليكم، وما هذا القُرآنُ بكَلامِ شاعرٍ، قليلًا ما تُؤمِنونَ، وما هو بكَلامِ كاهنٍ كاذِبٍ يدَّعِي عِلمَ الغَيبِ، قليلًا ما تتذَكَّرونَ.

ثمَّ يُبيِّنُ تعالى أنَّ هذا القرآنَ مِن عندِه سبحانَه، فيقولُ: هذا القُرآنُ تَنزيلٌ مِن عِندِ اللهِ رَبِّ العالَمينَ.

ثمَّ يُبيِّنُ الله تعالى ما يَحدُثُ للرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم لو أنَّه غيَّر أو بدَّل شيئًا مِن القرآنِ -على سبيلِ الفرضِ-، فيقولُ: ولو ادَّعى محمَّدٌ على اللهِ تعالى بعضَ الأقاويلِ الكاذِبةِ، لَانتَقَمَ الله منه بقوَّتِه وقُدرتِه، ثمَّ لَقَطَع اللهُ تعالى مِن محمَّدٍ عِرقَ قَلْبِه، فأماتَه! فلا أحَدَ منكم -أيُّها النَّاسُ- يمنَعُه من عُقوبةِ اللهِ إن كَذَب على ربِّه، وإنَّ القُرآنَ مُذَكِّرٌ للمُتَّقينَ، وإنَّا لَنَعلَمُ أنَّ مِنكم مُكَذِّبينَ بهذا القُرآنِ، وإنَّ القُرآنَ لحَسْرةٌ على الكافِرينَ، يَندَمونَ على تَركِ الإيمانِ به، وإنَّ القُرآنَ لَهُوَ الحَقُّ الثَّابِتُ المؤكَّدُ، ولا شكَّ في نُزولِه مِن عِندِ اللهِ؛ فنَزِّهْ ربَّك المتَّصِفَ بكَمالِ العَظَمةِ -يا محمَّدُ- عن كُلِّ نَقصٍ وعَيبٍ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَا تُبۡصِرُونَ ۝٣٨﴾.

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦ / ١٥٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٩٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢١٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٧٩).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ اللهَ تَعالى لَمَّا أقام الدَّلالةَ على إمكانِ القِيامةِ، ثمَّ على وُقوعِها، ثمَّ ذَكَرَ أحوالَ السُّعداءِ وأحوالَ الأشقياءِ؛ ختَمَ الكلامَ بتَعظيمِ القرآنِ(١).

﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَا تُبۡصِرُونَ ٣٨﴾.

أي: فلا أُقسِمُ بجَميعِ ما تَرَونَه وتُشاهِدونَه -أيُّها النَّاسُ- من الأشياءِ كُلِّها؛ كَبيرِها وصَغيرِها(٢).

﴿وَمَا لَا تُبۡصِرُونَ ٣٩﴾.

أي: وجَميعِ ما لا تَرَونَه وما غاب عنكم(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦٣٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٤١)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٧٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٤١).

قيل: المرادُ: أُقسِمُ، و(لا) صِلةٌ. وممَّن اختارَه: مكِّيٌّ، والسَّمعاني، والقُرطبي. يُنظر: ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٢/ ٧٦٨٩)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٤١)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٧٤).

وقيل: (لا) جاءت في هذا القَسَمِ؛ ردًّا لكلامِ المشركينَ، كأنَّه قيل: ليس الأمرُ كما يقولُ المشركونَ. وممَّن ذهَبَ إلى هذا المعنى في الجُملةِ: ابنُ جَريرٍ، والواحديُّ، والبَغَوي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٤١)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٤٨)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ١٤٩).

وقال ابن عاشور: (مِن المفسِّرينَ مَن جَعَل حرفَ «لا» في هذا القَسَمِ إبطالًا لكلامٍ سابقٍ، وأنَّ فِعلَ أُقسِمُ بعدَها مُستأنَفٌ، ونُقِضَ هذا النَّوعُ بوُقوعِ مِثْلِه في أوائلِ السُّوَرِ، مِثلُ: ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ [القيامة: ١]، ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ﴾ [البلد: ١]). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٤١).

وقيل: المعنى: لا أُقسِمُ بذلك؛ لأنَّ الأمرَ أوضَحُ مِن أن يحتاجَ إلى إقسامٍ. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: البِقاعي. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣٧٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٤١)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٦٢)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٠٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢١٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٤١). =

﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ٤٠﴾.

أي: إنَّ هذا القُرآنَ لَقولُ رَسولٍ كَريمٍ، وهو محمَّدٌ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يَتلوه على عبادِ اللهِ، ويُبَلِّغُهم إيَّاه[1].

= قال ابنُ القيِّم: (هذا أعَمُّ قَسَمٍ وَقَع في القرآنِ؛ فإنَّه يَعُمُّ العُلويَّاتِ والسُّفْليَّاتِ، والدُّنيا والآخِرةَ، وما يُرى وما لا يُرى، ويدخُلُ في ذلك الملائِكةُ كُلُّهم، والجِنُّ والإنسُ، والعَرشُ والكُرسيُّ، وكُلُّ مخلوقٍ، وكُلُّ ذلك مِن آياتِ قُدرتِه ورُبوبيَّتِه... ففي ضِمنِ هذا القَسَمِ أنَّ كُلَّ ما يُرى وما لا يُرى آيةٌ ودليلٌ على صِدقِ رسولِه، وأنَّ ما جاء به هو مِن عندِ اللهِ، وهو كلامُه). ((التبيان في أقسام القرآن)) (ص: ١٧٥).

وقال السعدي: (أقسَمَ تعالى بما يُبصِرُ الخَلقُ مِن جَميعِ الأشياءِ، وما لا يُبصِرونَه؛ فدخَلَ في ذلك كُلُّ الخلقِ، بل يَدخُلُ في ذلك نفْسُه المقدَّسةُ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٤). ويُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٤٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٤٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٤٨)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٣٣٣)، ((الإخنائية)) لابن تيمية (ص: ٤٨٢)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ١٧٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢١٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٤١).

وممَّن قال بأنَّ الرَّسولَ هنا: هو محمَّدٌ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ابنُ جرير، والواحديُّ، وابنُ تيميَّةَ -ونسَبَه لعامَّةِ العُلَماءِ-، وابنُ القيِّم، وابن كثير، وابن عاشور، ونسَبَه ابنُ الجوزيِّ إلى الأكثَرينَ. يُنظر: المصادر السابقة.

قال القرطبي: (ليس القُرآنُ قَولَ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، إنَّما هو مِن قَولِ اللهِ عزَّ وجَلَّ، ونُسِب القَولُ إلى الرَّسولِ؛ لأنَّه تاليه، ومُبَلِّغُه، والعامِلُ به). ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٧٤).

وقال ابنُ القيِّم: (وفي إضافتِه إليه باسمِ الرِّسالةِ أبيَنُ دَليلٍ أنَّه كَلامُ المُرسِلِ). ((التبيان في أقسام القرآن)) (ص: ١٧٦).

وقيل: المرادُ بالرَّسولِ هنا: جبريلُ عليه السَّلامُ. وممَّن ذهب إلى هذا القولِ: مقاتِلُ بنُ سُلَيمانَ، والكرمانيُّ، وابنُ جُزَي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٤٢٥)، ((تفسير الكرماني)) (٢/ ١٣١٣)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٠٨).

قال ابنُ تيميَّة: (وقد غَلِطَ بعضُ مَن شذَّ، فزَعَم أنَّه جِبريلُ). ((الإخنائية)) (ص: ٤٨٢).

وقال البِقاعي: (﴿كَرِيمٖ﴾ أي: هو في غايةِ الكرمِ الَّذي هو البُعدُ عن مساوئِ الأخلاقِ بإظهارِ =

﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ٤١﴾.

﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ﴾.

أي: وما هذا القُرآنُ بكَلامِ شاعرٍ كما يَزعُمُ كُفَّارُ قُرَيشٍ[1]!

كما قال تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ﴾ [يس: ٦٩].

وقال سُبحانَه: ﴿وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓا۟ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍۭ * بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الصافات: ٣٦، ٣٧].

﴿قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ﴾.

أي: يقولُ اللهُ لِمُشرِكي قُرَيشٍ: قليلٌ هو إيمانُكم بما وجَبَ عليكم الإيمانُ به[2].

= مَعاليها؛ لشَرَفِ النَّفْسِ وشَرَفِ الآباءِ؛ فهو لا يَزيدُ ولا يَنقُصُ، وكرمُ الشَّيءِ اجتِماعُ الكَمالاتِ اللَّائِقةِ به فيه). ((نظم الدرر)) (٢٠/ ٣٧٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٤٢)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٤٩٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٤٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٤٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٦٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٤٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٤١).

قال ابنُ عَطيَّةَ: (﴿مَا﴾ يَحتمِلُ أنْ تكونَ نافيةً، فيَنْتفي إيمانُهم الْبتَّةَ، ويَحتمِلُ أنْ تكونَ مَصدريَّةً، ويتَّصِفُ بالقِلَّةِ؛ إمَّا الإيمانُ، وإمَّا العددُ الَّذي يُؤمِنونَ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٦٢).

ممَّن اختار أنَّه أُريدَ بالقِلَّةِ العدَمُ، وأنَّ المرادَ بقولِه: ﴿قَلِيلًا﴾ نفْيُ إيمانِهم أصلًا: مُقاتِلُ بنُ سُليمانَ، والواحديُّ، والسَّمعاني، والزَّمخشري، والخازنُ، والشَّوكاني، والقاسميُّ، وهو ظاهرُ اختيارِ السعدي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٤٢٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٤٨)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٤٢)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٠٦)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٣٣٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٤١)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٣١٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٤).

وممَّن اختار أنَّ القِلَّةَ بمعْناها الظَّاهِرِ، أي: تُؤمِنون إيمانًا قليلًا، أو قَليلًا تُؤمِنونَ، ونحْو ذلك: =

كما قال تعالى: ﴿فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ٤٦].

﴿وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ (٤٢)﴾.

﴿وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ﴾.

أي: وما هذا القُرآنُ بكَلامِ كاهنٍ كاذِبٍ يدَّعِي عِلمَ الغَيبِ كما يَزعُمُه الكُفَّارُ[1]!

كما قال تعالى: ﴿فَذَكِّرْ فَمَا أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ﴾ [الطور: ٢٩].

﴿قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ﴾.

= ابنُ جريرٍ، والقرطبيُّ، والبيضاوي، وجلالُ الدِّينِ المحلِّي، والنيسابوريُّ، وأبو السُّعودِ، والألُوسي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٤٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٧٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٤٢)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٧٦٤)، ((تفسير النيسابوري)) (٢/ ١٢٤٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٢٧)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٥٩).

قيل: وذلك القليلُ مِن إيمانِهم هو أنَّهم إذا سُئِلوا مَن خَلَقَهم قالوا: اللهُ. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٧٥).

وقيل: لأنَّهم -لظُهورِ صِدقِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم- لَزِمَ تَصديقُهم له عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ في الجُملةِ، وإنْ أظْهَروا خِلافَه عِنادًا، وأبَوْه تَمرُّدًا بألْسنتِهم. يُنظر: ((حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي)) (٨/ ٢٣٩)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٥٩).

وقيل: لأنَّهم آمَنوا بأشياءَ يسيرةٍ وتَذَكَّروها؛ مِمَّا أتى به النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم مِن الخَيرِ والصِّلةِ والعَفافِ، فلم تُغْنِ عنهم شيئًا. يُنظر: ((تفسير الجلالين)) (ص: ٧٦٤).

وقال مكِّي: (أي: إيمانًا قليلًا إيمانُكم، أو وقتًا قليلًا). ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) (١٢/ ٧٦٨٩).

وقال ابن أبي زَمَنِين: (أقَلُّكم مَن يُؤمِنُ). حملًا على وصفِ العددِ الَّذي يؤمنُ بالقِلَّةِ. يُنظر: ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٥/ ٣٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٤٢)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٤٩٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٤٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٤٢).

قال البقاعي: (﴿وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ﴾ وهو المنجِّمُ الَّذي يخبِرُ عن أشياءَ يُوهِمُها لرَئيٍّ يُخبِرُه بذلك، وأغلَبُها ليس لها صِحَّةٌ، وعبارتُه عن ذلك بالسَّجعِ المتكَلَّفِ المقصودِ كَونُه سَجعًا، الَّذي يكونُ المعنى فيه تابِعًا للَّفْظِ؛ للتَّحليةِ بمُشاكلةِ المقاطِعِ). ((نظم الدرر)) (٢٠/ ٣٧٧).

أي: يَقولُ اللهُ تعالى لكُفَّارِ قُريشٍ: قليلًا ما تتذكَّرونَ، فتعتَبِرونَ وتتَّعِظونَ[١].

كما قال تعالى: ﴿قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ﴾ [غافر: ٥٨].

﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٣﴾﴾.

أي: هذا القُرآنُ تَنزيلٌ مِن عِندِ اللهِ رَبِّ العالَمينَ على عَبدِه ورَسولِه محمَّدٍ، فهو كلامُ اللهِ حقًّا، وليس قَولَ شاعرٍ ولا قَولَ كاهِنٍ، كما يَزعُمُ المُشرِكونَ[٢]!

كما قال تعالى: ﴿تَنزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [السجدة: ٢].

﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾﴾.

أي: ولو ادَّعى محمَّدٌ على اللهِ تعالى بعضَ الأقاويلِ الكاذِبةِ، فنَسَب إليه شيئًا لم يَقُلْه[٣].

﴿لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٤٥﴾﴾.

أي: لَعاجَلْناه بالعقوبةِ، وانتَقَمْنا منه بقوَّتِنا وقُدرتِنا[٤]!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٤٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٤٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٤١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٤٣)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٤٩٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٧٥)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ١٧٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣٧٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٤٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٦٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢١٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٥).

قال ابن الجوزي: (أي: لو تكلَّف محمَّدٌ أن يقولَ علينا ما لم نَقُلْه). ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٣٣٣).

وقال الشوكاني: (التَّقَوُّلُ: تكلُّفُ القولِ، والمعنى: لو تكلَّف ذلك وجاء به مِن جهةِ نفْسِه، وسُمِّيَ الافتِراءُ تقوُّلًا؛ لأنَّه قولٌ متكلَّفٌ، وكلُّ كاذِبٍ يَتكلَّفُ ما يَكذِبُ به). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٤٢). ويُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٧٥).

(٤) يُنظر: ((تأويل مشكل القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٠٠)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٤٢)، =

= ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٠٧)، ((النبوات)) لابن تيمية (٢/ ٨٩٨)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٣١٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٥).

قال البِقاعي: (﴿بِٱلْيَمِينِ﴾ أي: الَّتي هي العُضوُ الأقوى منه؛ فبها يكونُ بَطشُه، فنُذهِبُه بشِدَّةِ بَطشِنا، أو اليمينُ مِنَّا، فيكونُ كِنايةً عن أخْذِنا له بغايةِ القُوَّة؛ فإنَّ قُوَّةَ كُلِّ شَيءٍ في مَيامنِه. وقيل: إذا أراد المَلِكُ إهانةَ شَخصٍ قال: خُذْه يا فُلانُ، فيأخُذُه بيَمينِه، فهو كنايةٌ عن الإذلالِ. وقيل: هذا تصويرُ قَتلِ الصَّبرِ بأشنَعِ صُورةٍ؛ فإنَّ المَلِكَ إذا أراد التَّخفيفَ على مَن يَقتُلُه أمَرَ السَّيَّافَ فأخَذ يَسارَه بيَسارِه، وضَرَبَ بالسَّيفِ مِن ورائِه؛ لأنَّ العُنُقَ مِن خَلفٍ أوسَعُ، فيكونُ أسرعَ قَطعًا، ولا يرى المقتولُ لَمْعَ السَّيفِ، وإن أراد التَّعذيبَ والمُبالَغةَ في الإهانةِ أخَذَ يَدَه اليُمنى بيَدِه اليُسرى، وضرَبَه وهو مُستقبِلٌ له، يرى لَمْعَ السَّيفِ! ورُبَّما وقعت الضَّربةُ -لضِيقِ المجالِ مِن قُدَّامٍ- في حَنَكِه، فيحتاجُ إلى ثانيةٍ وثالثةٍ، فهو أفحَشُ!). ((نظم الدرر)) (٢٠/ ٣٨٠، ٣٨١). ويُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٦/ ٨٦، ٨٧).

وممَّن ذهب إلى أنَّ المعنى: لَأخَذْناه بقُوَّتِنا وقُدرتِنا: الفَرَّاءُ، وابنُ جرير، والزَّجَّاجُ، والواحديُّ، ونسَبَه للمُبَرِّد. يُنظر: ((معاني القرآن)) للفَرَّاء (٣/ ١٨٣)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٤٣)، ((معاني القرآن)) للزَّجَّاج (٥/ ٢١٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٤٩). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢١٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٤٥، ١٤٦).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ، ومجاهدٌ. يُنظر: ((الدر المنثور)) للسيوطي (٨/ ٢٧٦)، ((تفسير الماوردي)) (٦/ ٨٦).

قال ابنُ قُتَيْبةَ: (قال ابنُ عبَّاسٍ: اليمينُ هاهنا: القوَّةُ. وإنَّما أقام اليمينَ مُقامَ القوَّةِ؛ لأنَّ قوَّةَ كلِّ شَيءٍ في مَيامِنِه). ((تأويل مشكل القرآن)) (ص: ٩٩).

وقيل: المرادُ: لَأخَذْنا بيَمينِه. وممَّن اختاره: الزمخشريُّ، والبيضاوي، والنسفي، والنيسابوري، وأبو السعود، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٠٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٤٣)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٥٣٤)، ((تفسير النيسابوري)) (٦/ ٣٥٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٢٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٤٢).

قال الزمخشري: (والمعنى: ولو ادَّعى علينا شيئًا لم نقُلْه، لَقتَلْناه صَبرًا، كما يَفعَلُ الملوكُ بمَن يتكذَّبُ عليهم...، وهو أن يُؤخَذَ بيَدِه، وتُضرَبَ رَقبتُه). ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٠٧). ويُنظر: ((النبوات)) لابن تيمية (٢/ ٨٩٨)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٣١٥).

قال أبو حيَّان: (وهو قولٌ للمُتقدِّمينَ... قالوا: المعْنى: لَأخَذْنا بيَدِه الَّتي هي اليمينُ على جِهةِ =

﴿ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ۝٤٦﴾.

أي: ثمَّ لقطَعْنا من محمَّدٍ عِرقَ قَلْبِه، فأمَتْناه[1]!

﴿فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ ۝٤٧﴾.

أي: فلا أحَدَ منكم -أيُّها النَّاسُ- بقادرٍ على مَنْعِ اللهِ تعالى مِن عُقوبةِ محمَّدٍ إن كَذَب على ربِّه[2]!

= الإذلالِ والصَّغارِ، كما يقولُ السُّلطانُ إذا أراد عُقوبةَ رجُلٍ: يا غُلامُ، خُذْ بيَدِه، وافعَلْ كذا. قاله أو قَريبًا منه الطبَريُّ). ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٦٦). ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٤٣).

وقال ابن تيميَّة: (قوله: ﴿لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ﴾: قيل: لَأخَذْنا بيَمينِه، كما يُفعلُ بمَن يُهانُ عندَ القتلِ، فيُقالُ: خُذْ بيَدِه، فيُجَرُّ بيَدِه، ثمَّ يُقتلُ، فهذا هلاكٌ بعِزَّةٍ وقُدرةٍ مِن الفاعلِ، وإهانةٍ وتعجيلِ [هلاكٍ] للمقتولِ. وقيل: لَأخَذْنا منه باليمينِ؛ أي: بالقوَّةِ، والقُدرةِ؛ فإنَّ المَيامِنَ أقوى ممَّن يأخذُ بشِمالِه، كما قال: ﴿فَأَخَذْنَٰهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ [القمر: ٤٢]، وكما قال: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾ [البروج: ١٢]. لكنَّه قال: «أَخَذْنَا مِنْهُ»، ولم يقلْ: لَأخَذْناه. فهذا يُقوِّي القولَ الأوَّلَ). ((النبوات)) (٢/ ٨٩٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٤٣، ٢٤٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٧٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢١٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٤٦).

قال ابنُ القيِّم: (﴿ٱلْوَتِينَ﴾: نياطُ القَلبِ، وهو عِرقٌ يَجْري في الظَّهرِ حتَّى يتَّصِلَ بالقَلبِ، إذا انقطَع بطَلَت القُوى، ومات صاحِبُه، هذا قَولُ جميعِ أهلِ اللُّغةِ). ((التبيان في أقسام القرآن)) (ص: ١٨٤). ويُنظر: ((الزاهر)) لابن الأنباري (٢/ ٣٨٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٤٩).

ونسَبَ الواحديُّ والبغويُّ القولَ بأنَّ ﴿ٱلْوَتِينَ﴾ نياطُ القَلبِ إلى أكثرِ المفسِّرينَ، وقال الواحديُّ: (وهذا قولُ جميعِ أهلِ اللُّغة). يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (٢٢/ ١٩١)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ١٥٠).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ، وعِكْرِمةُ، وابنُ جُبَيرٍ، وقَتادةُ، والضَّحَّاكُ، ومسلمٌ البَطِينُ، وغيرُهم. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٤٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢١٨).

وقال محمَّدُ بنُ كعبٍ: (هو القلبُ ومَراقُّه وما يَليه). يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٦/ ٨٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٤٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٤٩)، ((تفسير ابن =

كما قال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ [الأحقاف: ٨].

﴿وَإِنَّهُ لَتَذْكِرَةٌ لِلْمُتَّقِينَ (٤٨)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ اللهَ تَعالى لَمَّا بيَّن أنَّ القرآنَ تَنزيلٌ مِن اللهِ الحقِّ، بواسِطةِ جِبريلَ، على محمَّدٍ الَّذي مِن صِفتِه أنَّه ليس بشاعرٍ ولا كاهنٍ؛ بيَّن بعْدَ ذلك أنَّ القرآنَ ما هو[(١)].

وأيضًا لَمَّا أُبطِلَ طَعْنُهم في القرآنِ بأنَّه قولُ شاعرٍ، أو قولُ كاهنٍ؛ أُعقِبَ ببَيانِ شَرَفِه ونفْعِه، إمعانًا في إبطالِ كَلامِهم بإظهارِ الفرْقِ البَيِّنِ بيْنه وبيْن شِعرِ الشُّعراءِ وزَمزمةِ الكُهَّانِ؛ إذ هو تَذكرةٌ، وليس ما ألْحَقوه به مِن أقوالِ أولئك مِن التَّذكيرِ في شَيءٍ[(٢)].

﴿وَإِنَّهُ لَتَذْكِرَةٌ لِلْمُتَّقِينَ (٤٨)﴾.

أي: وإنَّ القُرآنَ مُذَكِّرٌ للمُتَّقينَ الَّذين يَمتَثِلونَ أوامرَ اللهِ تعالى، ويَجتَنِبونَ نواهيَه، فيَعتَبِرونَ به ويتَّعِظونَ[(٣)].

= جزي)) (٢/ ٤٠٨)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ١٨٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢١٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣٨٢).

قال السعدي: (وقولُه: ﴿فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ﴾ أي: لو أهلَكه ما امتَنَع هو بنفسِه، ولا قدَر أحدٌ أنْ يمنعَه من عذابِ الله). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٥).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦٣٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٤٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٤٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٤٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٧٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢١٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٥)، ((تفسير ابن =

كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢].

وقال سُبحانَه: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص: ٢٩].

﴿وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ (٤٩)﴾.

أي: وإنَّا لَنعلَمُ أنَّ مِنكم مُكَذِّبينَ بهذا القُرآنِ مع وُضوحِ الحَقِّ فيه، وسنُجازيهم على تَكذيبِهم[(١)]!

كما قال تعالى: ﴿وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوْمُكَ وَهُوَ ٱلْحَقُّ﴾ [الأنعام: ٦٦].

﴿وَإِنَّهُۥ لَحَسْرَةٌ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ (٥٠)﴾.

أي: وإنَّ القُرآنَ لحَسْرةٌ على الكافِرينَ، فيَندَمونَ على تَركِ الإيمانِ به[(٢)]!

= عاشور)) (٢٩/ ١٤٨).

قال السعدي: (يتذَكَّرونَ به مصالحَ دينِهم ودُنياهم، فيَعرِفونَها، ويَعمَلونَ عليها، يُذَكِّرُهم العقائِدَ الدِّينيَّةَ، والأخلاقَ المَرْضيَّةَ، والأحكامَ الشَّرعيَّةَ، فيَكونون مِن العُلَماءِ الرَّبَّانيِّينَ، والعبادِ العارفينَ، والأئمَّةِ المَهْديِّينَ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٤٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢١٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٤٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٥).

قيل: الضَّميرُ راجِعٌ إلى النَّاسِ. وممَّن اختاره: ابنُ جرير، والزمخشريُّ، والعُليمي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٤٦)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٠٧)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ١٥٣).

وقيل: الضَّميرُ في ﴿مِنكُم﴾ راجِعٌ إلى المؤمنينَ، فيكونُ المرادُ بالمكذِّبينَ منهم: المنافِقينَ. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: السمرقنديُّ. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٤٩٣).

وقيل: الخِطابُ للمُسلِمينَ، والمعنى: أنَّ منهم ناسًا سيَكفُرونَ بالقرآنِ. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٠٧).

قال ابن عرفة: (قولُه تعالى: ﴿وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ﴾ إن كان الخِطابُ للكفَّارِ، فـ «مِن» لبيانِ الجنسِ، وليس هو إخبارًا بالمعلومِ؛ لأنَّه على جهةِ التَّهديدِ والوعيدِ. وإن كان الخِطابُ لعُمومِ النَّاسِ، فالمرادُ مَن سيُكَذِّبُ منهم في المُستقبَلِ). ((تفسير ابن عرفة)) (٤/ ٢٨٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٤٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٤٩)، ((تفسير ابن =

= عطية)) (٥/ ٣٦٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٧٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢١٨، ٢١٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٥).

قال الرازي: (الضَّميرُ في قولِه: «إِنَّهُ» إلى ماذا يعودُ؟ فيه وجهانِ:

الأوَّلُ: أنَّه عائِدٌ إلى القرآنِ، فكأنَّه قيلَ: وإنَّ القرآنَ لَحَسرةٌ على الكافرينَ. إمَّا يومَ القيامةِ إذا رَأَوْا ثوابَ المصدِّقينَ به، أو في دارِ الدُّنيا إذا رَأَوْا دولةَ المؤمنينَ.

والثَّاني: قال مقاتلٌ: وإنَّ تكذيبَهم بالقرآنِ لَحسرةٌ عليهم، ودلَّ عليه قولُه: ﴿وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ﴾ [الحاقة: ٤٩]). ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦٣٦).

ممَّن اختار أنَّ الضَّميرَ في قولِه: «إِنَّهُ» يعودُ على القُرآنِ: السَّمرقنديُّ، والرَّسْعني، والعُلَيمي، والشَّوكاني. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٤٩٣)، ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٢٧١)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ١٥٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٤٢).

وممَّن اختار أنَّه يعودُ على التَّكذيبِ: ابنُ جريرٍ، والقُرطبيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٤٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٧٧).

قال الواحديُّ: (قال ابنُ عبَّاسٍ: القرآنُ حَسرةٌ على الكافرين يومَ القيامةِ. يعني: ندامةً؛ إذ لم يُؤمِنوا به. والكنايةُ في «إِنَّهُ» -على هذا القولِ- للتَّكذيبِ. ودلَّ عليه قولُه: ﴿أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ﴾). ((البسيط)) (٢٢/ ١٩٥).

وقال ابن عطية: (يَرَونَ مَن آمَنَ به يُنَعَّمُ، وهم يُعذَّبونَ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٦٣).

وقال ابن عاشور: (الحَسْرةُ: النَّدَمُ الشَّديدُ المتكرِّرُ على شَيءٍ فائتٍ مَرغوبٍ فيه... فالقرآنُ حَسرةٌ على الكافِرينَ، أي: سَبَبُ حَسرةٍ عليهم في الدُّنيا والآخرةِ، فهو حَسرةٌ عليهم في الدُّنيا؛ لأنَّه فَضَح تُرَّهاتِهم، ونَقَض عِمادَ دِينِهم الباطِلِ، وكَشَف حقارةَ أصنامِهم، وهو حَسرةٌ عليهم في الآخِرةِ؛ لأنَّهم يَجِدونَ مخالفتَه سببَ عَذابِهم، ويَقِفونَ على اليَقينِ بأنَّ ما كان يدعوهم إليه هو سَبَبُ النَّجاحِ لو اتَّبَعوه، لا سيَّما وقد رأَوا حُسنَ عاقبةِ الَّذين صَدَّقوا به). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٤٩).

وقال ابن القيِّم: (أخبَر سبحانه أنَّ رَسولَه وكلامَه حَسْرةٌ على الكافِرينَ، إذا عايَنوا حقيقةَ ما أخبَرَ به كان تكذيبُهم عليهم مِن أعظمِ الحَسَراتِ حينَ لا يَنفَعُهم التَّحَسُّرُ! وهكذا كلُّ مَن كَذَّبَ بحَقٍّ، وصَدَّقَ بباطِلٍ؛ فإنَّه إذا انكشَفَ له حقيقةُ ما كَذَّبَ به وصَدَّقَ به، كان تكذيبُه وتصديقُه حَسْرةً عليه، كمَن فَرَّطَ فيما يَنفَعُه وقتَ تحصيلِه، حتَّى إذا اشتَدَّتْ حاجتُه إليه، وعايَنَ فوزَ المحصِّلينَ؛ صار تفريطُه عليه حَسْرةً). ((التبيان في أقسام القرآن)) (ص: ١٩١).

كما قال تعالى: ﴿وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ * أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ﴾ [الزمر: ٥٥، ٥٦].

﴿وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٥١﴾﴾.

أي: وإنَّ القرآنَ لَهُو الحَقُّ الثَّابتُ المؤكَّدُ الَّذي لا شَكَّ فيه، ولا في نُزولِه مِن عِندِ اللهِ تعالى[1].

﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٥٢﴾﴾.

أي: فنَزِّهْ ربَّك المتَّصِفَ بكَمالِ العَظَمةِ -يا محمَّدُ- عن كُلِّ نَقصٍ وعَيبٍ، قائِلًا: سُبحانَ رَبِّيَ العَظيمِ[2].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ إشارةٌ إلى أنَّه يجبُ علينا أنْ نَعمَلَ بالقُرآنِ؛ لأنَّ الَّذي أنزَلَه هو الرَّبُّ المُطاعُ الخالقُ الرَّازِقُ، الَّذي يجبُ أنْ نُطيعَه بما أمَرَ، ونَنتهيَ عمَّا نهى عنه وزَجَرَ[3].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ * لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ * ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٤٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٧٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢١٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣٨٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٥).

وقيل: يَحتمِلُ أنْ يكونَ الضَّميرُ في قولِه: «إِنَّهُ» عائدًا على كَوْنِ القرآنِ حَسرةً على الكافرينَ. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٥٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٤٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٧٧)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٢٤٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٥١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٤٩).

ﭐلۡوَتِينَ ۞ فَمَا مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ عَنۡهُ حَٰجِزِينَ﴾ أنَّ الواجبَ على المسلمِ ألَّا يُقْدِمَ على الفُتيا إلَّا بعلمٍ يُواجِهُ به اللهَ عزَّ وجلَّ؛ لأنَّه في مَقامِ المُبَلِّغِ عنِ اللهِ تعالى، القائلِ عنه(١).

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلۡيَقِينِ﴾ اليَقينُ مراتِبُه ثلاثةٌ: عِلمُ اليَقينِ: وهو العِلمُ المستفادُ مِن الخبرِ، ثمَّ عَينُ اليَقينِ: وهو العِلمُ المُدرَكُ بحاسَّةِ البصَرِ، ثمَّ حَقُّ اليقينِ: وهو العِلمُ المُدرَكُ بحاسَّةِ الذَّوقِ والمباشَرةِ، وهذا القُرآنُ الكريمُ بهذا الوَصفِ؛ فإنَّ ما فيه مِنَ العُلومِ المؤيَّدةِ بالبراهينِ القَطعيَّةِ، وما فيه مِن الحقائِقِ والمعارفِ الإيمانيَّةِ: يَحصُلُ به لِمَن ذاقه حَقُّ اليقينِ(٢).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال تعالى: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَا تُبۡصِرُونَ ۞ وَمَا لَا تُبۡصِرُونَ﴾ جمَعَ اللهُ في هذا القسَمِ كلَّ ما الشَّأنُ أنْ يُقسَمَ به مِن الأمورِ العظيمةِ مِن صِفاتِ اللهِ تَعالى، ومِن مَخلوقاتِه الدَّالَّةِ على عَظيمِ قُدرتِه؛ إذ يَجمَعُ ذلك كلَّه الصِّلَتانِ ﴿بِمَا تُبۡصِرُونَ ۞ وَمَا لَا تُبۡصِرُونَ﴾، فممَّا يُبصِرون: الأرضُ والجبالُ، والبحارُ والنُّفوسُ البشريَّةُ، والسَّمواتُ والكواكبُ، وما لا يُبصِرون: الأرواحُ، والملائكةُ، وأُمورُ الآخرةِ(٣).

٢- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ﴾ نِسبةُ الشَّيءِ إلى مَن بَلَّغَه، ومِثْلُه أنَّ اللهَ نَسَبَ القرآنَ أيضًا إلى جِبريلَ؛ فقال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ۞ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي ٱلۡعَرۡشِ مَكِينٖ﴾ [التكوير: ١٩، ٢٠]، فنِسْبةُ الشَّيءِ إلى المُبَلِّغِ سائغةٌ شَرعًا ولُغةً(٤).

---

(١) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (٢٤/ ٣٢٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٤). ويُنظر أيضًا: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ١٩١-١٩٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٠٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٤٢)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٦٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٢٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٤١).

(٤) يُنظر: ((فتح ذي الجلال والإكرام بشرح بلوغ المرام)) لابن عثيمين (٣/ ٣٩٤).

٣- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ﴾ سُؤالٌ: أنَّ هذا يدُلُّ على أنَّ الرَّسولَ أحْدَثَ الكلامَ العَربيَّ!

الجوابُ: هذا باطِلٌ؛ وذلك لأنَّ اللهَ تعالى ذَكَرَ هذا في القُرآنِ في موضِعَينِ، والرَّسولُ في أحدِ الموضِعَينِ: مُحمَّدٌ، والرَّسولُ في الآيةِ الأخرى: جِبريلُ؛ قال تعالى هنا: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ * وَمَا هُوَ بِقَوۡلِ شَاعِرٖۚ قَلِيلٗا مَّا تُؤۡمِنُونَ * وَلَا بِقَوۡلِ كَاهِنٖۚ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ * تَنزِيلٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ فالرَّسولُ هنا محمَّدٌ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وقال في سورةِ (التكوير): ﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ * ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي ٱلۡعَرۡشِ مَكِينٖ * مُّطَاعٖ ثَمَّ أَمِينٖ﴾ [التكوير: ١٩ - ٢١] فالرَّسولُ هنا جِبريلُ، فلو كان أضافَه إلى الرَّسولِ لكَونِه أحدَثَ حروفَه أو أَحْدَثَ منه شيئًا، لَكان الخبَرانِ مُتناقِضَينِ؛ فإنَّه إنْ كان أحدُهما هو الَّذي أحدَثَها امتنَعَ أنْ يكونَ الآخَرُ هو الَّذي أحدَثَها، وأيضًا فإنَّه قال: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ﴾ ولم يَقُلْ: «لَقولُ مَلَكٍ ولا نبيٍّ»! ولفظُ «الرَّسولِ» يَستَلزِمُ مُرسِلًا له، فدلَّ ذلك على أنَّ الرَّسولَ مُبَلِّغٌ له عن مُرْسِلِه، لا أنَّه أنشأَ منه شيئًا مِن جهةِ نفْسِه! وهذا يدُلُّ على أنَّه أضافه إلى الرَّسولِ؛ لأنَّه بَلَّغَه وأدَّاه، لا لأنَّه أنشأَ منه شَيئًا وابتَدَأَه، وأيضًا فإنَّ اللهَ قد كَفَّرَ مَن جَعَلَه قولَ البشَرِ، بقَولِه: ﴿إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ * فَقُتِلَ كَيۡفَ قَدَّرَ * ثُمَّ قُتِلَ كَيۡفَ قَدَّرَ * ثُمَّ نَظَرَ * ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ * ثُمَّ أَدۡبَرَ وَٱسۡتَكۡبَرَ * فَقَالَ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ يُؤۡثَرُ * إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا قَوۡلُ ٱلۡبَشَرِ﴾ [المدثر: ١٨ - ٢٥]، ومحمَّدٌ بَشَرٌ؛ فمَن قال: إنَّه قَولُ محمَّدٍ، فقد كفَرَ، ولا فَرْقَ بيْن أنْ يقولَ: هو قَولُ بَشَرٍ، أو جِنِّيٍّ، أو مَلَكٍ، فمَن جَعَلَه قولًا لأحَدٍ مِن هؤلاءِ فقد كَفَر، ومع هذا فقد قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ * وَمَا هُوَ بِقَوۡلِ شَاعِرٖ﴾، فجَعَله قولَ الرَّسولِ البَشَريِّ مع تكفيرِه مَن يقولُ: إنَّه قَولُ البَشَرِ، فعُلِمَ أنَّ المرادَ بذلك أنَّ الرَّسولَ بَلَّغَه عن مُرْسِلِه، لا أنَّه قَولٌ له مِن تِلْقاءِ نفْسِه، وهو كَلامُ اللهِ الَّذي أرسَلَه، كما قال تعالى: ﴿وَإِنۡ أَحَدٞ

﴿مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٦]، فالَّذي بَلَّغه الرَّسولُ هو كلامُ اللهِ، لا كَلامُ الرَّسولِ(١).

٤- في قَولِه تعالى: ﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أنَّ القُرآنَ نازِلٌ لجَميعِ الخَلْقِ؛ ففيه دليلٌ على عُمومِ رسالةِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم(٢).

٥- في قَولِه تعالى: ﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أنَّ القرآنَ نازِلٌ مِن ربِّهم، وإذا كان كذلك فهو الحَكَمُ بيْنَهم، الحاكِمُ عليهم(٣).

٦- في قَولِه تعالى: ﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أنَّ نزولَ القُرآنِ هو مِن كَمالِ رُبوبيَّةِ اللهِ تعالى، فإذا أُضِيفَ إلى هذه الآيةِ قولُه تعالى: ﴿تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ * كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ﴾ [فصلت: ٢، ٣] عُلِمَ أنَّ القرآنَ رحمةٌ للعِبادِ أيضًا، وربوبيَّةُ اللهِ مَبنيَّةٌ على الرَّحمةِ؛ قال تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ * ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ [الفاتحة: ٢، ٣]، وكلُّ ما أمَرَ اللهُ به عبادَه أو نهاهم عنه، فهو رَحمةٌ بهم(٤).

٧- في قَولِه تعالى: ﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أنَّ القرآنَ كلامُ اللهِ؛ لأنَّه إذا كان اللهُ أنزَلَه فهو كلامُه لا كلامُ غيرِه -كما قاله السَّلَفُ رَحِمَهم اللهُ-، وهو غيرُ مخلوقٍ؛ لأنَّ جميعَ صِفاتِ اللهِ -حتَّى الصِّفاتِ الفِعليَّةَ- ليست مخلوقةً(٥).

٨- في قَولِه تعالى: ﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أخبَرَ سُبحانَه أنَّه تنزيلٌ مِن رَبِّ العالَمينَ، وذلك يتضَمَّنُ أمورًا:

---

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٢/ ١٣٥).

(٢) يُنظر: ((القول المفيد على كتاب التوحيد)) لابن عثيمين (٢/ ٣٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٣٩).

أحدُها: أنَّه تعالى فوقَ خَلْقِه كُلِّهم، وأنَّ القُرآنَ نَزَل مِن عِندِه.

والثَّاني: أنَّه تكَلَّمَ به حقيقةً[1].

٩- في قَولِه تعالى: ﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أنَّ ربوبيَّةَ اللهِ الكامِلةَ لِخَلْقِه تأبى أنْ يَتْرُكَهم سُدًى؛ لا يأمرُهم ولا يَنهاهُم، ولا يُرشِدُهم إلى ما يَنفَعُهم، ويُحَذِّرُهم ما يَضُرُّهم، بل يَترُكُهم هَمَلًا بمنزلةِ الأنعامِ السَّائمةِ! فمَن زَعَم ذلك لم يَقْدُرْ ربَّ العالَمينَ قَدْرَه، ونَسَبَه إلى ما لا يَليقُ به تعالى: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ﴾[2] [المؤمنون: ١١٦].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ﴾ أنَّه سُبحانَه لا يُؤَيِّدُ الكذَّابَ عليه، بل لا بُدَّ أنْ يُظْهِرَ كَذِبَه، وأنْ يَنتَقِمَ منه؛ فقد ذَكَر هذا بَعْدَ قَولِه تعالى: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ * وَمَا لَا تُبْصِرُونَ * إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ * وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ * تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، ثُمَّ قال: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ * لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ * ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ * فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ﴾، هذا بتقديرِ أنْ يَتَقَوَّلَ بعضَ الأقاويلِ، فكيفَ بمَن يَتَقَوَّلُ الرِّسالةَ كلَّها[3]؟! فحِكمتُه تعالى تَقتضي ألَّا يُمهِلَ الكاذِبَ عليه، الَّذي يَزعُمُ أنَّ اللهَ أباح له دِماءَ مَن خالَفَه وأموالَهم، وأنَّه هو وأتْباعَه لهم النَّجاةُ، ومَن خالفَه فله الهلاكُ، فإذا كان اللهُ قد أيَّدَ رَسولَه بالمعجزاتِ، وبَرْهَنَ على صِدقِ ما جاء به بالآياتِ البَيِّناتِ، ونَصَره على أعدائِه، ومكَّنَه مِن نواصيهم؛ فهو أكبَرُ شَهادةٍ منه على رِسالتِه[4]، ولو قُدِّرَ أنَّه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ غَيَّرَ الرِّسالةَ، لَانْتَقَمَ منه، والمقصودُ نفْيُ هذا التَّقديرِ؛

(١) يُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ١٧٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٧٩).

(٣) يُنظر: ((النبوات)) لابن تيمية (٢/ ٨٩٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٤).

لانتفاءِ لازِمِه[١]. فالآياتُ فيها دليلٌ على أنَّ الله تعالى لا يُبقي أحدًا يدَّعي أنَّ اللهَ أوحى إليه كلامًا يُبَلِّغُه إلى النَّاسِ، وأنَّه يُعجِّلُ بهلاكِه، فأمَّا مَن يدَّعي النُّبوَّةَ دونَ ادِّعاءِ قَولٍ أُوحِيَ إليه، فإنَّ اللهَ قد يُهلِكُه بَعْدَ حِينٍ[٢].

١١- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ * لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ * ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ * فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ﴾ أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم معصومٌ مِن أنْ يَتَقَوَّلَ على اللهِ، فإذا لم يَأْذَنْ له اللهُ في تحليلِ شيءٍ أو تحريمِه، فلن يحَلِّلَه ولن يحَرِّمَه[٣].

١٢- خَتَم سُبحانَه السُّورةَ بقَولِه: ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾، وهي جديرةٌ بهذه الخاتمةِ؛ لِمَا تَضَمَّنَتْه مِن الإخبارِ عن عَظَمةِ الرَّبِّ -تعالى- وجلالِه، وذِكْرِ عِظَمِ مُلْكِه، وجرَيانِ حُكْمِه بالعَدلِ على عبادِه في الدُّنيا والآخرةِ، وذِكْرِ عظَمتِه تعالى في إرسالِ رَسولِه، وإنزالِ كتابِه، وأنَّه تعالى أعظمُ وأَجَلُّ وأكبرُ عندَ أهلِ سمَواتِه والمؤمنينَ مِن عبادِه مِن أنْ يُقِرَّ كَذِبًا مُتَقَوَّلًا عليه، مُفترًى عليه؛ يُبَدِّلُ دِينَه، ويَنسَخُ شرائعَه، ويَقتُلُ عبادَه، ويُخبِرُ عنه بما لا حقيقةَ له، وهو سُبحانَه مع ذلك يؤيِّدُه ويَنصُرُه، ويُجيبُ دعواتِه، ويأخُذُ أعداءَه، ويَرفَعُ قَدْرَه، ويُعْلِي ذِكْرَه! فهو سُبحانَه العظيمُ الَّذي تأبى عَظَمتُه أنْ يَفعلَ ذلك بمَن أَتَى بأقبَحِ أنواعِ الكَذِبِ والظُّلمِ، فسُبحانَ ربِّنا العَظيمِ وتعالى عمَّا يَنسُبُه إليه الجاهِلونَ عُلُوًّا كبيرًا[٤]!

١٣- إنَّ بَرَكةَ الاسمِ تابعةٌ لبَرَكةِ المسمَّى؛ فقولُه تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ دليلٌ على الأمرِ بتسبيحِ الرَّبِّ بطريقِ الأَولى؛ فإنَّ تنزيهَ الاسمِ مِن توابعِ

(١) يُنظر: ((تلخيص كتاب الاستغاثة لابن تيمية)) لابن كثير (٢/ ٤٦٤).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٤٧).
(٣) يُنظر: ((فتح ذي الجلال والإكرام بشرح بلوغ المرام)) لابن عثيمين (١/ ١٠٤).
(٤) يُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ١٩٣).

تنزيهِ المسمَّى[1].

١٤- في قَولِه تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾ سؤالٌ: ما الفائدةُ في دُخولِ الباءِ في قَولِه تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾، ولم تَدخُلْ في قَولِه تعالى: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ [الأعلى: ١]؟

الجوابُ: التَّسبيحُ يُرادُ به التَّنزيهُ، والذِّكْرُ المُجَرَّدُ دونَ معنًى آخَرَ، ويُرادُ به ذلك معَ الصَّلاةِ، وهو ذِكْرٌ وتنزيهٌ مع عَمَلٍ؛ ولهذا تُسَمَّى الصَّلاةُ تسبيحًا؛ فإذا أُريدَ التَّسبيحُ المُجَرَّدُ فلا معنى للباءِ؛ لأنَّه لا يَتعدَّى بحَرفِ جَرٍّ، لا تَقولُ: سَبَّحْتُ باللهِ، وإذا أرَدْتَ المقرونَ بالفعلِ -وهو الصَّلاةُ- أدْخَلْتَ الباءَ؛ تنبيهًا على ذلك المرادِ، كأنَّك قُلْتَ: سَبِّحْ مُفتَتِحًا باسمِ ربِّك، أو ناطِقًا باسمِ ربِّك، كما تقولُ: صَلِّ مُفتَتِحًا أو ناطِقًا باسمِه؛ ولهذا السِّرِّ -واللهُ أعلمُ- دخَلَتِ اللَّامُ في قَولِه تعالى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الحديد: ١]، والمرادُ: التَّسبيحُ الَّذي هو السُّجودُ والخُضوعُ والطَّاعةُ، ولم يَقُلْ في موضع: «سَبَّحَ اللهَ ما في السَّمواتِ والأرضِ»، كما قال: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الرعد: ١٥]! وتأمَّلْ قولَه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٦]، كيف قال: ﴿وَيُسَبِّحُونَهُۥ﴾ لَمَّا ذَكَرَ السُّجودَ باسمِه الخاصِّ؛ فصار التَّسبيحُ ذِكْرَهم له، وتنزيهَهم إيَّاه[2].

١٥- في قَولِه تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾ فائدةٌ في ذِكْرِ الاسمِ: وهو أنْ يكونَ التَّسبيحُ باللِّسانِ؛ إذْ لا يمكنُ تسبيحُ اللهِ باللِّسانِ إلَّا بذكرِ اسمه، أمَّا إذا لم تَذْكُرِ اسمَ اللهِ؛ فإنَّ التَّسبيحَ يكونُ بالقلبِ؛ ولهذا تقولُ: «سُبْحانَ رَبِّيَ العظيمِ»،

(١) يُنظر: ((جلاء الأفهام)) لابن القيم (ص: ٣٠٧).

(٢) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (١/ ٢٠).

«سُبحانَ اللهِ وبحَمْدِه»، «سبحانَ اللهِ العظيم» تَذْكُرُ الاسمَ، فيكونُ فائدةُ ذِكْرِ الاسمِ هنا: الدَّلالةَ على أنَّ المرادَ التَّسبيحُ باللِّسانِ، وهذا لا يمكِنُ إلَّا بذِكْرِ الاسمِ، فتكونُ هنا إذَن فائِدةُ ذِكْرِ الاسمِ عَظيمةً جِدًّا؛ لئلَّا يَقتَصِرَ الإنسانُ على التَّسبيحِ بقَلبِه، الَّذي لا يَظْهَرُ معه الاسمُ(١).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَا تُبۡصِرُونَ ۝ وَمَا لَا تُبۡصِرُونَ﴾

- قولُه: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَا تُبۡصِرُونَ﴾ الفاءُ هنا لتَفريعِ إثباتِ أنَّ القرآنَ مُنزَّلٌ مِن عندِ اللهِ، ونفْيِ ما نسَبَه المشرِكون إليه، تَفريعًا على ما اقتضاهُ تَكذيبُهم بالبعثِ مِن التَّعريضِ بتَكذيبِ القرآنِ الَّذي أخبَرَ بوُقوعِه، وتَكذيبِهم الرَّسولَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم القائلَ: إنَّه مُوحًى به إليه مِن اللهِ تَعالى(٢).

- وابتُدِئَ الكلامُ بالقسَمِ تَحقيقًا لمَضمونه على طَريقةِ الأقسامِ الواردةِ في القرآنِ، و(لا أُقسِمُ) صِيغةُ تَحقيقِ قَسَمٍ، وأصْلُها أنَّها امتِناعٌ مِن القسَمِ امتناعَ تَحرُّجٍ مِن أنْ يَحلِفَ بالمقسَمِ به خَشيةَ الحِنثِ، فشاع استِعمالُ ذلك في كلِّ قسَمٍ يُرادُ تَحقيقُه، واعتُبِرَ حرْفُ (لا) كالمزيدِ(٣). وذلك على قولٍ.

٢- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ﴾

- ضَميرُ ﴿إِنَّهُۥ﴾ عائدٌ إلى القُرآنِ المفهومِ مِن ذِكرِ الحَشْرِ والبعثِ؛ فإنَّ ذلك ممَّا جاء به القُرآنُ، ومَجيئُه بذلك مِن أكبرِ أسبابِ تَكذيبِهم به، على أنَّ

(١) يُنظر: ((فتح ذي الجلال والإكرام بشرح بلوغ المرام)) لابن عثيمين (٢/ ٣٥١).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٤٠، ١٤١).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٢٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٤١). ويُنظر ما تقدَّم (ص: ١٠١).

إرادةَ القُرآنِ مِن ضَمائرِ الغَيبةِ الَّتي لا معادَ لها قدْ تَكرَّرَ غيرَ مرَّةٍ فيه. وتأْكيدُ الخبرِ بحرْفِ (إنَّ) واللَّامِ؛ للرَّدِّ على الَّذين كذَّبوا أنْ يكونَ القرآنُ مِن كَلامِ اللهِ، ونَسَبوه إلى غيرِ ذلك[١].

- وإضافةُ (قول) إلى (رسول)؛ لأنَّه الَّذي بلَّغَه، فهو قائلُه، والإضافةُ لأدْنى مُلابَسةٍ، وإلَّا فالقُرآنُ جَعَلَه اللهُ تعالَى وأجْراهُ على لِسانِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، كما صدَرَ مِن جِبريلَ بإيحائِه بواسطتِه[٢].

- وفي لَفظِ (رَسول) إيذانٌ بأنَّ القولَ قولُ مُرسِله -وهو اللهُ تعالى-، وقد أُكِّدَ هذا المعْنى بقولِه عَقِبَه: ﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[٣].

- ووصْفُ الرَّسولِ بـ﴿كَرِيمٍ﴾؛ لأنَّه الكريمُ في صِنفِه، أي: النَّفيسُ الأفضلُ، فأُثبِتَ للرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم الفضلُ على غيرِه مِن الرُّسلِ بوصْفِ ﴿كَرِيمٍ﴾[٤].

٣- قولُه تعالَى: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ * وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾

- عُطِفَ قولُه: ﴿وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ﴾ على جُملةِ الخبرِ في قولِه: ﴿بِقَوْلِ شَاعِرٍ﴾، و(لا) النَّافيةُ تأْكيدٌ لنفْيِ (ما)[٥].

- وكُنِّيَ بنفْيِ أنْ يكونَ قولَ شاعرٍ، أو قولَ كاهنٍ عن تَنزيهِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم عن أنْ يكونَ شاعرًا أو كاهنًا؛ ردًّا لقولِهم: هو شاعرٌ، أو هو كاهنٌ[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٤١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ١٤٢).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- وإنَّما خُصَّ هذانِ بالذِّكرِ دونَ قولِهم: افتراهُ، أو هو مَجنونٌ؛ لأنَّ الوصفَ بـ﴿كَرِيمٍ﴾ كافٍ في نفْيِ أنْ يكونَ مَجنونًا أو كاذبًا؛ إذ ليس المجنونُ ولا الكاذبُ بكريمٍ، فأمَّا الشَّاعرُ والكاهنُ فقدْ كانَا مَعدودَينِ عِندَهم مِن أهلِ الشَّرَفِ[(١)].

- قولُه: ﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ أي: ما أغْفَلَكم! تَتميمٌ[(٢)] للمعْنى السَّابقِ، وفيه معْنى التَّعجُّبِ[(٣)].

- و﴿قَلِيلًا﴾ في قولِه: ﴿قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ﴾ و﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ قيل: المُرادُ به انتِفاءُ ذلك مِن أصْلِه على طَريقةِ التَّمليحِ القَريبِ مِن التَّهكُّمِ[(٤)].

- وانتصَبَ ﴿قَلِيلًا﴾ في المَوضعَينِ على الصِّفةِ لمصدرٍ مَحذوفٍ أو زمانٍ مَحذوفٍ يدُلُّ عليه ﴿تُؤْمِنُونَ﴾ و﴿تَذَكَّرُونَ﴾، أي: تُؤمنون إيمانًا قليلًا، أو زمانًا قليلًا، وتَذَكَّرون تَذكُّرًا قليلًا، أو زَمانًا قليلًا[(٥)].

- و(ما) يَحتمِلُ أنْ تكونَ نافيةً؛ فيَنْتفي إيمانُهم ألبَتَّةَ، ويَحتمِلُ أنْ تكونَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٤٢).

(٢) التَّتميم: مِن أنواعِ إطنابِ الزِّيادةِ، وهو الإتيانُ بكلمةٍ أو كلامٍ مُتمِّمٍ للمقصودِ، أو لزِيادةٍ حَسنةٍ، بحيثُ إذا طُرِحَ مِن الكلامِ نقَصَ معناه في ذاتِه، أو في صِفاتِه. يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١/ ١٢٠) و(٢/ ٣٣٢، ٣٣٣)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١/ ٤٤)، ((مفاتيح التفسير)) للخطيب (١/ ٤٩ - ٥١، ٢٤٠، ٢٤١).

(٣) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٥/ ٦٣٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٠٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٢٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٤٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٤٢)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٦٤، ٢٦٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٢٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٤٣)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٢٠٥).

مَصدريَّةً، والمتَّصِفُ بالقِلَّةِ هو الإيمانُ اللُّغويُّ، ويكونَ المصدرُ المؤوَّلُ في مَوضعِ رفْعٍ على الفاعليَّةِ بـ﴿قَلِيلًا﴾، أي: قليلًا إيمانُكم، ويَحتمِلُ أنْ تكونَ زائدةً مُؤكِّدةً، ولعلَّ هذا الوجهَ أصوَبُ الوُجوهِ؛ لأنَّه المناسِبُ لتأْكيدِ القِلَّةِ(١).

- قولُه: ﴿مَّا تُؤْمِنُونَ﴾، و﴿مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ على قِراءةِ ﴿مَا يُؤْمِنُونَ﴾، و﴿مَا يَذَكَّرُونَ﴾ بالياءِ التَّحتيَّةِ(٢)، فيكونُ فيهما التِفاتٌ مِن الخِطابِ إلى الغَيبةِ، وحسَّنَ ذلك كَونُهما مُعترِضتَينِ(٣).

- قولُه: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ * وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ فيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيث خَتَم الأُولى بـ﴿قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ﴾، والثَّانيةَ بـ﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾، فأُوثِرَ نفْيُ الإيمانِ عنهم -على قولٍ- في جانبِ انتِفاءِ أنْ يكونَ قولَ شاعرٍ، ونَفْيُ التَّذكُّرِ -على قولٍ- في جانبِ انتِفاءِ أنْ يكونَ قولَ كاهنٍ؛ لأنَّ نفْيَ كَونِ القرآنِ قولَ شاعرٍ بَديهيٌّ؛ إذ ليس فيه ما يُشبِهُ الشِّعرَ مِن اتِّزانِ أجزائِه في المتحرِّكِ والسَّاكنِ والتَّقفيةِ المُتماثِلةِ في جَميعِ أواخِرِ الأجزاءِ، فادِّعاؤهم أنَّه قولُ شاعرٍ بُهتانٌ مُتعمَّدٌ، يُنادي على أنَّهم لا يُرْجى إيمانُهم، وأمَّا انتفاءُ كَونِ القرآنِ قولَ كاهنٍ فمُحتاجٌ إلى أدْنى تَأمُّلٍ؛ إذْ قد يُشبَّهُ في باديْ الرَّأيِ على السَّامعِ مِن حيث إنَّه كلامٌ مَنثورٌ مُؤلَّفٌ على فواصِلَ، ويُؤلَّفُ كلامُ الكهَّانِ على أسجاعٍ مُثنَّاةٍ مُتماثِلةٍ زَوجَينِ زَوجَينِ، فإذا تأمَّلَ السَّامعُ فيه

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٦٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٢٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٤٣)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٢٠٥، ٢٠٦).

(٢) قرأها ابنُ كثيرٍ ويعقوبُ وهشامٌ بالياءِ التَّحتيَّةِ، والباقون بالتَّاءِ، واختُلِف عن ذَكْوانَ. يُنظر: ((النشر في القراءات العشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٩٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٤٣).

بأدْنى تَفكُّرٍ في نَظْمِه ومَعانيه، عَلِمَ أنَّه ليس بقولِ كاهنٍ[١]؛ فنَظْمُه مُخالِفٌ لنظْمِ كَلامِ الكُهَّانِ؛ إذ ليست فِقراتُه قصيرةً، ولا فواصِلُه مُزدوجةً، مُلتزَمٌ فيها السَّجعُ، ومَعانيه ليست مِن مَعاني الكِهانةِ الرَّاميةِ إلى الإخبارِ عمَّا يَحدُثُ لبعضِ النَّاسِ مِن أحداثٍ، أو ما يُلِمُّ بقومٍ مِن مَصائبَ مُتوقَّعةٍ ليَحذَروها؛ فلذلك كان المخاطَبون بالآيةِ مُنتفيًا عنهم التَّذكُّرُ والتَّدبُّرُ، وإذا بطَلَ هذا وذاك بطَل مُدَّعاهم؛ فحقَّ أنَّه تَنزيلٌ مِن ربِّ العالَمينَ، كما ادَّعاهُ الرَّسولُ الكريمُ عليه الصَّلاةُ والتَّسليمُ[٢].

٤- قولُه تعالَى: ﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ يَجوزُ أنْ يكونَ خبَرًا ثانيًا عن اسمِ (إنَّ)، وهو تَصريحٌ بعْدَ الكِنايةِ، ويجوزُ أنْ يكونَ خبرَ مُبتدأٍ مَحذوفٍ جَرى حذْفُه على النَّوعِ المسمَّى عِندَ بعضِ البلاغيِّين بمُتابَعةِ الاستِعمالِ[٣] في أمثالِه، وهو كثيرٌ في الكَلامِ البليغِ، وتكونَ الجُملةُ استئنافًا بَيانيًّا؛ لأنَّ القرآنَ لَمَّا وُصِفَ بأنَّه ﴿لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾، ونُفِيَ عنه أنْ يكونَ قولَ شاعرٍ أو قولَ كاهنٍ؛ تَرقَّبَ السَّامعُ مَعرفةَ كُنْهِه، فبُيِّنَ بأنَّه مُنزَّلٌ مِن ربِّ العالَمينَ على الرَّسولِ الكريمِ؛ ليَقولَه للنَّاسِ ويَتْلوَه عليهم[٤].

- وقولُه: ﴿تَنزِيلٌ﴾ وصْفٌ بالمصدَرِ؛ للمُبالَغةِ[٥].

(١) قال أبو السعود: (وأنت خبيرٌ بأنَّ ذلك أيضًا ممَّا لا يتوقَّفُ على تأمُّلٍ قطعًا). ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٢٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٤٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٤٣).

(٣) العرَبُ إذا أجْرَوا حَديثًا على شَيءٍ، ثمَّ أخبَروا عنه، الْتَزَموا حَذفَ ضَميرِه الَّذي هو مُسنَدٌ إليه؛ إشارةً إلى التَّنويهِ به كأنَّه لا يَخْفى. يُنظر: ((مفتاح العلوم)) للسكاكي (ص: ١٧٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٤٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٠٦)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٥/ ٦٣٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٤٤)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٢٠٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٤٤).

- وعُبِّرَ عن الجَلالةِ بوصْفِ ﴿رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ دونَ اسْمِه العَلَمِ؛ للتَّنبيهِ على أنَّه رَبُّ المخاطَبينَ، ورَبُّ الشُّعراءِ والكُهَّانِ الَّذين كانوا بمَحلِّ التَّعظيمِ والإعجابِ عندَهم[١].

٥- قولُه تعالَى: ﴿وَلَوۡ تَقَوَّلَ عَلَيۡنَا بَعۡضَ ٱلۡأَقَاوِيلِ * لَأَخَذۡنَا مِنۡهُ بِٱلۡيَمِينِ * ثُمَّ لَقَطَعۡنَا مِنۡهُ ٱلۡوَتِينَ * فَمَا مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ عَنۡهُ حَٰجِزِينَ﴾

- قولُه: ﴿وَلَوۡ تَقَوَّلَ عَلَيۡنَا بَعۡضَ ٱلۡأَقَاوِيلِ﴾ هذه الجُملةُ عطْفٌ على جُملةِ ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَا تُبۡصِرُونَ * وَمَا لَا تُبۡصِرُونَ﴾؛ فهي مَشمولةٌ لِما أفادَتْه الفاءُ مِن التَّفريعِ على ما اقتضاهُ تَكذيبُهم بالبعثِ مِن تَكذيبِهم القرآنَ، ومَن جاء به وقال: إنَّه وحْيٌ مِن اللهِ تَعالى، وهذه الجُملةُ مَعطوفةٌ عطْفَ اعتِراضٍ، فلك أنْ تَجعَلَ الواوَ اعتِراضيَّةً؛ فإنَّه لا معْنى للواوِ الاعتِراضيَّةِ إلَّا ذلك[٢].

- ومُفادُ هذه الجُملةِ: استِدلالٌ ثانٍ على أنَّ القُرآنَ مُنزَّلٌ مِن عندِ اللهِ تعالى بعْدَ الاستِدلالِ الأوَّلِ المستنِدِ إلى القسَمِ والمؤكِّداتِ، وهو استِدلالٌ بما هو مُقرَّرٌ في الأذهانِ مِن أنَّ اللهَ تعالى واسعُ القُدرةِ، وأنَّه سُبحانَه عليمٌ، فلا يُقْرِرُ أحدًا على أنْ يقولَ عنه كلامًا لم يَقُلْه، أي: لو لَمْ يكُنِ القرآنُ مُنزَّلًا مِن عندِنا ومحمَّدٌ ادَّعى أنَّه مُنزَّلٌ مِنَّا، لَما أقرَرْناهُ على ذلك، ولعَجَّلْنا بإهلاكِه، فعَدَمُ هَلاكِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم دالٌّ على أنَّه لم يَتقوَّلْه على اللهِ؛ فإنَّ (لو) تَقْتضي انتِفاءَ مَضمونِ شَرْطِها لانتِفاءِ مَضمونِ جَوابِها، فحَصَل مِن هذا الكلامِ غَرَضانِ مُهمَّانِ؛ أحدُهما: يَعودُ إلى ما تَقدَّمَ، أي: زيادةُ إبطالٍ لمَزاعِمِ المشركين أنَّ القرآنَ شِعرٌ أو كِهانةٌ؛ إبطالًا جامعًا لإبطالِ النَّوعَينِ،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٤٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ١٤٤، ١٤٥).

أي: ويُوضِّحُ مُخالَفةَ القُرآنِ لهذَينِ النَّوعَينِ مِن الكلامِ أنَّ الآتيَ به يَنسُبُه إلى وحْيِ اللهِ، وما عَلِمْتُم شاعرًا ولا كاهنًا يَزعُمُ أنَّ كلامَه مِن عندِ اللهِ. وثانيهما: إبطالُ زعْمٍ لهم لم يَسبِقِ التَّصريحُ بإبطالِه، وهو قولُ فَريقٍ منهم ﴿ٱفۡتَرَىٰهُ﴾ [يونس: ٣٨]، أي: نَسَبَه إلى اللهِ افتراءً، وتقَوَّلَه على اللهِ؛ قال تعالَى: ﴿أَمۡ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥۚ بَل لَّا يُؤۡمِنُونَ﴾ [الطور: ٣٣]، فبيَّنَ لهم أنَّه لو افْتَرى على اللهِ لَما أَقَرَّه على ذلك. ثمَّ إنَّ هذا الغرَضَ يَستتبِعُ غَرَضًا آخَرَ؛ وهو تأْييسُهم مِن أنْ يأتيَ بقُرآنٍ لا يُخالِفُ دِينَهم، ولا يُسَفِّهُ أحلامَهم وأصنامَهم؛ قال تبارك تعالَى: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا ٱئۡتِ بِقُرۡءَانٍ غَيۡرِ هَٰذَآ أَوۡ بَدِّلۡهُ﴾[1] [يونس: ١٥].

- والتَّقوُّلُ: نِسبةُ قولٍ لِمَن لم يَقُلْه، وهو تَفعُّلٌ مِن القولِ، صِيغَت هذه الصِّيغةُ الدَّالَّةُ على التَّكلُّفِ؛ لأنَّ الَّذي يَنسُبُ إلى غَيرِه قولًا لم يَقُلْه يَتكلَّفُ ويَختلِقُ ذلك الكلامَ. ولِكَونِه في معْنى (كَذَبَ) عُدِّيَ بـ(على)[2].

- والأقاويلُ: جمْعُ أقوالٍ، الَّذي هو جمْعُ قولٍ، أي: بعضًا مِن جِنسِ الأقوالِ الَّتي هي كثيرةٌ، فلِكثْرتِها جِيءَ لها بجمْعِ الجمْعِ الدَّالِّ على الكثرةِ[3].

أو سمَّى الأقوالَ المتقوَّلةَ أقاويلَ؛ تَصغيرًا لها وتَحقيرًا، كقولِك: الأعاجيبُ والأضاحيكُ، كأنَّها جمْعُ أُفْعولةٍ مِن القَولِ[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٤٤، ١٤٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٠٦، ٦٠٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٤٣)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٦٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٢٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٤٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري - حاشية ابن المُنَيِّر)) (٤/ ٦٠٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٤٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٠٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٤٣)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٦٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٢٧).

- قولُه: ﴿لَأَخَذۡنَا مِنۡهُ بِٱلۡيَمِينِ * ثُمَّ لَقَطَعۡنَا مِنۡهُ ٱلۡوَتِينَ﴾، قيل: المعنى: لَقَتَلْناه صَبْرًا، كما تَفعَلُ الملوكُ بمَن يَتكذَّبُ عليهم؛ مُعاجَلةً بالسَّخطِ والانتقامِ، فصُوِّرَ قتْلُ الصَّبرِ بصُورتِه لِيَكونَ أهوَلَ؛ وهو أنْ يُؤخَذَ بيَدِه وتُضرَبَ رَقبتُه، وخصَّ اليمينَ على اليسارِ؛ لأنَّ القَتَّالَ إذا أراد أنْ يُوقِعَ الضَّربَ في قفاهُ أخَذَ بيَسارِه، وإذا أراد أنْ يُوقِعَه في جِيدِه وأنْ يُلحِقَه بالسَّيفِ -وهو أشدُّ على المصبورِ؛ لنَظَرِه إلى السَّيفِ-؛ أخَذَ بيَمينِه[1].

- قولُه: ﴿لَأَخَذۡنَا مِنۡهُ بِٱلۡيَمِينِ * ثُمَّ لَقَطَعۡنَا مِنۡهُ ٱلۡوَتِينَ﴾، أي: لَأخَذْناه أخْذًا عاجلًا فقَطَعْنا وَتينَه، وفي هذا تَهويلٌ لصُورةِ الأخْذِ؛ فلذلك لم يُقتصَرْ على نحْوِ: لأهْلَكْناهُ[2].

- واليمينُ: اليدُ اليُمنى، كُنِّيَ بها عن الاهتِمامِ بالتَّمكُّنِ مِن المأخوذِ؛ لأنَّ اليمينَ أقوى عمَلًا مِن الشِّمالِ؛ لكَثرةِ استِخدامِها، فنِسبةُ التَّصرُّفِ إليها شَهيرةٌ[3].

- و﴿مِنۡهُ﴾ مُتعلِّقٌ بـ﴿أَخَذۡنَا﴾ تَعلُّقَ المفعولِ بعامِلِه. و(مِن) زائدةٌ في الإثباتِ، وفائدةُ (مِن) الزَّائدةِ في الكلامِ أنَّ أصْلَها التَّبعيضُ على وَجْهِ التَّمليحِ، كأنَّه يقولُ: نأخُذُ بعضَه[4].

- والوَتينُ: عِرقٌ مُعلَّقٌ به القلبُ، ويُسمَّى النِّياطُ، وهو الَّذي يَسقي الجسَدَ بالدَّمِ؛ ولذلك يُقالُ له: نَهرُ الجسدِ، وهو إذا قُطِعَ مات صاحبُه، وهو يُقطَعُ

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٠٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٤٣)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٦٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٢٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٤٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

عندَ نحْرِ الجَزورِ، فقَطْعُ الوَتينِ مِن أحوالِ الجَزورِ ونحْرِها؛ فشُبِّهَ عِقابُ مَن يُفرَضُ تَقَوُّلُه على اللهِ بجَزورٍ تُنحَرُ فيُقطَعُ وَتينُها[(١)]، واختير التَّعبيرُ به؛ لأنَّ مادَّتَه بهذا الترتيبِ تدورُ على المتانةِ والدَّوامِ، فلذا كان يفوتُ صاحبُه بفواتِه[(٢)].

- ومَوقِعُ تَفريعِ قولِه: ﴿فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ﴾ شَديدُ الاتِّصالِ بما استَتْبَعَه فرْضُ التَّقوُّلِ مِن تَأْييسِهم مِن أنْ يَتقوَّلَ على اللهِ كَلامًا لا يَسُوؤهم؛ ففي تلك الحالةِ مِن أحوالِ التَّقوُّلِ لو أخَذْنا منه باليمينِ فقَطَعْنا منه الوتينَ، لا يَستطيعُ أحدٌ منكم أو مِن غيرِكم أنْ يَحجُزَ عنه ذلك العِقابَ. وكَلمةُ (أَحَد) هو اسمٌ يقَعُ في النَّفيِ العامِّ مُستويًا فيه الواحدُ والجمْعُ، والمذكَّرُ والمؤنَّثُ، وبدونِ هذا الاتِّصالِ لا يَظهَرُ معْنى تعجيزِهم عن نصْرِه؛ إذ لَيسوا مِن الولاءِ له بمَظِنَّةِ نصْرِه، فمعْنى هذه الآيةِ يَحومُ حولَ معْنى قولِه تعالى: ﴿وَإِن كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لَّاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا * وَلَوْلَا أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا * إِذًا لَّأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا﴾[(٣)] [الإسراء: ٧٣ - ٧٥].

- وإنَّما أُخبِرَ عن (أَحَد) وهو مُفرَدٌ بـ﴿حَاجِزِينَ﴾ جمْعًا؛ لأنَّ (أحدًا) هنا وإنْ كان لَفظُه مُفرَدًا فهو في معْنى الجمْعِ؛ لأنَّ (أحدًا) إذا كان بمعْنى ذاتٍ أو شخصٍ لا يقَعُ إلَّا في سِياقِ النَّفيِ -مِثلَ عَريبٍ ودَيَّارٍ ونحوِهما مِن النَّكراتِ الَّتي لا تُستعمَلُ إلَّا مَنْفيَّةً-؛ فيُفيدُ العمومَ، أي: كلُّ واحدٍ لا يَستطيعُ الحجْزَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٤٦).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر في تناسب الآيات والسور)) للبقاعي (٢٠/ ٣٨١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٤٧).

عنه، ويَسْتوي في لَفظِه الواحدُ والجمْعُ، والمذكَّرُ والمؤنَّثُ[١].

- و(مِنْ) في قولِه: ﴿مِّنْ أَحَدٍ﴾ مَزيدةٌ؛ لتَأكيدِ النَّفيِ، وللتَّنصيصِ على العُمومِ[٢].

٦- قولُه تعالَى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ عطْفٌ على ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ [الحاقة: ٤٠]، والضَّميرُ عائدٌ إلى القرآنِ الَّذي تَقدَّمَ ضَميرُه في قولِه: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾[٣].

- والإخبارُ بقولِه: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَذْكِرَةٌ﴾ إخبارٌ بالمَصدَرِ؛ للمُبالَغةِ في الوَصفِ، والمعنى: أنَّه مُذكِّرٌ للنَّاسِ بما يَغفُلون عنه مِن العِلمِ باللهِ وما يَليقُ بجَلالِه؛ ليَنتشِلَهم مِن هُوَّةِ التَّمادي في الغَفلةِ حتَّى يَفوتَ الفواتُ، فالقرآنُ في ذاتِه تَذكرةٌ لِمَن يُريدُ أنْ يَتذكَّرَ، سواءٌ تَذكَّرَ أو لم يَتذكَّرْ[٤].

- والقُرآنُ تَذكرةٌ للمُتَّقينَ في الماضي والحالِ والمُستقبَلِ؛ فإنَّ الإخبارَ عنه باسمِ المَصدَرِ يَتحمَّلُ الأزمنةَ الثَّلاثةَ؛ إذ المصدرُ لا إشعارَ له بوقْتٍ، بخِلافِ الفعلِ وما أشْبَهَه[٥].

- وإنَّما عُلِّقَ ﴿لِّلْمُتَّقِينَ﴾ بكونِه تَذكرةً؛ لأنَّ المتَّقينَ هم الَّذين أدْرَكوا مَزيَّتَه، وهم المنتَفِعونَ به[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٠٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٤٣)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٦٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٢٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٤٧)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٢٠٦، ٢٠٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٤٧)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٢٠٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٤٨).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ١٤٩).

(٦) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٤٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٢٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٤٩).

٧- قولُه تعالَى: ﴿وَإِنَّا لَنَعۡلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ ۝ وَإِنَّهُۥ لَحَسۡرَةٌ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ هاتانِ جُملتانِ مُرتبطتانِ، وأُولاهما تَمهيدٌ وتَوطئةٌ للثَّانيةِ، وهي مُعترِضةٌ بيْن الَّتي قبْلَها والَّتي بعْدَها، والثَّانيةُ منهما مَعطوفةٌ على جُملةِ ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَذۡكِرَةٞ لِّلۡمُتَّقِينَ﴾ [الحاقة: ٤٨]، فكان تَقديمُ الجُملةِ الأُولى على الثَّانيةِ اهتِمامًا بتَنبيهِ المكذِّبين إلى حالِهم، وكانت أيضًا بمَنزلةِ التَّتميمِ لجُملةِ ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَذۡكِرَةٞ لِّلۡمُتَّقِينَ﴾ [الحاقة: ٤٨]، والمعْنى: إنَّا بَعَثْنا إليكم الرَّسولَ بهذا القرآنِ، ونحن نَعلَمُ أنَّه سيكونُ منكم مُكذِّبون له وبه، وعِلْمُنا بذلك لم يَصْرِفْنا عن تَوجيهِ التَّذكيرِ إليكم وإعادتِه عليكم؛ ﴿لِّيَهۡلِكَ مَنۡ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٖ وَيَحۡيَىٰ مَنۡ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٖ﴾ [الأنفال: ٤٢]؛ فقُوبِلَت صِفةُ القرآنِ الَّتي تَنفَعُ المتَّقينَ بصِفتِه الَّتي تَضُرُّ بالكافرينَ على طَريقةِ التَّضادِّ، فبيْن الجُملتَينِ المُتعاطفتَينِ مُحسِّنُ الطِّباقِ[1].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٤٩).

والطِّباق: هو الجمعُ بيْنَ مُتضادَّين معَ مراعاةِ التَّقابُلِ؛ كالبياضِ والسَّوادِ، واللَّيلِ والنَّهارِ، وهو قِسْمانِ: لفظيٌّ، ومعنويٌّ؛ فمِن الطِّباقِ اللَّفظيِّ: قولُه تعالى: ﴿فَلۡيَضۡحَكُواْ قَلِيلٗا وَلۡيَبۡكُواْ كَثِيرٗا﴾ [التوبة: ٨٢]، طابَق بيْنَ الضَّحِكِ والبكاءِ، والقليلِ والكثيرِ. ومِن الطِّباقِ المعنويِّ: قولُه تعالى: ﴿إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا تَكۡذِبُونَ ۝ قَالُواْ رَبُّنَا يَعۡلَمُ إِنَّآ إِلَيۡكُمۡ لَمُرۡسَلُونَ﴾ [يس: ١٥، ١٦]؛ معناه: ربُّنا يَعلَمُ إنَّا لَصادقونَ. ومنه: طباق ظاهرٌ، وهو ما كان وجهُ الضِّدِّيَّةِ فيه واضحًا. وطباقٌ خَفيٌّ: وهو أن تكونَ الضِّدِّيَّةُ في الصُّورةِ متوهَّمةٌ، فتبدو المُطابَقةُ خفيَّةً؛ لِتَعلُّقِ أحدِ الرُّكنَينِ بما يقابلُ الآخَرَ تعلُّقَ السَّببيَّةِ أو اللُّزومِ، كقولِه تعالى: ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٰٔتِهِمۡ أُغۡرِقُواْ فَأُدۡخِلُواْ نَارٗا﴾ [نوح: ٢٥]؛ فإنَّ إدخالَ النَّارِ يَستلزِمُ الإحراقَ المُضادَّ للإغراقِ، ومنه قولُه تعالى: ﴿وَلَكُمۡ فِي ٱلۡقِصَاصِ حَيَوٰةٞ﴾ [البقرة: ١٧٩]؛ لأنَّ معنى القصاصِ: القتلُ، فصار القتْلُ سببَ الحياةِ. وهذا مِن أملَحِ الطِّباقِ وأخفاه. يُنظر: ((تحرير التحبير)) لابن أبي الإصبع (ص: ١١١)، ((عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح)) للبهاء السبكي (٢/ ٢٢٥)، ((البرهان في علوم القرآن)) للزركشي (٣/ ٤٥٥ - ٤٥٧)، ((مفاتيح التفسير)) لأحمد سعد الخطيب (ص: ٥٦٦).

- وفي قولِه: ﴿وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ﴾ إيعادٌ على التَّكذيبِ[(١)].

- والمكذِّبونَ: هم الكافِرونَ، وإنَّما عُدِلَ عن الإتيانِ بضَميرِهم إلى الاسمِ الظَّاهِرِ ﴿ٱلْكَٰفِرِينَ﴾؛ لأنَّ الحسرةَ تَعُمُّ المكذِّبين يومَئذٍ والَّذين سيَكفُرون به مِن بعْدُ[(٢)].

٨- قولُه تعالَى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلْيَقِينِ﴾ عطْفٌ على ﴿وَإِنَّهُۥ لَحَسْرَةٌ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [الحاقة: ٥٠]، فيَحتمِلُ أنْ يكونَ الضَّميرُ عائدًا على القرآنِ؛ لأنَّ هذه مِن صِفاتِ القرآنِ، ويَحتمِلُ أنْ يكونَ مُرادًا به المذكورُ، وهو كَوْنُ القرآنِ حَسرةً على الكافرينَ، أي: إنَّ ذلك حقٌّ لا مَحالةَ، أي: هو جالبٌ لحسْرتِهم في الدُّنيا والآخرةِ[(٣)].

- وإضافةُ حقٍّ إلى يَقينٍ يَجوزُ أنْ يكونَ مِن إضافةِ الموصوفِ إلى الصِّفةِ، أي: إنَّه لَلْيَقينُ الحقُّ الموصوفُ بأنَّه يَقينٌ لا يَشُكُّ في كونِه حقًّا إلَّا مَن غُشِيَ على بَصيرتِه، أي: لَلْيقينُ الحقُّ، أي: الَّذي لا تَعتريه شُبهةٌ[(٤)].

وقيل: ليست هذه الإضافةُ مِن بابِ إضافةِ الموصوفِ إلى صفتِه، بل مِن بابِ إضافةِ الجِنْسِ إلى نوعِه؛ فإنَّ «الحقَّ» -وكذلك «العلمُ» و«العينُ»- أعمُّ مِن كونِها يقينًا، فأُضيف العامُّ إلى الخاصِّ، مثل: بعضِ المتاعِ، وكُلِّ الدَّراهمِ.

ولما كان المضافُ والمضافُ إليه في هذا البابِ يَصْدُقانِ على ذَاتٍ واحدةٍ -بخلافِ قولِك: دارُ عمرٍو، وثوبُ زيدٍ- ظَنَّ مَنْ ظَنَّ أنَّها مِن إضافةِ الموصوفِ إلى صفتِه؛ وليس كذلك، بل هي مِن بابِ إضافةِ الجِنْسِ إلى نوعِه، كـ: ثوبِ

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٠٧)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٦٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٤٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ١٥٠).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

خَزٍّ، وخاتَمِ فضَّةٍ. فالمضافُ إليه قد يكونُ مغايرًا للمضافِ، لا يَصْدُقانِ على ذاتٍ واحدةٍ، وقد يُجانسه فَيَصْدُقانِ على مسمًّى واحدٍ(١).

وعندَ الكوفيينَ هذا مِن إضافةِ الشيءِ إلى نفسِه، وأصلُه عندَهم: «الحقُّ اليقينُ» على النَّعتِ، ثمَّ أُضيف (المنعوت) إلى نعتِه، والنعتُ هو المنعوتُ في المعنى، فقد صار مِن إضافةِ الشيءِ إلى نفسه(٢).

٩- قولُه تعالَى: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾ تَفريعٌ على جميع ما تَقدَّمَ مِن وصْفِ القرآنِ وتَنزيهِه عن المطاعِنِ، وتَنزيهِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم عمَّا افتراهُ عليه المشركون، وعلى ما أيَّدَه اللهُ به مِن ضرْبِ المثَلِ للمكذِّبين به بالأُمَمِ الَّتي كذَّبَت الرُّسلَ؛ فأُمِر النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بأنْ يُسبِّحَ اللهَ تَسبيحَ ثَناءٍ وتَعظيمٍ شُكرًا له على ما أنْعَمَ به عليه مِن نِعمةِ الرِّسالةِ وإنزالِ هذا القرآنِ عليه(٣).

- والتَّسبيحُ: التَّنزيهُ عن النَّقائصِ بالاعتِقادِ والعِبادةِ والقولِ؛ فتعيَّنَ أنْ يَجريَ في التَّسبيحِ القَوليِّ اسمُ المنزَّهِ؛ فلذلك قال: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾، ولم يَقُلْ: فسبِّحْ ربَّك العظيمَ(٤).

---

(١) يُنظر: ((التبيان في أيمان القرآن)) لابن القيم (١/ ٢٨٦).

(٢) يُنظر: ((الهداية الى بلوغ النهاية)) لمكي (١٢/ ٧٦٩٣).

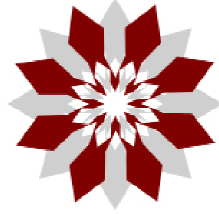
قال الشنقيطي: (والحقُّ هو اليقينُ. وإضافةُ الشيءِ إلى نفسِه معَ اختلافِ اللفظينِ أسلوبٌ عربيٌّ، وقد كثُر ورودُه في القرآنِ وفي كلامِ العربِ، ومنه في القرآنِ قولُه تعالى: ﴿وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ﴾ [يوسف: ١٠٩]، و«الدار» هي الآخرةُ، وقولُه: ﴿وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ﴾ [فاطر: ٤٣]، والمكرُ هو السيئُ بدليلِ قولِه بعدَه: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾، وقولُه: ﴿مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ [ق: ١٦]، والحبلُ هو الوريدُ، وقولُه: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ﴾ [البقرة: ١٨٥]، والشَّهرُ هو رمضانُ). ((أضواء البيان)) (٧/ ٥٣٧) بتصرف.

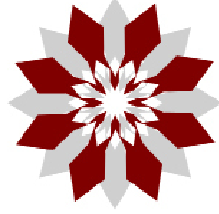
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٥١).

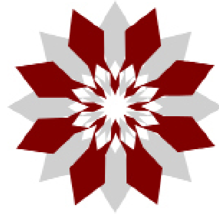
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)). ويُنظر ما تقدَّم في الفوائد (ص: ١١٧).

تَفْسِيرُ

سُورَةِ المعارجِ







سورةُ المعارِجِ

أسماءُ السُّورةِ:

سُمِّيَت هذه السُّورةُ بسُورةِ: (المعارِجِ)[١].

بيانُ المَكِّيِّ والمَدَنيِّ:

سُورةُ المعارِجِ مكِّيَّةٌ[٢]؛ نقَلَ الإجماعَ على ذلك غيرُ واحدٍ مِن المفسِّرينَ[٣].

مَقاصِدُ السُّورةِ:

مِن أهَمِّ مَقاصِدِ السُّورةِ:

التَّذكيرُ بيَومِ القِيامةِ وشَدائِدِه، وما فيه مِن حِسابٍ وجَزاءٍ، وثَوابٍ وعِقابٍ[٤].

مَوضوعاتُ السُّورةِ:

مِن أهمِّ الموضوعاتِ الَّتي اشتَمَلَتْ عليها السُّورةُ:

١- بَيانُ جُرأةِ الكافِرِ في استِعجالِ العذابِ، وتَهديدُ الكافِرينَ بعَذابِ يومِ القِيامةِ.

٢- التَّأكيدُ على أنَّ يومَ القيامةِ حقٌّ، وأنَّه واقعٌ، وذِكرُ شَيءٍ مِن أهوالِه الشَّديدةِ.

---

(١) لم يَرِدْ فيها نصٌّ صريحٌ، لكن اشتَهَرت في كُتبِ التَّفسيرِ والمصاحفِ تَسميتُها بسُورة (المعارج). وسُمِّيَتْ بـ (المعارج)؛ لوُقوعِ هذه الكلمةِ في أوَّلِها. وتُسمَّى أيضًا سورةَ ﴿سَأَلَ سَآئِلٌۢ﴾؛ لمفتتحِها، وسورةَ (الواقع)؛ لقولِه: ﴿بِعَذَابٖ وَاقِعٖ﴾. يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٤٨٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٥٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٤٨)، ((التحصيل)) للمهدوي (٦/ ٤٨٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٥٠)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٠٨).

(٣) ممَّن نقَلَ الإجماعَ على ذلك: ابنُ عطيَّة، وابن الجوزيِّ، والقرطبيُّ، والبِقاعي. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٣٦)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٣٣٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٧٨)، ((مصاعد النظر)) للبقاعي (٣/ ١١٨).

(٤) يُنظر: ((التفسير الوسيط)) لطنطاوي (١٥/ ٩٠).

٣- ذِكرُ جَهنَّمَ وأسبابِ استِحقاقِ عَذابِها، ومُقابَلةُ ذلك بأعمالِ المؤمنينَ الَّتي أدَّت بهم إلى الجنَّةِ.

٤- تَوبيخُ الكافِرينَ، وبَيانُ ذُلِّهم في يومِ القيامةِ.

٥- تَثبيتُ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وتَسليتُه على ما يَلْقاهُ مِن المشرِكينَ.



الآيات (١-٧)

﴿سَأَلَ سَآئِلُۢ بِعَذَابٖ وَاقِعٖ ١ لِّلۡكَٰفِرِينَ لَيۡسَ لَهُۥ دَافِعٞ ٢ مِّنَ ٱللَّهِ ذِي ٱلۡمَعَارِجِ ٣
تَعۡرُجُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيۡهِ فِي يَوۡمٖ كَانَ مِقۡدَارُهُۥ خَمۡسِينَ أَلۡفَ سَنَةٖ ٤ فَٱصۡبِرۡ صَبۡرٗا جَمِيلًا
٥ إِنَّهُمۡ يَرَوۡنَهُۥ بَعِيدٗا ٦ وَنَرَىٰهُ قَرِيبٗا ٧﴾.

غريبُ الكَلِماتِ:

﴿ٱلۡمَعَارِجِ﴾: أي: الدَّرَجاتِ، أو المصاعِدِ؛ لأنَّ العُرُوجَ: ذَهابٌ في صُعودٍ، أو السَّمَواتِ؛ لأنَّ الملائِكةَ تَعرُجُ فيها، وأصلُ (عرج): يدُلُّ على سُمُوٍّ وارتقاءٍ[1].

مُشكِلُ الإعرابِ:

قوله تعالى: ﴿سَأَلَ سَآئِلُۢ بِعَذَابٖ وَاقِعٖ * لِّلۡكَٰفِرِينَ لَيۡسَ لَهُۥ دَافِعٞ * مِّنَ ٱللَّهِ ذِي ٱلۡمَعَارِجِ﴾

- قَولُه تعالى: ﴿سَأَلَ﴾ فيه وَجهانِ؛ أحدُهما: أنْ يكونَ قد ضُمِّنَ معنى «دعا»؛ فلذلك تعدَّى بالباءِ؛ مِنْ قولِك: دعا بكَذا: إذا استَدْعاه وطَلَبه، ومنه قَولُه تعالى: ﴿يَدۡعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ﴾ [الدخان: ٥٥]، والمعنى: دعا داعٍ بعذابٍ. والثَّاني: أَنْ يكونَ على أصلِه، والباءُ بمعنى (عن).

- قولُه تعالى: ﴿لِّلۡكَٰفِرِينَ﴾: فيه أوجهٌ؛ أحدُها: أَنْ يتعلَّقَ بـ﴿سَأَلَ﴾ مُضَمَّنًا معنى «دَعا»، أي: دعا للكافِرينَ بعَذابٍ واقعٍ. الثَّاني: أَنْ يتعلَّقَ بـ﴿وَاقِعٖ﴾، واللَّامُ للعِلَّةِ، أي: نازِلٍ مِن أجْلِهم، أو تكونُ اللَّامُ بمعنى «على»، أي: واقعٍ على الكافِرينَ. الثَّالثُ: أن يتعلَّقَ بمحذوفٍ صفةً ثانيةً لـ«عَذَابٍ»، أي: كائنٍ للكافِرينَ. الرَّابعُ: أَنْ يكونَ جوابًا للسَّائلِ، فيكونَ خبرَ مُبتدَأٍ محذوفٍ، أي: هو للكافِرينَ.

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٨٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣٠٢)، ((البسيط)) للواحدي (٢٢/ ٢٠٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٥٧).

- قوله: ﴿لَيْسَ لَهُۥ دَافِعٌ﴾ فيه أوجُهٌ؛ أحَدُها: أنْ يكونَ نعتًا آخَرَ لـ «عذابٍ». الثَّاني: أنْ يكونَ مُستأنَفًا. الثَّالثُ: أنْ يكونَ حالًا مِن «عذابٍ»؛ لتخصُّصِه بالعملِ أو الصِّفة.

- قَولُه: ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾: في تعَلُّقِه وَجهانِ؛ أحَدُهما: أنْ يتعلَّقَ بـ﴿دَافِعٌ﴾، بمعنى: ليس له دافِعٌ مِنْ جهتِه تعالى إذا جاء وَقتُه. الثَّاني: أنْ يتعلَّقَ بـ﴿وَاقِعٍ﴾، أي: واقِعٍ مِن عندِه تعالى[1].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ اللهُ تعالى في مَطلَعِ هذه السُّورةِ الكريمةِ مبيِّنًا جهْلَ المعاندينَ، واستعجالَهم لعذابِ الله: دعا داعٍ مِنَ الكُفَّارِ بعَذابِ اللهِ مُتعَجِّلًا له، وهو واقِعٌ بالكُفَّارِ لا محالةَ! وليس له دافِعٌ يَدفَعُه عنهم، وهذا العذابُ واقِعٌ عليهم مِنَ اللهِ ذي العلُوِّ والدَّرجاتِ والفواضِلِ والنِّعَمِ، فلا يمكِنُ لأحَدٍ دَفْعُه. تَصعَدُ الملائكةُ وجبريلُ عليهم السَّلامُ إليه سُبحانَه وتعالى في يومٍ قَدْرُه خمسونَ ألْفَ سَنَةٍ!

فاصبِرْ -يا محَمَّدُ- على تكذيبِ المُشرِكينَ بك صَبرًا جَميلًا؛ إنَّ الكافِرينَ يَرَونَ عَذابَ الآخِرةِ بعيدًا وُقوعُه؛ لعَدَمِ إيمانِهم بالبَعثِ بعدَ المَوتِ، ونحن نَراه قريبَ الوُقوعِ؛ فكلُّ آتٍ قَريبٌ!

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿سَأَلَ سَآئِلُۢ بِعَذَابٖ وَاقِعٖ ١﴾.

---

(١) يُنظر: ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (٢/ ١٢٣٩)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (١٠/ ٤٤٥ - ٤٤٩)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٦٢)، ((الجدول في إعراب القرآن)) لمحمود صافي (٢٩/ ٧٧).

قال ابن جُزَي: (﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾ يحتَمِلُ أن يتعلَّقَ بـ﴿وَاقِعٖ﴾ أي: واقِعٍ مِن عِندِ اللهِ، أو بـ﴿دَافِعٌ﴾ أي: ليس له دافِعٌ مِن عندِ اللهِ، أو يكونُ صِفةً للعَذابِ، أو مُستأنَفًا). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٠٩).

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

١- قِراءةُ: ﴿سَالَ﴾ بالألِفِ مِن غيرِ هَمزٍ، قيل: هو مِن السَّيَلانِ، على معنى: جرى وادٍ في جهنَّمَ بعَذابٍ واقعٍ[١]، وقيل: (سَالَ) بمعنى (سَأَلَ)، تُرِكت الهَمزةُ تَخفيفًا، فتكونُ القِراءتانِ بمعنًى واحدٍ[٢].

٢- قِراءةُ: ﴿سَأَلَ﴾ بهمزةٍ مَفتوحةٍ؛ مِنَ السُّؤالِ، على معنى: دعا داعٍ بعَذابٍ واقعٍ، أي: طَلَبه. وقيل: المعنى: سأل سائِلٌ عن عذابٍ واقعٍ[٣].

﴿سَأَلَ سَآئِلُۢ بِعَذَابٖ وَاقِعٖ ١﴾.

أي: دعا داعٍ مِنَ الكُفَّارِ بعَذابِ اللهِ مُتعَجِّلًا له، وهو واقِعٌ بالكُفَّارِ لا محالةَ[٤]!

---

(١) قرأ بها نافعٌ، وابنُ عامرٍ، وأبو جعفرٍ. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٩٠).
ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((الحجة)) لابن خالويه (ص: ٣٥٢)، ((معاني القراءات)) للأزهري (٣/ ٨٨)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٧٢٠، ٧٢١).

(٢) قال الأزهري: (وجائزٌ أن يكونَ ﴿سَالَ﴾ غيرَ مهموزٍ، ويكونَ بمعنى «سأل»، فَخُفِّفَ همزُه. وهو أحَبُّ إلَيَّ من قَولِ مَن ذهب به إلى سَيْلِ الوادي؛ لتتَّفِقَ القِراءتانِ). ((معاني القراءات)) (٣/ ٨٨).

(٣) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٩٠).
ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((الحجة)) لابن خالويه (ص: ٣٥٢)، ((معاني القراءات)) للأزهري (٣/ ٨٨)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٧٢١).

(٤) يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ١٨٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٢٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٥).
قوله: ﴿سَأَلَ﴾ اختُلِف فيه على قولَينِ:
أحدُهما: أن يكونَ السُّؤالُ بمعنَى الدُّعاءِ، أي: دعا داعٍ بعذابٍ واقعٍ.
والآخَرُ: أن يكونَ السُّؤالُ بمعنَى الاستِخبارِ، أي: سأَلَ سائلٌ عن عذابٍ واقعٍ، والباءُ على هذا بمعنَى (عن). يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٠٩). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الماوردي)) (٦/ ٨٩)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٤٤). =

= ممَّن اختار القولَ الأوَّلَ: الزَّجَّاجُ، والسمرقنديُّ، والواحدي، والزمخشري، والبيضاوي، وجلال الدين المحلي، وأبو السعود، والشوكاني، والألوسي، والسعدي. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٢١٩)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٤٩٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٥٠)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٠٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٤٤)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٧٦٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٢٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٤٤)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٦٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٥).

قال ابن جُزَي: (وقد تكونُ الإشارةُ إلى قولِ الكفَّارِ: «أَمْطِرْ علينا حِجارةً مِن السَّماءِ»، وكان الَّذي قالها النَّضرُ بنُ الحارثِ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٠٩).

وقال ابن الجوزي: (قال المفسِّرون: نزلَت في النَّضرِ بنِ الحارثِ حينَ قال: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [الأنفال: ٣٢]، وهذا مذهبُ الجمهورِ؛ منهم ابنُ عبَّاسٍ، ومجاهِدٌ. وقال الرَّبيعُ بنُ أنسٍ: هو أبو جهلٍ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٣٣٥).

وممَّن اختار القولَ الثَّانيَ أي أنَّ السُّؤالَ بمعنى الاستخبارِ: ابنُ جرير، والعُلَيمي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٤٨)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ١٥٤).

قال ابن جُزَي: (وتكونُ الإشارةُ إلى قولِه: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾، وغيرِ ذلك). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٠٩).

وقال ابن كثير: (﴿سَأَلَ سَآئِلُۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾ فيه تضمينٌ دلَّ عليه حرفُ الباءِ، كأنَّه مقدَّر: يَستَعجِلُ سائلٌ بعذابٍ واقعٍ، كقولِه: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ﴾ [الحج: ٤٧]، أي: وعذابُه واقعٌ لا مَحالةَ). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٢٠).

وقال الرازي: (قال بعضُهم: هذا السَّائلُ هو رسولُ الله، استعجَل بعذابِ الكافِرين، فبَيَّن اللهُ أنَّ هذا العذابَ واقعٌ بهم، فلا دافِعَ له. قالوا: والَّذي يدُلُّ على صِحَّةِ هذا التَّأويلِ قولُه تعالى في آخِرِ الآيةِ: ﴿فَٱصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا﴾ [المعارج: ٥]، وهذا يدُلُّ على أنَّ ذلك السَّائلَ هو الَّذي أمَره بالصَّبرِ الجميلِ). ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦٣٧).

وقال ابن عاشور: (كان كفَّارُ قُرَيشٍ يَستَهزِئون فيَسألونَ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم: متى هذا العذابُ الَّذي تَتوعَّدُنا به؟ ويَسألونَه تعجيلَه؛ قال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [يونس: ٤٨]، ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ﴾ [الحج: ٤٧]، وكانوا أيضًا يَسألونَ اللهَ أن يوقِعَ عليهم عذابًا إن كان القرآنُ حقًّا مِن عندِه؛ قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال: ٣٢]. =

﴿لِّلۡكَٰفِرِينَ لَيۡسَ لَهُۥ دَافِعٞ ٢﴾.

أي: ليس للعَذابِ الواقعِ على الكافِرينَ أيُّ دافعٍ يَدفَعُه عنهم[(١)].

كما قال تعالى: ﴿فَمَن يُجِيرُ ٱلۡكَٰفِرِينَ مِنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ﴾ [الملك: ٢٨].

﴿مِّنَ ٱللَّهِ ذِي ٱلۡمَعَارِجِ ٣﴾.

أي: وهذا العذابُ واقعٌ مِنَ اللهِ ذي العلُوِّ والدَّرجاتِ والفواضِلِ والنِّعَمِ، فلا يمكِنُ لأحَدٍ دَفْعُه[(٢)].

= وقيل: إنَّ السَّائلَ شخصٌ معيَّنٌ، هو النَّضرُ بنُ الحارثِ، قال: ﴿إِن كَانَ هَٰذَا﴾ أي: القرآنُ ﴿هُوَ ٱلۡحَقَّ مِنۡ عِندِكَ فَأَمۡطِرۡ عَلَيۡنَا حِجَارَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئۡتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٖ﴾ [الأنفال: ٣٢]. وكان النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم يَسألُ اللهَ أن يُعينَه على المشركينَ بالقَحطِ، فأشارت الآيةُ إلى ذلك كلِّه، ولذلك فالمرادُ بـ﴿سَآئِلٌ﴾ فريقٌ أو شخصٌ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٥٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٥٠)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٠٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٢٠).

قال السعدي: (أي: ليس لهذا العذابِ الَّذي استعجَلَ به مَنِ استعجلَ مِن مُتمَرِّدي المشركينَ أحدٌ يَدفَعُه قبْلَ نُزولِه، أو يَرفَعُه بعدَ نُزولِه... فالعذابُ لا بدَّ أن يقَعَ عليهم مِن الله؛ فإمَّا أن يُعَجَّلَ لهم في الدُّنيا، وإمَّا أنْ يُؤخَّرَ عنهم إلى الآخِرةِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٥٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٢٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣٩٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٥).

قال ابن الجوزي: (قوله عزَّ وجلَّ: ﴿ذِي ٱلۡمَعَارِجِ﴾ فيه قولانِ؛ أحدُهما: أنَّها السَّمواتُ، قاله ابنُ عبَّاسٍ. وقال مجاهدٌ: هي مَعارِجُ الملائكةِ. قال ابنُ قُتَيْبةَ: وأصلُ «المعارج» الدَّرَجُ، وهي من عَرَجَ: إذا صَعِدَ. قال الفرَّاءُ: لَمَّا كانت الملائكةُ تَعْرُجُ إليه، وصَف نفْسَه بذلك). ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٣٣٦). ويُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٨٥)، ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ١٨٤).

وممَّن قال بأنَّ المرادَ بـ﴿ذِي ٱلۡمَعَارِجِ﴾: ذو السَّمواتِ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والواحديُّ، والسمعانيُّ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٤٣٥)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١١٣١)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٤٥). =

كما قال تعالى: ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ﴾ [غافر: ١٥].

﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ۝٤﴾.

﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ﴾.

أي: تَصعَدُ الملائِكةُ وجِبريلُ عليهم السَّلامُ إليه سُبحانَه وتعالى(١).

= قال السمعاني: (وسُمِّيت السَّمواتُ مَعارِجَ؛ لأنَّ الملائكةَ يَعْرُجونَ إليها). ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٤٥).

وممَّن قال في الجملة: إنَّ المرادَ بقولِه: ﴿ذِى ٱلْمَعَارِجِ﴾: أي: ذي المَصاعِدِ: ابنُ أبي زَمَنِين، والزمخشريُّ، والرَّسْعَني، والنَّسَفي، وابنُ جُزَي، والنيسابوري، وجلال الدين المحلي، والعُلَيمي، والشوكانيُّ، وعبَّر بعضُهم بقولِه: مَصاعِدِ الملائكةِ، وبعضُهم قال: المَراقي إلى السَّماءِ، وبعضُهم قال: الدَّرجاتِ الَّتي تَصعَدُ فيها الملائكةُ. يُنظر: ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٥/ ٣٤)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٠٩)، ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٢٧٥)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٥٣٥)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٠٩)، ((تفسير النيسابوري)) (٦/ ٣٥٦)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٧٦٥)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ١٥٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٤٥).

وقال ابن جرير: (قولُه: ﴿ذِى ٱلْمَعَارِجِ﴾ يعني: ذا العُلوِّ والدَّرَجاتِ، والفواضِلِ والنِّعَمِ). ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٥٠).

وقال السعدي: (ذو العُلوِّ والجَلالِ والعَظَمةِ، والتَّدبيرِ لسائرِ الخَلقِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٥).

قال ابنُ كثيرٍ: (... عن سعيدِ بنِ جُبيرٍ، عن ابنِ عبَّاسٍ في قولِه: ﴿ذِى ٱلْمَعَارِجِ﴾ قال: ذو الدَّرَجاتِ. وقال عليُّ بنُ أبي طَلْحةَ، عن ابنِ عبَّاسٍ: ﴿ذِى ٱلْمَعَارِجِ﴾ يعني: العلو والفواضل. وقال مجاهدٌ: ﴿ذِى ٱلْمَعَارِجِ﴾ مَعارِجِ السَّماءِ. وقال قَتادةُ: ذي الفواضِلِ والنِّعَمِ). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٢٠).

ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٥٠، ٢٥١)، ((تفسير الماوردي)) (٦/ ٩٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٥١)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١١٣١)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٨١)، ((تفسير ابن عادل)) (١٩/ ٣٥٤).

قال ابنُ كثير في «الرُّوح»: (يحتَمِلُ أن يكونَ المرادُ به جِبريلَ، ويكونَ مِن بابِ عَطفِ الخاصِّ على العامِّ، ويحتَمِلُ أن يكونَ اسمَ جِنسٍ لأرواحِ بني آدمَ؛ فإنَّها إذا قُبِضَت يُصعَدُ بها إلى السَّماءِ كما دَلَّ عليه حديثُ البَراءِ). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٢١). =

كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۞ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ﴾ [الشعراء: ١٩٢، ١٩٣].

وقال سبحانه: ﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ﴾ [القدر: ٤].

﴿فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾.

أي: في يومٍ واحدٍ قَدْرُه خمسونَ ألْفَ سَنةٍ[1]!

= وممَّن ذهب إلى أنَّ الرُّوحَ هنا جِبريلُ عليه السَّلامُ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، والسمرقنديُّ، والثعلبي، والواحدي، والقرطبي، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٤٣٥)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٥١)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٤٩٤)، ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ٣٦)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١١٣١)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٨١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٥٧).

قال ابنُ عطيَّة: (الرُّوحُ عندَ جُمهورِ العُلَماءِ: هو جِبريلُ عليه السَّلامُ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٦٥).

ونسَبَه ابنُ الجَوزيِّ للأكثَرينَ. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٣٣٦).

وممَّن ذهب إلى أنَّ الرُّوحَ اسمُ جِنسٍ لأرواحِ بني آدمَ: السعديُّ. يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٥).

وذكر الماوَرْديُّ عن قَبيصةَ بنِ ذُؤَيبٍ أنَّ المرادَ: رُوحُ الميِّتِ حينَ يُقبَضُ. يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٦/ ٩٠).

قال القرطبي: (﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ﴾ أي: تَصعَدُ في المعارجِ الَّتي جعَلَها اللهُ لهم). ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٨١).

وقال العُلَيمي: (﴿تَعْرُجُ﴾ أي: تَصعَدُ ﴿ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ الحَفَظةُ بأعمالِ بني آدمَ كُلَّ يومٍ). ((تفسير العليمي)) (٧/ ١٥٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٥١)، ((تفسير الماتريدي)) (١٠/ ١٩٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٢١)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٤٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٦).

قال ابن جُزَي: (اختُلِف في هذا اليوم على قولَين؛ أحدُهما: أنَّه يومُ القيامةِ، والآخَرُ: أنَّه في الدُّنيا). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤١٠).

وقال ابن الجَوزيِّ: (﴿فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ فيه قولان: =

= أحدُهما: أنَّه يومُ القيامةِ. قاله ابنُ عبَّاسٍ، والحسَنُ، وقَتادةُ، والقُرَظيُّ، وهذا هو مِقدارُ يومِ القيامةِ مِن وقتِ البَعثِ إلى أن يُفصَلَ بيْن الخَلقِ...

وقيل: بل لو وَلِيَ حِسابَ الخَلقِ سِوى اللهِ عزَّ وجلَّ لم يَفرُغْ منه في خمسينَ ألْفَ سَنةٍ! والحقُّ يَفرُغُ منه في ساعةٍ مِن نهارٍ. وقال عطاءٌ: يَفرُغُ اللهُ مِن حِسابِ الخَلقِ في مِقدارِ نِصفِ يومٍ مِن أيَّامِ الدُّنيا. فعلى هذا يكونُ المعنى: ليس له دافِعٌ مِنَ اللهِ في يومٍ كان مِقدارُه خمسينَ ألْفَ سَنةٍ...

والثَّاني: أنَّه مِقدارُ صُعودِ الملائكةِ مِن أسفَلِ الأرضِ إلى العَرشِ لو صَعِدَه غيرُهم قَطَعه في خمسينَ ألْفَ سنةٍ. وهذا معنى قولِ مُجاهِدٍ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٣٣٧).

ونسَبَ الرَّسْعَنيُّ إلى جمهورِ المفسِّرينَ أنَّه يومُ القيامةِ. ثمَّ قال: (وهذا مِقْدارُ ما بيْن البَعثِ إلى الفَصلِ بيْن الخلائقِ، وإلَّا فهو يومٌ لا آخِرَ له، فعلى هذا القولِ: يتعلَّقُ قولُه: ﴿فِي يَوْمٍ﴾ بقولِه: ﴿لَيْسَ لَهُۥ دَافِعٌ﴾ [المعارج: ٢]، أي: ليس له دافِعٌ مِن الله في ذلك اليومِ. أو بقولِه: ﴿بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾ [المعارج: ١]، على معنى: سأل سائلٌ بعذابٍ واقِعٍ في ذلك اليومِ). ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٢٧٦، ٢٧٧).

وممَّن قال بأنَّ المرادَ: مِقدارُ يومِ القيامةِ على الكافِرِ: القرطبيُّ، وجلالُ الدِّينِ المحلِّيُّ. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٨٢)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٧٦٥).

قال ابن جُزَي: (اختُلِف هل مِقْدارُه [أي: اليومِ] خمسونَ ألْفَ سنةٍ حقيقةً؟ وهذا هو الأظهَرُ، أو هل وُصِف بذلك لشِدَّةِ أهوالِه؟ كما يُقالُ: يومٌ طويلٌ، إذا كان فيه مَصائبُ وهُمومٌ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤١٠).

وقال القرطبي: (قيل: في الكلامِ تقديمٌ وتأخيرٌ، والمعنى: سأل سائلٌ بعذابٍ واقِعٍ للكافِرينَ ليس له مِن الله دافِعٌ، في يومٍ كان مِقْدارُه خمسينَ ألْفَ سنةٍ تَعرُجُ الملائكةُ والرُّوحُ إليه. وهذا القولُ هو معنى ما اختَرْناه). ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٨٣).

وممَّن قال بأنَّ المرادَ أنَّه لو وَلِيَ حِسابَ الخَلقِ أحدٌ سِوى الله عزَّ وجلَّ لم يَفرُغْ منه إلَّا في خمسينَ ألْفَ سَنةٍ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ أبي زَمَنِين. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٤٣٦)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٥/ ٣٤). ويُنظر أيضًا: ((الرد على الجهمية والزنادقة)) لأحمد بن حنبل (ص: ٧١).

وممَّن قال بأنَّ مِقدارَ صُعودِ الملائكةِ مِن أسفَلِ الأرضِ إلى العَرشِ مَسافةُ خَمسينَ ألْفَ سَنةٍ لو قطَعَها غيرُهم: ابنُ جريرٍ، والبغويُّ، والعُلَيمي، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) =

وعن أبي هُرَيرةَ رَضيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((ما مِن صاحِبِ ذَهَبٍ ولا فِضَّةٍ لا يُؤَدِّي مِنها حَقَّها إلَّا إذا كان يومُ القيامةِ صُفِّحَت له صفائِحُ[1] مِن نارٍ، فأُحمِيَ عليها في نارِ جَهنَّمَ، فيُكوى بها جَنْبُه وجَبينُه وظَهرُه، كُلَّما بَرُدَت أُعيدَت له في يومٍ كان مِقدارُه خَمسينَ ألْفَ سَنةٍ، حتَّى يُقضى بيْن العِبادِ، فيَرى سَبيلَه؛ إمَّا إلى الجنَّةِ، وإمَّا إلى النَّارِ))[2].

﴿فَٱصۡبِرۡ صَبۡرٗا جَمِيلًا ٥﴾.

= (٢٣/ ٢٥١)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ١٥١)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ١٥٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٤٦).

قال العُلَيمي: (﴿فِي يَوۡمٖ كَانَ مِقۡدَارُهُۥ خَمۡسِينَ أَلۡفَ سَنَةٖ﴾ مِن سِني الدُّنيا، لو صَعِد فيه غيرُ المَلَكِ؛ لأنَّ المَلَكَ يَصعَدُ مِن مُنتهى أمرِ الله مِن أسفلِ السُّفلِ إلى منتهى أمرِه مِن فَوقِ السَّماءِ السَّابعةِ في يومٍ واحدٍ، ولو صَعِد فيه بنو آدَمَ لَصَعِدوه في خمسينَ ألْفَ سَنة). ((تفسير العليمي)) (٧/ ١٥٦).

وقال السعدي: (ذكَرَ المسافةَ الَّتي تَعرُجُ إلى اللهِ فيها الملائكةُ والأرواحُ، وأنَّها تَعرُجُ في يومٍ بما يسَّر لها مِن الأسبابِ، وأعانها عليه مِن اللَّطافةِ والخِفَّةِ وسرعةِ السَّيرِ، مع أنَّ تلك المسافةَ على السَّيرِ المُعتادِ مِقْدارُ خمسينَ ألْفَ سَنةٍ، مِن ابتِداءِ العُروجِ إلى وُصولِها ما حُدَّ لها، وما تَنتهي إليه مِن المَلأِ الأعلى). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٦).

وقيل: المرادُ بذلك: مُدَّةُ بقاءِ الدُّنيا منذُ خلَقَ اللهُ هذا العالَمَ إلى قيامِ السَّاعةِ. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٢٢).

قال ابن جُزَي: (إذا قُلْنا: إنَّه [أي: اليومَ] في الدُّنيا، فالمعنى: أنَّ الملائكةَ والرُّوحَ يَعرُجونَ في يومٍ لو عرَج فيه النَّاسُ لَعَرَجوا في خمسينَ ألْفَ سَنةٍ، وقيل: الخَمسونَ ألْفَ سَنةٍ هي مُدَّةُ الدُّنيا، والملائكةُ تَعرُجُ وتَنزلُ في هذه المُدَّةِ. وهذا كلُّه على أن يكونَ قولُه: ﴿فِي يَوۡمٖ﴾ يتعلَّقُ بـ﴿تَعۡرُجُ﴾. ويحتملُ أن يكونَ ﴿فِي يَوۡمٖ﴾ صِفةً للعذابِ، فيتعيَّن أن يكونَ اليومُ يومَ القيامةِ، والمعنى على هذا مستقيمٌ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤١٠).

(١) صُفِّحَت له صفائِحُ: أي: جُعِلَت لِصاحِبِها (صَفائحَ)، أي: كأمثالِ الألواحِ، جمْع صَفيحةٍ، وهي ما طُبِعَ عَريضًا. يُنظر: ((مرعاة المفاتيح)) للمباركفوري (٦/ ٩).

(٢) رواه مسلم (٩٨٧).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان الكفَّارُ قد سألوا استِعجالَ العذابِ، وكان السُّؤالُ على سبيلِ الاستهزاءِ والتَّكذيبِ، وكانوا قد وُعِدوا به؛ أمَرَ اللهُ تعالى نبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّم بالصَّبرِ(١).

﴿فَٱصۡبِرۡ صَبۡرٗا جَمِيلًا ۝٥﴾.

أي: فاصبِرْ -يا محَمَّدُ- على تكذيبِ المُشرِكينَ بك، وأذاهم لك، صَبرًا جَميلًا لا جَزَعَ فيه ولا شِكايةَ، ولا قِلَّةَ رِضًا ولا تعجُّلَ؛ فلا تَستعجِلْ عَذابَهم والنَّصرَ عليهم، وتحمَّلْ مَشاقَّ دَعوتِهم إلى اللهِ بلا ضَجَرٍ ولا مَلَلٍ(٢)!

﴿إِنَّهُمۡ يَرَوۡنَهُۥ بَعِيدٗا ۝٦﴾.

أي: إنَّ الكافِرينَ يَرَونَ عَذابَ الآخِرةِ غَيرَ كائنٍ وُقوعُه؛ لعَدَمِ إيمانِهم بالبَعثِ بعدَ المَوتِ(٣).

﴿وَنَرَىٰهُ قَرِيبٗا ۝٧﴾.

أي: ونحن نَرى العذابَ النَّازِلَ بهم قريبَ الوُقوعِ؛ لأنَّ ما أخبَرَ اللهُ بوُقوعِه فهو آتٍ لا محالةَ، وكلُّ آتٍ قَريبٌ(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٧٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٥٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٦٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٨٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٤٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٢٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣٩٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٥٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٦٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٨٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٢٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٥٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٥٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٦٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٨٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٦).

كما قال تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ ۚ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [الحج: ٤٧].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

أمَرَ اللهُ تعالى نَبيَّه بالهجْرِ الجميلِ، والصَّفحِ الجَميلِ، والصَّبرِ الجَميلِ؛ فالهجْرُ الجميلُ هجْرٌ بلا أذًى، والصَّفحُ الجَميلُ صَفحٌ بلا عِتابٍ، والصَّبرُ الجميلُ صَبْرٌ بلا شَكوَى(١).

الفَوائِدُ العِلْميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال تعالى: ﴿سَأَلَ سَآئِلٌۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ * لِّلْكَٰفِرِينَ لَيْسَ لَهُۥ دَافِعٌ﴾ قد يُدفعُ العذابُ عن المسلمينَ مِن وُجوهٍ: إمَّا برحمةِ اللهِ تعالى، أو بشفاعةِ الرُّسلِ والأخيارِ، وإمَّا بحسناتٍ سبَقت منهم، تُوجِبُ تكفيرَ سَيِّئاتِهم. فأمَّا الكفَّارُ فلا تَنالُهم رحمتُه، ولا شفاعةُ أحدٍ مِن الخلائقِ، وليست لهم حسناتٌ تُكفِّرُ سيِّئاتِهم، فليس لهم ما يَدفَعُ عنهم العذابَ(٢).

٢- في قَولِه تعالى: ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ﴾ دليلٌ على أنَّ اللهَ جلَّ جَلالُه بنَفْسِه في السَّماءِ؛ لأنَّ «الهاءَ» في «إليه» راجِعةٌ على اللهِ ذي المَعارِجِ، فلو كان معهم في الأرضِ -كما يَزعُمونَ ويَفترونَ به عليه- ما كان لِذِكرِ العُروجِ إليه معنًى(٣)!

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ فيه سؤالٌ: كيف الجَمعُ بيْن هذه الآيةِ وبيْن قَولِه تعالى في سورة

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٠/ ٦٦٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الماتريدي)) (١٠/ ١٩٦).

(٣) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٣٩٩).

(السجدة): ﴿فِي يَوۡمٖ كَانَ مِقۡدَارُهُۥٓ أَلۡفَ سَنَةٖ﴾ [السجدة: ٥]؟

الجوابُ مِن أوجُهٍ:

الأوَّلُ: أنَّ آيةَ السَّجدةِ في الدُّنيا؛ فإنَّه سبحانه وتعالى يُدَبِّرُ الأمرَ مِن السَّماءِ إلى الأرضِ، ثُمَّ يَعرُجُ إليه في يوم كان مِقدارُ هذا اليَومِ الَّذي يَعرُجُ إليه الأمرُ ألْفَ سَنةٍ ممَّا نَعُدُّ، لكِنَّه يكونُ في يومٍ واحدٍ، ولو كان بحسَبِ ما نَعُدُّ مِن السِّنينَ لَكان عنْ ألْفِ سَنَةٍ، فإذا نَزَلَ مِن السَّماءِ ثُمَّ عَرَجَ مِن الأرضِ فهذا ألْفُ سَنَةٍ، وأمَّا الآيةُ الَّتي في سورةِ (المعارج) فإنَّ ذلك يومُ القيامةِ -على قولٍ-، وقد ثَبَتَ في صحيحِ مسلمٍ[1] مِن حديثِ أبي هُرَيرةَ رضيَ الله عنه في قِصَّةِ مانعِ الزَّكاةِ: أنَّه يُحْمَى عليها في نارِ جهنَّمَ، ((فيُكوى بها جنْبُه وجَبينُه وظَهْرُه، كُلَّما بَرُدَتْ أُعِيدَتْ في يومٍ كان مِقْدارُه خمسينَ ألْفَ سَنَةٍ))، فتبيَّن بهذا أنَّه ليس بيْن الآيتَينِ شَيءٌ مِن التَّعارُضِ؛ لاختِلافِ مَحَلِّهِما[2].

الثَّاني: أنَّ الأيَّامَ مُختَلِفةٌ؛ ففي سورةِ (المعارج): هو يومُ عُروجِ الرُّوحِ والملائِكةِ، وفي سورةِ (السَّجْدةِ): هو يومُ عُروجِ الأمرِ؛ فلا مُنافاةَ[3].

الثَّالثُ: يحتَمِلُ أنَّه مِن أسفَلِ العالَمِ إلى أعلى العَرشِ مسافةُ خَمسينَ ألْفَ سَنةٍ، ومِن أعلى سماءِ الدُّنيا إلى الأرضِ مسافةُ ألْفِ سَنةٍ؛ لأنَّ عَرضَ كُلِّ سَماءٍ خَمسُمِئةٍ، وما بيْن أسفَلَ إلى قرارِ الأرضِ خَمسُمِئةٍ، فقَولُه: ﴿فِي يَوۡمٖ﴾، أي: مِن أيَّامِ الدُّنيا، وهو مِقدارُ ألْفِ سَنةٍ لو صَعِدوا فيه إلى سماءِ الدُّنيا، ومِقدارُ خَمسينَ ألْفَ سَنةٍ لو صَعِدوا إلى أعلى العَرشِ[4].

(١) أخرجه مسلم (٩٨٧).

(٢) يُنظر: ((فتاوى نور على الدرب)) لابن عثيمين (٢/ ٣٦٠).

(٣) يُنظر: ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٨/ ٢٦٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٤/ ٣٨٢).

٤- قال تعالى: ﴿فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا﴾ ليس في أمرِ الله تعالى نبيَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في الصَّبرِ الجميلِ على أذَى المشركينَ ما يُوجِبُ أن يكونَ ذلك أمرًا منه له به في بعضِ الأحوالِ، بل كان ذلك أمرًا مِن الله له به في كلِّ الأحوالِ؛ لأنَّه لم يَزَلْ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِن لَدُنْ بعَثه الله إلى أنْ اخترمه في أذًى منهم، وهو في كلِّ ذلك صابرٌ على ما يلقَى منهم مِن أذى قبْلَ أن يأذَنَ الله له بحربِهم، وبَعْدَ إذْنِه له بذلك[1].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿سَأَلَ سَآئِلُۢ بِعَذَابٖ وَاقِعٖ﴾

- قولُه: ﴿سَأَلَ سَآئِلُۢ﴾ بمَنزلةِ (سُئِلَ)؛ لأنَّ مَجيءَ فاعلِ الفِعلِ اسمَ فاعلٍ مِن لَفظِ فِعلِه لا يُفيدُ زيادةَ عِلمٍ بفاعلِ الفِعلِ ما هو؛ فالعُدولُ عن أنْ يقولَ: (سُئِلَ بعَذابٍ) إلى قولِه: ﴿سَأَلَ سَآئِلُۢ بِعَذَابٖ﴾ لِزيادةِ تَصويرِ هذا السُّؤالِ العجيبِ[2].

- والسُّؤالُ مُستعمَلٌ في معْنى الاستِفهامِ عن شَيءٍ، والدُّعاءِ، على أنَّ استِفهامَهم مُستعمَلٌ في التَّهكُّمِ والتَّعجيزِ، ومِن بَلاغةِ القرآنِ تَعديةُ ﴿سَأَلَ﴾ بالباءِ؛ لِيَصلُحَ الفعلُ لمعْنى الاستفهامِ والدُّعاءِ والاستعجالِ؛ لأنَّ الباءَ تأتي بمعْنى (عن)، وهو مِن مَعاني الباءِ الواقعةِ بعْدَ فِعلِ السُّؤالِ[3].

- ووَصْفُ العَذابِ بأنَّه واقعٌ، وما بعْدَه مِن أوصافِه إلى قولِه: ﴿إِنَّهُمۡ يَرَوۡنَهُۥ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٥٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٠٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٤٤)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٧١)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٢٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٥٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٠٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٤٤)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٧١)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٢٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٥٤، ١٥٥).

بَعِيدًا﴾ [المعارج: ٦]، إدْماجٌ[١] مُعترِضٌ؛ ليُفيدَ تَعجيلَ الإجابةِ عمَّا سَأَل عنه سائلٌ بكِلا مَعْنيَي السُّؤالِ؛ لأنَّ السُّؤالَ لم يُحْكَ فيه عَذابٌ مُعيَّنٌ، وإنَّما كان مُجمَلًا لأنَّ السَّائلَ سأَلَ عن عَذابٍ غيرِ مَوصوفٍ، أو الدَّاعيَ دَعا بعَذابٍ غيرِ مَوصوفٍ، فحُكِيَ السُّؤالُ مُجمَلًا؛ ليُرتَّبَ عليه وَصْفُه بهذه الأوصافِ والتَّعلُّقاتِ، فيُنتقَلَ إلى ذِكرِ أحوالِ هذا العذابِ وما يَحُفُّ به مِن الأهوالِ. وقد طُويَت في مَطاوي هذه التَّعلُّقاتِ جُمَلٌ كثيرةٌ، كان الكلامُ بذلك إيجازًا؛ إذ حَصَل خِلالَها ما يُفهَمُ منه جَوابُ السَّائلِ، واستجابةُ الدَّاعي، والإنباءُ بأنَّه عَذابٌ واقعٌ عليهم مِن اللهِ، لا يَدفَعُه عنهم دافعٌ، ولا يَغُرُّهم تَأخُّرُه. وهذه الأوصافُ مِن قَبيلِ الأُسلوبِ الحكيمِ[٢]؛ لأنَّ ما عُدِّدَ فيه مِن أوصافِ العذابِ وهَولِه ووَقْتِه، هو الأَولى لهم أَنْ يَعلَموه؛ ليَحذَروه، دونَ أنْ يَخوضوا في تَعيينِ وَقْتِه، فحصَلَ مِن هذا كلِّه معْنى: أنَّهم سَأَلوا عن العَذابِ الَّذي هُدِّدوا به عن وَقتِه ووَصْفِه سُؤالَ استهزاءٍ، ودَعَوُا اللهَ أنْ يُرسِلَ عليهم عذابًا إنْ كان القرآنُ حقًّا؛ إظهارًا لقِلَّةِ اكتِراثِهم بالإنذارِ بالعذابِ، فأعْلَمَهم أنَّ العذابَ الَّذي استَهْزَؤوا به واقعٌ، لا يَدفَعُه عنهم تَأخُّرُ وقْتِه، فإنْ أرادوا النَّجاةَ فلْيَحْذَروه[٣].

٢- قولُه تعالَى: ﴿لِّلْكَٰفِرِينَ لَيْسَ لَهُۥ دَافِعٌ * مِّنَ ٱللَّهِ ذِى ٱلْمَعَارِجِ﴾

---

(١) تقدَّم تعريفُه (ص: ٤٦).

(٢) الأسلوبُ الحكيمُ: هو تلقِّي المخاطَبِ بغيرِ ما يترقَّبُ بحملِ كلامِه على غيرِ مُرادِه؛ تنبيهًا على أنَّه هو الأَولَى بالقصدِ، وكذلك أيضًا تلقِّي السَّائلِ بغيرِ ما يتطلَّبُ؛ تنبيهًا على ما هو الأَولى بحالِه وبالسُّؤالِ عنه، وهو مِن خلافِ مقتضَى الظَّاهرِ. يُنظر: ((مفتاح العلوم)) للسكاكي (ص: ٣٢٧)، ((البرهان في علوم القرآن)) للزركشي (٤/ ٤٢، ٤٣)، ((موجز البلاغة)) لابن عاشور (ص: ٤٤)، ((مفاتيح التفسير)) للخطيب (١/ ١٣٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٥٥، ١٥٦).

- قولُه: ﴿لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ قيل: مُتعلِّقٌ بـ﴿سَأَلَ﴾، مُضمَّنًا معنَى: دعا، أي: دعا لهم. وقيل: مُتعلِّقٌ بـ﴿وَاقِعٍ﴾، واللَّامُ للعِلَّةِ، أي: نازلٌ مِن أجْلِهم. ويجوزُ أن تكونَ اللَّامُ بمعنى (على)، أي: واقِعٍ على الكافِرين[١]. واللَّامُ في قولِه: ﴿لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ لِشِبْهِ المِلْكِ، أي: عَذابٌ مِن خَصائصِهم[٢].

- وقولُه: ﴿لَيْسَ لَهُۥ دَافِعٌ ...﴾ قيل: هو استِئنافٌ مَسوقٌ لبَيانِ وُقوعِ المسؤولِ عنهُ لا مَحالةَ[٣]. وقيل: هو نعتٌ ثانٍ لـ(عَذَابٍ)، أو حالٌ من (عَذَابٍ)؛ لأنَّه وصْفٌ[٤]. وقيل: قولُه: ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾ مُتعلِّقٌ بقولِه: ﴿وَاقِعٍ﴾، وقولُه: ﴿لَيْسَ لَهُۥ دَافِعٌ﴾ جُملةُ اعتراضٍ بيْن العاملِ والمعمولِ[٥].

- وإجْراءُ وَصْفِ ﴿ذِى ٱلْمَعَارِجِ﴾ على اسمِ الجَلالةِ؛ لاستحضارِ عَظَمةِ جَلالِه، ولإدماجِ الإشعارِ بكَثْرةِ مَراتبِ القُربِ مِن رِضاهُ وثَوابِه؛ فإنَّ المَعارجَ مِن خَصائصِ مَنازلِ العُظَماءِ؛ قال تعالَى: ﴿لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ﴾ [الزخرف: ٣٣]، ولكلِّ دَرجةٍ من المَعارجِ قومٌ عَمِلوا لنَوالِها؛ قال تعالَى: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ [المجادلة: ١١]، ولِيَكونَ مِن هذا الوصْفِ تَخلُّصٌ إلى ذِكرِ يومِ الجزاءِ الَّذي يكونُ فيه العذابُ الحقُّ للكافِرين[٦].

٣- قولُه تعالَى: ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ

(١) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٢٠٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٥٥).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٣٠).
(٤) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٢٠٩).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٧٢).
(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٥٦).

سَنَةٍ﴾

- قولُه: ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ المرادُ به يومُ القيامةِ -على قولٍ-، واستِطالتُه إمَّا لأنَّه كذلكَ في الحقيقةِ -وهو ظاهر الآيةِ-، أو لشِدَّته على الكفَّارِ، أوْ لكَثرةِ ما فيهِ مِن الحالاتِ والمُحاسَباتِ، وأيًّا ما كانَ فذلكَ في حقِّ الكافرِ، وأمَّا في حقِّ المؤمنِ فلا(١).

- والرُّوحُ: هو جِبريلُ عليه السَّلامُ، وتَخصيصُه بالذِّكرِ؛ لتَمييزِه بالفضْلِ على الملائكةِ، وتشريفًا(٢).

٤- قولُه تعالَى: ﴿فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا﴾ اعتراضٌ مُفرَّعٌ: إمَّا على ما يُومِئُ إليه ﴿سَأَلَ سَائِلٌ﴾ [المعارج: ١] مِن أنَّه سُؤالُ استِهزاءٍ؛ فهذا تَثبيتٌ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ. وإمَّا على ﴿سَأَلَ سَائِلٌ﴾ بمعْنى: دعا داعٍ؛ فالفاءُ لتَفريعِ الأمرِ بالصَّبرِ على جُملةِ ﴿سَأَلَ سَائِلٌ﴾ إذْ كان ذلك السُّؤالُ بمَعْنَييه استهزاءً وتَعريضًا بالتَّكذيبِ، فشَأنُه ألَّا تَصبرَ عليه النُّفوسُ في العُرفِ(٣).

٥- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا * وَنَرَاهُ قَرِيبًا﴾ تَعليلٌ لجُملتَيْ ﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾ [المعارج: ١]، ولجُملةِ ﴿فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا﴾ [المعارج: ٥]، أي: سَألوا استهزاءً؛ لأنَّهم يَرَونه مُحالًا، وعليك بالصَّبرِ؛ لأنَّا نَعلَمُ تَحقُّقَه، أي: وأنتَ تَثِقُ

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٠٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٤٤)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٧٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٣٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٠٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٦٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٤٤)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٧٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٢٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٥٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٥٧، ١٥٨). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٠٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٤٥)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٦/ ١٠)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٧٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٣٠).

بأنَّه قريبٌ، أي: مُحقَّقُ الوقوعِ، وأيضًا هو تَجهيلٌ لهم؛ إذ اغترُّوا بما هم فيه مِن الأمْنِ ومُسالَمةِ العرَبِ لهم، ومِن الحياةِ النَّاعمةِ، فرَأَوُا العذابَ الموعودَ بعيدًا؛ إنْ كان في الدُّنيا فلِأَمْنِهم، وإنْ كان في الآخرةِ فلإنْكارِهم البعثَ، والمعْنى: وأنت لا تُشبِهُ حالَهم، وذلك يُهوِّنُ الصَّبرَ عليك، فهو مِن باب ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾ [المائدة: ٤٨]، ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾[١] [الكهف: ٢٨].

- و﴿بَعِيدًا﴾ هنا كِنايةٌ عن معْنى الإحالةِ؛ لأنَّهم لا يُؤمِنون بوُقوعِ العذابِ الموعودِ به، ولكنَّهم عبَّروا عنه بـ(بَعيدٍ)؛ تَشكيكًا للمؤمنينَ[٢].

- واستُعمِلَ ﴿بَعِيدًا﴾ كِنايةً عن تَحقُّقِ الوقوعِ على طَريقِ المُشاكَلةِ[٣] التَّقديريَّةِ، والمبالَغةِ في التَّحقُّقِ، وبينَ ﴿بَعِيدًا﴾ و﴿قَرِيبًا﴾ محسِّنُ الطِّباقِ[٤].



(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٣٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٥٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٧٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٣٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٥٨).

(٣) المُشاكَلة: هي ذِكرُ الشَّيءِ بلَفظِ غيره لوُقوعه في صُحبته تَحقيقًا أو تقديرًا. يُنظر: ((الصحاح)) للجوهري (٥/ ١٧٣٧)، ((مفتاح العلوم)) للسكاكي (ص: ٤٢٤)، ((الإتقان في علوم القرآن)) للسيوطي (٣/ ٣٢٢، ٣٢٣)، ((جواهر البلاغة)) للهاشمي (ص: ٣٠٩)، ((علوم البلاغة)) للمراغي (ص: ٣٢٤، ٣٢٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٥٨). وتقدَّم تعريفُ الطِّباقِ (ص: ١٢٨).

الآيات (٨ - ١٨)

﴿يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ ﴿٨﴾ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ﴿٩﴾ وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ﴿١٠﴾
يُبَصَّرُونَهُمْ ۚ يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍۭ بِبَنِيهِ ﴿١١﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ ﴿١٢﴾ وَفَصِيلَتِهِ
ٱلَّتِى تُـْٔوِيهِ ﴿١٣﴾ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ ﴿١٤﴾ كَلَّآ ۖ إِنَّهَا لَظَىٰ ﴿١٥﴾ نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ ﴿١٦﴾ تَدْعُوا۟ مَنْ
أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٧﴾ وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰٓ ﴿١٨﴾﴾.

غَريبُ الكَلِمات:

﴿كَٱلْمُهْلِ﴾: المُهلُ: نَوعٌ مِن القَطِرانِ شَبيهٌ بعَكَرِ الزَّيتِ قد انتهى حَرُّه، وما أُذيبَ مِن الذَّهَبِ والفِضَّةِ والنُّحاسِ والرَّصاصِ، وأصلُ (مهل): يدُلُّ على جِنسٍ مِن الذَّائباتِ[١].

﴿كَٱلْعِهْنِ﴾: أي: الصُّوفِ المصبوغِ، وأصلُ (عهن): يدُلُّ على لِينٍ وسُهولةٍ[٢].

﴿حَمِيمٌ﴾: أي: قَريبٌ مُشفِقٌ، وحميمُ الرَّجُلِ: خاصَّتُه، مِنْ (حَمَّ): إذا دنا وقَرُبَ، فهو أخصُّ مِن الصَّديقِ[٣].

﴿يُبَصَّرُونَهُمْ﴾: أي: يُعَرَّفونَهم، أي يُعرَّفُ الحميمُ حميمَه حتَّى يعرِفَه، يُقالُ: بصَّرْتُ زيدًا بكذا، وبصَّرتُه كذا: إذا عرَّفْتَه إياه، وأصلُ (بصر) هنا: العلمُ بالشَّيءِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٦٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٤٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٨٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٧٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٧٦).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٨٥)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٥٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ١٧٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٩٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٨٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٦٦٠).

(٣) يُنظر: ((مجاز القرآن)) لأبي عبيدة (٢/ ١٩٧)، ((الغريبين)) للهروي (٢/ ٤٩٧)، ((البسيط)) للواحدي (٢٢/ ٢١٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٥٥).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٨٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٥٣)، =

﴿وَفَصِيلَتِهِ﴾: أي: عَشيرتِه وأقاربِه، وفَصيلةُ الرَّجُلِ: رَهْطُه الأدْنَوْنَ، والفَصيلةُ أقرَبُ وأخَصُّ في النَّسَبِ مِنَ القَبيلةِ، والفَصيلةُ: القِطْعةُ مِن أعضاءِ الجَسَدِ، وسُمِّيتْ عشيرةُ الرَّجُلِ فَصيلةً؛ تَشبيهًا بالبَعضِ منه، وأصلُ (فصل): يدُلُّ على تمييزِ الشَّيءِ مِنَ الشَّيءِ، وإبانتِه عنه[1].

﴿لَظَىٰ﴾: هي اسمٌ مِن أسماءِ جَهنَّمَ، عَلَمٌ مَنقولٌ مِن اسمِ اللَّهبِ، لا تَنصَرِفُ؛ فلذلك لا تُنَوَّنُ، واللَّظى: اللَّهَبُ الخالِصُ، يُقالُ: تلَظَّت النَّارُ تتلَظَّى تَلَظِّيًا: أي: توقَّدَت وتوهَّجَت وتلَهَّبَت[2].

﴿لِّلشَّوَىٰ﴾: أي: الأطرافِ -اليَدينِ والرِّجْلينِ- وجِلْدِ الرَّأسِ، وأصلُ (شوي): يدُلُّ على الأمرِ الهَيِّنِ؛ مِن حيثُ إنَّ الشَّوى ليس بمَقْتَلٍ[3].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ الله تعالى مبينًا جانبًا مِن أهوالِ يومِ القيامةِ: يومَ تكونُ السَّماءُ كالشَّيءِ المائعِ الَّذي بَلَغ أقصَى الغايةِ في شِدَّةِ الحرارةِ، وتكونُ الجِبالُ يَومَ القيامةِ كالصُّوفِ المصبوغِ، ولا يَسألُ يومَ القيامةِ قَريبٌ قَريبًا عن حالِه وشأنِه؛ لشِدَّةِ ما

= ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٥٢)، ((البسيط)) للواحدي (٢٢/ ٢١٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤١٦).

(١) يُنظر: ((مجاز القرآن)) لأبي عبيدة (٢/ ٢٦٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٥٠٥)، ((البسيط)) للواحدي (٢٢/ ٢١٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٣٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٨٦).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٠٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٤٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٢٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٠٢).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٨٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٢٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٧١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٢٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٤٢).

يَعتريه مِن الهَولِ والفَزَعِ!

يُعرَّفُ كُلُّ حميمٍ بحَميمِه، ومع ذلك لا يَسأَلُ عن حالِه وشأنِه!

ثمَّ يُبيِّنُ اللهُ تعالى حالةَ المجرمينَ في هذا اليومِ، فيقولُ: يَتمنَّى الكافِرُ في ذلك اليومِ أن يَفتديَ مِن عذابِ اللهِ تعالى ذلك اليومَ بأبنائِه، وزَوجتِه، وإخوانِه، وعَشيرتِه الَّتي كانت تَنصُرُه وتُعينُه، ومَن في الأرضِ جميعًا، ثمَّ ينجُو هو بنفْسِه!

كلَّا! ذلك أمرٌ بعيدٌ! إنَّها نارٌ مُتلَهِّبةٌ مُتوَقِّدةٌ شَديدةُ الحرارةِ، تَنزِعُ أطرافَ الأبدانِ وجِلدةَ الرُّؤوسِ!

تدعو تلك النَّارُ إليها كلَّ مَنْ أدبَرَ في الدُّنيا عن الحَقِّ، وتولَّى عنه إلى الباطِلِ، وجمَعَ الأموالَ فكَنَزَها، ومَنَع حَقَّ اللهِ فيها.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿يَوۡمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلۡمُهۡلِ ٨﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَر اللهُ تعالى عن يومِ القيامةِ ما يَبعَثُ على السُّؤالِ عنه؛ استأنَفَ بَيانَه مُبَيِّنًا عظَمَتَه[1]، فقال:

﴿يَوۡمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلۡمُهۡلِ ٨﴾.

أي: يومَ[2] تكونُ السَّماءُ كالشَّيءِ المائعِ الَّذي بَلَغ أقصَى الغايةِ في شِدَّةِ

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣٩٤).

(٢) في مُتعَلَّق ﴿يَوۡمَ﴾ هنا أوجُهٌ:

أحدُها: أنَّه متعلِّقٌ بـ﴿قَرِيبًا﴾، والتقديرُ: ونراه قَريبًا يومَ تكونُ السَّماءُ كالمُهْلِ.

وثانيها: أنَّه متعلِّقٌ بمضمَرٍ يدُلُّ عليه ﴿وَاقِعٍ﴾ وهو يقعُ، أي: يقعُ يومَ تكونُ كالمُهْلِ.

والثَّالثُ: أنَّه متعلِّقٌ بمحذوفٍ مقدَّرٍ بعدَه، أي: يومَ تكونُ السَّماءُ كالمُهْلِ كان كذا وكذا. =

الحرارةِ[١].

= والرَّابعُ: أن يكونَ بدَلًا مِن «يَوْمٍ»، والتَّقديرُ: سأل سائِلٌ بعذابٍ واقعٍ في يومٍ كان مِقدارُه خمسينَ ألْفَ سَنةٍ يومَ تكونُ السَّماءُ كالمُهْلِ.

وقيل: يَتعلَّقُ بفعلِ ﴿تَعۡرُجُ﴾، وقيل: يَتعلَّقَ بـ ﴿يَوَدُّ ٱلۡمُجۡرِمُ﴾ وقيل غير ذلك. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦٤٠)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (١٠/ ٤٥١)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٦٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٥٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢٤٨-٢٥١) و(٢٣/ ٢٥٦)، ((الزاهر)) لابن الأنباري (٢/ ١١٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٦٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣٩٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٥٩).

قيل: المرادُ بالمُهْلِ: عَكَرُ الزَّيتِ [أي: ما غلُظَ ورَسَب منه]. وممَّن ذهب إلى هذا: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ قُتَيْبةَ، والسمرقنديُّ، والثعلبي، والسمعاني، وابن عطية، وابن جُزَي، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٤٣٦)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٦٧)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٤٩٥)، ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ٣٧)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٤٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٦٦)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤١٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٥٩).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عُمَرَ، وابنُ عبَّاسٍ، ومجاهدٌ، وزَيدُ بنُ أسْلَمَ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٧) و(٢٣/ ٢٥٦)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٥/ ٣٥)، ((البسيط)) للواحدي (٢٢/ ٢١٢)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٨/ ٢٨١).

قيل: المرادُ بهذا أنَّ السَّماءَ تكونُ كذلك؛ لسَوادِها وانكِدارِ أنوارِها يومَ القيامةِ. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٦٦).

وقيل: المرادُ: تشبيهُ السَّماءِ في انحلالِ أجزائِها بالزَّيتِ. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٥٩).

وممَّن اختار أنَّ المرادَ بالمُهْلِ في الجملةِ: ما أُذيب مِن النُّحاسِ والرَّصاصِ والفِضَّةِ: الشَّوكانيُّ، والسعديُّ. يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٤٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٦).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: عبدُ الله بنُ مسعودٍ، والحسَنُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٧) و(٢٣/ ٢٥٦)، ((البسيط)) للواحدي (٢٢/ ٢١٢).

قال السعدي: (هو الرَّصاصُ المُذابُ مِن تشَقُّقِها، وبُلوغِ الهَولِ مِنها كُلَّ مَبلَغٍ!). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٦).

وقيل: المُهلُ: ما أُذيبَ مِن فِضَّةٍ ونَحوِها، فيَجيءُ له ألوانٌ وتمَيُّعٌ مُختَلِطٌ، فالسَّماءُ تصيرُ مِثلَ ذلك؛ للأهوالِ الَّتي تُصيبُها. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٦٦). =

﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٩﴾.

أي: وتكونُ الجِبالُ يَومَ القيامةِ كالصُّوفِ المصبوغِ[1].

= قال ابن جرير: (يَقولُ تعالى ذِكْرُه: يومَ تكونُ السَّماءُ كالشَّيءِ المُذابِ). ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٥٦).

وقال أيضًا بعدَ أن ذكَرَ الخِلافَ في تفسيرِ المُهلِ في سورةِ (الكهفِ): (وهذه الأقوالُ وإنِ اختلَفَتْ بها ألفاظُ قائِليها، فمُتَقارِباتُ المعنَى؛ وذلك أنَّ كلَّ ما أُذيبَ مِن رَصاصٍ أو ذهَبٍ أو فِضَّةٍ فقد انْتَهى حَرُّه، وأنَّ ما أُوقِدَتْ عليه مِن ذلك النَّارُ حتَّى صار كدُرْدِيِّ الزَّيْتِ، فقد انْتَهى أيضًا حَرُّه... فالمُهْلُ إذًا هو كلُّ مائِعٍ قد أُوقِدَ عليه حتَّى بَلَغ غايةَ حَرِّه، أو لم يَكُنْ مائِعًا فانْماع بالوَقودِ عليه، وبَلَغ أقصَى الغايةِ في شِدَّةِ الحرِّ). ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢٥٠، ٢٥١).

وقد تقدَّمَ الكلامُ عن المُهْلِ في تفسير سورةِ (الكهف) من هذا ((التفسير المحرَّر)) الآية (٢٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٥٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٦٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٨٤، ٢٨٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٢٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٥٩).

وممَّن ذهب إلى أنَّ العِهْنَ هو الصُّوفُ المصبوغُ: أبو عُبَيْدةَ، وابنُ فارس، والواحديُّ، والسمعاني، والراغب، والزمخشري، والقرطبي، والبِقاعي، وابن عاشور. يُنظر: ((مجاز القرآن)) لأبي عبيدة (٢/ ٣٠٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ١٧٧)، ((البسيط)) للواحدي (٢٢/ ٢١٣)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٤٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٩٢)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٠٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٨٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣٩٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٥٩).

قال السمعاني: (العِهْنُ: الصُّوفُ المصبوغُ، وشبَّهه به في ضَعفِه ولِينِه). ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٤٦).

وقال ابنُ عاشور: (العِهنُ: الصُّوفُ المصبوغُ؛ قيل: المصبوغُ مُطلَقًا، وقيل: المصبوغُ ألوانًا مختَلِفةً). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٥٩). ويُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٦٦).

وممَّن نصَّ على تخصيصِه بالمصبوغِ ألوانًا: أبو عُبَيْدةَ، والزمخشريُّ، والبِقاعي. يُنظر: ((مجاز القرآن)) لأبي عبيدة (٢/ ٣٠٩)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٠٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣٩٤).

وقال الحسَنُ: كالصُّوفِ الأحمَرِ. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ٣٧). =

كما قال تعالى: ﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ﴾ [القارعة: ٥].

﴿وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ۝١٠﴾.

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

١- قِراءةُ: ﴿وَلَا يُسْأَلُ﴾ على معنى: لا يُسألُ قَريبٌ عن قريبِه، أو على معنى: لا يُقالُ لحَميمٍ: أينَ حَميمُك؟ أي: لا يُطالَبُ قَريبٌ بأن يُحضِرَ قَريبَه؛ لأنَّه لا جَوْرَ هناك، بخِلافِ ما يُفعَلُ في الدُّنيا أحيانًا بأن يُؤخَذَ الجارُ بالجارِ، والحَميمُ بالحَميمِ[1].

٢- قراءةُ: ﴿وَلَا يَسْـَٔلُ﴾ على معنى: لا يَسألُ قَريبٌ قريبَه عن حالِه وشأنِه[2].

﴿وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ۝١٠﴾.

أي: ولا يَسأَلُ يومَ القيامةِ قَريبٌ في غايةِ القُربِ والصَّداقةِ قَريبًا مِثْلَه عن حالِه وشأنِه؛ لشُغلِ كلِّ إنسانٍ بنَفْسِه عن غيرِه؛ لشِدَّةِ ما يَعتريه مِن الهَولِ والفَزَعِ[3]!

= وقيل: العِهنُ هو الصُّوفُ، دونَ تقييدٍ. وممَّن اختاره: ابنُ عطيَّة، وابنُ جُزَي. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٦٦)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤١٠).

قال ابن جُزَي: (العِهنُ هو الصُّوفُ، شبَّه الجبالَ به في انتِفاشِه وتخلخلِ أجزائِه). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤١٠).

وممَّن قال مِن السَّلَفِ: إنَّ العِهْنَ هو الصُّوفُ: مجاهدٌ، وقَتادةُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٥٧)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٨/ ٢٨١).

(١) قرأ بها: أبو جعفر. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٩٠).

ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٥٩)، ((معاني القراءات)) للأزهري (٣/ ٨٩)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٧٢٢).

(٢) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٩٠).

ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٥٩)، ((معاني القراءات)) للأزهري (٣/ ٨٩)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٧٢٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٥٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٨٥)، ((تفسير ابن =

كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠١].

وقال سبحانه: ﴿لِكُلِّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُمۡ يَوۡمَئِذٖ شَأۡنٞ يُغۡنِيهِ﴾ [عبس: ٣٧].

﴿يُبَصَّرُونَهُمۡۚ يَوَدُّ ٱلۡمُجۡرِمُ لَوۡ يَفۡتَدِي مِنۡ عَذَابِ يَوۡمِئِذِۭ بِبَنِيهِ ١١﴾.

﴿يُبَصَّرُونَهُمۡ﴾.

أي: يُعرَّفُ كُلُّ حميمٍ بحَميمِه حتَّى يَعرِفَه، ويَرى ما فيه مِن كَربٍ وشِدَّةٍ، ومع ذلك لا يَسأَلُ عن حالِه وشأنِه؛ لشدَّةِ انشِغالِه بنَفْسِه[1]!

﴿يُبَصَّرُونَهُمۡۚ يَوَدُّ ٱلۡمُجۡرِمُ لَوۡ يَفۡتَدِي مِنۡ عَذَابِ يَوۡمِئِذِۭ بِبَنِيهِ ١١ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ ١٢﴾.

أي: يَرغَبُ الكافِرُ في ذلك اليومِ ويتمَنَّى أن يُقبَلَ منه تقديمُ أبنائِه وزَوجتِه وإخوانِه؛ لإنقاذِ نَفْسِه مِنَ العَذابِ، فيُعذَّبون عِوَضًا عنه، ويَسلَمُ هو[2]!

كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿يَوۡمَ يَفِرُّ ٱلۡمَرۡءُ مِنۡ أَخِيهِ * وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ * وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ﴾ [عبس: ٣٤ - ٣٦].

﴿وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِي تُـٔۡوِيهِ ١٣﴾.

= كثير)) (٨/ ٢٢٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣٩٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٥٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٥٧، ٢٥٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٥٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٨٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣٩٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٥٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٥٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٨٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٢٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٦٠، ١٦١).

قال ابنُ عطيةَ: (المجرمُ في هذه الآيةِ: الكافِرُ؛ بدليلِ شِدَّةِ الوَعيدِ، وذِكرِ لَظَى، وقد يَدخُلُ مُجرِمُ المعاصي فيما ذُكِرَ مِنَ الافتداءِ!). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٦٧). ويُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣٩٥).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان مَن بَقِيَ مِن الأقاربِ مُتقاربِينَ في الرُّتبةِ؛ ذَكَر أقرَبَهم، فقال: ﴿وَفَصِيلَتِهِ﴾، أي: عَشيرتِه الَّذين هم أقرَبُ مَن فُصِلَ عنه[(١)].

﴿وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِي تُـْٔوِيهِ ﴿١٣﴾﴾.

أي: ويَوَدُّ أن يُقبَلَ مِنه تقديمُ عَشيرتِه الَّتي كانت في الدُّنيا تضُمُّه وتَنصُرُه وتُعينُه، فتُعذَّبُ هي عِوَضًا عنه[(٢)].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣٩٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٥٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٨٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٢٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣٩٦، ٣٦٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٦).

قال ابنُ عاشور: (الفصيلةُ: الأقرباءُ الأَدْنَونَ مِنَ القَبيلةِ، وهم الأقرِباءُ المفصولُ منهم، أي: المُستَخرَجُ منهم، فشَملَت الآباءَ والأمَّهاتِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٦١).

وقال القَلْقَشَنْدي: (قد عدَّ أهلُ اللُّغةِ طبَقاتِ الأنسابِ ستَّ طبَقاتٍ:

الطَّبَقةُ الأولى: الشَّعبُ، بفتحِ العَينِ، وهو النَّسبُ الأبعَدُ؛ كعَدْنانَ مثلًا...

الطَّبَقةُ الثَّانيةُ: القَبيلةُ، وهي ما انقسَمَ فيه الشَّعبُ؛ كرَبيعةَ ومُضَرَ...

الطَّبَقةُ الثَّالثةُ: العِمارةُ، بكسرِ العَينِ المُهمَلةِ، وهي ما انقسَم فيه أنسابُ القَبيلةِ؛ كقُرَيشٍ وكِنانةَ. وتُجمَعُ على عِماراتٍ، وعَمائرَ.

الطَّبَقةُ الرَّابعةُ: البَطنُ، وهي ما انقسَم فيه أقسامُ العِمارةِ؛ كبَني عبدِ مَنافٍ، وبَني مَخزومٍ. ويُجمعُ: على بُطونٍ، وأبْطُنٍ.

الطَّبَقةُ الخامِسةُ: الفَخِذُ، وهي ما انقسَم فيه أقسامُ البَطنِ؛ كبَني هاشمٍ، وبني أُمَيَّةَ. وتُجمعُ على: أفخاذٍ.

الطَّبَقةُ السَّادسةُ: الفَصيلةُ، بالصَّادِ المُهمَلةِ، وهي ما انقسَم فيه أقسامُ الفَخِذِ؛ كبَني العبَّاسِ... وبالجُملةِ فالفَخِذُ يَجمَعُ الفصائلَ، والبطنُ يجمعُ الأفخاذَ، والعِمارةُ يجمعُ البُطونَ، والقبيلةُ تَجمعُ العَمائرَ، والشَّعبُ يجمعُ القبائلَ ... وزاد بعضُهم العَشيرةَ قبْلَ الفَصيلةِ). ((قلائد الجمان في التعريف بقبائل عرب الزمان)) (ص: ١٤). ويُنظر: ((الأحكام السلطانية)) للماوَرْدي (ص: ٣٠٤)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٧٤). =

﴿وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا ثُمَّ يُنجِيهِ ١٤﴾.

أي: ويَرغَبُ في تقديمِ جَميعِ مَن في الأرضِ مِن أصدقائِه وغَيرِهم، فيُعذَّبون بَدَلًا منه، وينجُو بذلك مِن عَذابِ اللهِ[١].

﴿كَلَّآۖ إِنَّهَا لَظَىٰ ١٥﴾.

أي: لن يكونَ للمُجرِمِ ما تمَنَّاه مِنَ الافتداءِ مِن عَذابِ اللهِ، فليس يُنجِيه مِن النَّارِ شَيءٌ؛ إنَّها نارٌ مُتلَهِّبةٌ مُتوَقِّدةٌ شَديدةُ الحرارةِ[٢]!

كما قال تعالى: ﴿فَأَنذَرۡتُكُمۡ نَارٗا تَلَظَّىٰ﴾ [الليل: ١٤].

﴿نَزَّاعَةٗ لِّلشَّوَىٰ ١٦﴾.

أي: تَنزِعُ تلك النَّارُ أطرافَ أبدانِ المجرِمينَ -كاليَدينِ والرِّجْلينِ-، وجِلدةَ

= وقال الشنقيطي: (ولم يُذكَرْ مِن هذه السِّتِّ في القرآنِ إلَّا ثلاثٌ: الشُّعوبُ والقَبائِلُ...، والفَصيلةُ في «المَعارِجِ»، في قولِه: ﴿وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِي تُـٔۡوِيهِ﴾). ((أضواء البيان)) (٧/ ٤١٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٥٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٥٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٨٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٦).

قال الزمخشري: (﴿ثُمَّ﴾ لاستبعادِ الإنجاءِ، يعني: تمنَّى لو كان هؤلاء جميعًا تحتَ يَدِه، وبَذَلَهم في فِداءِ نَفْسِه، ثمَّ يُنجيه ذلك، وهَيْهاتَ أن يُنْجيَه!). ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦١٠). ويُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣٩٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٦٠)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ١٥٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٢٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣٩٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٦٢).

قال الواحدي: (لَظَى: مِن أسماءِ النَّارِ، ومَعناها في اللُّغةِ: اللَّهَبُ الخالِصُ). ((الوسيط)) (٤/ ٣٥٢). ويُنظر: ((تهذيب اللغة)) للأزهري (١٤/ ٢٨٤).

وقال الشوكاني: (﴿كَلَّآ﴾ يأتي بمعنى: «حقًّا»، وبمعنى: «لا»، مع تضَمُّنِها لمعنى الزَّجْرِ والرَّدْعِ). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٤٧). ويُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٨٧).

رُؤوسِهم[1].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٦١)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦١٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٢٥).

قال ابنُ القيِّم: (في الآيةِ تفسيرانِ مَشهورانِ؛ أحَدُهما: أنَّ الشَّوى: الأطرافُ الَّتي ليست مَقاتِلَ؛ كاليَدينِ، والرِّجْلَينِ، تَنزِعُها عن أماكِنِها... التَّفسيرُ الثَّاني: أنَّ الشَّوى جمعُ شَواةٍ، وهي جِلدةُ الرَّأسِ وفَروتُه). ((بدائع الفوائد)) (٣/ ١١٤، ١١٥).

وممَّن ذهب إلى المعنى الأوَّلِ -أنَّ الشَّوى: الأطرافُ الَّتي ليست مَقاتِلَ؛ كاليدَينِ والرِّجلَينِ-: الراغبُ، والبَغَويُّ، والخازن، وابن جُزَي. يُنظر: ((المفردات في غريب القرآن)) للراغب (ص: ٤٧١)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ١٥٣)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٣٤١)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤١١).

قال السَّمْعانيُّ: (الأكثَرونَ أنَّ الشَّوى هو الأطرافُ؛ مِثلُ اليَدينِ، والرِّجلَينِ، وغَيرِ ذلك). ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٤٧).

وممَّن قال بنحوِ هذا القولِ مِن السَّلفِ: أبو صالحٍ، ومجاهِدٌ في روايةٍ عنه، وابنُ زَيدٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٦٣)، ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ٣٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٢٥)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٨/ ٢٨٢).

وممَّن ذهب إلى المعنى الثَّاني: ابنُ قُتَيْبَةَ، والغَزْنَوي، والقرطبي، والبِقاعي. يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٨٦)، ((باهر البرهان)) للغزنوي (٣/ ١٥٥٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٨٨)، ((التذكرة بأحوال الموتى وأمور الآخرة)) للقرطبي (ص: ٨٣٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣٩٨).

وممَّن قال بنحوِ هذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ في روايةٍ عنه، ومجاهدٌ في روايةٍ عنه، وسعيدُ ابنُ جُبَيرٍ، وقُرَّةُ بنُ خالدٍ، والكلبيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٦٢)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ١٥٣)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٨/ ٢٨٢).

قال البقاعي: (﴿نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ﴾ أي: هي شديدةُ النَّزعِ لجُلودِ الرُّؤوسِ، بليغَتُه، فما الظَّنُّ بغيرِه مِن الجِلدِ؟! وقال في القاموس: الشَّوى: اليَدانِ والرِّجلانِ والأطرافُ، وقِحْفُ الرَّأسِ وما كان غيرَ مَقْتَلٍ. انتهى. وقيل: والجِلدُ كُلُّه واللَّحمُ. تَنزِعُ ذلك، ثمَّ يعودُ كما كان في الحالِ). ((نظم الدرر)) (٢٠/ ٣٩٨، ٣٩٩).

وقال ابن جرير جامعًا بيْن القولَينِ: (تَنْزِعُ جِلدةَ الرَّأسِ، وأطرافَ البدنِ). ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٦١).
=

﴿تَدْعُواْ مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ ۝١٧﴾.

أي: تدعو تلك النَّارُ إليها كلَّ مَنْ أدبرَ في الدُّنيا عن الحَقِّ، وتولَّى عنه إلى الباطِلِ(١).

كما قال تعالى: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَۚ فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ﴾ [التغابن: ١٢].

وقال سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَمَّآ أُنذِرُواْ مُعۡرِضُونَ﴾ [الأحقاف: ٣].

﴿وَجَمَعَ فَأَوۡعَىٰٓ ۝١٨﴾.

أي: وجمَعَ الأموالَ فكَنَزَها، ومَنَع حَقَّ اللهِ فيها، فلم يُنفِقْ منها فيما أمَرَه(٢).

كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٖ * يَوۡمَ يُحۡمَىٰ عَلَيۡهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكۡوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمۡ وَجُنُوبُهُمۡ وَظُهُورُهُمۡۖ هَٰذَا مَا كَنَزۡتُمۡ لِأَنفُسِكُمۡ فَذُوقُواْ مَا كُنتُمۡ

= وقال العُلَيميُّ: (وهي جِلدةُ الرَّأسِ وما ليست مَقتَلًا، كالأطرافِ، تَلخيصُه: تَقتلِعُ النَّارُ منهم كلَّ عُضْوٍ غيرِ مَقتَلٍ، ثمَّ يَعودُ هكذا أبدًا). ((تفسير العليمي)) (٧/ ١٥٩).

وقال قَتادةُ: ﴿نَزَّاعَةٗ لِّلشَّوَىٰ﴾ أي: نَزَّاعةً لهامَتِه، ومَكارِمِ خَلقِه وأطرافِه. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٦٣).

(١) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٤٣٧)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٦٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٨٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٢٥).

قال ابنُ كثير: (أي: تَدعو النَّارُ إليها أبناءَها الَّذين خلقَهم اللهُ لها، وقدَّرَ لهم أنَّهم في الدَّارِ الدُّنيا يَعمَلونَ عمَلَها، فتَدْعوهم يومَ القيامةِ بلِسانٍ طَلْقٍ ذَلْقٍ، ثمَّ تَلتَقِطُهم مِن بيْنِ أهلِ المحشَرِ، كما يلتَقِطُ الطَّيرُ الحَبَّ). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٢٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٦٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٥٣)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦١١)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٨٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٢٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٦٥).

تَكۡنِزُونَ ﴾ [التوبة: ٣٤، ٣٥].

وقال سبحانه: ﴿ٱلَّذِي جَمَعَ مَالٗا وَعَدَّدَهُۥ * يَحۡسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخۡلَدَهُۥ * كَلَّاۖ لَيُنۢبَذَنَّ فِي ٱلۡحُطَمَةِ﴾ [الهمزة: ٢ - ٤].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿يَوۡمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلۡمُهۡلِ * وَتَكُونُ ٱلۡجِبَالُ كَٱلۡعِهۡنِ﴾ إذا كان هذا القَلَقُ والانزعاجُ لهذه الأجرامِ الكبيرةِ الشَّديدة، فما ظَنُّك بالعَبدِ الضَّعيفِ الَّذي قد أثقَلَ ظَهْرَه بالذُّنوبِ والأوزارِ؟ أليس حقيقًا أن ينخَلِعَ قَلبُه، ويَنزَعِجَ لُبُّه، ويَذهَلَ عن كلِّ أحَدٍ[1]؟!

٢- قال اللهُ تعالى: ﴿وَلَا يَسۡـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمٗا﴾؛ لأنَّه قد كُشِفَ لهم أنَّه لا تُغْني نَفْسٌ عن نفْسٍ شيئًا، وأنَّه قد تقطَّعَت الأسبابُ، وتلاشت الأنسابُ، لَمَّا كَشَف الابتلاءُ عن أنَّه لا عِزَّ إلَّا بالتَّقوى[2]!

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَجَمَعَ فَأَوۡعَىٰٓ﴾ فيه إشارةٌ إلى حُبِّ الدُّنيا؛ فـ(جَمَع) إشارةٌ إلى الحِرصِ، و(أوعى) إشارةٌ إلى الأمَلِ، ولا شَكَّ أنَّ مَجامِعَ آفاتِ الدِّينِ ليست إلَّا هذه[3]!

الفَوائِدُ العِلْميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- لم يُخبِرِ اللهُ تعالى أنَّ العالَمَ في يومِ القيامةِ يُعْدَمُ ويَفْنَى بحيثُ لا يبقَى شَيءٌ، بل أخبَرَ باستحالةِ العالَمِ؛ قال تعالى: ﴿يَوۡمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلۡمُهۡلِ * وَتَكُونُ ٱلۡجِبَالُ كَٱلۡعِهۡنِ﴾، وقال تعالى: ﴿يَوۡمَ تُبَدَّلُ ٱلۡأَرۡضُ غَيۡرَ ٱلۡأَرۡضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُۖ وَبَرَزُواْ لِلَّهِ

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٦).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣٩٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦٤٣). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٦٦).

ﵟٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِﵞ [إبراهيم: ٤٨]، وقال تعالى: ﵟفَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتۡ وَرۡدَةٗ كَٱلدِّهَانِﵞ [الرحمن: ٣٧]، وقال تعالى: ﵟإِذَا رُجَّتِ ٱلۡأَرۡضُ رَجّٗا * وَبُسَّتِ ٱلۡجِبَالُ بَسّٗا * فَكَانَتۡ هَبَآءٗ مُّنۢبَثّٗا * وَكُنتُمۡ أَزۡوَٰجٗا ثَلَٰثَةٗﵞ [الواقعة: ٤ - ٧]، وقال تعالى: ﵟيَوۡمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلۡفَرَاشِ ٱلۡمَبۡثُوثِ * وَتَكُونُ ٱلۡجِبَالُ كَٱلۡعِهۡنِ ٱلۡمَنفُوشِﵞ [القارعة: ٤-٥]، وأمثال هذه النُّصوصِ الَّتي تُبيِّنُ الاستِحالةَ والتَّغيُّرَ على السَّمواتِ والأرضِ والجِبالِ، وأنَّها تستحيلُ أنواعًا مِنَ الاستحالةِ؛ لتعَدُّدِ الأوقاتِ[١]. وذلك بِناءً على القولِ بأنَّ التَّبديلَ للسَّمواتِ والأرضِ تبديلُ صِفاتٍ لا ذاتٍ.

٢- قال اللهُ تعالى: ﵟيَوَدُّ ٱلۡمُجۡرِمُ لَوۡ يَفۡتَدِي مِنۡ عَذَابِ يَوۡمِئِذِۭ بِبَنِيهِ * وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِﵞ بدأ جَلَّ ثناؤُه بذِكرِ البَنينَ، ثمَّ الصَّاحِبةِ، ثمَّ الأخِ؛ إعلامًا منه عِبادَه أنَّ الكافِرَ مِن عَظيمِ ما يَنزِلُ به يومَئِذٍ مِنَ البَلاءِ يَفْتَدي نَفْسَه -لو وجَدَ إلى ذلك سبيلًا- بأحَبِّ النَّاسِ إليه[٢]!

٣- قولُه تعالى: ﵟيَوَدُّ ٱلۡمُجۡرِمُ لَوۡ يَفۡتَدِي مِنۡ عَذَابِ يَوۡمِئِذِۭ بِبَنِيهِ ...ﵞ الآياتِ: فيه أنَّ غيرَ المجرمِ لا يَوَدُّ ذلك؛ لأنَّه قد افتدَى في الدُّنيا مِن عذابِ يومئذٍ بالتَّقوَى والإيمانِ، وإنَّما هو في هذا اليومِ لا يَحزُنُه الفزعُ الأكبرُ، ويُؤمِّلُ اجتماعَه بمَن صلَح مِن آبائِه وأبنائِه وأحبابِه في جنَّاتِ النَّعيمِ[٣].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﵟيَوۡمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلۡمُهۡلِ * وَتَكُونُ ٱلۡجِبَالُ كَٱلۡعِهۡنِﵞ

- قولُه: ﵟيَوۡمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلۡمُهۡلِﵞ يَجوزُ أنْ يَتعلَّقَ بـ ﵟيَوَدُّ ٱلۡمُجۡرِمُﵞ؛ قُدِّمَ عليه

---

(١) يُنظر: ((الصفدية)) لابن تيمية (٢/ ٢٢٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٥٩).

(٣) يُنظر: ((المواهب الربانية من الآيات القرآنية)) للسعدي (ص: ١٥).

للاهتِمامِ بذِكرِ اليَومِ، فيكونَ قولُه: ﴿يَوۡمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلۡمُهۡلِ﴾ ابتداءَ كَلامٍ، والجُملةُ المَجعولةُ مَبدأَ كَلامٍ تُجعَلُ بدَلَ اشتِمالٍ مِن جُملةِ ﴿وَلَا يَسۡـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمٗا﴾، ويَجوزُ أنْ يتعَلَّقَ بفِعلِ ﴿تَعۡرُجُ﴾[١].

- وفي قولِه: ﴿يَوۡمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلۡمُهۡلِ﴾ تَشبيهٌ مُرسَلٌ[٢]، ووَجْهُ الشَّبهِ التَّلوُّنُ، والمعْنى: تَشبيهُ السَّماءِ في انْحلالِ أجْزائِها بالزَّيتِ، أو كالفِضَّةِ المُذابةِ في تَلوُّنِها[٣]. وذلك على أحدِ الأقوالِ.

- وكذلك في قولِه: ﴿وَتَكُونُ ٱلۡجِبَالُ كَٱلۡعِهۡنِ﴾ تَشبيهٌ مُرسَلٌ، ووَجْهُ الشَّبَهِ تَفرُّقُ أجزاءِ الصُّوفِ المَصبوغِ ألْوانًا، فإيثارُ العِهنِ بالذِّكرِ لإكمالِ المُشابَهةِ؛ لأنَّ الجِبالَ ذاتُ ألْوانٍ؛ فمنها جُدَدٌ بِيضٌ، وحُمْرٌ مُختلِفٌ ألوانُها، وغَرابيبُ سُودٌ، فإذا بُسَّت وطُيِّرت في الجوِّ؛ أشْبَهَت العِهنَ المَنفوشَ إذا طيَّرَتْه الرِّيحُ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٥٩).
ويُنظر ما تقدَّم: (ص: ١٥٤).

(٢) التَّشبيهُ: هو إلحاقُ شَيءٍ بذِي وصْفٍ في وَصْفِه. وقيل: هو إثباتُ حُكمٍ مِن أحكامِ المُشبَّهِ به للمُشبَّه. ويَنقسِمُ التَّشبيهُ عِدَّةَ تَقسيماتٍ باعتباراتٍ عِدَّةٍ؛ فمنه: التَّشبيهُ البليغُ: وهو ما كانتْ أداةُ التَّشبيهِ فيه مَحذوفةً. ويَنقسِمُ التَّشبيهُ باعتبارٍ آخَرَ إلى مُؤكَّدٍ: وهو ما حُذِفتْ فيه الأداةُ، نحو: ﴿وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾ [النمل: ٨٨]، أي: مِثلَ مرِّ السَّحابِ. ومُرْسَلٍ: وهو ما لم تُحذَفْ فيه الأداةُ. يُنظر: ((مفتاح العلوم)) للسكاكي (ص: ٣٣٢ وما بعدها)، ((البرهان)) للزركشي (٣/ ٤١٤، ٤٢٢)، ((الإتقان في علوم القرآن)) للسيوطي (٣/ ١٤٦)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١/ ٦٦)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن حَبَنَّكَة الميداني (٢/ ١٦١).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٠٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٤٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٣١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٥٩)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٢١١).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٠٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٤٥)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٧٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٣١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٥٩)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٢١١).

٢- قولُه تعالَى: ﴿وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا * يُبَصَّرُونَهُمْۚ يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍۭ بِبَنِيهِ * وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ * وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِى تُـْٔوِيهِ * وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ﴾

- قولُه: ﴿وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا﴾، أي: لشِدَّةِ ما يَعْتري النَّاسَ مِن الهَولِ، فمِن شِدَّةِ ذلك أنْ يَرى الحميمُ حَميمَه في كَرْبٍ وعَناءٍ، فلا يَتفرَّغَ لسُؤالِه عن حالِه؛ لأنَّه في شاغلٍ عنه، فحُذِفَ مُتعلَّقُ ﴿يَسْـَٔلُ﴾؛ لظُهورِه مِن المَقامِ ومِن قولِه: ﴿يُبَصَّرُونَهُمْ﴾، أي: يُبصَّرُ الأخِلَّاءُ أحوالَ أخِلَّائِهم مِن الكَرْبِ، فلا يَسألُ حَميمٌ حَميمًا[١].

- و﴿حَمِيمٌ حَمِيمًا﴾ نَكِرتانِ في سِياقِ النَّفيِ؛ فيَعُمَّانِ، ولذلك جُمِعَ الضَّميرُ في ﴿يُبَصَّرُونَهُمْ﴾[٢].

- قيل: مَوقعُ قولِه: ﴿يُبَصَّرُونَهُمْ﴾ مَوقعُ الاستئنافِ البيانيِّ؛ لدفْعِ احتمالِ أنْ يَقَعَ في نفْسِ السَّامعِ أنَّ الأَحِمَّاءَ لا يرى بَعضُهم بعضًا يومَئذٍ؛ لأنَّ كلَّ أحدٍ في شاغلٍ، فأُجِيبَ بأنَّهم يُكشَفُ لهم عنْهم ليَرَوا ما هم فيه مِن العذابِ، فيَزْدادوا عذابًا فوقَ العذابِ. ويجوزُ أنْ يكونَ ﴿يُبَصَّرُونَهُمْ﴾ صِفةً، أي: حَميمًا مُبصَّرين مُعرَّفين إيَّاهم، وقيل غير ذلك[٣].

- قولُه: ﴿يُبَصَّرُونَهُمْ﴾ مُضارِعُ (بَصَّرَه بالأمرِ)؛ إذا جَعَلَه مُبصِرًا له، أي: ناظرًا،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٥٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦١٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٤٥)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٧٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٣١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٦٠)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٢١٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٠٩، ٦١٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٤٥)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٧٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٣١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٦٠)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٢١٢).

فأصْلُه: يُبصَّرون بهم، فوَقَعَ فيه حذْفُ الجارِّ، وتَعديةُ الفعلِ(١).

- قولُه: ﴿يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ﴾ حالٌ مِن أحَدِ الضَّميرينِ؛ المرفوعِ أو المنصوبِ مِن ﴿يُبَصَّرُونَهُمْ﴾، أو استئنافٌ يدُلُّ على أنَّ اشتغالَ كلِّ مُجرِمٍ بنفْسِه بحيثُ يَتمنَّى أنْ يَفتدِيَ بأقرَبِ النَّاسِ إليه، وأعْلَقِهم بقَلْبِه، فَضلًا أنْ يَهتَمَّ بحالِه ويَسألَ عنها(٢).

- والتَّنوينُ في قولِه: ﴿يَوْمِئِذٍ﴾ عِوَضٌ عن جُمَلٍ مَحذوفةٍ، والتَّقديرُ: يوم إذ تكونُ السَّماءُ كالمُهلِ، وتكونُ الجِبالُ كالعِهنِ، ولا يَسألُ حَميمٌ حَميمًا(٣). فـ﴿يَوْمِئِذٍ﴾ هو ﴿يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ﴾؛ فإنْ كان قولُه: ﴿يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ﴾ مُتعلِّقًا بـ﴿يَوَدُّ﴾، فقولُه: ﴿يَوْمِئِذٍ﴾ تأكيدٌ لـ﴿يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ﴾، وإنْ كان مُتعلِّقًا بقولِه: ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ [المعارج: ٤]، فقولُه: ﴿يَوْمِئِذٍ﴾ إفادةٌ لكونِ ذلك اليومِ هو يومَ يَوَدُّ المجرِمُ لو يَفْتدي مِن العذابِ بمَن ذُكِرَ بعْدَه(٤).

- والفَصيلةُ: الأقرباءُ الأدْنَون مِن القَبيلةِ، وهم الأقرباءُ المَفصولُ منهم، أي: المُستخرَجُ منهم؛ فشَمِلَتِ الآباءَ والأُمَّهاتِ؛ فالفصيلةُ دلَّت على الآباءِ باللَّفظِ، وتُستفادُ الأُمَّهاتُ بدَلالةِ لَحنِ الخِطابِ(٥). وقيل: الفصيلةُ هي أُمُّه، ويُفهَمُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٦٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٤٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٣١).

(٣) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٢١٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٦٠).

(٥) لحنُ الخِطابِ: هو أن يكونَ المَسكوتُ عنه موافِقًا للمَنطوقِ في الحُكمِ، ويُسمَّى أيضًا: فَحْوى الخِطابِ. وقيل: إنْ كان أَوْلى بالحُكمِ مِن المنطوقِ به فيُسَمَّى فَحْوى الخِطابِ، وإن كان مساويًا فيُسَمَّى لحنَ الخطابِ. وقيلَ غيرُ ذلك. يُنظر: ((شرح تنقيح الفصول)) للقرافي (ص: ٥٣)، ((نفائس الأصول)) للقرافي (٢/ ٦٤١)، ((المختصر في أصول الفقه)) لابن اللحام (ص: ١٣٢)، ((إرشاد الفحول)) للشوكاني (٢/ ٣٧).

منها الأبُ بطَريقِ لحْنِ الخِطابِ؛ فيَكونُ قدِ استَوفى ذِكرَ أقرَبِ القَرابةِ بالصَّراحةِ والمَفهومِ(١).

- وقد رُتِّبَت الأقرباءُ على حسَبِ شِدَّةِ المَيلِ الطَّبيعيِ في العُرْفِ الغالبِ؛ لأنَّ المَيلَ الطَّبيعيَّ يَنشَأُ عن المُلازَمةِ وكَثرةِ المُخالَطةِ، ولم يُذكَرِ الأبَوانِ لدُخولِهما في الفصيلةِ؛ قَصْدًا للإيجازِ(٢).

فلـمَّا ذكَر ألصقَ النَّاسِ بالفؤادِ، وأعزَّ مَن يلزمُه نصرُه والذَّبُّ عنه؛ أتبعَه ما يَليه في الرُّتبةِ والمودَّةِ، وما الافتداءُ به -لا سيَّما عندَ العربِ- مِن أقبحِ العارِ، فقال: ﴿وَصَٰحِبَتِهِۦ﴾، ولَمَّا ذَكَر الصَّاحِبةَ لِما لها مِن تمامِ الوُصْلةِ؛ أتبَعَها الشَّقيقَ الَّذي لا يَلزَمُ مِنَ الذَّبِّ عنه ما يلزَمُ مِنَ الذَّبِّ عن الحريمِ، ورُبَّما كان مُبايِنًا، ولما كان مَن بقِي مِن الأقاربِ بعدَ ذلك متقاربينَ في الرُّتبةِ؛ ذكَر أقربَهم، فقال: ﴿وَفَصِيلَتِهِ﴾ أي: عشيرتِه، ولما خصَّ هنا عمَّ فقال: ﴿وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعًا﴾(٣).

- وفي قولِه: ﴿يَوَدُّ ٱلۡمُجۡرِمُ لَوۡ يَفۡتَدِي مِنۡ عَذَابِ يَوۡمِئِذِۭ بِبَنِيهِ * وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ * وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِي تُـٔۡوِيهِ﴾ مُناسَبةٌ حسَنةٌ؛ فإنَّه هنا لَمَّا كان السِّياقُ للافتِداءِ، بدَأَ بأعَزِّهم في ذلك، بخِلافِ ما في سُورةِ (عَبَسَ)، فقال: ﴿بِبَنِيهِ﴾؛ لشِدَّةِ ما يَرى. ولَمَّا كانت هذه الآيةُ في الفِديةِ، قدَّمَ الأبعَدَ عن ذلك فالأبعَدَ مِن جِهةِ النَّفعِ والمَعرَّةِ. ولَمَّا كانتْ آيةُ سُورةِ (عَبَسَ) في الفِرارِ والنَّفرةِ، قدَّمَ الألْصَقَ فالألْصَقَ، والأعلَقَ في الأُنسِ فالأعلَقَ(٤).

- والإيواءُ: الضَّمُّ والانحيازُ، و﴿ٱلَّتِي تُـٔۡوِيهِ﴾: إنْ كانت القبيلةَ، فالإيواءُ عُبِّر به

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٦١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣٩٦).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٠/ ٣٩٦، ٣٩٧).

عن الحِمايةِ والنَّصرِ، أي: ومع ذلك يَفْتدي بها؛ لِعلمِه بأنَّها لا تُغْني عنه شيئًا يَومَئذٍ، وإنْ كانت الأُمَّ فالإيواءُ باعتِبارِ الماضي، وصِيغةُ المُضارِعِ لاستِحضارِ الحالةِ، أي: يَوَدُّ لو يَفْتدي بأُمِّه مع شِدَّةِ تَعلُّقِ نفْسِه بها؛ إذ كانت تُؤويه، فإيثارُ لَفظِ (فَصِيلَتِهِ) وفِعلِ ﴿تُـْٔوِيهِ﴾ هنا مِن إيجازِ القرآنِ وإعجازِه؛ لِيَشملَ هذه المعانيَ[١].

- قولُه: ﴿وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا﴾، أي: ومَن له في الأرضِ ممَّا يَعِزُّ عليه مِن أخِلَّاءَ، وقَرابةٍ، ونَفائسِ الأموالِ، ممَّا شأْنُ النَّاسِ الشُّحُّ ببَذْلِه، والرَّغبةُ في استبقائِه، و(مَن) المَوصولةُ لتَغليبِ العاقلِ على غَيرِه؛ لأنَّ منهم الأخِلَّاءَ[٢].

- وحرْفُ (ثُمَّ) في قولِه: ﴿وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا ثُمَّ يُنجِيهِ﴾ للتَّراخي الرُّتبيِّ، أي: يَوَدُّ بَذْلَ ذلك، وأنْ يُنجيَه الفِداءُ مِن العذابِ، فالإنجاءُ مِن العذابِ هو الأهمُّ عندَ المُجرمِ في وِدادتِه[٣]. وقيل: (ثُمَّ) تُفيدُ استبعادَ الإنجاءِ لشِدَّةِ الهَولِ، يعْنى: تَمنَّى لو كان هؤلاء جميعًا تحتَ يَدِه وبَذَلَهم في فِداءِ نفْسِه، ثمَّ يُنجيه ذلك، وهَيهاتَ[٤]!

- والمَعطوفُ بـ(ثُمَّ) هو المُسبَّبُ عن الوِدادةِ، فلذلك كان الظاهرُ أنْ يُعطَفَ بالفاءِ، وهو الأكثرُ في مِثلِه، كقولِه تعالى: ﴿وَدُّواْ لَوۡ تَكۡفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَآءٗ﴾ [النساء: ٨٩]، وقولِه: ﴿وَدُّواْ لَوۡ تُدۡهِنُ فَيُدۡهِنُونَ﴾ [القلم: ٩]، فعُدِلَ عن عطفِه بالفاءِ هنا إلى عطفِه بـ(ثُمَّ)؛ للدَّلالةِ على شِدَّةِ اهتمامِ المُجرمِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٦١، ١٦٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٣١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٦٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٦٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦١٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٤٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٣١)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٢١٢).

بالنَّجاةِ بأيَّةِ وَسيلةٍ[١].

- ومُتعلَّقُ ﴿يُنجِيهِ﴾ مَحذوفٌ، يدُلُّ عليه قولُه: ﴿مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ﴾[٢].

٣- قولُه تعالَى: ﴿كَلَّآ إِنَّهَا لَظَىٰ ۞ نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ ۞ تَدْعُواْ مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ ۞ وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰٓ﴾

- قولُه: ﴿كَلَّآ﴾ حرْفُ رَدْعٍ وإبطالٍ لكلامٍ سابقٍ، ولا يَخْلو مِن أنْ يُذكَرَ بعْدَه كَلامٌ، وهو هنا لإبطالِ ما يُخامِرُ نُفوسَ المُجرِمِ مِن الوِدادةِ، وتَصريحٌ بامتناعِ إنجاءِ الافتداءِ، نُزِّلَ مَنزِلةَ الكلامِ؛ لأنَّ اللهَ مطَّلِعٌ عليه، أو لإبطالِ ما يَتفوَّهُ به مَن تَمنَّى ذلك؛ قال تعالَى: ﴿وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِي كُنتُ تُرَٰبًۢا﴾[٣] [النبأ: ٤٠].

- وجُملةُ ﴿إِنَّهَا لَظَىٰ﴾ استئنافٌ بَيانيٌّ ناشئٌ عمَّا أفادَهُ حرْفُ (كلَّا) مِن الإبطالِ[٤].

- قولُه: ﴿إِنَّهَا لَظَىٰ﴾ الضَّميرُ للنَّارِ، ولم يَجْرِ لها ذِكرٌ؛ لأنَّ ذِكرَ العذابِ دلَّ عليها، أو مُبهَمٌ يُفسِّرُه ﴿لَظَىٰ﴾[٥].

- والمَقصودُ التَّعريضُ بأنَّ النَّارَ أُعِدَّت له، أي: أنَّها تُحرِقُك وتَنزِعُ شَواكَ، وقدْ صُرِّحَ بما وَقَعَ التَّعريضُ به في قولِه: ﴿تَدْعُواْ مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ ۞ وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰٓ﴾ [المعارج: ١٧، ١٨]، أي: تَدْعوك يا مَن أدْبَرَ عن دَعوةِ التَّوحيدِ، وتَولَّى عنها، ولم يَعبأْ إلَّا بجمْعِ المالِ. وحرْفُ (إنَّ) إمَّا للتَّوكيدِ مُتوجِّهًا إلى المعْنى

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٦٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦١٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٤٥)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٧٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٣١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٦٢)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٢١٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٦٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦١٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٤٥)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٧٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٣١، ٣٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٦٣).

التَّعريضيِّ، وإمَّا لمُجرَّدِ الاهتمامِ بالجُملةِ الَّتي بعْدَه؛ لأنَّ الجُمَلَ المُفتتَحة بضَميرِ الشَّأنِ مِن الأخبارِ المُهتَمِّ بها[1].

- والنَّزَّاعةُ: مُبالَغةٌ في النَّزعِ، وهو الفصْلُ والقطْعُ[2].

- قولُه: ﴿نَزَّاعَةً﴾ قُرِئَ ﴿نَزَّاعَةٌ﴾ بالرَّفعِ على التَّهويلِ، أي: هي نَزَّاعةٌ، وقُرِئَ بالنَّصبِ[3] على الحالِ المُؤكِّدةِ، أو المُتنقِّلةِ على أنَّ ﴿لَظَىٰ﴾ بمعنى مُتلظِّية، أو على الاختِصاصِ للتَّهويلِ[4].

- والشَّوى: اسمُ جمْعِ شَوَاةٍ، وهي العضْوُ غيرُ الرَّأسِ، مِثلُ اليدِ والرِّجْلِ؛ فالجمْعُ باعتبارِ ما لكلِّ أحدٍ مِن شَوى. وقيل: الشَّوَاةُ: جِلدةُ الرَّأسِ، فالجمْعُ باعتِبارِ كَثرةِ النَّاسِ[5].

- والإدبارُ: ترْكُ شَيءٍ في جِهةِ الوَراءِ؛ لأنَّ الدُّبُرَ هو الظَّهرُ، فأدْبَر: جَعَل شيئًا وَراءَه بألَّا يُعرِّجَ عليه أصْلًا، أو بأنْ يُقبِلَ عليه ثمَّ يُفارِقَه. والتَّولِّي: الإدبارُ عن شَيءٍ والبُعدُ عنه، وأصْلُه مُشتَقٌّ مِن الوَلايةِ، وهي المُلازَمةِ، ثمَّ قالوا: ولَّى عنه، أرادوا: اتَّخذ غيرَه وليًّا، أي: ترَكَ وَلايتَه إلى ولايةِ غيرِه، ففي التَّولِّي معْنى إيثارِ غيرِ المُتولَّى عنه؛ ولذلك يكونُ بيْن التَّولِّي والإدبارِ فرْقٌ، وباعتبارِ ذلك

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٦٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ١٦٤).

(٣) قرأ حفص ﴿نَزَّاعَةً﴾ بالنَّصبِ، وقرأ الباقونَ بالرَّفعِ. يُنظر: ((النشر في القراءات العشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٩٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦١٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٤٥)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٧٤، ٢٧٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٣٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٦٣)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٢١٢، ٢١٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٦٤).

الفرْقِ عُطِفَ ﴿وَتَوَلَّىٰ﴾ على ﴿أَدْبَرَ﴾، أي: تَدْعو مَن ترَكَ الحقَّ، وتَولَّى عنه إلى الباطلِ. وهذه دَقيقةٌ مِن إعجازِ القُرآنِ؛ بأنْ يكونَ الإدبارُ إدْبارَ غَيرِ تَوَلٍّ، أي: إدبارًا مِن أوَّلِ وَهْلةٍ، ويكونَ التَّولِّي مُرادًا به الإعراضُ بعْدَ مُلابَسةٍ؛ ولذلك يكونُ الإدبارُ مُعبَّرًا به عن عدَمِ قَبولِ القُرآنِ، ونفْيِ استماعِ دَعوةِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وهو حالُ الَّذين قال اللهُ فيهم: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ﴾ [فصلت: ٢٦]، والتَّولِّي مُعبَّرًا به عن الإعراضِ عن القُرآنِ بعْدَ سَماعِه، وللنُّفورِ عن دَعوةِ الرَّسولِ، كما قال تعالَى: ﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا قَالُواْ قَدۡ سَمِعۡنَا لَوۡ نَشَآءُ لَقُلۡنَا مِثۡلَ هَٰذَآ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ [الأنفال: ٣١]، وكِلا الحالَينِ حالُ كفْرٍ، ومُحِقَّةٌ للعِقابِ، وهما مُجتَمِعَتانِ في جَميعِ المُشرِكين، والمقصودُ مِن ذِكرِهما معًا تَفظيعُ أصحابِهما[١].

- يجوزُ أن يكونَ متعلَّقُ ﴿أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ﴾ متحدًا يَتنازَعُه كِلا الفِعلَينِ، ويُقدَّرُ بنحوِ: عن الحقِّ؛ إذ العِبرةُ باختلافِ معنيَيِ الفِعلَينِ، وإن كان متعلَّقُهما متَّحدًا. ويجوزُ أن يُقدَّرَ لكلِّ فعلٍ متعلَّقٌ هو أشدُّ مُناسَبةً لمعناه، فقيل: أدبَرَ عن الحقِّ، وتولَّى عن الطَّاعةِ، أي: لم يَقبَلِ الحقَّ، وهو الإيمانُ مِن أصلِه، وأعرَضَ عن طاعةِ الرَّسولِ بعدَ سماعِ دعوتِه. وقيل عكسُه: أدبَرَ عن طاعةِ اللهِ، وتولَّى عن كتابِ اللهِ[٢].

- والجمْعُ والإيعاءُ في قولِه: ﴿وَجَمَعَ فَأَوۡعَىٰٓ﴾ مُرتَّبٌ ثانِيهما على أوَّلِهما، فيدُلُّ تَرتُّبُ الثَّاني على الأوَّلِ أنَّ مَفعولَ (جَمَعَ) المحذوفَ هو شَيءٌ ممَّا يُوعَى، أي:

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٦٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

يُجعَلُ في وِعاءٍ[١].

- وقيل: ﴿وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰٓ﴾، أي: كان جَموعًا للخَبيثِ، فيُقدَّرُ لـ (جَمَعَ) مَفعولٌ يدُلُّ عليه السِّياقُ، أي: وزادَ على إدبارِه وتَولِّيه أنَّه جَمَع الخبائثَ، وعليه يكونُ ﴿فَأَوْعَىٰٓ﴾ مُعبَّرًا به عن مُلازَمتِه ما فيه مِن خِصالِ الخَبائثِ واستِمرارِه عليها، فكأنَّها مُختزَنةٌ لا يُفرِّطُ فيها[٢].



(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٦٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الآيات (١٩-٣٥)

﴿ ۞ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾
إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّآئِلِ
وَٱلْمَحْرُومِ ﴿٢٥﴾ وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٢٦﴾ وَٱلَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٢٧﴾ إِنَّ عَذَابَ
رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ﴿٢٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ﴿٢٩﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ
غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٣٠﴾ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴿٣١﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٣٢﴾
وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَٰدَٰتِهِمْ قَآئِمُونَ ﴿٣٣﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٣٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى جَنَّٰتٍ مُّكْرَمُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿هَلُوعًا﴾: أي: شَديدَ الحِرصِ، قَليلَ الصَّبرِ، والهَلَعُ: جَزَعٌ واضطِرابٌ يَعتَري الإنسانَ عِندَ المَخاوِفِ وعندَ المَطامِعِ، وأصلُ (هلع): يدُلُّ على سُرعةٍ وحِدَّةٍ[١].

﴿جَزُوعًا﴾: أي: كثيرَ الجَزَعِ، والجَزَعُ: نَقيضُ الصَّبرِ، وهو انقِطاعُ القُوَّةِ عن حَملِ ما نزَلَ، وأصلُ (جزع): يدُلُّ على انقِطاعٍ[٢].

﴿بِيَوْمِ ٱلدِّينِ﴾: أي: يومِ الجزاءِ والحسابِ، وهو يومُ القيامةِ، يُقالُ: دِنْتُه بما صَنَع، أي: جازيتُه، وأصلُ (دين) جِنْسٌ مِن الانْقِيادِ، والذُّلِّ[٣].

﴿مُّشْفِقُونَ﴾: أي: خائِفونَ حَذِرونَ، وأصلُ (شفق): يدُلُّ على رِقَّةٍ في الشَّيءِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ٦٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٦٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٢٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٦٣).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤٥٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣٥٨).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٨)، ((مجاز القرآن)) لأبي عبيدة (١/ ٢٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣١٩)، ((البسيط)) للواحدي (٢٢/ ٤٥٦)، ((المفردات في غريب القرآن)) للراغب (ص: ٣٢٣).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٨٥)، ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٥٣)، ((غريب =

﴿ٱلْعَادُونَ﴾: أي: المُعْتَدونَ المُجاوِزونَ ما أحَلَّ اللهُ لهم إلى ما حَرَّمَ عليهم، وأصلُ (عدو): يدُلُّ على تَجاوُزٍ في الشَّيءِ وتقَدُّمٍ لِما ينبغي أن يُقتَصَرَ عليه(١).

مُشكِلُ الإعرابِ:

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا * إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا * وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا﴾

قوله تعالى: ﴿جَزُوعًا﴾ و﴿مَنُوعًا﴾ في نَصبِهما وَجهانِ؛ أحدُهما: أنَّهما مَنصوبانِ على الحالِ مِنَ الضَّميرِ في ﴿هَلُوعًا﴾، وهو العامِلُ فيهما، والتَّقديرُ: هَلُوعًا حالَ كونِه جَزُوعًا وقتَ مَسِّ الشَّرِّ، ومَنوعًا وقتَ مسِّ الخَيرِ. والظَّرفانِ مَعمولانِ لهاتَيْن الحالَيْنِ. الثَّاني: أنْ يَكونا خبَرَينِ لـ «كان» أو «صار» مُضمَرةً، أي: إذا مَسَّه الشَّرُّ كان أو صار جَزوعًا، وإذا مَسَّه الخيرُ كان أو صار مَنوعًا(٢).

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ الله تعالى مُبيِّنًا طبائِعَ النَّفْسِ البَشَريَّةِ، وما جُبِلت عليه: إنَّ الإنسانَ طُبِعَ على شدَّةِ الحِرصِ؛ إذا أصابه بلاءٌ جَزِعَ ولم يَصبِرْ، وإذا أصابه الخَيرُ بَخِلَ بمالِه، ومَنَعَه عن المحتاجينَ، إلَّا المصَلِّينَ؛ فهم صابِرونَ في الضَّرَّاءِ، شاكِرونَ في السَّرَّاءِ.

ثمَّ يَصِفُ اللهُ تعالى هؤلاء المصلِّينَ -الَّذين اسْتَثْناهم- ببعضِ الصِّفاتِ، فيقولُ:

= القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٤٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٩٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٣٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٩٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٧٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ١٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٢٤٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٠٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٦٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٦٥٩).

(٢) يُنظر: ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (٢/ ١٢٤٠)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (١٠/ ٤٥٩)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٧٠)، ((الجدول في إعراب القرآن)) لمحمود صافي (٢٩/ ٨٣).

أولئك المصَلُّونَ هم الَّذين يُواظِبونَ على أداءِ صَلَواتِهم.

والَّذين في أموالِهم نَصيبٌ معلومٌ للسَّائِلِ، والمتعفِّفِ الَّذي لا يَسألُ.

والَّذين يُصَدِّقونَ بمَجيءِ يومِ الحِسابِ والجَزاءِ.

والَّذين هم مِن عَذابِ رَبِّهم وَجِلُونَ حَذِرونَ؛ إنَّ عذابَ اللهِ غيرُ مأمونٍ لأحَدٍ.

والَّذين هم صائِنونَ لِفُروجِهم ممَّا حرَّمه اللهُ تعالى، إلَّا مِن زَوجاتِهم أو مِن إمائِهم اللَّاتي يَملِكونَهنَّ؛ فإنَّهم لا يُلامُونَ على وَطْئِهنَّ على الوَّجهِ المَشروعِ، فمَنِ التَمَس التَّمَتُّعَ بفَرْجِه فيما سِوى زَوجتِه وأمَتِه، فأولئك هم المُعتَدونَ حُدودَ اللهِ، المُجاوِزونَ ما أحلَّه لهم إلى ما حرَّمَه عليهم.

والَّذين هم لِأماناتِهم ولعُهودِهم مع اللهِ وعِبادِه: مُراعونَ قائِمونَ بحِفظِها.

والَّذين هم قائِمونَ بأداءِ الشَّهادةِ المطلوبةِ منهم دونَ تبديلٍ أو كِتمانٍ.

والَّذين هم يُحافِظونَ على أداءِ صَلاتِهم وإقامتِها؛ أولئِك المتَّصِفونَ بتلك الصِّفاتِ في جنَّاتٍ يُكرِمُهم اللهُ تعالى فيها بأنواعِ الكَراماتِ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ١٩﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان مِن أعجَبِ العجَبِ أنْ يُقبِلَ على الدُّنيا أحدٌ يَسمَعُ التَّهديدَ بالعرْضِ بيْن يَدَيِ اللهِ، والعِقابَ لِمَن لم يُقبِلْ على عِبادتِه سُبحانَه؛ بيَّنَ أنَّ ذلك لِما جَبَلَه عليه سُبحانَه، وأنَّ الإنسانَ مَقهورٌ مع جِبِلَّتِه، إلَّا مَن حَفِظَه اللهُ[١].

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٤٠٠).

﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ۝١٩﴾.

أي: طُبِعَ النَّاسُ ورُكِّبوا على شدَّةِ الحِرصِ الَّذي يترتَّبُ عليه الجزَعُ والمنْعُ، فلا يَشكُرونَ اللهَ على النَّعْماءِ، ولا يَصبِرونَ على الضَّرَّاءِ(١).

عن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: سَمِعتُ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم

(١) يُنظر: ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي بن أبي طالب (١٢/ ٧٧١٢)، ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٦٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٢٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٤٠٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٦٦-١٦٨).

وممَّن قال في الجملةِ بأنَّ المرادَ: جِنسُ الإنسانِ بوَصفِ طبيعتِه الأصليَّةِ: النَّسَفي، وابنُ جُزَي، وابن كثير، والبِقاعي، والسعدي، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير النسفي)) (٣/ ٥٣٨)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤١١)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٢٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٤٠٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٦٦).

وقيل: المرادُ بالإنسانِ هنا: الكافِرُ. وممَّن ذهب إلى هذا: ابنُ جرير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٦٦). ويُنظر أيضًا: ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٨٩).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: الضَّحَّاكُ، والكلبيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٦٦)، ((تفسير الماوردي)) (٦/ ٩٤).

قال ابنُ عطيَّةَ: (وقولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ﴾ عُمومٌ لاسمِ الجِنسِ، لكنَّ الإشارةَ هنا إلى الكُفَّارِ؛ لأنَّ الأمْرَ فيهم وَكيدٌ كَثيرٌ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٦٨).

وقال ابن عاشور: (الَّذي استخلَصْتُه مِن تتَبُّعِ استعمالاتِ كَلِمةِ الهَلَعِ: أنَّ الهَلَعَ قِلَّةُ إمساكِ النَّفْسِ عندَ اعتراءِ ما يَحزُنُها أو ما يَسُرُّها، أو عندَ توَقُّعِ ذلك والإشفاقِ منه، وأمَّا الجزَعُ فمِن آثارِ الهلَعِ، وقد فَسَّر بعضُ أهلِ اللُّغةِ الهَلَعَ بالشَّرَهِ، وبعضُهم بالضَّجَرِ، وبَعضُهم بالشُّحِّ، وبعضُهم بالجُوعِ، وبعضُهم بالجُبنِ عندَ اللِّقاءِ، وما ذكَرْناه في ضَبطِه يجمَعُ هذه المعانيَ، ويُريك أنَّها آثارٌ لِصفةِ الهلَعِ. ومعنى ﴿خُلِقَ هَلُوعًا﴾: أنَّ الهلَعَ طَبيعةٌ كامِنةٌ فيه معَ خَلْقِه، تظهَرُ عندَ ابتداءِ شُعورِه بالنَّافِعِ والضَّارِّ؛ فهو مِن طِباعِه المخلوقةِ كغَيرِها مِن طِباعِه البَشَريَّةِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٦٧، ١٦٨).

وقال الرَّسْعَني: (قال المفسِّرون: ما بَعْدَ الهلوعِ تفسيرٌ له). ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٢٨٤).

يقولُ: ((شَرُّ ما في رجُلٍ: شُحٌّ هالِعٌ، وجُبنٌ خالِعٌ[(١)]))[(٢)].

وعن عَمرِو بنِ تَغلِبَ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((إنِّي أُعطي الرَّجُلَ، وأدَعُ الرَّجُلَ، والَّذي أدَعُ أحَبُّ إليَّ مِن الَّذي أُعطِي؛ أُعطي أقوامًا لِما في قُلوبِهم مِنَ الجَزَعِ والهَلَعِ، وأَكِلُ أقوامًا إلى ما جَعَل اللهُ في قُلوبِهم مِنَ الغِنى والخَيرِ))[(٣)].

﴿إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾﴾.

أي: إذا أصاب الإنسانَ بلاءٌ -كفَقرٍ، أو مَرَضٍ، أو فَقْدِ حَبيبٍ- فإنَّه يَجزَعُ بشِدَّةٍ، ولا يَصبِرُ[(٤)].

﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾﴾.

أي: وإذا أصاب الإنسانَ خَيرٌ ونِعمةٌ، فصار غَنِيًّا كَثيرَ المالِ؛ فإنَّه يَغْدُو شديدَ البُخلِ بمالِه، فلا يُنفِقُه في طاعةِ اللهِ، ولا يُعطي منه ذَوِي الحاجةِ مِن عِبادِ اللهِ[(٥)].

﴿إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾﴾.

---

(١) الجُبْنُ الخالعُ: هو الشَّديدُ، كأنَّه يَخلَعُ قلبَه مِن شِدَّةِ خَوفِه، والمرادُ به: ما يَعرِضُ مِن نَوازِعِ الأفكارِ، وضَعفِ القلبِ عندَ الخَوفِ. يُنظر: ((غريب الحديث)) للقاسم بن سلَّام (٢/ ٦٥١)، ((النهاية في غريب الحديث والأثر)) لابن الأثير (٢/ ٦٥).

(٢) أخرجه أبو داودَ (٢٥١١)، وأحمدُ (٨٠١٠)، وابن حبَّانَ (٣٢٥٠).
صحَّحه ابنُ تيميَّةَ في ((مجموع الفتاوى)) (٢٨/ ٤٣٧)، والألبانيُّ في ((صحيح سنن أبي داود)) (٢٥١١)، وشعيبٌ الأرناؤوط في تخريج ((سنن أبي داود)) (٢٥١١).

(٣) رواه البخاري (٧٥٣٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٦٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٤٠١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٧٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٦٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٩٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٧).

أي: إلَّا المصَلِّينَ المتَّصِفينَ بالأوصافِ الآتيةِ، فليسوا كذلك؛ فهم صابِرونَ في الضَّرَّاءِ، شاكِرونَ في السَّرَّاءِ[١].

﴿ٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ دَآئِمُونَ ٢٣﴾.

أي: الَّذين يُواظِبونَ على أداءِ صَلَواتِهم المفروضةِ على الوَجهِ الصَّحيحِ، فلا يتخَلَّفونَ عنها، ولا يَترُكونَها[٢].

﴿وَٱلَّذِينَ فِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ مَّعۡلُومٞ ٢٤﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذكَرَ زكاةَ الرُّوحِ، أتْبَعَه زكاةَ عَديلِها؛ المالِ[٣].

﴿وَٱلَّذِينَ فِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ مَّعۡلُومٞ ٢٤﴾.

أي: والَّذين في أموالِهم نَصيبٌ معلومٌ لِذَوي الحاجةِ[٤].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٦٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٤٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٢٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٦٧)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٥/ ٢٢٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٩١، ٢٩٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٢٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٤٠٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٧١).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٤٠٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٦٩)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦١٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٧).

قيل: الحَقُّ المعلومُ في الآية هو الزَّكاةُ المفروضةُ. وممَّن ذهب إلى هذا القولِ: ابنُ جرير، والواحديُّ، والقرطبي، واستظهره الشوكاني، واختاره العُلَيمي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٦٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٥٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٩١)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٥٠)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ١٦١).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلَفِ: قَتادةُ، والحَسَنُ في روايةٍ، والكلبيُّ، وابنُ سِيرينَ. يُنظر: =

﴿ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ٢٥ ﴾.

أي: في أموالِهم حقٌّ معلومٌ للسَّائِلِ الَّذي يَسأَلُ النَّاسَ الصَّدَقاتِ، والمتعفِّفِ الَّذي لا يَسأَلُ النَّاسَ رَغمَ حاجتِه وفَقْرِه الشَّديدِ[1].

= ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٧٠)، ((البسيط)) للواحدي (٢٢/ ٢٢٨).

قال ابنُ جرير في تفسير قولِه تعالى: ﴿حَقٌّ مَّعْلُومٌ﴾: (حَقٌّ مُؤَقَّتٌ). ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٦٩).

وقال القرطبي: (وصَفَ الحقَّ بأنَّه معلومٌ، وسِوى الزَّكاةِ ليس بمعلومٍ، إنَّما هو على قَدرِ الحاجةِ، وذلك يَقِلُّ ويَكثُرُ). ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٩١). ويُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦١٣).

وقيل: الحَقُّ المعلومُ في الآيةِ ما سِوى الزَّكاةِ؛ لأنَّ الآيةَ مَكِّيَّةٌ، فنُزولُها قبْلَ فَرضِ مَقاديرِ الزَّكاةِ. وممَّن ذهب إلى هذا القولِ في الجملةِ: ابنُ عطيَّة، والألوسيُّ، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٦٨)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٧١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٧٢).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عُمَرَ، وابنُ عبَّاسٍ، والشَّعبيُّ، وإبراهيمُ النخعي في روايةٍ، ومجاهِدٌ، وعَطاءٌ، والحسَنُ في روايةٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٧٠)، ((البسيط)) للواحدي (٢٢/ ٢٢٨).

قال ابن عطيَّة: (قال الحسَنُ، ومجاهدٌ، وابنُ عبَّاسٍ: هذه الآيةُ في الحقوقِ الَّتي في المالِ سِوى الزَّكاةِ، وهي ما نَدَبَت الشَّريعةُ إليه مِن المواساةِ، وقد قال ابنُ عُمَرَ، ومجاهِدٌ، والشَّعبيُّ، وكثيرٌ مِن أهلِ العِلمِ: إنَّ في المالِ حَقًّا سِوى الزَّكاةِ، وهذا هو الأصَحُّ في هذه الآيةِ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٦٨).

وقال الألوسي: (﴿وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ﴾، أي: نَصيبٌ مُعَيَّنٌ يَستوجبونَه على أنفُسِهم؛ تقَرُّبًا إلى اللهِ تعالى، وإشفاقًا على النَّاسِ، وهو... ما يُوظِّفُه الرَّجُلُ على نفْسِه يؤدِّيه في كلِّ جُمُعةٍ أو كُلِّ شَهرٍ مَثَلًا). ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٧١).

وقال ابن عاشور: (معنى كونِ الحَقِّ مَعلومًا أنَّه يَعلَمُه كُلُّ واحدٍ منهم، ويَحسِبونَه، ويَعلَمُه السَّائلُ والمحرومُ بما اعتاد منهم). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٧٢).

وقيل: الحقُّ المعلومُ أي: مِن الزَّكَواتِ والصَّدَقاتِ الموَظَّفةِ. وممَّن قال بذلك في الجملةِ: البيضاويُّ، والسعديُّ. يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٤٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٦٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٤٠٣، ٤٠٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٧٢). =

﴿وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ ﴿٢٦﴾﴾.

أي: والَّذين يُقِرُّونَ بمَجيءِ يومِ القيامةِ الَّذي يقَعُ فيه الحِسابُ والجَزاءُ[1].

﴿وَالَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٢٧﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان الدِّينُ معْناه الجزاءُ مِن الثَّوابِ والعِقابِ، وكان رُبَّما صَرَفه صارفٌ إلى الثَّوابِ فقطْ -للعِلمِ بعُمومِ رَحمتِه سُبحانه، وأنَّ رَحمتَه غَلَبَت غَضَبَه-؛ صرَّحَ بالعِقابِ[2].

= وممَّن قال بهذا المعنى للسَّائلِ والمحرومِ: ابنُ جرير، والبِقاعي، والسعديُّ، وابنُ عاشور. يُنظر: المصادر السابقة.

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: قَتادةُ، والحسَنُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٧٥)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ٢٨٥).

قال ابن جرير: (وهو الزَّكاةُ لِلسَّائلِ الَّذي يَسألُه مِن مالِه، والمحرومِ الَّذي قد حُرِمَ الغِنَى، فهو فقيرٌ لا يَسألُ... وأجْمَعوا على أنَّ السَّائلَ هو الَّذي وصفْتُ صِفتَه، واختَلَفوا... في معنَى المحرومِ في هذا الموضعِ). ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٦٩، ٢٧١).

وقال ابنُ عطيَّةَ: (السَّائلُ: المتكفِّفُ، والمحرومُ: الَّذي قد ثَبَتَ فَقْرُه، ولم تَنجَحْ سِعاياتُه لدُنياهُ، قالت عائشةُ: هو الَّذي لا يَكادُ يَتيسَّرُ له مَكسَبُه. وقال بعضُ أهلِ العِلمِ: المحرومُ: مَن احتَرقَ زَرعُه. وقال بعضُهم: المحرومُ: مَن ماتَتْ ماشيتُه. وهذه أنواعُ الحِرمانِ؛ لا أنَّ الاسمَ يَستلزِمُ هذا خاصَّةً. وقال عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ: المحرومُ: الكلْبُ. أراد -واللهُ أعلمُ- أنْ يُعطِيَ مِثالًا مِن الحيوانِ ذي الكَبِدِ الرَّطْبةِ؛ لِما فيه مِن الأجْرِ حسَبَ الحديثِ المأثورِ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٦٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٧٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٩١)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٢٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٤٠٤، ٤٠٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٧٢).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٤٠٥).

﴿وَٱلَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ٢٧﴾.

أي: والَّذين هم مِن عَذابِ ربِّهم وَجِلُونَ حَذِرونَ؛ فهم لذلك حَريصونَ على امتِثالِ أوامِرِ اللهِ تعالى، واجتِنابِ نَواهيه(١).

كما قال تبارك وتعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٠].

وقال سبحانه: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ * قَالُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِىٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ * فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ﴾ [الطور: ٢٥ - ٢٧].

﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ٢٨﴾.

أي: إنَّ عذابَ اللهِ غيرُ مأمونٍ لأحَدٍ؛ فوَجَب الخَوفُ والحَذَرُ منه، بتَركِ مُخالَفةِ أمرِ اللهِ ونَهْيِه(٢).

كما قال تعالى: ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ [السجدة: ١٦].

﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ٢٩﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَر التَّحَلِّيَ بتَطهيرِ النَّفْسِ بالصَّلاةِ، وتزكيةِ المالِ بالصَّدَقةِ؛ نَدَب إلى

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٧٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٩١)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٢٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٤٠٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٧٢).

والعذابُ هنا: قيل هو عذابُ الآخرةِ. وممَّن قال بذلك: ابنُ جرير، ومكِّي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٧٦)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٢/ ٧٧١٦).

وقال البقاعي: (خائفونَ في هذه الدَّارِ خَوفًا عَظيمًا هو في غايةِ الثَّباتِ مِن أنْ يُعذِّبَهم في الآخرةِ، أو الدُّنيا، أو فيهما). ((نظم الدرر)) (٢٠/ ٤٠٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٧٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٢٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٤٠٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٧٣).

التَّخَلِّي عن أمرٍ جامِعٍ بيْنَ تدنيسِ المالِ والنَّفْسِ، وهو الزِّنا الحامِلُ عليه شَهوةُ الفَرجِ، الَّتي هي أعظَمُ الشَّهَواتِ حملًا للنَّفْسِ على المُهلِكاتِ[1].

﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِفُرُوجِهِمۡ حَٰفِظُونَ ٢٩﴾.

أي: والَّذين هم صائِنونَ لِفُروجِهم من كُلِّ ما حرَّمه اللهُ تعالى عليهم بشَأنِها[2].

﴿إِلَّا عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ فَإِنَّهُمۡ غَيۡرُ مَلُومِينَ ٣٠﴾.

أي: هم يَحفَظونَ فُروجَهم إلَّا مِن زَوجاتِهم أو مِن إمائِهم اللَّاتي يَملِكونَهنَّ، فلا حَرَجَ عليهم في وَطْئِهنَّ، والاستِمتاعِ بهِنَّ على الوَجهِ المشروعِ، ولا يُلامُون على ذلك[3].

﴿فَمَنِ ٱبۡتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡعَادُونَ ٣١﴾.

أي: فمَن طَلَب الاستِمتاعَ بغَيرِ زَوجتِه وجاريتِه فهم المُعتَدونَ، المُجاوِزونَ ما أحلَّه اللهُ تعالى إلى ما حَرَّمه[4].

﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِأَمَٰنَٰتِهِمۡ وَعَهۡدِهِمۡ رَٰعُونَ ٣٢﴾.

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٤٠٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٧٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٢٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٤٠٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٣).

قال السعدي: (فلا يَطَؤونَ بها وطْأً مُحَرَّمًا؛ مِن زِنًا، أو لِواطٍ، أو وَطءٍ في دُبُرٍ أو حَيضٍ، ونحوِ ذلك، ويحفَظونَها أيضًا مِن النَّظَرِ إليها ومَسِّها ممَّن لا يجوزُ له ذلك، ويَترُكونَ أيضًا وسائِلَ المحرَّماتِ الدَّاعيةَ لِفِعلِ الفاحِشةِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٧٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٦٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٤٠٦، ٤٠٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٧٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٦٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٦٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٤٠٧، ٤٠٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٧).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَرَ اللهُ تَعالى العادِيَ؛ أتْبَعه الواقِفَ عندَ الحُدودِ[١].

وأيضًا ذِكرُ رَعْيِ الأماناتِ والعهْدِ لمُناسَبةِ وَصْفِ ما يَوَدُّ الكافِرُ يومَ الجزاءِ أنْ يَفتدِيَه مِن العذابِ بفَصيلَتِه الَّتي تُؤْويهِ، فيَذهَبُ منه رَعْيُ العُهودِ الَّتي يَجِبُ الوفاءُ بها للقَبيلةِ، وحسْبُك مِن تَشويهِ حالِه أنَّه قدْ نَكَثَ العُهودَ الَّتي كانت عليه لقَومِه مِن الدِّفاعِ عن حَقيقتِهم بنفْسِه، وكان يَفدِيهم بنفْسِه، والمُسلِمُ لَمَّا كان يَرْعى العهدَ بما يُمْليه عليه دِينُه، جازاهُ اللهُ بأنْ دَفَعَ عنه خِزْيَ وِدادةِ فِدائِه نفْسَه بمَواليه وأهلِ عَهْدِه[٢].

﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِأَمَٰنَٰتِهِمۡ وَعَهۡدِهِمۡ رَٰعُونَ ٣٢﴾.

أي: والَّذين هم لِمَا ائْتَمَنَهم اللهُ والنَّاسُ عليه، ولعُهودِهم مع اللهِ وعِبادِه: مُراعونَ قائِمونَ بحِفظِها، فلا يَخونونَ الأماناتِ، ولا يَنقُضونَ العُهودَ[٣].

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا﴾ [النساء: ٥٨].

وقال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِ﴾ [المائدة: ١].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمۡ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٢٧].

﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَٰدَٰتِهِمۡ قَآئِمُونَ ٣٣﴾.

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٤٠٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٧٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٧٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٦٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٩٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٢٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٤٠٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٧).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لما كان أجلُّ العهودِ والأماناتِ ما كان بإشهادٍ؛ بيَّن فضلَ الشَّهادةِ(١).

وأيضًا ذُكِرَ لمُناسَبةِ ذِكرِ رَعْيِ الأماناتِ؛ إذ الشَّهادةُ مِن جُملةِ الأماناتِ؛ لأنَّ حقَّ المَشهودِ له وَديعةٌ في حِفظِ الشَّاهدِ، فإذا أدَّى شَهادتَه فكأنَّه أدَّى أمانةً لصاحبِ الحقِّ المشهودِ له كانت في حِفظِ الشَّاهدِ(٢).

﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَٰدَٰتِهِمۡ قَآئِمُونَ ٣٣﴾.

أي: والَّذين هم قائمونَ بأداءِ الشَّهادةِ المطلوبةِ منهم شَرعًا، ولو على أقارِبِهم، فيَتحَمَّلونَها، ويهتَمُّونَ بها، ويَحفَظونَها حتَّى يؤَدُّوها في غايةِ التَّمامِ دونَ زيادةٍ أو نُقصانٍ، ودونَ تبديلٍ أو كِتمانٍ(٣).

كما قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَكۡتُمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَۚ وَمَن يَكۡتُمۡهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٞ قَلۡبُهُۥ﴾ [البقرة: ٢٨٣].

وقال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلۡقِسۡطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ أَوِ ٱلۡوَٰلِدَيۡنِ وَٱلۡأَقۡرَبِينَۚ إِن يَكُنۡ غَنِيًّا أَوۡ فَقِيرٗا فَٱللَّهُ أَوۡلَىٰ بِهِمَاۖ فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلۡهَوَىٰٓ أَن تَعۡدِلُواْۚ وَإِن تَلۡوُۥٓاْ أَوۡ تُعۡرِضُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا﴾ [النساء: ١٣٥].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَشۡهَدُونَ ٱلزُّورَ﴾ [الفرقان: ٧٢].

وقال تبارك وتعالى: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِ﴾ [الطلاق: ٢].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٤٠٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦١٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٣٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٧٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٧٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٦٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٩١، ٢٩٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٢٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٤٠٨، ٤٠٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٧٤).

وعن زَيدِ بنِ خالدٍ الجُهَنيِّ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((ألَا أُخبِرُكم بخَيرِ الشُّهَداءِ؟ الَّذي يأتي بشَهادتِه قبل أن يُسأَلَها))[١].

﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٣٤﴾﴾.

أي: والَّذين هم يُحافِظونَ على أداءِ صَلاتِهم، وإقامتِها على الوَجهِ الصَّحيحِ المطلوبِ منهم شَرْعًا[٢].

﴿أُولَٰئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُّكْرَمُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا أُجريَت على المؤمِنينَ هذه الصِّفاتُ الجليلةُ؛ أخبَرَ عن جزائِهم عليها، بأنَّهم مُكْرَمونَ في الجنَّةِ[٣].

﴿أُولَٰئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُّكْرَمُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

أي: أولئِك المتَّصِفونَ بتلك الصِّفاتِ: في جنَّاتٍ يُكرِمُهم اللهُ تعالى فيها بأنواعِ الكَراماتِ، وأصنافِ المَسَرَّاتِ[٤].

كما قال تعالى: ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ * أُولَٰئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ * فَوَاكِهُ ۖ وَهُم مُّكْرَمُونَ * فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ * عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ * يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ * بَيْضَاءَ لَذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ

(١) رواه مسلم (١٧١٩). ويُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (٥/ ٢٥٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٧٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٧٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٧٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٧٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٩٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٧)

وقال ابنُ عاشور: (الإكرامُ: التَّعظيمُ وحُسنُ اللِّقاءِ، أي: هم مع جزائِهم بنَعيمِ الجنَّاتِ، يُكرَمونَ بحُسنِ اللِّقاءِ والثَّناءِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٧٥).

* لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ * وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ عِينٌ * كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴾ [الصافات: ٤٠ - ٤٩].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا﴾ أي: مُبالِغًا في الإمساكِ عمَّا يَلزَمُه مِنَ الحُقوقِ؛ للانهماكِ في حُبِّ العاجِلِ، وقُصورِ النَّظَرِ عليه، وُقوفًا مع المحسوسِ؛ لغَلَبةِ الجُمودِ والبَلادةِ، وهذا الوَصفُ ضِدُّ الإيمانِ؛ لأنَّ الإيمانَ نِصفانِ: صَبرٌ، وشُكرٌ[1].

٢- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا﴾، و﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ * أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾ [العلق: ٦، ٧]، و ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم: ٣٤]، و ﴿وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: ٧٢]، ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ﴾ [العاديات: ٦] الإنسانُ هنا هو الإنسانُ مِن حيثُ هو، مِن غيرِ اخْتِصاصٍ بواحِدٍ بعَيْنِه، فهذا شأنُ الإنسانِ مِن حيثُ ذاتُه ونفْسُه، وخروجُه عن هذه الصِّفاتِ بفضلِ ربِّه وتوفيقِه له ومِنَّتِه عليه، لا مِن ذاتِه، فليس له مِن ذاتِه إلَّا هذه الصِّفاتُ، وما به مِن نِعمةٍ فمِنَ اللهِ وحْدَه، فهو الَّذي حبَّب إلى عبدِه الإيمانَ وزَيَّنَه في قلبِه، وكَرَّهَ إليه الكفرَ والفُسوقَ والعِصيانَ، وهو الَّذي كتَب في قلبِه الإيمانَ، وهو الَّذي يُثَبِّتُ أنبياءَه ورُسُلَه وأولياءَه على دينِه، وهو الَّذي يَصرِفُ عنهم السُّوءَ والفَحْشاءَ؛ قال تعالَى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ١٠٠]، وقال تعالَى: ﴿وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [المدثر: ٥٦]، ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [التكوير: ٢٩]، فهو رَبُّ جميعِ العالَمِ رُبوبيَّةً شامِلةً لجميعِ ما في

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٤٠١).

العالَمِ مِن ذَواتٍ وأفعالٍ وأحوالٍ(١).

٣- قَولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا * إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا * وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا * إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ﴾ ذكَرَ اللهُ تعالى هذه الأخلاقَ على وَجهِ الذَّمِّ، واستثنَى منهم المصَلِّينَ؛ لأنَّ صَلاتَهم تَحمِلُهم على قِلَّةِ الاكتِراثِ بالدُّنيا، فلا يَجزَعونَ مِن شَرِّها، ولا يَبخَلونَ بخَيرِها(٢).

٤- قال تعالى: ﴿وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰٓ * إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا﴾ وإذْ ذَكَر اللهُ الهَلَعَ هنا عَقِبَ مَذمَّةِ الجمْعِ والإيعاءِ، فقدْ أشعَرَ بأنَّ الإنسانَ يَستطيعُ أنْ يَكُفَّ عن هَلَعِه إذا تَدبَّرَ في العواقِبِ(٣).

٥- في قَولِه تعالى: ﴿إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ * ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ﴾ إلى قولِه: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ ذَكَرَ اللهُ تعالى الصَّلاةَ في أوَّلِ الأوصافِ الحَميدةِ وفي آخِرِها، وبهذا يُعْرَفُ أنَّ الصَّلاةَ أعظمُ الأعمالِ بعدَ شهادةِ أنْ لا إلهَ إلَّا اللهُ، وأنَّ محمَّدًا رَسولُ اللهِ(٤)، وأنَّ الصَّلاةَ أصْلٌ لكُلِّ خيرٍ، ومَبدَأٌ لهذا المذكورِ كُلِّه؛ لِقَولِه تبارك وتعالى: ﴿وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٥]؛ فهي عَونٌ على كُلِّ خيرٍ(٥).

٦- قَولُه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ﴾ فيه إشارةٌ إلى فضلِ المداومةِ على العِبادةِ(٦).

---

(١) يُنظر: ((الروح)) لابن القيم (ص: ١٢٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤١١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٦٨).

(٤) يُنظر: ((شرح رياض الصالحين)) لابن عثيمين (٥/ ٨٤).

(٥) يُنظر: ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٨/ ٢٦٩).

(٦) يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٧٠).

٧- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ * لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾ فيه حَثٌّ على تفَقُّدِ أربابِ الضَّروراتِ مِمَّن لا كسْبَ له، ومَنِ افتَقَر بعدَ الغِنى(١).

٨- في قَولِه تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ﴾ الثَّناءُ على مَن خاف مِن عذابِ اللهِ؛ لأنَّ مَن خاف مِن شيءٍ اتَّقاه، فإذا خاف مِن عذابِ اللهِ فلا بُدَّ أنْ يَتَّقيَ أسبابَ العَذابِ(٢).

٩- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ * إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ﴾ أي: لا يَنبغي لأحَدٍ أنْ يأمَنَه، بل يجوزُ أن يَحُلَّ به(٣)، وإنْ بالَغَ في الطَّاعةِ(٤).

١٠- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ﴾ فيه وُجوبُ أداءِ كُلِّ أمانةٍ، والوفاءِ بكُلِّ عَهدٍ، والقيامِ بكُلِّ شَهادةٍ تحَمَّلَها الإنسانُ(٥).

١١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ فيه ثَناءٌ عليهم بعنايتِهم بالصَّلاةِ مِن أن يَعتَريَها شَيءٌ يُخِلُّ بكَمالِها؛ فالمحافظةُ راجعةٌ إلى استِكمالِ أركانِ الصَّلاةِ وشُروطِها وأوقاتِها(٦).

١٢- في هذه الآياتِ وصَفَ اللهُ تعالى أهلَ السَّعادةِ والخَيرِ بهذه الأوصافِ الكامِلةِ، والأخلاقِ الفاضِلةِ؛ مِن العباداتِ البَدَنيَّةِ كالصَّلاةِ والمُداوَمةِ عليها، والأعمالِ القلبيَّةِ كخَشيةِ اللهِ الدَّاعيةِ لكلِّ خَيرٍ، والعباداتِ الماليَّةِ، والعقائدِ النَّافِعةِ،

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٤٠٤).

(٢) يُنظر: ((لقاء الباب المفتوح)) لابن عثيمين (اللقاء رقْم: ١٣).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٤٠٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦١٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٤٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٣٣).

(٥) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٧٣).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٧٤).

والأخلاقِ الفاضِلةِ، ومُعامَلةِ اللهِ، ومُعامَلةِ خَلقِه أحسَنَ مُعامَلةٍ مِن إنصافِهم وحِفظِ عُهودِهم وأسرارِهم، والعِفَّةِ التَّامَّةِ بحِفظِ الفُروجِ عمَّا يَكْرَهُ اللهُ تعالى[١].

الفَوائِدُ العِلْميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا * إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا * وَإِذَا مَسَّهُ ٱلۡخَيۡرُ مَنُوعًا﴾ أنَّ اللهَ تعالى خَلَق الإنسانَ على هذه الصِّفةِ[٢]؛ ففيه دَلالةٌ على قولِ جماهيرِ المُثبِتينَ للقَدَرِ القائِلينَ بأنَّ اللهَ تعالى خالِقُ أفعالِ العِبادِ؛ فإنَّهم يقولونَ: إنَّ اللهَ تعالى خالِقُ العَبدِ وجميعِ ما يقومُ به؛ مِن إرادتِه وقدرتِه، وحرَكاتِه وغيرِ ذلك[٣].

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا * إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا * وَإِذَا مَسَّهُ ٱلۡخَيۡرُ مَنُوعًا﴾ فيه سؤالٌ: ما الحِكمةُ في خَلقِ الإنسانِ على مَساوي الأخلاقِ؟

الجوابُ: الحِكمةُ في خَلقِ شَهوةِ القَبيحِ: لِيُمانِعَ نَفْسَه إذا نازَعَتْه نحوَه، ويحارِبَ شيطانَه عندَ تزيينِه مَعصيةً، فيَستَحِقَّ مِنَ اللهِ تعالى مَثوبتَه وجنَّتَه[٤].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا * إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا * وَإِذَا مَسَّهُ ٱلۡخَيۡرُ مَنُوعًا * إِلَّا ٱلۡمُصَلِّينَ﴾ أنَّ الإنسانَ خُلِقَ على هذه الصِّفةِ، وأنَّ مَن كان على غَيرِها فمِن أجْلِ ما زَكَّاه اللهُ به مِن فَضْلِه وإحسانِه[٥].

٤- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا * إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا * وَإِذَا مَسَّهُ ٱلۡخَيۡرُ

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٨).

(٢) يُنظر: ((الفتاوى الكبرى)) لابن تيمية (١/ ١٥٠).

(٣) يُنظر: ((منهاج السنة النبوية)) لابن تيمية (٢/ ٢٩٥).

(٤) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (ص: ١٣٠٤).

(٥) يُنظر: ((طريق الهجرتين)) لابن القيم (ص: ١٠٧).

مَنُوعًا﴾ فيه سُؤالٌ: حاصِلُ هذا الكلامِ أنَّه نُفورٌ عن المَضارِّ طَلَبًا للرَّاحةِ، وهذا هو اللَّائِقُ بالعَقلِ، فلِمَ ذَمَّه اللهُ عليه؟

الجوابُ: إنَّما ذَمَّه عليه؛ لأنَّه قاصِرُ النَّظَرِ على الأحوالِ الجُسمانيَّةِ العاجِلةِ، وكان مِنَ الواجِبِ عليه أن يكونَ مَشغولًا بأحوالِ الآخِرةِ، فإذا وقَعَ في مَرَضٍ أو فَقرٍ، وعَلِمَ أنَّه فِعلُ اللهِ تعالى، كان راضيًا به؛ لعِلْمِه أنَّ اللهَ يَفعَلُ ما يَشاءُ، ويَحكُمُ ما يُريدُ، وإذا وَجَد المالَ والصِّحَّةَ، صرَفَهما إلى طلَبِ السَّعاداتِ الأُخرويَّةِ[١].

٥- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِأَمَٰنَٰتِهِمۡ وَعَهۡدِهِمۡ رَٰعُونَ﴾ هذا شامِلٌ لجَميعِ الأماناتِ الَّتي بيْنَ العبدِ وبيْنَ رَبِّه، كالتَّكاليفِ السِّرِّيَّةِ الَّتي لا يطَّلِعُ عليها إلَّا اللهُ؛ والأماناتِ الَّتي بيْنَ العَبدِ وبيْنَ الخَلقِ في الأموالِ والأسرارِ، وكذلك العَهدُ؛ شامِلٌ للعَهدِ الَّذي عاهَدَ عليه اللهَ، والعَهدِ الَّذي عاهَدَ عليه الخَلقَ؛ فإنَّ العَهدَ يُسأَلُ عنه العَبدُ: هل قام به ووفَّاه، أو رفَضَه وخانه، فلَمْ يَقُمْ به[٢]؟

٦- قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَٰدَٰتِهِمۡ قَآئِمُونَ﴾ ذِكرُ القِيامِ بالشَّهادةِ إتمامٌ لخِصالِ أهلِ الإسلامِ، فلا يُتطلَّبُ له مُقابِلٌ مِن خِصالِ أهلِ الشِّركِ المَذكورةِ فيما تَقدَّمَ[٣].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ فِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ مَّعۡلُومٞ * لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ﴾ أنَّ كلَّ ما أعَدَّه الإنسانُ للتِّجارةِ والتَّكَسُّبِ ففيه الزَّكاةُ؛ لعُمومِ الآيةِ الكريمةِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦٤٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٧٤).

(٤) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (١٨/ ٢٥٢).

والزَّكاةُ في عُروضِ التِّجارةِ واجِبةٌ، وذلك باتِّفاقِ المَذاهِبِ الفِقهيَّةِ الأربَعةِ. يُنظر: ((تبيين الحقائق للزَّيْلَعي مع حاشية الشِّلْبي)) (١/ ٢٧٩)، ((الشرح الكبير للدردير مع حاشية الدسوقي)) (١/ ٤٧٢)، ((المجموع)) للنووي (٦/ ٤٧)، ((كشاف القناع)) للبُهُوتي (٢/ ٢٤٠). =

٨- مِن السُّؤالِ ما لا يكونُ مأمورًا به، والمسؤولُ مأمورٌ بإجابةِ السَّائِلِ، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ مَّعۡلُومٞ ۞ لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ﴾، وقال: ﴿وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنۡهَرۡ﴾[1] [الضحى: ١٠].

٩- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ مَّعۡلُومٞ ۞ لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ﴾ أنَّ مَن سَأَلَ وظَهَرَ صِدْقُه، وَجَبَ إطعامُه[2].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ﴾ أنَّ الزَّكاةَ تُجْعَلُ في صِنفٍ واحِدٍ وصِنفَينِ، فتُجْزِئُ، وليس بحَتمٍ أنْ تُجعَلَ في الثَّمانيةِ الأصنافِ كلِّها[3]! على القَولِ بأنَّ الحقَّ المعلومَ هو الزَّكاةُ المفروضةُ.

١١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِفُرُوجِهِمۡ حَٰفِظُونَ﴾ دلَّت هذه الآيةُ على تحريمِ نِكاحِ المُتعةِ؛ لكَونِها غيرَ زَوجةٍ مَقصودةٍ، ولا مِلكَ يَمينٍ[4].

١٢- إنَّ ظاهِرَ عُمومِ قولِه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِفُرُوجِهِمۡ حَٰفِظُونَ ۞ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ فَإِنَّهُمۡ غَيۡرُ مَلُومِينَ﴾ يقتضي جوازَ أنْ يَستَمتِعَ الرَّجُلُ بزَوجتِه فيما

= قال ابنُ المُنذِرِ: (أجمَعَ أهلُ العِلمِ على أنَّ في العُروضِ الَّتي يُرادُ بها التِّجارةُ الزَّكاةَ، إذا حال عليها الحَوْلُ). ((الإشراف)) (٣/ ٨١).

وقال ابنُ عبدِ البَرِّ: (وقد شذَّ داودُ، فلم يَرَ الزَّكاةَ في العُروضِ، وإنْ نوى بها صاحِبُها التِّجارةَ). ((التمهيد)) (١٧/ ١٢٦).

وقال الخطَّابي: (وُجوبُ الزَّكاة في الأموالِ الَّتي تُرصَدُ للتِّجارةِ، وهو كالإجماعِ مِن أهلِ العِلمِ. وزعَم بعضُ المتأخِّرينَ مِن أهلِ الظَّاهِرِ أنَّه لا زكاةَ فيها، وهو مَسبوقٌ بالإجماعِ). ((معالم السنن)) (٢/ ٥٣).

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١/ ١٨٦).

(٢) يُنظر: ((مختصر الفتاوى المصرية لابن تيمية)) للبعلي (ص: ٥٧٥).

(٣) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٤٠٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٧).

شاء، ما عدا الدُّبُرَ؛ فإنَّه لا يجوزُ للرَّجُلِ أنْ يجامِعَ زوجتَه فيه[١].

١٣- قال اللهُ تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ * إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾ قال ابنُ عُيَيْنةَ: (مَن لامَ أحدًا فيما ملَكَت يمينُه وإن كثُرَ، أو لامَه في نسائِه إذا بلغ الأربعَ، فقد عصى اللهَ تعالى؛ لقَولِه تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾).

وقال أيضًا: (مَن تزوَّجَ بأربَعِ نِسوةٍ، أو تسَرَّى بمَماليكَ؛ فلا خلَلَ في زُهدِه في الدُّنيا)[٢].

١٤- ظاهِرُ عُموم قولِه تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ * إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾ إباحةُ وَطْءِ الإماءِ بمِلْكِ اليمينِ مُطلَقًا على أيِّ دِينٍ كُنَّ، إلَّا ما استَثناه الدَّليلُ[٣].

١٥- في قَولِه تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ * إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ * فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ﴾ تحريمُ الاستِمناءِ باليدِ، فهذا الصَّنيعُ خارجٌ عن هذَينِ القِسمَينِ: ﴿إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾، وقد قال تعالى: ﴿فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ﴾[٤].

١٦- في قَولِه تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ * إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ * فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ﴾ دليلٌ على أنَّ إتيانَ البهيمةِ

---

(١) يُنظر: ((فتاوى نور على الدرب)) لابن عثيمين (١٠/ ٣٢٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٤٩، ٥٠).

(٣) يُنظر: ((مختصر الفتاوى المصرية لابن تيمية)) للبعلي (ص: ٤٢٧).

وذهَب جمهورُ الفقهاءِ إلى أنَّ الأَمَةَ إذا كانت مجوسيَّةً أو وَثنيةً لم تحلَّ لسيدِها المسلم بملكِ اليمينِ، كما لا تحلُّ له بالزَّواجِ لو كانت حرَّةً. يُنظر: ((الموسوعة الفقهية الكويتية)) (١١/ ٢٩٨).

(٤) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٤٠٨)، ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٤٦٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٦٣).

معصيةٌ؛ فأيُّ شيءٍ وراءَ الأزواجِ ومِلْكِ اليمينِ يُعتبرُ عُدوانًا وظُلمًا[(١)].

١٧- في قَولِه تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ * إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ * فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ﴾ أنَّ التَّعَرِّيَ عندَ الجماعِ لا حَرَجَ فيه؛ لأنَّه إذا كان لا مَلامةَ في عدَمِ سَتْرِ الفَرجِ فما سِواه مِن بابِ أَوْلى[(٢)].

١٨- في قَولِه تعالى: ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾ سؤالٌ: كيف الجمعُ بيْنَ كَونِ اللهِ تعالى مُنْفَرِدًا بالمِلْكِ وبيْنَ إثباتِ المِلْكِ للمخلوقينَ -كالآيةِ هنا-، ومِثْلِ قَولِه تعالى: ﴿أَوْ مَا مَلَكْتُمْ مَفَاتِحَهُ﴾ [النور: ٦١]؟

الجوابُ: أنَّ الجَمعَ بيْنَهما مِن جِهاتٍ:

الأُولى: أنَّ مِلْكَ الإنسانِ للشَّيءِ ليس عامًّا شاملًا! لأنه يَمْلِكُ ما تحتَ يده، ولا يمْلِكُ ما تحتَ يدِ غيرِه! والكلُّ مِلْكٌ للهِ عزَّ وجلَّ، فمِن حيثُ الشُّمولُ: مِلْكُ اللهِ عزَّ وجلَّ أشملُ وأوسعُ، وهو مِلْكٌ تامٌّ.

الثاني: أنَّ مِلْكَ الإنسانِ لشَيءٍ ما ليس مِلْكًا حقيقيًّا يتَصَرَّفُ فيه كما يَشاءُ! وإنما يتَصَرَّفُ فيه كما أَمَرَ الشَّرعُ؛ وكما أَذِنَ المالكُ الحقيقيُّ -وهو اللهُ عزَّ وجلَّ-، فإذًا مِلْكُ الإنسانِ قاصرٌ.

وأيضًا لا يمْلِكُ فيه شيئًا مِن النَّاحيةِ القَدَريَّةِ؛ لأنَّ التَّصرُّفَ للهِ، فلا يستطيعُ أنْ يقولَ لعبدِه المريضِ: ابْرَأْ؛ فيَبْرَأُ! ولا يستطيعُ أنْ يقولَ لعبدِه الصَّحيحِ: امرَضْ؛ فيَمْرَضُ! لكنَّ التَّصرُّفَ الحقيقيَّ للهِ عزَّ وجلَّ، فلو قال له: ابْرَأْ؛ بَرَأَ، ولو قال: امْرَضْ؛ مَرِضَ، فإذًا لا يمْلِكُ التَّصرُّفَ المطلقَ شرعًا وقَدَرًا، فمِلْكُه هنا قاصرٌ

(١) يُنظر: ((الشرح الممتع)) لابن عثيمين (١٤/ ٢٤٦). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٣٦).
(٢) يُنظر: ((فتاوى نور على الدرب)) لابن عثيمين (١٠/ ٣٢٤).

مِن حيثُ التَّصرُّفُ، وقاصرٌ مِن حيثُ الشُّمولُ والعُمومُ(١).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا * إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا * وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا﴾

- جُملةُ ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا * إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا * وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا﴾ مُعترِضةٌ بيْنَ ﴿مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ * وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰٓ﴾ [المعارج: ١٧، ١٨] وبيْنَ الاستِثناءِ ﴿إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ...﴾ [المعارج: ٢٢]، وهي تَذييلٌ لجُملةِ ﴿وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰٓ﴾ [المعارج: ١٨]؛ تَنبيهًا على خَصلةٍ تُخامِرُ نُفوسَ البشَرِ، فتَحملُهم على الحِرصِ لنَيلِ النَّافعِ، وعلى الاحتفاظِ به خَشيةَ نَفادِه؛ لِما فيهم مِن خُلُقِ الهَلَعِ، وهذا تَذييلُ لَومٍ، وليس في مَساقِه عُذْرٌ لِمَن جَمَع فأوعَى، ولا هو تَعليلٌ لفِعلِه. ومَوقعُ حرْفِ التَّوكيدِ (إنَّ) ما تَتضمَّنُه الجُملةُ مِن التَّعجيبِ مِن هذه الخَصلةِ البَشَريَّةِ، فالتَّأكيدُ لمُجرَّدِ الاهتمامِ بالخبَرِ، ولَفْتِ الأنظارِ إليه، والتَّعريضِ بالحذَرِ منه، والمقصودُ مِن التَّذييلِ هو قولُه: ﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا﴾ [المعارج: ٢١]، وأمَّا قولُه: ﴿إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا﴾ [المعارج: ٢٠] فتَمهيدٌ وتَتْميمٌ لِحالتَيْه(٢).

- وقيل: الجُملةُ كالتَّعليلِ لِما تقدَّمَ(٣).

- وهَلوعٌ: فَعولٌ، مِثالُ مُبالَغةٍ للاتِّصافِ بالهَلَعِ(٤).

٢- قولُه تعالَى: ﴿إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ * ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ﴾

(١) يُنظر: ((شرح العقيدة الواسطية)) لابن عثيمين (١/ ٢٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٦٦).

(٣) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٢١٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٦٧).

- قولُه: ﴿إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ﴾ قيل: استثناءٌ منقطِعٌ، لمَّا وصَف مَن أدبَر وتولَّى بالهلعِ قال: لكنِ المصلِّينَ في مقابلةِ أولئكَ(١)، وقيل: هو استِثناءٌ مُنقطِعٌ ناشئٌ عن الوعيدِ المبتدَأِ به مِن قولِه: ﴿يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذِۭ ...﴾ [المعارج: ١١]؛ فالمعْنى على الاستدراكِ، والتَّقديرُ: لكنَّ المصلِّين الموصوفينَ بكَيت وكَيْتَ أولئك في جنَّاتٍ مُكرَمونَ؛ فجُملةُ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِى جَنَّٰتٍ مُّكْرَمُونَ﴾ حيث وَقَعت بعْدَ (إلَّا) المنقطِعةِ -وهي بمعْنى (لكنَّ)- فلَها حكْمُ الجُملةِ المخبَرِ بها عن اسمِ (لكنَّ) المشدَّدةِ، أو عن المبتدَأِ الواقعِ بعْدَ (لكِنْ) المخفَّفةِ. والكلامُ استِئنافٌ بَيانيٌّ لمُقابَلةِ أحوالِ المؤمنينَ بأحوالِ الكافرينَ، ووَعْدِهم بوَعيدِهم، على عادةِ القرآنِ في أمثالِ هذه المُقابَلةِ(٢). وقيل: هو استثناءٌ متَّصِلٌ أي: إنَّ الإنسانَ خُلِق هلوعًا واستمرَّ ذلك عليه، ولم يفارِقْه إلَّا المصلِّينَ الموصوفينَ بالصفاتِ الآتيةِ، فإنَّهم خلَعوا ربقةَ الهلعِ عن أعناقِهم(٣).

- وهذه صِفاتٌ ثمانٍ هي مِن شِعارِ المسلمينَ؛ فعُدِلَ عن إحضارِهم بوَصْفِ المسلِمينَ إلى تَعدادِ خِصالٍ مِن خِصالِهم إطنابًا في الثَّناءِ عليهم؛ لأنَّ مَقامَ

(١) يُنظر: ((تفسير الكوراني)) (ص: ٢٣٢)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٧٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٧١).

(٣) يُنظر: ((تفسير الكوراني)) (ص: ٢٣٢)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٧٠).

قال البيضاوي: (﴿إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ﴾ استِثناءٌ للمَوصوفينَ بالصِّفاتِ المذكورةِ بَعدُ مِن المَطبوعينَ على الأحوالِ المذكورةِ قبْلُ؛ لِمُضادَّةِ تلك الصِّفاتِ لها مِن حيثُ إنَّها دالَّةٌ على الاستغراقِ في طاعةِ الحقِّ، والإشفاقِ على الخلْقِ، والإيمانِ بالجَزاءِ، والخَوفِ مِن العُقوبةِ، وكسْرِ الشَّهوةِ، وإيثارِ الآجِلِ على العاجِلِ، وتلك ناشئةٌ مِن الانهماكِ في حُبِّ العاجِلِ، وقُصورِ النَّظرِ عليها). ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٤٦).

الثَّناءِ مَقامُ إطنابٍ، وتَنْبيهًا على أنَّ كلَّ صِلةٍ مِن هذه الصِّلاتِ الثَّمانِ هي مِن أسبابِ الكَونِ في الجَنَّاتِ(١).

- ولَمَّا كان وصْفُ المصلِّينَ غَلَبَ على المسلِمينَ -كما دلَّ عليه قولُه تعالَى: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ * قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ﴾ الآية [المدثر: ٤٢، ٤٣]-، أُتْبِعَ وصْفُ المصلِّينَ في الآيةِ هذه بوَصْفِ ﴿الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ﴾، أي: مُواظِبونَ على صَلاتِهم، لا يَتخلَّفونَ عن أدائِها ولا يَترُكونَها(٢). وكذلك في إضافةِ (صلاة) إلى ضَميرِ ﴿الْمُصَلِّينَ﴾ تَنويهٌ باختِصاصِها بهم، وهذا الوصفُ للمُسلِمينَ مُقابِلُ وَصْفِ الكافرينَ في قولِه: ﴿بِعَذَابٍ وَاقِعٍ * لِلْكَافِرِينَ﴾(٣) [المعارج: ١، ٢].

- ومَجيءُ الصِّلةِ جُملةً اسميَّةً ﴿هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ﴾ دونَ أنْ يُقالَ: (الَّذين يَدُومون)؛ لقصْدِ إفادتِها الثَّباتَ تَقويةً كمُفادِ الدَّوامِ(٤).

- وفيه مُناسَبةٌ حَسنةٌ، حيثُ ختَم قولَه: ﴿الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ﴾ هنا بقولِه: ﴿دَائِمُونَ﴾، وختَمَه بعْدُ بقولِه: ﴿يُحَافِظُونَ﴾؛ وفيه وَجْهانِ: الأوَّلُ: أنَّ المُرادَ بدَوامِهم عليها: ألَّا يَتْرُكوها في وقْتٍ مِن أوقاتِها، وبمُحافَظتِهم عليها: أنْ يَأْتُوا بها على أكمَلِ أحوالِها؛ مِن الإتيانِ بها بجَميعِ واجِباتِها وسُنَنِها، ومنها الاجتهادُ في تَفريغِ القلْبِ عن الوَسوسةِ، والرِّياءِ، والسُّمعةِ. الثَّاني: أنَّ الدَّيمومةَ على الشَّيءِ والمحافَظةَ عليه شَيءٌ واحدٌ، لكنَّه لَمَّا كانت الصَّلاةُ هي عَمودَ الإسلامِ، بُولِغَ في التَّوكيدِ فيها، فذُكِرَت أوَّلَ خِصالِ الإسلامِ المذكورةِ في

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٧١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ١٧٢).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

هذه السُّورةِ وآخِرَها؛ ليُعلَمَ مَرتبتُها في الأركانِ الَّتي بُنِيَ الإسلامُ عليها[١].

٣- قولُه تعالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ فِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ مَّعۡلُومٞ * لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ﴾ فيه إعادةُ اسمِ المَوصولِ مع الصِّلاتِ المَعطوفةِ على قولِه: ﴿ٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ دَآئِمُونَ﴾؛ لمَزيدِ العِنايةِ بأصحابِ تلك الصِّلاتِ[٢].

- قولُه: ﴿وَٱلَّذِينَ فِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ مَّعۡلُومٞ * لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ﴾ فيه تَسميةُ ما يُعطُونَه مِن أموالِهم مِن الصَّدقاتِ باسمِ ﴿حَقّٞ﴾؛ للإشارةِ إلى أنَّهم جَعَلوا السَّائلَ والمَحرومَ كالشُّركاءِ لهم في أموالِهم، مِن فَرْطِ رَغبتِهم في مُواساةِ إخوانِهم؛ إذْ لم تكُنِ الصَّدقةُ يومَئذٍ واجبةً، ولم تكُنِ الزَّكاةُ قد فُرِضَت[٣]. وذلك على قولٍ في التَّفسيرِ.

- ومَجيءُ الصِّلةِ جُملةً اسميَّةً لإفادةِ ثَباتِ هذه الخَصلةِ فيهم، وتَمكُّنِها منهم؛ دفْعًا لتَوهُّمِ الشُّحِّ في بعضِ الأحيانِ لِما هو مَعروفٌ بيْنَ غالبِ النَّاسِ مِن مُعاوَدةِ الشُّحِّ للنُّفوسِ[٤].

- وهذه الصِّفةُ للمؤمنينَ مُضادَّةُ صِفةِ الكافرينَ المُتقدِّمةِ في قولِه: ﴿وَجَمَعَ فَأَوۡعَىٰٓ﴾[٥] [المعارج: ١٨].

٤- قولُه تعالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ أُوثِرَ فيها الفِعلُ المضارِعُ؛ لدَلالتِه

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦١٢)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٧٦)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٨١، ٥٨٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٧٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

على الاستِمرارِ[١].

- وهذا الوصفُ مُقابِلُ وصْفِ الكافرينَ بقولِه: ﴿إِنَّهُمۡ يَرَوۡنَهُۥ بَعِيدٗا﴾[٢] [المعارج: ٦].

٥- قولُه تعالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُم مِّنۡ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشۡفِقُونَ﴾ وَصْفُ المؤمنينَ بأنَّهم ﴿مِّنۡ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشۡفِقُونَ﴾ مُقابِلُ قولِه في حقِّ الكافرينَ: ﴿سَأَلَ سَآئِلُۢ بِعَذَابٖ وَاقِعٖ * لِّلۡكَٰفِرِينَ﴾ [المعارج: ١، ٢]؛ لأنَّ سُؤالَهم سُؤالُ مُستخِفٍّ بذلك ومُحيلِه[٣].

- وصَوغُ الصِّلةِ بالجُملةِ الاسميَّةِ؛ لتَحقيقِ ثَباتِ اتِّصافِهم بهذا الإشفاقِ؛ لأنَّه مِن المُغيَّباتِ، فمِن شأْنِ كَثيرٍ مِن الناسِ التَّردُّدُ فيه[٤].

٦- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمۡ غَيۡرُ مَأۡمُونٖ﴾ جُملةٌ مُعترِضةٌ، أي: غيرُ مأمونٍ لهم، وهذا تَعريضٌ بزَعْمِ المشركينَ الأمْنَ منه[٥].

٧- قولُه تعالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِفُرُوجِهِمۡ حَٰفِظُونَ * إِلَّا عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ فَإِنَّهُمۡ غَيۡرُ مَلُومِينَ﴾

- قولُه: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِفُرُوجِهِمۡ حَٰفِظُونَ﴾ قيل: وَصْفُهم بأنَّهم لفُروجِهم حافِظونَ مُقابِلُ قولِه في تَهويلِ حالِ المشركينَ يومَ الجزاءِ بقولِه: ﴿وَلَا يَسۡـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمٗا﴾ [المعارج: ١٠]؛ إذ أخصُّ الأحِمَّاءِ بالرَّجُلِ زَوجُه؛ فقُصِدَ التَّعريضُ بالمشركينَ بأنَّ هذا الهَولَ خاصٌّ بهم بخِلافِ المسلمينَ؛ فإنَّهم هم وأزواجُهم

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٧٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ١٧٣).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

يُحْبَرونَ؛ لأنَّهم اتَّقوا اللهَ في العِفَّةِ عن غيرِ الأزواجِ، قال تعالَى: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٦٧]، أي: ليس في المسلمينَ سِفاحٌ، ولا زِنًا، ولا مُخالَّةٌ، ولا بِغاءٌ؛ ولذلك عُقِّبَ بالتَّفريعِ بقولِه: ﴿فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ﴾(١).

٨- قولُه تعالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ﴾

- صَوغُ الصِّلةِ بالجُملةِ الاسميَّةِ ﴿هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ﴾؛ لتَحقيقِ ثَباتِ اتِّصافِهم بهذا الوصْفِ(٢).

٩- قولُه تعالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَٰدَٰتِهِمْ قَآئِمُونَ﴾

- تَخصيصُ الشَّهادةِ بالذِّكرِ معَ اندراجِها في الأماناتِ؛ لإبانةِ فضْلِها؛ لأنَّ في إقامتِها إحياءَ الحقوقِ وتَصحيحَها، وفي مَنْعِها تَضييعَها وإبطالَها(٣).

- وجاءت جُملةُ الصِّلةِ ﴿هُم بِشَهَٰدَٰتِهِمْ قَآئِمُونَ﴾ اسميَّةً؛ لتَحقيقِ ثَباتِ اتِّصافِهم بهذا الوَصْفِ؛ لأنَّ أداءَ الشَّهادةِ يَشُقُّ على النَّاسِ؛ إذ قد يكونُ المَشهودُ عليه قَريبًا أو صَديقًا، وقد تُثيرُ الشَّهادةُ على المَرْءِ إحْنةً منه وعَداوةً(٤).

- قولُه: ﴿بِشَهَٰدَٰتِهِمْ﴾ قُرِئَ ﴿بِشَهَادَتِهِمْ﴾ بصِيغةِ الإفرادِ، وهو اسمُ جِنسٍ يعُمُّ جَميعَ الشَّهاداتِ الَّتي تَحمَّلوها. وقُرِئَ ﴿بِشَهَٰدَٰتِهِمْ﴾ بصِيغةِ الجمْعِ(٥)، وذلك

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٧٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦١٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٣٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٧٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٧٤).

(٥) قرأ يعقوبُ وحفصٌ ﴿بِشَهَٰدَٰتِهِمْ﴾ بصِيغةِ الجمْعِ، وقرأ الباقونَ بصِيغةِ الإفرادِ. يُنظر: ((النشر في القراءات العشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٩١).

على اعتبارِ جمْعِ المُضافِ إليه[١].

١٠- قولُه تعالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ ثَناءٌ عليهم بعِنايتِهم بالصَّلاةِ مِن أنْ يَعترِيَها شَيءٌ يُخِلُّ بكَمالِها؛ لأنَّ مادَّةَ المُفاعَلةِ هنا للمُبالَغةِ في الحِفظِ[٢].

- وإيثارُ الفِعلِ المضارِعِ ﴿يُحَافِظُونَ﴾؛ لإفادةِ تَجدُّدِ ذلك الحِفاظِ، وعدَمِ التَّهاوُنِ به، وبذلك تَعلَمُ أنَّ هذه الجُملةَ ليسَتْ مُجرَّدَ تأْكيدٍ لجُملةِ ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ﴾، بل فيها زِيادةُ معنًى معَ حُصولِ الغرَضِ مِن التَّأكيدِ بإعادةِ ما يُفيدُ عِنايتَهم بالصَّلاةِ في كِلْتا الجُملتَينِ[٣].

- وتَقديمُ المُسنَدِ إليه على المُسنَدِ الفِعليِّ في قولِه: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ يُفيدُ تَقويةَ الخبَرِ، مع إفادةِ التَّجدُّدِ مِن الفِعلِ المُضارعِ[٤].

- وقدْ حَصَل بيْنَ أُخرى هذه الصِّلاتِ -﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾- وبيْن أُولاها -﴿ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ﴾- مُحسِّنُ رَدِّ العَجُزِ على الصَّدرِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٧٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

قال الشوكاني: (كرَّر ذِكرَ الصَّلاةِ لاختلافِ ما وصَفهم به أوَّلًا، وما وصَفهم به ثانيًا؛ فإنَّ معنَى الدَّوامِ: هو أن لا يشتغِلَ عنها بشيءٍ مِن الشَّواغِلِ...، ومعنى المحافظةِ: أنْ يُراعيَ الأمورَ التي لا تكونُ صلاةً بدونِها، وقيل: المرادُ يُحافِظونَ عليها بعدَ فعلِها مِن أنْ يفعَلوا ما يُحبِطُها، ويُبطِلُ ثوابَها). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٥١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٧٥).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

ورَدُّ العَجُزِ على الصَّدرِ -ويُعرَفُ أيضًا بالتَّصديرِ-: هو أنْ تكونَ اللَّفظةُ بعَيْنِها تقدَّمتْ في أوَّلِ الكَلامِ، ثُمَّ تُعادُ في آخِرِه، وبتعبيرٍ آخَرَ: هو أنْ يُجعَلَ أحدُ اللَّفظَينِ المُكرَّرَينِ، أو المُتجانِسَينِ، أو المُلحَقَينِ بهما في أوَّلِ الفِقرةِ، ثُمَّ تُعادُ في آخِرِها، وهو على ثلاثةِ أقسامٍ؛ الأوَّلُ: أن يُوافِقَ =

- وفي تكريرِ الصَّلاةِ مُبالَغةٌ لا تَخْفى؛ اهتمامًا بشَأْنِها، وتَنويهًا بفضْلِها، ويُضافُ إلى التَّكريرِ تَصديرُ الجُملةِ بالضَّميرِ، وبِناءُ الجُملةِ عليه، وتَقديمُ الجارِّ والمجرورِ على الفِعلِ، وفِعليَّةُ الخبَرِ، فتُفيدُ الجُملةُ الاسميَّةُ الدَّوامَ والاستِمرارَ، وتُفيدُ الجُملةُ الفِعليَّةُ التَّجدُّدَ مع الاستِمرارِ، وهذا نَمَطٌ عَجيبٌ انفرَدَ به كِتابُ اللهِ تعالى(١).

- ومِن قولِه: ﴿ٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ دَآئِمُونَ﴾ إلى قولِه: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ يُحَافِظُونَ﴾ تَكريرُ المَوصولاتِ لتَنزيلِ اختِلافِ الصِّفاتِ مَنزلةَ اختلافِ الذَّواتِ؛ إيذانًا بأنَّ كلَّ واحدٍ من الأوصافِ المذكورةِ نعْتٌ جَليلٌ على حِيالِه، له شأنٌ خَطيرٌ مُستتبعٌ لأحكامٍ جَمَّةٍ، حَقيقٌ بأنْ يُفرَدَ له مَوصوفٌ مُستقِلٌّ، ولا يُجعَلَ شَيءٌ منها تَتِمةً للآخَرِ(٢).

- ومِن قولِه: ﴿إِلَّا ٱلۡمُصَلِّينَ * ٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ دَآئِمُونَ﴾ إلى قولِه: ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَٰدَٰتِهِمۡ قَآئِمُونَ * وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ يُحَافِظُونَ * أُوْلَٰٓئِكَ فِي جَنَّٰتٖ مُّكۡرَمُونَ﴾، وقال قبْلَه في سُورةِ (المؤمنينَ): ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ﴾ إلى قولِه: ﴿وَٱلَّذِينَ

= آخِرُ الفاصلةِ آخِرَ كَلِمةٍ في الصَّدرِ؛ كقولِه تعالى: ﴿أَنزَلَهُۥ بِعِلۡمِهِۦۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَشۡهَدُونَۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ١٦٦]، والثَّاني: أنْ يُوافِقَ أوَّلَ كَلمةٍ منه؛ كقولِه: ﴿وَهَبۡ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةًۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ﴾ [آل عمران: ٨]، والثَّالثُ: أنْ يُوافِقَ بعضَ كَلِماتِه؛ كقولِه: ﴿وَلَقَدِ ٱسۡتُهۡزِئَ بِرُسُلٖ مِّن قَبۡلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنۡهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ [الأنعام: ١٠]. يُنظر: ((البرهان في علوم القرآن)) للزركشي (٣/ ٤٦١)، ((الإتقان)) للسيوطي (٣/ ٣٥٤)، ((جواهر البلاغة)) للهاشمي (ص: ٣٣٣)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن حَبَنَّكَة الميداني (٢/ ٥١٤).

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٤٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٣٤)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٢١٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٣٤).

هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ۞ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ۞ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ﴾ [المؤمنون: ٤-١١]، تَجاوَبَت الآياتُ في السُّورتينِ لفْظًا ومعْنًى، واختَصَّت سُورةُ (المعارجِ) بقولِه: ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَٰدَٰتِهِمْ قَآئِمُونَ﴾، وحُذِفَ مِن سُورةِ (المؤمنين)؛ وذلك لمُناسَبةٍ حَسَنةٍ، وهي أنَّ آياتِ سُورةِ (المعارجِ) مَبْنيَّةٌ على التَّأكيدِ والمُبالَغةِ، فلمَّا قال: ﴿إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ۞ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ﴾، أكَّد ذلك في آخِرِ هذه الآياتِ كرًّا عليها بقولِه: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ [المعارج: ٣٤]. ووصَفَ المزكِّين بأنَّهم ﴿فِيٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ۞ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ﴾، وبعْدَه: ﴿وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ﴾، ثمَّ أتْبَعَ ذلك التَّوكيدَ بقولِه: ﴿وَٱلَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ﴾، وبعْدَه: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ۞ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾، ثمَّ بالَغَ في تَحذيرِهم فقال: ﴿فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ﴾. وهذه الآيةُ جاءت في سُورةِ (المؤمنينَ). وبعْدَها في السُّورتينِ: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ﴾، ثمَّ خصَّ الآيةَ في سُورةِ (المعارجِ) بما أجْرَى عليه الآياتِ قبْلَها مِن المبالَغةِ في الطَّاعاتِ الَّتي تَضمَّنَت ذِكْرَها، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَٰدَٰتِهِمْ قَآئِمُونَ﴾؛ فكان مِن المبالَغةِ الَّتي تَقْتضيها الآياتُ المتقدِّمةُ ذِكرُ الشَّهاداتِ عَقِيبَ أداءِ الأماناتِ[١].

١١- قولُه تعالَى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِي جَنَّٰتٍ مُّكْرَمُونَ﴾

- جِيءَ باسمِ الإشارةِ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾؛ للتَّنبيهِ على أنَّهم استَحقُّوا ما بعْدَ اسمِ الإشارةِ مِن أجْلِ ما سبَقَ قبْلَ اسمِ الإشارةِ[٢]. وما فيه مِن معْنى البُعدِ، مع قُربِ العهْدِ

(١) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (ص: ١٢٩٧-١٣٠٤)، ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ٢٤١)، ((بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز)) للفيروزابادي (١/ ٤٨١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٧٥).

بالمُشارِ إليهِم؛ للإيذانِ بعُلوِّ شأْنِهم، وبُعدِ مَنزلَتِهم في الفضلِ[١].

- وتقديمُ ﴿فِي جَنَّتٍ﴾ على الخَبرِ ﴿مُّكْرَمُونَ﴾؛ للاهتِمامِ، مع مُراعاةِ الفَواصِلِ[٢].



(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٣٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٣٤)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٧٢).

الآيات (٢٦-٤٤)

﴿فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قِبَلَكَ مُهۡطِعِينَ ﴿٣٦﴾ عَنِ ٱلۡيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ ﴿٣٧﴾ أَيَطۡمَعُ كُلُّ ٱمۡرِيٕٖ
مِّنۡهُمۡ أَن يُدۡخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٖ ﴿٣٨﴾ كَلَّآۖ إِنَّا خَلَقۡنَٰهُم مِّمَّا يَعۡلَمُونَ ﴿٣٩﴾ فَلَآ أُقۡسِمُ بِرَبِّ ٱلۡمَشَٰرِقِ وَٱلۡمَغَٰرِبِ
إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ﴿٤٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَمَا نَحۡنُ بِمَسۡبُوقِينَ ﴿٤١﴾ فَذَرۡهُمۡ يَخُوضُواْ وَيَلۡعَبُواْ حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوۡمَهُمُ
ٱلَّذِي يُوعَدُونَ ﴿٤٢﴾ يَوۡمَ يَخۡرُجُونَ مِنَ ٱلۡأَجۡدَاثِ سِرَاعٗا كَأَنَّهُمۡ إِلَىٰ نُصُبٖ يُوفِضُونَ ﴿٤٣﴾ خَٰشِعَةً أَبۡصَٰرُهُمۡ تَرۡهَقُهُمۡ
ذِلَّةٞۚ ذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمُ ٱلَّذِي كَانُواْ يُوعَدُونَ ﴿٤٤﴾﴾.

غَريبُ الكَلِمات:

﴿قِبَلَكَ﴾: أي في جهتِك، وما يَليك، وأصلُ (قبل): يدُلُّ على مُواجَهةِ الشَّيءِ للشَّيءِ[1].

﴿مُهۡطِعِينَ﴾: أي: مُسرِعينَ مُقبِلينَ، وأصلُ (هطع): يدُلُّ على إقبالٍ على الشَّيءِ، وانقيادٍ[2].

﴿عِزِينَ﴾: أي: جماعاتٍ مُتفرِّقةً، واحِدُها: عِزَةٌ، وهي: العُصبةُ مِنَ النَّاسِ، وهو مِنَ المنقوصِ الَّذي جاز جمعُه بالواوِ والنُّونِ عِوَضًا مِنَ المحذوفِ، وأصلُها عِزْوَةٌ، وأصلُه مِن: عَزَوتُه فاعتَزَى: أي: نسَبْتُه فانتسَبَ؛ لأنَّ كُلَّ فِرقةٍ تَعتَزي -تنتَسِبُ- إلى غَيرِ ما تعتَزي إليه الفِرقةُ الأُخرى، وأصلُ (عزو): يدُلُّ على انتِماءٍ واتِّصالٍ[3].

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٥١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٥٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٧٠)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤١٢).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٣٣، ٤٣١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٤٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ٥٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤١٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٩٧).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٨٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص:٣٤٧)، =

﴿ٱلْأَجْدَاثِ﴾: أي: القُبورِ، واحِدُها: الجَدَثُ[1].

﴿نُصُبٍ﴾: واحِدُ الأنصابِ: وهي حِجارةٌ كانت حوْلَ الكَعبةِ تُنصَبُ، فيُهَلُّ عليها، ويُذبَحُ عليها لغيرِ اللهِ تعالى، وقد كَثُرَ استِعمالُ هذا الاسمِ في الأصنامِ حتَّى قيلَ لها: الأنصابُ، ووَجهُ تَسميتِها نُصُبًا أنَّها تُنصَبُ للعِبادةِ، وأصلُ (نصب): يدُلُّ على إقامةِ شَيءٍ[2].

﴿يُوفِضُونَ﴾: أي: يُسرِعُونَ، يُقالُ: أوْفَضَ إيفاضًا: أَسْرَعَ[3].

﴿خَٰشِعَةً﴾: أي: ذليلةً خاضِعةً، وأصلُ (خشع): يدُلُّ على التَّطامُنِ[4].

﴿تَرْهَقُهُمْ﴾: أي: تَغشاهم وتَلحَقُهم، وأصلُ (رهق): يدُلُّ على غِشيانِ الشَّيءِ الشَّيءَ[5].

= ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣٠٩)، ((البسيط)) للواحدي (٢٢/ ٢٣٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٦٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٤١٢).

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٦٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤٣٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٤٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٢).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٨٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٣٤)، ((تفسير البغوي)) (٨/ ٢٢٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٧١)، ((القاموس المحيط)) للفيروزابادي (ص: ١٣٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٨٣).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٨٦)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٨٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٣٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٣٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٧٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٨٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٨٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٨٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٥٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٣٠).

(٥) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٧٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٥١)، ((تفسير البغوي)) (٨/ ٢٢٦).

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مُنْكِرًا على الكفَّارِ الَّذين كانوا في زَمَنِ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم: فما لكُفَّارِ قُرَيشٍ -يا محَمَّدُ- يُسرِعونَ نَحوَك مُتطَلِّعةً أبصارُهم إليك، مُتفرِّقينَ عن يمينِك وعن شِمالِك؟! أيطمَعُ كلُّ واحدٍ منهم أن يُدخِلَه اللهُ جَنَّةَ نَعيمٍ؟! كلَّا! ليس الأمرُ كما يَطمَعونَ، إنَّا خلَقْناهم مِن نُطفةٍ كما يَعلَمونَ.

ثمَّ يذكرُ الله تعالى ما يدُلُّ على كمالِ قدرتِه، مهدِّدًا الكافِرينَ، ومحقِّرًا مِن شأنِهم، فيقولُ: فلا أُقسِمُ برَبِّ المشارِقِ والمغارِبِ، إنَّا لَقادِرونَ على إهلاكِ المُشرِكينَ، والإتيانِ بقَومٍ خَيرٍ مِنهم، وما يَفوتُنا منهم أحَدٌ، فيُعجِزَنا هَرَبًا؛ فاترُكِ المُشرِكينَ -يا محَمَّدُ- يخوضُوا في باطِلِهم، ويَلعَبوا حتَّى يُلاقُوا يومَ القيامةِ الَّذي فيه عَذابُهم؛ يومَ يَخرُجونَ مِن قُبورِهم مُسرِعينَ نَحوَ مَوقِفِ الحِسابِ، كأنَّهم يَسْعَونَ مُتعَجِّلينَ إلى أصنامِهم المَنصوبةِ الَّتي كانوا يتقَرَّبونَ إليها بالعِبادةِ وغَيرِها في الدُّنيا؛ خاضِعةً ساكِنةً أبصارُهم، وتَغْشاهم ذِلَّةٌ.

ذلك اليَومُ الموصوفُ بتلك الشَّدائِدِ هو اليومُ الَّذي كانوا يُوعَدونَ به في الدُّنيا!

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ ٣٦﴾.

أي: فما شأنُ كُفَّارِ قُرَيشٍ -يا محَمَّدُ- يُسرِعونَ نَحوَك ويُقبِلونَ عليك وأبصارُهم مُتطَلِّعةٌ إليك[1]؟!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٧٧، ٢٧٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٧٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٥١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٨).

قيل: ﴿مُهْطِعِينَ﴾ بمعنى: مُسرِعينَ إلى النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم. وممَّن ذهب إلى هذا: =

﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ ۝٣٧﴾.

أي: عن يمينِك وعن شِمالِك -يا محمَّدُ- مُتفرِّقينَ[1].

= الشوكانيُّ، والقاسميُّ. يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٥١)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٣٢٠).

وقيل: مُسرِعينَ نافِرينَ منه. وممَّن نصَّ على هذا المعنى: ابنُ كثير. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٢٨).

وقيل المعنى: يُديمونَ النَّظرَ إليك، ويَتطَلَّعونَ نحوَك. يُنظر: ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١١٣٣).

وقيل: هذا النَّظرُ نظَرُ تعجُّبٍ. نسَب الماوَرْديُّ هذا المعنى إلى الكلبيِّ. يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٦/ ٩٦).

وقيل: هو نظرُ عداوةٍ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم. وممَّن قال بهذا: الزَّجَّاجُ، وابنُ الجَوزيِّ. يُنظر: ((معاني القرآن)) للزجاج (٥/ ٢٢٣)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٣٣٩). ويُنظر أيضًا: ((البسيط)) للواحدي (٢٢/ ٢٣٣).

قال ابن جرير: (والإهطاعُ في كلامِ العربِ بمعنَى الإسراعِ أشهَرُ منه بمعنَى إدامةِ النَّظرِ). ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٧٠٧).

وممَّن جمَع بيْنَ معنَيَي السُّرعةِ وإدامةِ النَّظرِ: العُلَيمي. يُنظر: ((تفسير العليمي)) (٧/ ١٦٤).

وقال ابن عطيَّة: (المُهطِعُ: الَّذي يَمشي مُسرِعًا إلى شيءٍ، قد أقبَل عليه ببصَرِه). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٧٠).

وقال الواحديُّ بعد أن ذكر أقوالَ العلماءِ: (والجامعُ لهذه الأقوالِ قولُ مَن قال: الإهطاعُ: إسراعٌ مع إدامةِ نظرٍ). ((البسيط)) (١٢/ ٤٩٨).

وقال ابن عاشور: (الإهطاعُ: مَدُّ العُنقِ عندَ السَّيرِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٧٦).

وممَّن جمَع بيْن المعاني الثَّلاثةِ -وهي: الإسراعُ، وتصويبُ النَّظرِ، ومَدُّ العُنُقِ-: البغويُّ، والزمخشري، والبِقاعي. يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٥/ ١٥٤)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦١٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٤١٢).

وقال القرطبي: (المعنى: ما بالُهم يُسرِعون إليك، ويَجلِسونَ حَوالَيْك، ولا يَعمَلونَ بما تأمُرُهم؟). ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٩٣). ويُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٥٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٧٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٢٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٨).

عباراتُ المفسِّرينَ في تفسيرِ قولِه تعالى: ﴿عِزِينَ﴾ مُتقارِبةٌ؛ فقيل: ﴿عِزِينَ﴾، أي: حِلَقًا حِلَقًا، =

﴿أَيَطْمَعُ كُلُّ ٱمْرِيٍ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ ۝٣٨﴾.

أي: أيطمَعُ كلُّ واحدٍ مِن أولئك المُشرِكينَ أن يُدخِلَه اللهُ جَنَّةَ نَعيمٍ يومَ القيامةِ[1]؟!

﴿كَلَّآ ۖ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ ۝٣٩﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا احتجَّ على صِحَّةِ البعثِ، دلَّ على أنَّهم كانوا مُنكِرين للبَعثِ، فكأنَّه قِيل لهم: كلَّا إنَّكم مُنكِرونَ للبعثِ، فمِن أينَ تَطمَعونَ في دُخولِ الجنَّةِ[2]؟!

وأيضًا فإنَّ المستهزِئينَ كانوا يَستحقِرونَ المؤمنينَ، فأخبَرَ تعالَى أنَّ هؤلاء

= فلا يَدنُونَ مِنَ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فيَنتَفِعونَ بمَجلِسِه. وممَّن قال بهذا المعنى: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والسمرقنديُّ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٤٣٨)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٤٩٧). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٧٨)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٣٢٠).

وقيل: ﴿عِزِينَ﴾ أي: فِرَقًا شَتَّى. وممَّن قاله: الزمخشريُّ، والبيضاوي، والنسفي، والنيسابوري، والعُلَيمي، وأبو السعود. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦١٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٤٧)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٥٣٩)، ((تفسير النيسابوري)) (٦/ ٣٥٩)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ١٦٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٣٤).

وقال الواحدي: (﴿عِزِينَ﴾ جماعاتٍ حِلَقًا حِلَقًا، وذلك أنَّهم كانوا يَجتَمِعونَ عندَه، ويَستهزِئونَ به وبأصحابِه، ويقولونَ: لئِنْ دخَل هؤلاء الجنَّةَ فلَندخُلَنَّها قبْلَهم). ((الوجيز)) (ص: ١١٣٤).

وقال ابنُ كَثيرٍ: (﴿عِزِينَ﴾ واحدُها عِزَةٌ، أي: مُتفرِّقينَ. وهو حالٌ مِن ﴿مُهْطِعِينَ﴾، أي: في حالِ تَفرُّقِهم واختلافِهم، كما قال الإمامُ أحمدُ في أهلِ الأهواءِ: فهُمْ مُخالِفون للكِتابِ، مُختلِفون في الكِتابِ، متَّفِقون على مُخالَفةِ الكِتابِ). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٢٨). ويُنظر: ((الرد على الجهمية والزنادقة)) لأحمد بن حنبل (ص: ٥٦).

وقال البقاعي: (﴿عِزِينَ﴾ أي: حالَ كَونِهم جماعاتٍ جماعاتٍ، وحِلَقًا حِلَقًا، متفرِّقينَ فِرَقًا شتَّى أفواجًا يتمهَّلونَ ليأتوا جميعًا). ((نظم الدرر)) (٢٠/ ٤١٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٨١)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٢٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦٤٧).

المسْتهزِئين مَخلوقونَ ممَّا خُلِقوا؛ فكيف يَليقُ بهم هذا الاحتقارُ[١]؟!

﴿كَلَّآ إِنَّا خَلَقۡنَٰهُم مِّمَّا يَعۡلَمُونَ ٣٩﴾.

أي: ليس الأمرُ كما يَطمَعون، فليس لهم أن يَدخُلوا الجنَّةَ مع كُفرِهم باللهِ وإشراكِهم به، إنَّا خلَقْناهم مِن نُطفةٍ كما يَعلَمونَ[٢].

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦٤٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٨٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٩٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٢٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٨).

قال ابن جُزَي: (وفي المقصودِ بهذا الكلامِ ثلاثةُ أوجُهٍ:

أحدُها: تحقيرُ الإنسانِ، والرَّدُّ على المتكبِّرينَ.

الثَّاني: الرَّدُّ على الكُفَّارِ في طمَعِهم أن يَدخُلوا الجنَّةَ، كأنَّه يقولُ: إنَّا خلَقْناكم ممَّا خلَقَنا منه النَّاسَ، فلا يَدخُلُ أحدٌ الجنَّةَ إلَّا بالعملِ الصَّالحِ؛ لأنَّكم سواءٌ في الخِلقةِ.

الثَّالث: الاحتِجاجُ على البعثِ بأنَّ الله خلَقهم مِن ماءٍ مَهينٍ، فهو قادرٌ على أن يُعيدَهم، كقولِه: ﴿أَلَمۡ يَكُ نُطۡفَةٗ مِّن مَّنِيّٖ يُمۡنَىٰ﴾ [القيامة: ٣٧] إلى آخرِ السُّورةِ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤١٢).

ممَّن قال بنحوِ القولِ الأوَّلِ: الشوكانيُّ، والسعديُّ.

قال الشوكاني: (﴿كَلَّآ إِنَّا خَلَقۡنَٰهُم مِّمَّا يَعۡلَمُونَ﴾ أي: مِنَ القَذَرِ الَّذين يَعلَمونَ به؛ فلا يَنبغي لهم هذا التَّكَبُّرُ!). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٥٢).

وقال السعدي: (﴿كَلَّآ إِنَّا خَلَقۡنَٰهُم مِّمَّا يَعۡلَمُونَ﴾ أي: مِن ماءٍ دافِقٍ، يَخرُجُ مِن بيْنِ الصُّلْبِ والتَّرائِبِ، فهم ضُعفاءُ، لا يَملِكونَ لأنفُسِهم نفعًا ولا ضرًّا، ولا مَوتًا ولا حياةً ولا نُشورًا). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٨).

وممَّن قال بمعنى القولِ الثَّاني: ابنُ جرير، والسَّمعانيُّ، والبغوي، وابن عطية، والقرطبي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٨٢)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٥١)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ١٥٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٧٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٩٤).

وممَّن قال بمعنى القولِ الثَّالثِ: الرازيُّ، وأبو حيَّان، وابن كثير، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦٤٧)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٧٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٢٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٧٨).

وقيل: المعنى: أنَّهم خُلِقوا مِن نُطفةٍ، فمَن قدَرَ على ذلك فلا يُعجِزُه إهلاكُهم؛ فلْيَحذَروا عاقِبةَ =

﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِرَبِّ ٱلۡمَشَٰرِقِ وَٱلۡمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ٤٠﴾.

أي: فلا أُقسِمُ بخالِقِ ومُدَبِّرِ المشارِقِ والمغارِبِ، إنَّا لَقادِرونَ(١).

= البَغيِ والفَسادِ. قاله القاسمي. يُنظر: ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٣٢٠).

وقيل: المعنى: إنَّا خَلَقْناهم مِن أجْلِ ما يَعلَمونَ، وهو امتِثالُ الأمرِ والنَّهيِ، وتعرُّضِهم للثَّوابِ والعِقابِ، كما في قولِه تعالى: ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]. يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٥٢).

(١) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٩٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٥٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٢٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٥٣).

قال ابن كثير: (وتقديرُ الكلامِ: ليسَ الأمرُ كما يَزعمونَ أنْ لا معادَ ولا حسابَ، ولا بعثَ ولا نشورَ، بل كلُّ ذلك واقعٌ وكائنٌ لا مَحالةَ. ولهذا أتى بـ «لا» في ابتداءِ القسَمِ؛ لِيدُلَّ على أنَّ المُقْسَمَ عليه نفيٌ، وهو مضمونُ الكلامِ، وهو الرَّدُّ على زعمِهم الفاسِدِ في نفْيِ يومِ القيامةِ، وقد شاهَدوا من عظيمِ قدرةِ اللهِ تعالَى ما هو أبلغُ مِن إقامةِ القيامةِ، وهو خلقُ السَّمواتِ والأرضِ، وتسخيرُ ما فيهما من المخْلوقاتِ من الحيواناتِ والجماداتِ، وسائرِ صنوفِ الموجوداتِ). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٢٩).

وقال الشوكاني: (قولُه: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ﴾ «لا» زائدةٌ...، والمعنَى: فأُقسِمُ برَبِّ المشارِقِ والمغارِبِ). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٥٣).

وقال ابنُ القيِّم: (أقسَمَ سُبحانَه برَبِّ المشارِقِ والمغارِبِ، وهي إمَّا مَشارِقُ النُّجوم ومَغارِبُها، أو مَشارِقُ الشَّمسِ ومَغارِبُها، أو أنَّ كُلَّ مَوضعٍ مِنَ الجِهةِ مَشرِقٌ ومَغرِبٌ). ((التبيان في أقسام القرآن)) (ص: ١٩٤).

وممَّن قال بأنَّ المرادَ: مَشارِقُ الكواكِبِ، كالشَّمسِ والقَمَرِ وغَيرِهما: ابنُ عطية، وابن كثير، والبِقاعي، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٧١)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٢٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٤١٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٨).

وممَّن قال بأنَّ المرادَ: مَشارِقُ الشَّمسِ ومَغارِبُها: مقاتِلُ بنُ سُلَيمانَ، والسمعانيُّ، والقرطبي، وابن عاشور، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٤٣٩)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٥٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٩٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٧٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٣٠٥).

وممَّن قال بمعنى هذا القولِ مِن السَّلَفِ: ابنُ عبَّاسٍ في روايةٍ عنه، وعِكْرِمةُ، وقَتادةُ. يُنظر: =

﴿عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَمَا نَحۡنُ بِمَسۡبُوقِينَ ٤١﴾.

﴿عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ﴾.

أي: إنَّا لَقادِرونَ على إهلاكِ المُشرِكينَ، والإتيانِ بقَومٍ خَيرٍ مِنهم يُطيعونَ رَبَّهم، ويَتَّقونَه(١).

= ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٨٣)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٥/ ٣٨)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٨/ ٢٨٦).

قال مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ: (هو مِئةٌ وثمانون مَشرِقًا، ومِئةٌ وثمانون مَغرِبًا، في كُلِّ مَنزلةٍ تَطلُعُ يومَينِ في السَّنةِ، تطلُعُ فيها الشَّمسُ، وتَغرُبُ فيها). ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٤٣٩).

وقيل: المرادُ: مَشارِقُ ومغاربُ الشَّمسِ والقَمَرِ. وممَّن قال بهذا: الزَّجَّاجُ. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٢٢٤).

وممَّن قال بنحوِ هذا القولِ مِن السَّلَفِ: ابنُ عبَّاسٍ في روايةٍ عنه، وعِكْرِمةُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٨٤)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٨/ ٢٨٦).

قال ابنُ القيِّم: (أقسَمَ سُبحانَه على عُمومِ قُدرتِه وكَمالِها وصِحَّةِ تعَلُّقِها بإعادتِهم بعدَ العدَمِ، فذكرَ المَشارِقَ والمغارِبَ بلَفظِ الجَمعِ؛ إذ هو أدَلُّ على المقسَمِ عليه، سواءٌ أُريدَ مَشارِقُ النُّجومِ ومَغارِبُها، أو مَشارِقُ الشَّمسِ ومَغارِبُها، أو كُلُّ جزءٍ مِن جهتَيِ المشرِقِ والمغرِبِ؛ فكُلُّ ذلك آيةٌ ودَلالةٌ على قُدرتِه تعالى على أن يُبَدِّلَ أمثالَ هؤلاء المكَذِّبينَ، ويُنشِئَهم فيما لا يَعلَمونَ، فيأتيَ بهم في نَشأةٍ أُخرى كما يأتي بالشَّمسِ كُلَّ يومٍ مِن مَطلَعٍ، ويَذهَبُ بها في مَغرِبٍ). ((التبيان في أقسام القرآن)) (ص: ١٩٥).

وقيل: المرادُ: مَشارِقُ الأرضِ ومَغارِبُها. وممَّن ذهب إلى هذا القولِ: ابنُ جرير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٨٢).

(١) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٤٣٩)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٨٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٥٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٩٥)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ١٩٦، ١٩٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٥٣).

وممَّن ذهب إلى هذا المعنى المذكورِ في الجملةِ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، والواحديُّ، والقرطبي، وابن القيِّم، والشوكاني. يُنظر: المصادر السابقة.

قال ابن كثير: (أيْ: يومَ القيامةِ نُعيدُهم بأبدانٍ خيرٍ مِن هذه، فإنَّ قدرَتَه صالِحةٌ لذلك... كما =

كما قال تعالى: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأْتِ بِـَٔاخَرِينَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا﴾ [النساء: ١٣٣].

وقال الله سُبحانَه: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم﴾ [محمد: ٣٨].

﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾.

أي: وما يَفوتُنا منهم أحَدٌ، فيُعجِزَنا هَرَبًا؛ فاللهُ تعالى قادِرٌ على الإتيانِ بخَيرٍ منهم؛ إذ لا يمتَنِعُ عليه شَيءٌ سُبحانَه(١).

﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا۟ وَيَلْعَبُوا۟ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٤٢﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ثبَت أنَّ لله سُبحانَه العَظَمةَ البالِغةَ الباهِرةَ، مِن شُمولِ العِلمِ، وتمامِ القُدرةِ، فأنتَج اعتِمادَ أهلِ حِزْبِه عليه، وإعراضَهم عن كلِّ ما سِواه؛ سبَّب عن ذلك قولَه تهديدًا للمُخالِفينَ، وتسليةً للمؤالِفينَ(٢):

﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا۟ وَيَلْعَبُوا۟ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٤٢﴾﴾.

= قال تعالَى: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ * بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّىَ بَنَانَهُۥ﴾ [القيامة: ٣، ٤]، وقال تعالَى: ﴿نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ * عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الواقعة: ٦٠، ٦١]. وذكر أنَّ هذا القولَ (أظهرُ؛ لدَلالةِ الآياتِ الأُخَرِ عليه). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٢٩). ويُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٧١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٨).

وقال ابنُ عاشور: (يحتَمِلُ مَعنَيين؛ أوَّلُهما -وهو المناسِبُ للسِّياقِ-: أن يكونَ المعنى: على أن نُبَدِّلَهم خَيرًا منهم، أي: نُبدِّلَ ذَواتِهم خلقًا خيرًا مِن خَلْقِهم الَّذي هم عليه اليومَ... والمعنى الثَّاني: أن نُبدِّلَ هؤلاء بخيرٍ منهم، أي: بأُمَّةٍ خَيرٍ منهم). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٨٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٨٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٩٥)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ١٩٦).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٤١٨).

أي: فاترُكِ المُشرِكينَ -يا محمَّدُ- يَخوضُوا في باطِلِهم، ويَلعَبوا في دُنياهم بشَهَواتِهم، إلى أن يُلاقُوا يومَ القيامةِ الَّذي فيه عَذابُهم[1]!

كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿ذَرۡهُمۡ يَأۡكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلۡهِهِمُ ٱلۡأَمَلُۖ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ﴾ [الحجر: ٣].

﴿يَوۡمَ يَخۡرُجُونَ مِنَ ٱلۡأَجۡدَاثِ سِرَاعٗا كَأَنَّهُمۡ إِلَىٰ نُصُبٖ يُوفِضُونَ ٤٣﴾.

﴿يَوۡمَ يَخۡرُجُونَ مِنَ ٱلۡأَجۡدَاثِ سِرَاعٗا﴾.

أي: يومَ يخرُجُ المشركون مِن قُبورِهم مُسرِعينَ نَحوَ مَوقِفِ الحِسابِ[2].

كما قال الله تعالى: ﴿يَوۡمَ تَشَقَّقُ ٱلۡأَرۡضُ عَنۡهُمۡ سِرَاعٗاۚ ذَٰلِكَ حَشۡرٌ عَلَيۡنَا يَسِيرٞ﴾ [ق: ٤٤].

وقال سُبحانَه: ﴿خُشَّعًا أَبۡصَٰرُهُمۡ يَخۡرُجُونَ مِنَ ٱلۡأَجۡدَاثِ كَأَنَّهُمۡ جَرَادٞ مُّنتَشِرٞ * مُّهۡطِعِينَ إِلَى

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٨٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٩٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٣٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٨).

قال القرطبي: (أي: اترُكْهم يَخوضوا في باطِلِهم، ويَلعَبوا في دُنياهم، على جِهةِ الوَعيدِ، واشتَغِلْ أنت بما أُمِرْتَ به، ولا يَعظُمَنَّ عليك شِركُهم؛ فإنَّ لهم يومًا يَلقَونَ فيه ما وُعِدوا). ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٩٦).

وقال ابنُ عاشور: (الخَوضُ: الكلامُ الكثيرُ، والمرادُ: خَوضُهم في القرآنِ، وشأنِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم والمسلِمينَ. واللَّعِبُ: الهَزْلُ والهُزْءُ، وهو لَعِبُهم في تلقِّي الدَّعوةِ الإسلاميَّةِ، وخُروجُهم عن حدودِ التَّعقُّلِ والجِدِّ في الأمرِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٨٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٨٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٥٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٧١)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٢٠٠، ٢٠١)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٣٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٨).

قال ابن جرير: (وقولُه: ﴿يَوۡمَ يَخۡرُجُونَ﴾ بيانٌ وتوجيهٌ عن اليومِ الأوَّلِ الَّذي في قولِه: ﴿يَوۡمَهُمُ ٱلَّذِي يُوعَدُونَ﴾ [المعارج: ٤٢]، وتأويلُ الكلامِ: حتَّى يُلاقوا يومَهم الَّذي يُوعَدونَه ﴿يَوۡمَ يَخۡرُجُونَ مِنَ ٱلۡأَجۡدَاثِ﴾). ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٨٤).

ٱلدَّاعِۖ يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾ [القمر: ٧، ٨].

﴿كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ﴾.

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

١- قِراءةُ: ﴿نُصُبٍ﴾ بضَمِّ النُّونِ والصَّادِ. قيل: بمعنى الأصنامِ المَنصوبةِ[١].

٢- قراءةُ: ﴿نَصْبٍ﴾ بفَتحِ النُّونِ. قيل: بمعنى: العَلَمِ المَنصوبِ. وقيل: القِراءتانِ بمعنًى واحِدٍ[٢].

﴿كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ﴾.

أي: يَخرُجونَ مِن قُبورِهم كأنَّهم يَسعَونَ مُتعَجِّلينَ مُسرِعينَ إلى أصنامِهم الَّتي نَصَبوها للعبادةِ يَبْتَدِرونَ، أيُّهم يَسْتَلِمُه أوَّلَ[٣].

---

(١) قرأ بها ابنُ عامرٍ، وحفصٌ. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٩١).
ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٢٢٤)، ((الحجة في القراءات السبع)) لابن خالويه (ص: ٣٥٣)، ((معاني القراءات)) للأزهري (٣/ ٩٢)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٧٢٤، ٧٢٥).

(٢) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٩١).
ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٢٢٤)، ((الحجة في القراءات السبع)) لابن خالويه (ص: ٣٥٣)، ((معاني القراءات)) للأزهري (٣/ ٩٢)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٧٢٤، ٧٢٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٨٥)، ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (١/ ٢٠٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٣٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٨٣).
قال ابنُ القيِّم: (المقصودُ: أنَّ النُّصُبَ كُلُّ شَيءٍ نُصِبَ؛ مِن خَشَبةٍ، أو حَجَرٍ، أو عَلَمٍ). ((إغاثة اللهفان)) (١/ ٢٠٨). ويُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٤٢١).
وقال ابن عطية: (النُّصُبُ: ما نُصِبَ للإنسانِ، فهو يَقصِدُ مُسرِعًا إليه؛ مِن عَلَمٍ، أو بناءٍ، أو صَنَمٍ لأهلِ الأصنامِ. وقد كثُر استِعمالُ هذا الاسمِ في الأصنامِ حتَّى قيل لها: الأنصابُ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٧١). =

﴿خَٰشِعَةً أَبۡصَٰرُهُمۡ تَرۡهَقُهُمۡ ذِلَّةٞۚ ذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمُ ٱلَّذِي كَانُواْ يُوعَدُونَ ٤٤﴾.

﴿خَٰشِعَةً أَبۡصَٰرُهُمۡ تَرۡهَقُهُمۡ ذِلَّةٞ﴾.

أي: تكونُ أبصارُهم يومَ القيامةِ خاضِعةً ساكِنةً، وتَغْشاهم ذِلَّةٌ(١).

كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَسَبُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةِۭ بِمِثۡلِهَا وَتَرۡهَقُهُمۡ ذِلَّةٞۖ مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنۡ عَاصِمٖۖ كَأَنَّمَآ أُغۡشِيَتۡ وُجُوهُهُمۡ قِطَعٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مُظۡلِمًا﴾ [يونس: ٢٧].

وقال سبحانه: ﴿وَتَرَىٰهُمۡ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرۡفٍ خَفِيّٖ﴾ [الشورى: ٤٥].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿قُلُوبٞ يَوۡمَئِذٖ وَاجِفَةٌ * أَبۡصَٰرُهَا خَٰشِعَةٞ﴾ [النازعات: ٨، ٩].

﴿ذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمُ ٱلَّذِي كَانُواْ يُوعَدُونَ﴾.

أي: ذلك اليَومُ الموصوفُ بتلك الشَّدائِدِ هو يومُ القيامةِ الَّذي كان الكُفَّارُ يُوعَدونَ به في الدُّنيا على ألسِنةِ الرُّسُلِ عليهم السَّلامُ، وكانوا به يُكذِّبونَ(٢)!

= وقال ابن كثير: (أي: كأنَّهم في إسْراعِهم إلى الموقفِ كما كانوا في الدُّنيا يُهَرْوِلونَ إلى النُّصُبِ إذا عايَنوه ﴿يُوفِضُونَ﴾: يَبْتَدِرونَ، أيُّهم يَسْتَلِمُه أوَّلَ. وهذا مرويٌّ عن مُجاهِدٍ، ويحيى بنِ أبي كثيرٍ، ومُسلمٍ البَطِينِ، وقَتادةَ، والضَّحَّاكِ، والرَّبيعِ بنِ أنسٍ، وأبي صالحٍ، وعاصمِ بنِ بَهْدلةَ، وابنِ زَيدٍ، وغيرِهم). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٣٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٨٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٩٧)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٢٠١)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٣٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٤٢١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٨).

قال السعدي: (ذلك أنَّ الذِّلَّةَ والقَلَقَ قد مَلَك قُلوبَهم، واستَولى على أفئِدتِهم؛ فخشَعَت منهم الأبصارُ، وسكَنَت منهم الحَرَكاتُ، وانقطَعَت الأصواتُ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٤٣٩)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٨٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٩٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٥٤).

قال مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ: (يُوعَدُونَ فيه في الدُّنيا العَذابَ). ((تفسير مقاتل بن سليمان)) =

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

قال تعالى: ﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ﴾، وهذا تهديدٌ شديدٌ يتضمَّنُ: اتْرُكْ هؤلاءِ الَّذين قامَت عليهم حُجَّتي فلم يَقْبَلوها، ولم يَخافوا بَأْسي، ولا صَدَّقوا رسالاتي في خَوضِهم بالباطِلِ ولَعِبِهم، فالخَوضُ بالباطِلِ ضِدُّ التَّكلُّمِ بالحقِّ، واللَّعِبُ ضِدُّ السَّعْيِ الَّذي يَعودُ نَفْعُه على ساعيه، فالأوَّلُ ضِدُّ العِلمِ النَّافعِ، والثَّاني ضدُّ العملِ الصَّالحِ؛ فلا تَكَلَّمَ بالحقِّ، ولا عَمِلَ بالصَّوابِ! وهذا شأنُ كلِّ مَن أعرَض عمَّا جاء به الرَّسولُ، لا بُدَّ له مِن هذَينِ الأمْرَينِ[(١)].

الفَوائِدُ العِلْميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿أَيَطْمَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ * كَلَّا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِمَّا يَعْلَمُونَ﴾ إذا تأمَّلْتَ ارتباطَ إحدى الجُملتَينِ بالأُخرى وجدْتَ تحتَها كَنزًا عظيمًا مِن كنوزِ المعرفةِ والعلمِ؛ فأشار سُبحانَه بمَبدَأِ خلْقِه ممَّا يَعلَمونَ مِن النُّطفةِ وما بعدَها إلى موضِعِ الحُجَّةِ والآيةِ الدَّالَّةِ على وُجودِه ووحدانيَّتِه وكَمالِه، وتَفَرُّدِه بالرُّبوبيَّةِ والإلهيَّةِ، وأنَّه لا يَحْسُنُ به مع ذلك أنْ يَترُكَهم سُدًى، لا يُرسِلُ إليهم رَسولًا، ولا يُنزِلُ عليهم كِتابًا، وأنَّه لا يَعْجِزُ مع ذلك أنْ يَخْلُقَهم -بعدَ ما أماتَهم- خَلْقًا جديدًا، ويَبعَثَهم إلى دارٍ يُوَفِّيهم فيها أعمالَهم مِن الخَيرِ والشَّرِّ، فكيف يَطْمَعونَ في دُخولِ الجنَّةِ وهم يَكْذِبونَ ويُكَذِّبون رُسُلي، ويَعْدِلُون بي خَلْقي وهم يَعلمونَ من أيِّ شَيءٍ خَلَقْتُهم؟! ويُشْبِهُ هذا قولَه تعالى: ﴿نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ﴾ [الواقعة: ٥٧]، وهم كانوا مُصَدِّقينَ بأنَّه خالِقُهم، ولكنِ

= (٤/ ٤٣٩).

وقال ابنُ جرير: (يُوعَدونَ في الدُّنيا أنَّهم لاقُوه في الآخِرةِ). ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٨٧).

(١) يُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٢٠٠).

احتجَّ عليهم بخَلْقِه لهم على تَوحيدِه ومعرفتِه وصِدْقِ رُسُلِه، والإيمانِ بالمَعادِ، وهو سُبحانَه يُذَكِّرُ عبادَه بنِعَمِه عليهم، ويَدعوهم بها إلى مَعرفتِه ومحبَّتِه، وتصديقِ رُسُلِه، والإيمانِ بلِقائه[1].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ﴾ جاء المشرقُ والمغربُ في القرآنِ: تارةً مجموعَينِ، وتارةً مُثنَّيينِ، وتارةً مُفرَدينِ، ووجْهُ ذلك: اختِصاصُ كلِّ محَلٍّ بما يَقتضيه مِن ذلك؛ فالأوَّلُ: كقولِه: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ﴾، والثَّاني: كقولِه: ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ * فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: ١٧، ١٨]، والثَّالثُ: كقولِه: ﴿رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ [المزمل: ٩]، فتأمَّلْ هذه الحكمةَ البالغةَ في تغايُرِ هذه المواضعِ في الإفرادِ والجمعِ والتَّثنيةِ بحسَبِ مواردِها يُطْلِعْك على عظَمةِ القرآنِ الكريمِ وجلالتِه؛ وأنه تنزيلٌ مِن حكيمٍ حميدٍ، فحيثُ جُمِعَتْ كان المرادُ بها مَشارِقَ الشَّمسِ ومَغارِبَها في أيَّامِ السَّنَةِ -وهي متعدِّدةٌ-، وحيثُ أُفْرِدَتْ كان المرادُ أُفُقَي المشرقِ والمغربِ، وحيثُ ثُنِّيَا كان المرادُ مَشرِقَيْ صُعودِها وهُبوطِها ومَغرِبَيْهما؛ فإنَّها تَبْتَدِئُ صاعدةً حتَّى تنتهيَ إلى غايةِ أَوْجِها وارتفاعِها؛ فهذا مَشْرِقُ صُعودِها، ويَنْشَأُ منه فصْلَا الخريفِ والشِّتاءِ؛ فجَعَلَ مَشْرِقَ صُعودِها بجملتِه مَشرِقًا واحدًا؛ ومَشرِقَ هُبوطِها بجملتِه مَشرِقًا واحدًا، ويُقابِلُها مَغْرِباها، فهذا وجهُ اختلافِ هذه في الإفرادِ والتَّثنيةِ والجمعِ[2]. وذلك على قولٍ.

٣- في قَولِه تعالى: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ﴾ مُناسَبةٌ في ذِكْرِ مجيئِهما مجموعَينِ: أنَّه لَمَّا كان هذا القَسَمُ في سياقِ سَعَةِ رُبوبيَّتِه، وإحاطةِ قدرتِه،

(١) يُنظر: ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٣٦).

(٢) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (١/ ١٢١). ويُنظر ما تقدَّم (ص: ٢١١).

والمُقْسَمُ عليه إذهابُ هؤلاءِ والإتيانُ بخيرٍ منهم؛ ذَكَر المَشارِقَ والمغاربَ لِتَضمُّنِهما انتِقالَ الشَّمسِ -الَّتي هي أحدُ آياتِه العظيمةِ الكبيرةِ- ونَقْلَه سُبحانَه لها وتصريفَها كلَّ يومٍ في مشرقٍ ومغربٍ -وذلك على قولٍ-؛ فمَن فَعَلَ هذا كيف يُعجِزُه أنْ يُبَدِّلَ هؤلاء، ويَنقُلَ إلى أمكنتِهم خيرًا منهم؟! وأيضًا فإنَّ تأثيرَ مَشارِقِ الشَّمسِ ومَغاربِها في اختلافِ أحوالِ النَّباتِ والحيوانِ أمْرٌ مشهودٌ؛ وقد جَعَل اللهُ تعالى ذلك بحِكمتِه سببًا لِتَبَدُّلِ أجسامِ النَّباتِ وأحوالِ الحيواناتِ، وانتقالِها مِن حالٍ إلى غيرِه، ويُبَدِّلُ الحَرَّ بالبردِ والبردَ بالحَرِّ، والصَّيفَ بالشِّتاءِ والشِّتاءَ بالصَّيفِ؛ إلى سائرِ تَبَدُّلِ أحوالِ الحيوانِ والنَّباتِ والرِّياحِ والأمطارِ والثُّلوجِ وغيرِ ذلك مِن التَّبدُّلاتِ والتَّغيُّراتِ الواقعةِ في العالَمِ بسببِ اختلافِ مَشارِقِ الشَّمسِ ومَغاربِها، كلُّ ذلك تقديرُ العزيزِ العليمِ؛ فكيف لا يَقدِرُ -مع ما يَشْهَدونَه مِن ذلك- على أنْ يُبَدِّلَ خيرًا منهم؟! وأَكَّدَ هذا المعنى بقولِه: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾، فلا يليقُ بهذا الموضعِ سِوى لفظةِ الجَمعِ(١).

٤- قال تعالى: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ﴾، إنَّ تَعدُّدَ مَطالعِ الشَّمسِ ومَغارِبِها في فُصولِ السَّنةِ مَظهَرٌ عَجيبٌ مِن مَظاهِرِ القُدرةِ الإلهيَّةِ والحِكمةِ الرَّبَّانيَّةِ؛ لدَلالتِه على عَظيمِ صُنعِ اللهِ مِن حيث إنَّه دالٌّ على الحرَكاتِ الحافَّةِ بالشَّمسِ الَّتي هي مِن عَظيمِ المَخلوقاتِ؛ ولذلك لم يُذكَرْ في القرآنِ قَسَمٌ بجهةٍ غيرِ المشرِقِ والمغربِ، دونَ الشَّمالِ والجنوبِ، مع أنَّ الشَّمالَ والجنوبَ جِهتانِ مَشهورتانِ عندَ العرَبِ(٢). وذلك على قولٍ في تفسيرِ الآيةِ.

٥- في قَولِه تعالى: ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ﴾ سُؤالٌ: أنَّ

(١) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (١/ ١٢٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٧٩).

في الآيةِ الكريمةِ أنَّهم كأنَّهم يَعرِفونَ طريقَهم بلا علاماتٍ يَذهَبونَ إليها. فما الجَمعُ مع قَولِه تعالى: ﴿خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ﴾ [القمر: ٧]؟

الجوابُ: أنَّ يومَ القيامةِ خمسونَ ألْفَ سَنةٍ، وأنَّ الأحوالَ تتغيَّرُ؛ فهم كأنَّهم جرادٌ مُنتَشِرٌ، ثُمَّ بعدَ ذلك يَهتَدونَ إلى الطَّريقِ ويَسعَونَ(١).

٦- قال الله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ﴾ في خِتامِ السُّورةِ الكريمةِ بهذا الوَصفِ والوعيدِ الشَّديدِ: تأييدٌ للقَولِ بأنَّ سُؤالَهم في أوَّلِها ﴿بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾ إنَّما هو استِخفافٌ واستِبعادٌ، فبيَّن لهم تعالى بعدَ عَرضِ السُّورةِ نهايةَ ما يُستَقبَلونَ به؛ لِيَأخُذوا حِذْرَهم، ويَرجِعوا إلى رَبِّهم؛ فارتبَطَ آخِرُ السُّورةِ بأوَّلِها(٢)!

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ * عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ * أَيَطْمَعُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ﴾ فُرِّعَ استِفهامٌ إنكاريٌّ وتَعجيبيٌّ مِن تَجمُّعِ المشرِكين إلى النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مُستهزئينَ بما يَسمَعون من وَعْدِ المؤمِنينَ بالجنَّةِ، ووَعيدِ المشركينَ بعَذابِ جهنَّمَ؛ فُرِّعَ ذلك على ما أفادَه في قولِه: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ فِى جَنَّٰتٍ مُّكْرَمُونَ﴾ [المعارج: ٣٥]، والمعْنى: أنَّ الَّذين كفَروا لا مَطمَعَ لهم في دُخولِ الجنَّةِ، فماذا يُحاوِلون بتَجمُّعِهم حولَك بمَلامحِ استِهزائِهم(٣)؟!

- وتَقديمُ الظَّرفِ ﴿قِبَلَكَ﴾ على ﴿مُهْطِعِينَ﴾ للاهتِمام به؛ لأنَّ التَّعجيبَ من حالِهم في حَضْرةِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أقْوى؛ لِما فيهم من الوَقاحةِ(٤).

(١) يُنظر: ((لقاء الباب المفتوح)) لابن عثيمين (اللقاء رقْم: ١٨٢).
(٢) يُنظر: ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٨/ ٣٠٥).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٧٥).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ١٧٦).

- والمَقصودُ مِن ذِكرِ اليمينِ الإحاطةُ بالجِهاتِ، فاكتُفِيَ بذِكرِ اليمينِ والشِّمالِ؛ لأنَّهما الجِهتانِ اللَّتانِ يَغلِبُ حُلولُهما[1].

- قولُه: ﴿فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قِبَلَكَ مُهۡطِعِينَ﴾ إلى قولِه: ﴿جَنَّةَ نَعِيمٖ﴾ يجوزُ أنْ يكونَ شُبِّهَ حالُهم في إسراعِهم إلى النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بحالِ مَن يُظَنُّ بهم الاجتماعُ لطَلَبِ الهُدى والتَّحصيلِ على المَغفرةِ؛ ليَدخُلوا الجنَّةَ؛ لأنَّ الشَّأنَ ألَّا يَلتَفَّ حوْلَ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ إلَّا طالِبو الاهتداءِ بهَدْيِه، والاستِفهامُ على هذا مُستعمَلٌ في أصلِ معْناهُ. ويجوزُ أنْ يكونَ الكلامُ استِفهامًا مُستعمَلًا في التَّعجيبِ مِن حالِ إسراعِهم ثمَّ تَكذيبِهم واستهزائِهم[2].

- وجُملةُ ﴿أَيَطۡمَعُ كُلُّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُمۡ أَن يُدۡخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٖ﴾ بدَلُ اشتمالٍ عن جُملةِ ﴿فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قِبَلَكَ مُهۡطِعِينَ﴾ الآيةَ؛ لأنَّ الْتِفافَهم حوْلَ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ شأْنُه أنْ يكونَ لطلَبِ الهُدى والنَّجاةِ؛ فشُبِّه حالُهم بحالِ طالِبي النَّجاةِ والهُدى، فأُورِدَ استِفهامٌ عليه[3].

- قولُه: ﴿أَيَطۡمَعُ كُلُّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُمۡ أَن يُدۡخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٖ﴾ قال المشرِكون مُستهزِئينَ: نحن نَدخُلُ الجنَّةَ قبْلَ المسلِمينَ، فجاز أنْ يكونَ الاستفهامُ إنكارًا لتَظاهُرِهم بالطَّمَعِ في الجنَّةِ بحمْلِ استهزائِهم على خِلافِ مُرادِهم، على طَريقةِ الأُسلوبِ الحكيمِ[4]، أو بالتَّعبيرِ بفِعلِ (يَطمَعُ) عن التَّظاهُرِ بالطَّمَعِ[5].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٧٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) تقدَّم تعريفُه (ص: ١٤٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٤٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٧٧، ١٧٨)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٢١٨).

- وأُسنِدَ الطمعُ إلى ﴿كُلُّ ٱمْرِيٍٕ﴾ منهم دونَ أنْ يُقالَ: (أيطْمَعون أنْ يَدخُلوا الجنَّةَ؟!) تَصويرًا لحالِهم بأنَّها حالُ جَماعةٍ يُريدُ كلُّ واحدٍ منهم أنْ يَدخُلَ الجنَّةَ، لتَساويهم يَرَون أنفُسَهم سَواءً في ذلك، ففي قولِه: ﴿كُلُّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ﴾ تقويةُ التَّهكُّمِ بهم[1].

٢- قولُه تعالَى: ﴿كَلَّآ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ﴾ بُنِيَ على التَّهكُّمِ في قولِه: ﴿أَيَطْمَعُ كُلُّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ﴾ ما يُبطِلُ ما فُرِضَ لحالِهم بما بُنِيَ عليه بكَلمةِ الرَّدْعِ، وهي ﴿كَلَّآ﴾، أي: لا يكونُ ذلك، وذلك انتقالٌ مِن التَّهكُّمِ بهم إلى تَوبيخِهم؛ دفْعًا لتَوهُّمِ مَن يَتوهَّمُ أنَّ الكلامَ السابقَ لم يكُنْ تَهكُّمًا[2].

- قولُه: ﴿كَلَّآ﴾ ردْعٌ لهم عن طَمَعِهم في دُخولِ الجنَّةِ، ثم عَلَّلَ ذلك بقولِه: ﴿إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ﴾ إلى آخِرِ السُّورةِ، وهو كلامٌ دالٌّ على إنكارِهم البعثَ، فكأنَّه قال: كلَّا إنَّهم مُنكِرونَ للبَعثِ والجَزاءِ، فمِن أين يَطمَعون في دُخولِ الجنَّةِ[3]؟!

- قولُه: ﴿إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ﴾ كَلامٌ مُستأنَفٌ استِئنافًا ابتدائيًّا للانتقالِ مِن إثباتِ الجَزاءِ إلى الاحتجاجِ على إمكانِ البعثِ؛ إبطالًا لشُبْهتِهم الباعثةِ على إنكارِه، وهو الإنكارُ الذي ذُكِرَ إجمالًا بقولِه المتقدِّمِ آنِفًا: ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا * وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا﴾ [المعارج: ٦، ٧]، فاحتجَّ عليهم بالنَّشأةِ الأُولى، فالخبَرُ بقولِه: ﴿إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ﴾ مُستعمَلٌ في لازِمِ معْناه، وهو إثباتُ إعادةِ خلْقِهم بعْدَ فَنائِهم، فهذا مِن تَمامِ الخِطابِ المُوجَّهِ إلى النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٧٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦١٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٤٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٣٤)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٢١٨).

وسلَّمَ، والمقصودُ منه أنْ يُبلَّغَ إلى أسماعِ المشركينَ[(١)].

- ويجوزُ أنْ يُرادَ: إنَّا خلَقْناهم ممَّا يَعلَمون، أي: مِن النُّطفةِ المَذِرةِ، وهي مَنصِبُهم الذي لا مَنصِبَ أوضَعُ منه؛ ولذلك أُبهِمَ وأُخفِيَ؛ إشعارًا بأنَّه مَنصِبٌ يُسْتحيا مِن ذِكرِه، فمِن أينَ يَتشرَّفون ويدَّعون التَّقدُّمَ، ويَقولونَ: لنَدخُلَنَّ الجنَّةَ قبْلَهم[(٢)]؟!

- وفيه مَناسَبةٌ حسَنةٌ، حيثُ عُدِلَ هنا عن أنْ يُقالَ: (إنَّا خلَقْناهم مِن نُطفةٍ)، كما قال في آياتٍ أُخرى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ﴾ [الإنسان: ٢] وقال: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَـٰنُ أَنَّا خَلَقْنَـٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ * وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَـٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ﴾ [يس: ٧٧، ٧٨]، وغيرِها مِن آياتٍ كثيرةٍ؛ عُدِلَ عن ذلك إلى الموصولِ في قولِه: ﴿مِّمَّا يَعْلَمُونَ﴾ تَوجيهًا للتَّهكُّمِ بهم؛ إذ جادَلوا وعانَدوا، وعِلْمُ ما جادَلوا فيه قائمٌ بأنفُسِهم وهم لا يَشعُرون! ومنه قولُه تعالَى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الواقعة: ٦٢]. وكان في قولِه تعالَى: ﴿مِّمَّا يَعْلَمُونَ﴾ إيماءٌ إلى أنَّهم يُخلَقون الخلْقَ الثَّانيَ ممَّا لا يَعلَمونَ، كما قال في الآيةِ الأُخرى: ﴿سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يس: ٣٦]، وقال: ﴿وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الواقعة: ٦١]، فكان في الخلْقِ الأوَّلِ سِرٌّ لا يَعلَمونَه[(٣)].

- ومَجيءُ ﴿إِنَّا خَلَقْنَـٰهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ﴾ مُؤكَّدًا بحرْفِ التَّأكيدِ؛ لتَنزيلِهم فيما

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٣٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٧٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦١٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٤٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٣٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٧٩).

صَدَر منهم مِن الشُّبهةِ الباطلةِ مَنزلةَ مَن لا يَعلَمون أنَّهم خُلِقوا مِن نُطفةٍ وكانوا مَعدومين؛ فكيف أحالوا إعادةَ خلْقِهم بعْدَ أنْ عُدِمَ بَعضُ أجزائِهم، وبقِيَ بَعضُها[١]؟!

- وأُتبِعَ الكنايةُ عن إمكانِ إعادةِ الخلْقِ بالتَّصريحِ بذلك بقولِه: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِرَبِّ ٱلۡمَشَٰرِقِ وَٱلۡمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ * عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيۡرًا مِّنۡهُمۡ وَمَا نَحۡنُ بِمَسۡبُوقِينَ﴾ مُفرَّعًا على قولِه: ﴿إِنَّا خَلَقۡنَٰهُم مِّمَّا يَعۡلَمُونَ﴾، والتَّقديرُ: فإنَّا لَقادِرون... الآيةَ[٢].

٣- قولُه تعالَى: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِرَبِّ ٱلۡمَشَٰرِقِ وَٱلۡمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ * عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيۡرًا مِّنۡهُمۡ وَمَا نَحۡنُ بِمَسۡبُوقِينَ﴾

- قولُه: (لَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ) مُعترِضٌ بيْنَ الفاءِ وما عطَفَتْه، والقسَمُ باللهِ بعُنوانِ رُبوبيَّتِه المَشارِقَ والمغاربَ معْناه: رُبوبيَّتُه العالَمَ كلَّه؛ لأنَّ العالَمَ مُنحصِرٌ في جِهاتِ شُروقِ الشَّمسِ وغُروبِها[٣].

- وفي إيثارِ المشارقِ والمغاربِ بالقسَمِ بربِّها رَعْيٌ لمُناسَبةِ طُلوعِ الشَّمسِ بعْدَ غُروبِها؛ لتَمثيلِ الإحياءِ بعْدَ الموتِ[٤].

- وقولُه: ﴿عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيۡرًا مِّنۡهُمۡ﴾ يَحتمِلُ مَعنيينِ؛ أوَّلُهما: أنْ يكونَ المعْنى: على أنْ نُبدِّلَهم خيرًا منهم، أي: نُبدِّلَ ذَواتِهم خلْقًا خيرًا مِن خلْقِهم الَّذي هم عليه اليومَ. والخيريَّةُ في الإتقانِ والسُّرعةِ ونحْوِهما، وإنَّما كان خلْقًا أتقَنَ مِن النَّشأةِ الأُولى؛ لأنَّه خلْقٌ مُناسِبٌ لعالَمِ الخُلودِ، وكان الخلْقُ الأوَّلُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٧٩).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

مُناسِبًا لعالَم التَّغيُّرِ والفَناءِ، وعلى هذا الوجْهِ يكونُ ﴿نُّبَدِّلَ﴾ مُضمَّنًا معْنى: نُعوِّضُ، ويكونُ المفعولُ الأوَّلُ لـ﴿نُّبَدِّلَ﴾ ضميرًا مِثلَ ضَميرِ ﴿مِّنْهُمْ﴾، أي: نُبدِّلَهم، والمفعولُ الثَّاني ﴿خَيْرًا مِّنْهُمْ﴾، و(مِن) تَفضيليَّةً، أي: خيرًا في الخِلْقةِ، والتَّفضيلُ باعتبارِ اختلافِ زَمانَيِ الخلْقِ الأوَّلِ والخلْقِ الثَّاني، أو اختلافِ عالَمَيْهما. والمعْنى الثَّاني: أنْ نُبدِّلَ هؤلاء بخَيرٍ منهم، أي: بأُمَّةٍ خيرٍ منهم، والخيريَّةُ في الإيمانِ، فيكونُ (نُبدِّل) على أصلِ معْناه، ويكونُ مفعولُه مَحذوفًا مِثلَ ما في المعْنى الأوَّلِ، ويكونُ ﴿خَيْرًا﴾ مَنصوبًا على نَزْعِ الخافضِ، وهو باءُ البَدليَّةِ، ويكونُ هذا تَهديدًا لهم بأنْ سيَستأْصِلَهم، ويأتِيَ بقومٍ آخَرينَ، وفي هذا تَثبيتٌ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ وتَذكيرٌ بأنَّ اللهَ عالِمٌ بحالِهم[1].

- قولُه: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾ تَذييلٌ[2].

٤- قولُه تعالَى: ﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ﴾ تَفريعٌ على ما تَضمَّنَه قولُه: ﴿فَمَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ﴾ [المعارج: ٣٦] مِن إرادتِهم بفِعلِهم ذلك وقولِهم: إنَّنا نَدخُلُ الجنَّةَ، الاستهزاءَ بالقُرآنِ والنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ. وبعْدَ إبطالِه إجْمالًا وتَفصيلًا فُرِّعَ عن ذلك أمْرُ اللهِ رسولَه بتَرْكِهم؛ للعِلمِ بأنَّهم لم يُجْدِ فيهم الهدْيُ والاستِدلالُ، وأنَّهم مُصِرُّون على العِنادِ والمُناوأةِ[3].

- ومعْنى الأمْرِ بالتَّركِ في قولِه: ﴿فَذَرْهُمْ﴾ أنَّه أمْرٌ بتَرْكِ ما أهمَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مِن عِنادِهم وإصرارِهم على الكُفْرِ معَ وُضوحِ الحُجَجِ على

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٨٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ١٨١).

إثباتِ البعثِ، ولَمَّا كان أكبَرُ أسبابِ إعراضِهم وإصرارِهم على كُفْرِهم هو خَوضَهم ولَعِبَهم؛ كُنِّيَ به عن الإعراضِ بقولِه: ﴿يَخُوضُواْ وَيَلۡعَبُواْ﴾[1].

- وتَعديةُ فِعلِ (ذَرْ) إلى ضَميرِهم مِن قَبيلِ تَوجُّهِ الفِعلِ إلى الذَّاتِ، والمرادُ تَوجُّهُه إلى بَعضِ أحوالِها الَّتي لها اختصاصٌ بذلك الفِعلِ، وقد يُتوسَّلُ مِن الأمْرِ بالتَّركِ إلى الكِنايةِ عن التَّحقيرِ، وقِلَّةِ الاكتراثِ، وما في هذه الآيةِ مِن ذلك الأُسلوبِ، أي: لا تَكترِثْ بهم؛ فإنَّهم دونَ أنْ تَصرِفَ هِمَّتَك في شأْنِهم[2].

- وجُزِمَ ﴿يَخُوضُواْ وَيَلۡعَبُواْ﴾ في جَوابِ الأمْرِ للمُبالَغةِ في ارتباطِ خَوضِهم ولَعِبِهم بقِلَّةِ الاكتراثِ بهم؛ إذْ مُقْتضى جَزْمِه في الجوابِ أنْ يُقدَّرَ: إنْ تَذَرْهم يَخوضوا ويَلْعَبوا، أي: يَستمِرُّوا في خَوضِهم ولَعِبِهم، وذلك لا يَضيرُك[3].

- و(حتَّى) مُتعلِّقةٌ بـ(ذَرْهُم) لِما فيه مِن معْنى: أمْهِلْهم وانتظِرْهم؛ فإنَّ اليومَ الَّذي وُعِدوه هو يومُ النُّشورِ حينَ يُجازَون على استهزائِهم وكُفْرِهم، فلا يكونُ غايةً لـ﴿يَخُوضُواْ وَيَلۡعَبُواْ﴾، والغايةُ هنا كِنايةٌ عن دَوامِ تَرْكِهم[4].

٥- قولُه تعالَى: ﴿يَوۡمَ يَخۡرُجُونَ مِنَ ٱلۡأَجۡدَاثِ سِرَاعٗا كَأَنَّهُمۡ إِلَىٰ نُصُبٖ يُوفِضُونَ﴾

- لَفظُ ﴿يُوفِضُونَ﴾ مُضارِعُ (أوفَضَ)؛ إذا أسرَعَ وعَدَا في سَيرِه، أي: كأنَّهم ذاهِبون إلى صَنَمٍ، شُبِّه إسراعُهم يومَ القِيامةِ إلى الحشرِ بإسراعِهم في الدُّنيا إلى الأصنامِ لزيارتِها؛ لأنَّ لهذا الإسراعِ اختصاصًا بهم، وفي هذا التَّشبيهِ إدماجٌ[5] لتَفظيعِ حالِهم في عِبادةِ الأصنامِ، وإيماءٌ إلى أنَّ إسراعَهم يومَ القيامةِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٨١).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ١٨١، ١٨٢).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ١٨٢).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ١٨٣).
(٥) تقدَّم تعريفُه (ص: ٤٦).

إسراعُ دَعٍّ ودفْعٍ؛ جَزاءً على إسراعِهم للأصنامِ[١].

٦- قولُه تعالَى: ﴿خَٰشِعَةً أَبۡصَٰرُهُمۡ تَرۡهَقُهُمۡ ذِلَّةٞۚ ذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمُ ٱلَّذِي كَانُواْ يُوعَدُونَ﴾

- قولُه: ﴿خَٰشِعَةً أَبۡصَٰرُهُمۡ﴾ وُصِفَتْ أبصارُهم بالخُشوعِ معَ أنَّه وَصْفُ الكلِّ؛ لغايةِ ظُهورِ آثارِه فيها[٢].

- وجُملةُ ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمُ ٱلَّذِي كَانُواْ يُوعَدُونَ﴾ فَذْلَكةٌ[٣] لِما تَضمَّنَته السُّورةُ في أوَّلِ أغراضِها مِن قولِه: ﴿بِعَذَابٖ وَاقِعٖ﴾ [المعارج: ١] إلى قولِه: ﴿فِي يَوۡمٖ كَانَ مِقۡدَارُهُۥ خَمۡسِينَ أَلۡفَ سَنَةٖ﴾ الآياتِ [المعارج: ١- ٤]، وهي مُفيدةٌ معَ ذلك تأْكيدَ جُملةِ ﴿حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوۡمَهُمُ ٱلَّذِي يُوعَدُونَ﴾ [المعارج: ٤٢]. وفيها مُحسِّنُ رَدِّ العَجُزِ على الصَّدرِ[٤].

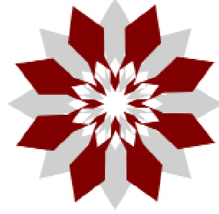


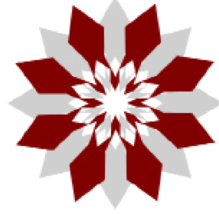
(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٨٣).

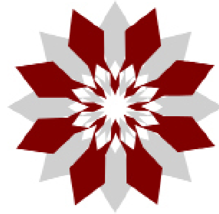
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٨).

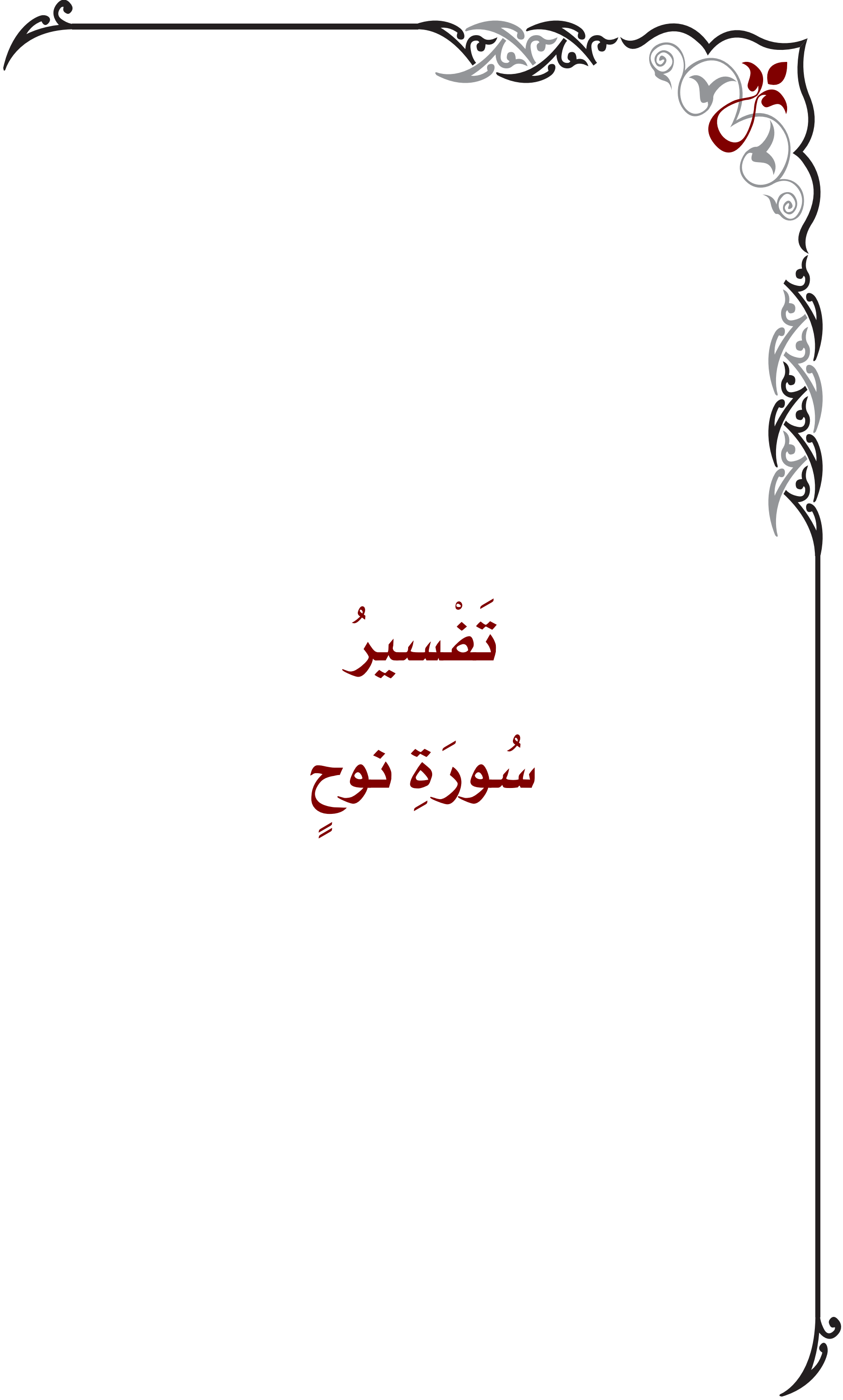
(٣) تقدَّم تعريفُه (ص: ٣٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٨٤).
رَدُّ العَجُز على الصَّدرِ تقدَّم تعريفُه (ص: ٢٠١).



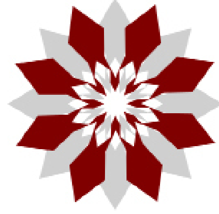


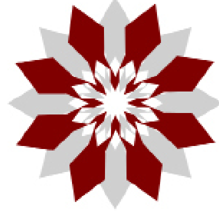


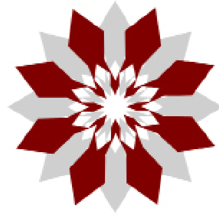


تَفْسِيرُ

سُورَةِ نوحٍ







سورةُ نوحٍ

أسماءُ السُّورةِ:

سُمِّيَت هذه السُّورةُ بسُورةِ (نوحٍ)(١).

بيانُ المَكِّيِّ والمَدَنيِّ:

سُورةُ (نوح) مكِّيَّةٌ، ونقَلَ الإجماعَ على ذلك غيرُ واحدٍ مِن المفسِّرينَ(٢).

مَقاصِدُ السُّورةِ:

مِن أهَمِّ مَقاصِدِ السُّورة:

ضَرْبُ المَثَلِ للمشركينَ بقَومِ نُوحٍ، وهمْ أوَّلُ المشركينَ(٣).

مَوضوعاتُ السُّورةِ:

مِن أهمِّ المَوضوعاتِ الَّتي اشتَمَلَتْ عليها السُّورةُ:

١- ذِكرُ دَعوةِ نوحٍ عليه السَّلامُ قومَه وما قالَه لهم.

٢- ذِكرُ الطُّرقِ الَّتي سَلَكَها نوحٌ عليه السَّلامُ مع قَومِه في دَعوتِهم؛ كالتَّرغيبِ والتَّرهيبِ، وتَذكيرِهم بخَلْقِهم، ودَعوتِهم إلى التَّأمُّلِ والتَّفكُّرِ في نِعَمِ اللهِ عليهم، والاستِدلالِ ببَدائعِ صُنْعِ اللهِ تَعالى، والتَّذكيرِ بيومِ البعْثِ.

---

(١) سُمِّيت السُّورةُ بذلك؛ لذِكرِ نُوحٍ عليه السَّلامُ في مُفتتَحِها ومُختتَمِها، وذِكرِ قصَّتِه مع قَومِه، ودَعْوتِه لهم. ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٤٨٢).

قال السعديُّ: (لم يَذكُرِ اللهُ في هذه السُّورةِ سوى قصَّةِ نوحٍ وحْدَها؛ لطُولِ لُبْثِه في قَومِه، وتَكرارِ دَعوتِه إلى التَّوحيدِ، ونَهْيِه عن الشِّركِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٨).

(٢) ممَّن نقَلَ الإجماعَ على ذلك: ابنُ عطيَّةَ، وابنُ الجَوزيِّ، والبِقاعيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٤٣)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٣٤١)، ((مصاعد النظر)) للبقاعي (٣/ ١٢٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٨٥).

٣- بَيانُ مَوقفِ قومِ نوحٍ عليه السَّلامُ مِن دَعوتِه، وتَصميمِهم على عِصيانِه، وتَمسُّكِهم بشِرْكِهم، وعِقابِهم في الدُّنيا والآخِرةِ.

٤- دُعاءُ نُوحٍ عليه السَّلامُ على قَومِه بالاستِئصالِ.

٥- دُعاءُ نُوحٍ عليه السَّلامُ بالمغفرةِ له ولِوالِدَيه وللمؤمِنينَ، وبالتَّبَارِ للكافِرين.



الآيات (١-٤)

﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦٓ أَنۡ أَنذِرۡ قَوۡمَكَ مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ١ قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي لَكُمۡ نَذِيرٞ مُّبِينٌ ٢ أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ٣ يَغۡفِرۡ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ وَيُؤَخِّرۡكُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمًّىۚ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُۖ لَوۡ كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٤﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿نَذِيرٞ﴾: أي: مُنذِرٌ مُخَوِّفٌ، وأصلُ (نذر): يدُلُّ على تخويفٍ[١].

﴿أَجَلٖ مُّسَمًّى﴾: أي: مُعَيَّنٍ، مَعلومٍ سَمَّاهُ اللهُ للأعمارِ، والأجَلُ: غايةُ الوَقتِ، والمدَّةُ المضروبةُ للشَّيءِ في الموتِ وغَيرِه[٢].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مخبرًا عن نبيِّه نوحٍ عليه السَّلامُ: إنَّا أرسَلْنا نوحًا إلى قَومِه المُشرِكينَ بأنْ حذِّرْ قَومَك مِنَ الاستِمرارِ على شِرْكِهم، مِن قبْلِ أن يأتيَهم عذابٌ أليمٌ.

ثمَّ يَحكي سُبحانَه بعْدَ ذلك ما قاله نوحٌ عليه السَّلامُ لقَومِه، فيقولُ: قال نوحٌ مُبَلِّغًا رسالةَ رَبِّه: يا قَومِ، إنِّي نَذيرٌ لكم ظاهِرُ النِّذارةِ، آمُرُكم بعِبادةِ اللهِ وَحْدَه، وعَدَمِ الإشراكِ به شَيئًا، وآمُرُكم أن تتَّقُوه وتُطيعوني؛ فإنَّكم إنْ فعَلْتُم ذلك يَغفِرْ لكم مِن ذُنوبِكم، ولا يُعاجِلْكم بعذابِ الاستِئصالِ، وإنَّما يُعافيكم إلى منتَهى آجالِكم المُقَدَّرةِ، إنْ آمَنْتُم وأطَعْتُم، إنَّ أجَلَ اللهِ الَّذي حَدَّده لِمَوتِ كُلِّ أحدٍ مِن

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٦٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤١٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٨٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٣٢).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٥٠، ١٥٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٦٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٣٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٩٣، ٤٠٦، ٤١٨)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٩ - ٥٠، ٨٨٢).

خَلْقِه: لا يُؤخَّرُ عن وَقتِه، لو كنتُم تَعلَمونَ!

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦٓ أَنۡ أَنذِرۡ قَوۡمَكَ مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ١﴾.

﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦٓ أَنۡ أَنذِرۡ قَوۡمَكَ﴾.

أي: إنَّا أرسَلْنا نوحًا إلى قَومِه المُشرِكينَ بأنْ حذِّرْ قَومَك مِنَ الاستِمرارِ على شِرْكِهم[1].

كما قال تعالى: ﴿لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ﴾ [الأعراف: ٥٩].

﴿مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾.

أي: مِن قبْلِ أن يأتيَهم عذابٌ مُؤلِمٌ في غايةِ الإيلامِ[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٨٨)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٤٩٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٤٢٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٨٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٥٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٧٢)، ((الفواتح الإلهية)) لعلوان (٢/ ٤٤٦).

قال ابن عرفة: (﴿يَأۡتِيَهُمۡ﴾ ولم يقُلْ: يَنزِلَ بهم؛ إمَّا إشارةٌ إلى أنَّه يَقصِدُهم ويَنزِلُ بسَبَبِهم، أو أنَّه يأتيهم مِن كُلِّ الجهاتِ). ((تفسير ابن عرفة)) (٤/ ٢٩٣).

قال الماوَرْدي: (﴿عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ فيه وجْهانِ؛ أحدُهما: يعني: عذابَ النَّارِ في الآخرةِ، قاله ابنُ عبَّاسٍ. الثَّاني: عذابُ الدُّنيا، وهو ما يَنزِلُ عليهم بعْدَ ذلك مِن الطُّوفانِ، قاله الكلبيُّ). ((تفسير الماوردي)) (٦/ ٩٨).

وممَّن قال بأنَّ المرادَ بالعَذابِ هنا: الطُّوفانُ الَّذي غرَّقَهم اللهُ تعالى به: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، والواحديُّ، وابن عطية، والخازن، والقاسمي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٤٤٩)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٨٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٥٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٧٢)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٣٤٤)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٣٢٢). =

كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ١٤].

وقال سُبحانَه: ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٔـٰتِهِمْ أُغْرِقُوا۟ فَأُدْخِلُوا۟ نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا۟ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارًا﴾ [نوح: ٢٥].

﴿قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝٢﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا أخبَرَ اللهُ تعالى عن رسالةِ نُوحٍ عليه السَّلامُ ومَضمونِها، بما أعلَمَ مِن أنَّ الفَسادَ كان غالِبًا عليهم؛ بيَّنَ امتِثالَه[1].

﴿قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝٢﴾.

أي: قال نوحٌ مُمتثِلًا ما أمَرَه اللهُ تعالى به: يا قَومِ، إنِّي نَذيرٌ لكم ظاهِرُ النِّذارةِ، أُخَوِّفُكم عذابَ اللهِ إن عبَدْتُم غيرَه، وأبَيِّنُ لكم ما أرسَلَني اللهُ به[2].

كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝ أَن لَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾ [هود: ٢٥، ٢٦].

﴿أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ۝٣﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان تَركُ ما أنذَرَهم بسَبَبِه مِنَ الكُفرِ لا يُغْنيهم إلَّا إن آمَنوا، وكان الإيمانُ

= وممَّن اختار أنَّه عذابُ النَّارِ: الشَّوكانيُّ. يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٥٥).
وقال العُلَيمي: (عذابُ الآخرةِ والطُّوفانُ إن لم يؤمنوا). ((تفسير العليمي)) (٧/ ١٦٩).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٤٢٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٨٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٩٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٣١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٨).

مُخلِّصًا مِن عواقِبِ الإنذارِ؛ لأنَّه لا يَصِحُّ إلَّا معَ تركِ جَميعِ أنواعِ الكُفرِ؛ فَسَّرَ الإنذارَ بقَولِه(١):

﴿ أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ ﴾.

أي: قال نوحٌ لِقَومِه: آمُرُكم بعبادةِ اللهِ وَحْدَه، وعَدَمِ الإشراكِ به شَيئًا(٢).

كما قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ ﴾ [النحل: ٣٦].

﴿ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ﴾.

أي: وآمُرُكم بأن تَجعَلوا بيْنَكم وبيْنَ سَخَطِ اللهِ وعِقابِه حاجزًا يَقيكم ذلك؛ بامتِثالِ ما أمَرَ به، واجتِنابِ ما نَهَى عنه، وآمُرُكم بطاعتي(٣).

كما قال تعالى: ﴿ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ * إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾ [الشعراء: ١٠٦ - ١٠٨].

وقال سُبحانَه: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ [النساء: ٦٤].

﴿ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ ۖ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ ﴾.

﴿ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ ﴾.

أي: فإنَّكم إنْ عَبَدْتُم اللهَ وَحْدَه واتَّقَيْتُموه وأطَعْتُموني، يَمْحُ مِن ذُنوبِكم فلا

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٤٢٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٨٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٩٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٨٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٩٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٣١)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٥٥).

يُؤاخِذْكم بها[١].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٨٩)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٢/ ٧٧٢٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٣١)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٣٢٢).

اختلَف المفَسِّرون في معنى ﴿مِن﴾؛ فقيل: هي صِلةٌ للتَّأكيدِ. وممَّن ذهب إلى هذا: مقاتلُ ابنُ سُلَيمانَ، وابنُ أبي زَمَنِين، والثعلبيُّ، والواحديُّ. وضَعَّفَ هذا القولَ: مكِّيُّ بنُ أبي طالبٍ، وابنُ كثيرٍ؛ لأنَّ زيادتَها في غيرِ النَّفيِ قليلٌ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٤٤٩)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٥/ ٣٩)، ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ٤٤)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١١٣٥)، ((الهداية)) لمكي (١٢/ ٧٧٢٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٣١).

وقيل: هي بمعنى: عن. وهو ظاهرُ اختيارِ الفرَّاءِ، وذهب إليه: ابنُ جريرٍ، ومكِّيٌّ. والمعنى: يَصفَحْ لكم عن ذُنوبِكم. يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ١٨٧)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٨٩)، ((الهداية)) لمكي (١٢/ ٧٧٢٩).

قال ابن عطيَّة: (وهذا غيرُ معروفٍ في أحكامِ «مِن»). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٧٢).

وقيل: هي لبيانِ الجِنسِ، واختاره القُشَيْريُّ، وردَّه الزَّجَّاجُ، وضعَّفه مكيُّ بنُ أبي طالبٍ، والقُرطبيُّ؛ لكَونِه لم يَتقدَّمْ جِنسٌ يليقُ به بحيث تُبَيِّنُه «مِن» بما بَعْدَه. يُنظر: ((تفسير القشيري)) (٣/ ٦٣٥)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٥/ ٢٢٨)، ((الهداية)) لمكي (١٢/ ٧٧٢٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٩٩).

وممَّن ذهب إلى أنَّها للتَّبعيضِ: ابنُ عطيَّة، وصحَّحه ابنُ جُزَي، واختاره أبو حيَّانَ، والشَّوكانيُّ، والمعنى: يَغفِرْ لكم ذُنوبَكم الماضيةَ قبْلَ الإسلامِ؛ فهي بعضُ ذُنوبِهم، ولم يَضمَنِ اللهُ لهم مغفرةَ ذُنوبِهم المتأخِّرةِ بعْدَ إسلامِهم؛ فهي تحتَ مشيئةِ اللهِ تعالى. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٧٢)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤١٣)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٨٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٥٦).

وقيل: المرادُ بالبعضِ: ما لا يتعلَّقُ بحُقوقِ العبادِ. يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٥٦).

وقيل: المعنى على ذلك القولِ: يَغفِرْ لكم الذُّنوبَ العِظامَ الَّتي وَعَدكم على ارتِكابِكم إيَّاها الانتِقامَ. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٣١).

قال ابن كثير: (و«مِن» هاهنا قيل: إنَّها زائدةٌ. ولكنَّ القولَ بزيادتِها في الإثباتِ قليلٌ. ومنه قولُ بعضِ العربِ: «قد كان مِن مَطَرٍ». وقيل: إنَّها بمعنَى «عن» تقديرُه: يَصْفَحْ لكم عن ذُنوبِكم، واختارَه ابنُ جريرٍ. وقيل: إنَّها للتَّبعيضِ). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٣١).

﴿وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾.

أي: ولا يُعاجِلْكم اللهُ تعالى بعذابِ الاستِئصالِ الَّذي تَستَحِقُّونَه؛ بسَبَبِ شِرْكِكم، وإنَّما يُعافيكم إلى منتهَى آجالِكم المُقدَّرةِ، إن آمَنْتُم وأطَعْتُم[1].

كما قال تعالى: ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [إبراهيم: ١٠].

﴿إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

أي: إنَّ الأجَلَ الَّذي كتَبَه اللهُ لِمَوتِ كُلِّ أحدٍ مِن خَلْقِه: لا يُؤخَّرُ عن وَقتِه، فلو كنتُم تَعلَمونَ ذلك لَتُبْتُم إلى اللهِ سُبحانَه مِمَّا أنتم عليه مِنَ الشِّركِ به[2].

كما قال اللهُ تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٤].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٩٠)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٥/ ٢٢٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٥٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٣١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٩٢).

وقال البِقاعي: (﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾، أي: قدْ سمَّاه اللهُ وعَلِمه قبْلَ إيجادِكم، فلا يُزادُ فيه ولا يُنقَصُ منه، فيكونُ مَوتُكم على العادةِ مُتفرِّقًا، وإلَّا أخَذَكم جَميعًا بعَذابِ الاستئصالِ. فهذا مِن عِلمِ ما لا يكونُ لو كان كيف يكونُ؛ وذلك أنَّه عَلِم أنَّهم إنْ أطاعوا نُوحًا عليه السَّلامُ كان مَوتُهم على العادةِ، وإلَّا هَلَكوا هَلاكَ نفْسٍ واحدةٍ، وعَلِم أنَّهم لا يُطيعونه، وأنَّ مَوتَهم إنَّما يكونُ بعَذابِ الاستئصالِ). ((نظم الدرر)) (٢٠/ ٤٢٨، ٤٢٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٩٠)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٥/ ٢٢٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٥٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٩٩، ٣٠٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٣١).

قال الواحدي: (﴿إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ﴾ يقولُ: آمِنوا قبْلَ الموتِ تَسْلَموا مِن العُقوباتِ؛ فإنَّ أجَلَ الموتِ إذا حَلَّ لم يُؤخَّرْ، فلا يُمكِنُكم الإيمانُ إذا جاء الأجَلُ). ((الوسيط)) (٤/ ٣٥٦).

وقال سُبحانَه: ﴿وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا﴾ [المنافقون: ١١].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّىۚ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُۖ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ هذا وعدٌ بخيرٍ دُنْيويٍّ يَستوي النَّاسُ في رغبتِه، وهو طولُ البَقاءِ؛ فإنَّه مِنَ النِّعَمِ العظيمةِ؛ لأنَّ في جِبِلَّةِ الإنسانِ حُبَّ البقاءِ في الحياةِ، على ما في الحياةِ مِن عوارِضَ ومُكَدِّراتٍ، وهذا ناموسٌ جعَلَه اللهُ تعالى في جبِلَّةِ الإنسانِ؛ لتَجريَ أعمالُ النَّاسِ على ما يُعِينُ على حِفظِ النَّوعِ[(١)].

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُۖ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ فيه سؤالٌ: ما الفائِدةُ في قَولِه تعالى: ﴿لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾؟

الجوابُ: الغَرَضُ: الزَّجرُ عن حُبِّ الدُّنيا، وعن التَّهالُكِ عليها، والإعراضِ عن الدِّين بسبَبِ حُبِّها، يعني: أنَّ غُلُوَّهم في حُبِّ الدُّنيا، وطَلَبِ لذَّاتِها بَلَغ إلى حيثُ يدُلُّ على أنَّهم شاكُّونَ في المَوتِ[(٢)]!

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال اللهُ تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ﴾ رِسالةُ نُوحٍ عليه السَّلامُ مَقصورةٌ على قَومِه، ومَن قال بعُمومِها فهي للإنسِ فقطْ، وأمَّا الرِّسالةُ العامَّةُ فخاصَّةٌ بنبيِّنا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، والفرْقُ بيْنَهما أيضًا: أنَّ رِسالةَ نُوحٍ عليه السَّلامُ أتَتْ لجَميعِ أهْلِ زَمانِه دونَ مَن بَعْدَهم، ونبيُّنا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لا تَزالُ شَريعتُه ورِسالتُه إلى يومِ قِيامِ السَّاعةِ[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٨٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦٥٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عرفة)) (٤/ ٢٩٣).

٢- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦٓ﴾ ذِكْرُ نوعِ الإرسالِ الدِّينيِّ، ويُقابِلُه الإرسالُ الكَونيُّ، كما في قَولِه تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّآ أَرۡسَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمۡ أَزّٗا﴾[1] [مريم: ٨٣].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦٓ أَنۡ أَنذِرۡ قَوۡمَكَ مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ إلى قَولِه: ﴿يَغۡفِرۡ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ﴾ أنَّ أعمالَ المُشرِكينَ كانت ذُنوبًا قَبْلَ إنذارِ الرُّسُلِ إيَّاهم[2].

٤- إن قيل: كيف قال تعالى: ﴿وَيُؤَخِّرۡكُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمًّى﴾، فإن كان المرادُ به تأخيرَهم عن الأجَلِ المُقدَّرِ لهم في الأزَلِ فهو مُحالٌ؛ لقولِه تعالى: ﴿وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا﴾ [المنافقون: ١١]، وقولِه تعالى: ﴿إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ﴾، وإن كان المرادُ به تأخيرَهم إلى مجيءِ الأجَلِ المُقدَّرِ لهم في الأزَلِ فما فائدةُ تخصيصِهم بهذا وهُم وغيرُهم في ذلك سَواءٌ، على تقديرِ وُجودِ الإيمانِ منهم وعدمِ وُجودِه؟

والجوابُ: أنَّ معناه: ويُؤَخِّرْكم عن العذابِ إلى مُنتهى آجالِكم على تقديرِ الإيمانِ، فلا يُعذِّبْكم في الدُّنيا كما عذَّب غيرَكم مِن الأُمَمِ الكافرةِ.

وقيل: إنَّه سُبحانَه قضى أنَّهم إن آمَنوا عمَّرَهم ألْفَ سَنةٍ، وإن لم يؤمنوا أهلَكهم بالعذابِ لتَمامِ خَمْسِمِئةِ سَنةٍ، فقيل لهم: آمِنوا يؤَخِّرْكم إلى ذلك الأجَلِ[3].

---

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١١/ ٢٦٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١١/ ٦٧٩).

(٣) يُنظر: ((أنموذج جليل في أسئلة وأجوبة عن غرائب آي التنزيل)) لزين الدين الرازي (ص: ٥٤٠).
قال الكوراني: (﴿إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ﴾ والتَّوفيقُ بينَه وبينَ تأخيرِ الأجلِ: أنَّ القضاءَ مُعلَّقٌ ومُبرَمٌ، فالتَّأخيرُ بالنَّظرِ إلى الأوَّلِ، وعدمُه بالنَّظرِ إلى الثَّاني. أي: لو آمَنوا عاشوا كذا، وإنْ لم يُؤمِنوا فكذا). ((تفسير الكوراني)) (ص: ٢٣٦). =

٥- قال اللهُ تعالى: ﴿يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ قد يَستَدِلُّ بهذه الآيةِ مَن يَقولُ: إنَّ البِرَّ وصِلةَ الرَّحِمِ: يُزادُ بها في العُمُرِ حقيقةً، كما ورَد به الحديثُ[١].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُۚ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ حُجَّةٌ على المعتزلةِ والقَدَريَّةِ فيما يَزعُمونَ: أنَّ المقتولَ ميِّتٌ بغيرِ أَجَلِه! فالأَجَلُ المُؤَجَّلُ مِن الموتِ لا تَقَدُّمَ فيه ولا تأخُّرَ[٢].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ

= وقال ابن عاشور: (لا تعارُضَ بيْنَ قَولِه: ﴿وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾، وبيْن قَولِه: ﴿إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ﴾؛ إمَّا لاختِلافِ المرادِ بلَفظَيِ «الأجَلِ» في قَولِه: ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾، وقَولِه: ﴿إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ﴾، وإمَّا لاختلافِ معنَيَيِ المجيءِ ومَعنَيَيِ التَّأخيرِ في قَولِه: ﴿إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ﴾؛ فانفَكَّت جِهةُ التَّعارُضِ). يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٩١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٣١).

قال القَصَّاب: (معناه: تَزيدُ في الأجَلِ الَّذي أُجِّل بغيرِ صِلهِ الرَّحمِ، كأنَّه قد سبَق في القضاءِ أن يُوهبَ لواصِلي الأرحامِ عُمُرًا يكونُ زيادةً في أعمارِهم). ((النكت الدالة على البيان)) (٤/ ٤٠٩).

وقد أخرج البخاريُّ (٢٠٦٧)، ومسلمٌ (٢٥٥٧) مِن حديثِ أنسِ بنِ مالكٍ رضيَ الله عنه، أنَّ رسولَ الله صلَّى الله عليه وسلَّم قال: ((مَن سرَّه أن يُبسَطَ له في رِزْقِه، أو يُنْسَأَ له في أثَرِه، فلْيَصِلْ رَحِمَه)).

(٢) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٤٠٩).

وقال ابنُ عطيَّةَ: (وقولُه تَعالى: ﴿وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ ممَّا تَعلَّقَ المعتزلةُ به في قولِهم: إنَّ للإنسانِ أجَلَينِ؛ وذلك أنَّهم قالوا: لو كان واحدًا مَحدودًا لَما صحَّ التَّأخيرُ إنْ كان الحدُّ قدْ بَلَغ، ولا المُعاجَلةُ إنْ كان الحدُّ لم يَبلُغْ. وليس لهم في الآيةِ تَعلُّقٌ؛ لأنَّ المعنى: أنَّ نوحًا عليه السَّلامُ لم يَعلَمْ هلْ همْ ممَّن يُؤخَّرُ أو ممَّن يُعاجَلُ؟ ولا قال لهم: إنَّكم تُؤخَّرون عن أجَلٍ قد حانَ لكم، لكنْ قد سَبَق في الأزَلِ أنَّهم إمَّا ممَّن قُضِيَ لهم بالإيمانِ والتَّأخيرِ، وإمَّا ممَّن قُضِيَ عليه بالكفرِ والمعاجَلةِ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٧٣).

أَلِيمٌ﴾

- افتتاحُ الكلامِ بالتَّوكيدِ بـ (إنَّ) للاهتمامِ بالخبَرِ؛ إذ ليس المَقامُ لرَدِّ إنكارِ مُنكِرٍ، ولا دفْعِ شَكٍّ عن مُتردِّدٍ في هذا الكلامِ[١].

- وإضافةُ (قوم) إلى ضَميرِ نُوحٍ عليه السَّلامُ؛ لأنَّه أُرسِلَ إليهم، فلَهم مَزيدُ اختصاصٍ به، ولأنَّه واحدٌ منهم، وهمْ بيْن أبناءٍ له وأنسباءَ، فإضافتُهم إلى ضَميرِه تَعريفٌ لهم؛ إذ لم يكُنْ لهم اسمٌ خاصٌّ مِن أسماءِ الأُمَمِ الواقعةِ مِن بعْدُ[٢].

- وعُدِلَ عن أنْ يُقالَ له: (أنذِرِ النَّاسَ) إلى قولِه: ﴿أَنذِرْ قَوْمَكَ﴾؛ إلْهابًا لنفْسِ نُوحٍ؛ ليكونَ شَديدَ الحرْصِ على ما فيه نَجاتُهم مِن العذابِ؛ فإنَّ فيهم أبناءَه وقَرابتَه وأحبَّتَه[٣].

- وحُذِفَ مُتعلَّقُ فِعلِ ﴿أَنذِرْ﴾؛ لدَلالةِ ما يأْتي بعْدَه مِن قولِه: ﴿أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ﴾[٤] [نوح: ٣].

- وحرْفُ (مِن) صِلةٌ للتَّوكيدِ، أي: قبْلَ أنْ يَأتِيَهم عَذابٌ، فهي قبْليَّةٌ مُؤكَّدةٌ، وتأْكيدُها باعتبارِ تَحقيقِ ما أُضِيفَ إليه (قبْل)[٥].

٢- قولُه تعالَى: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ * أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ * يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّىۚ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُۚ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾

- لم تُعطَفْ جُملةُ ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ﴾ بالفاءِ التَّفريعيَّةِ على جُملةِ ﴿أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٨٦).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ١٨٧).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

قَوۡمِهِۦٓ﴾ [نوح: ١]؛ لأنَّها في معْنى البَيانِ لجُملةِ ﴿أَنذِرۡ قَوۡمَكَ﴾ [نوح: ١]؛ لدَلالتِها على أنَّه أنذَرَ قَومَه بما أمَرَه اللهُ أنْ يَقولَه لهم، وإنَّما أُدمِجَ فيه فِعلُ قَولِ نوحٍ؛ للدَّلالةِ على أنَّه أُمِرَ أنْ يقولَ فقال، تَنْبيهًا على مُبادَرةِ نوحٍ عليه السَّلامُ لإنذارِ قَومِه في حِينِ بُلوغِ الوحْيِ إليه مِن اللهِ بأنْ يُنذِرَ قَومَه. ولك أنْ تَجعَلَها استئنافًا بَيانيًّا لجوابِ سُؤالِ السَّامعِ أنْ يَسأَلَ: ماذا فعَلَ نوحٌ حينَ أرسَلَ اللهُ إليه ﴿أَنۡ أَنذِرۡ قَوۡمَكَ﴾؟ وهما مُتقارِبانِ[(١)].

- قولُه: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي لَكُمۡ نَذِيرٞ مُّبِينٌ﴾ افتتاحُ دَعوتِه قَومَه بالنِّداءِ؛ لطَلَبِ إقبالِ أذْهانِهم. ونِداؤُهم بعُنوانِ أنَّهم قَومُه تَمهيدٌ لقَبولِ نُصْحِه؛ إذ لا يُريدُ الرَّجلُ لقَومِه إلَّا ما يُريدُ لنفْسِه. وتَصديرُ دَعوتِه بحرْفِ التَّوكيدِ (إنَّ)؛ لأنَّ المخاطَبينَ يَتردَّدونَ في الخبَرِ[(٢)].

- وحُذِفَ مُتعلَّقُ ﴿نَذِيرٞ﴾؛ لدَلالةِ قولِه: ﴿أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ﴾ عليه، والتَّقديرُ: إنِّي لكم نَذيرٌ بعَذابٍ أليمٍ إنْ لم تَعبُدوا اللهَ ولم تتَّقُوه ولم تُطِيعوني[(٣)].

- وتَقديمُ ﴿لَكُمۡ﴾ على عامِلِه -وهو ﴿نَذِيرٞ مُّبِينٌ﴾-؛ للاهتمامِ بتَقديمِ ما دلَّت عليه اللَّامُ مِن كَونِ النِّذارةِ لفائدتِهم لا لِفائدتِه[(٤)].

- وقدْ جمَعَ في صَدْرِ دَعوتِه خَمسةَ مُؤكِّداتٍ؛ وهي: النِّداءُ، وجَعْلُ المُنادى لَفظَ (يا قومِ) المُضافَ إلى ضَميرِه، وافتتاحُ كَلامِه بحرْفِ التَّأكيدِ (إنَّ)،

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٣٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٨٧، ١٨٨).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٨٨).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

واجتلابُ لامِ التَّعليلِ، وتَقديمُ مَجرورِها(١).

- وأمَرَهم بعِبادةِ اللهِ؛ لأنَّهم أعْرَضوا عنها ونَسُوها بالتَّمحُّضِ لأصنامِهم، وكان قومُ نوحٍ مُشرِكين، كما دلَّ عليه قولُه تَعالى: ﴿فَأَجۡمِعُوٓاْ أَمۡرَكُمۡ وَشُرَكَآءَكُمۡ﴾ [يونس: ٧١]، وبذلك كان تَمثيلُ حالِ المشركين مِن العرَبِ بحالِ قومِ نُوحٍ تَمثيلًا تامًّا(٢).

- قولُه: ﴿يَغۡفِرۡ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ وَيُؤَخِّرۡكُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمًّى﴾ قيل: حرْفُ (مِنْ) صِلةٌ للتَّوكيدِ، وهذا مِن زيادةِ (مِن) في الإيجابِ، فيُفيدُ أنَّ الإيمانَ يَجُبُّ ما قبْلَه في شَريعةِ نُوحٍ عليه السَّلامُ مِثلَ شَريعةِ الإسلامِ. ويجوزُ أنْ تكونَ (مِنْ) للتَّبعيضِ، أي: يَغفِرْ لكم بعضَ ذُنوبِكم، أي: ذُنوبَ الإشراكِ وما معه، فيَكون الإيمانُ في شرْعِ نُوحٍ عليه السَّلامُ لا يَقْتضي مَغفرةَ جَميعِ الذُّنوبِ السَّابقةِ، وليس يَلزَمُ تَماثُلُ الشَّرائعِ في جَميعِ الأحكامِ الفرعيَّةِ، ومَغفرةُ الذُّنوبِ مِن تَفاريعِ الدِّينِ وليست مِن أُصولِه، أو معْنى التَّبعيضِ: مَغفرةُ الذُّنوبِ السَّابقةِ دونَ ما يُذنِبون من بعْدُ. وهذا يَتِمُّ ويَحسُنُ إذا قدَّرنا أنَّ شَريعةَ نوحٍ عليه السَّلامُ تَشتمِلُ على أوامرَ ومَنهيَّاتٍ عمَليَّةٍ، فيَكونُ ذِكرُ (مِن) التَّبعيضيَّةِ اقتصادًا في الكلامِ بالقدْرِ المُحقَّقِ، أو هي لابتداءِ الغايةِ، كأنَّه يقولُ: يَبتدِئُ الغُفرانُ مِن هذه الذُّنوبِ العِظامِ الَّتي لهم(٣).

- قولُه: ﴿وَيُؤَخِّرۡكُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمًّى﴾، الأجلُ المُسمَّى: هو الأجَلُ المُعيَّنُ بتَقديرِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٨٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٧٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٣٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٨٩)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٢٢٢).
ويُنظر ما تقدَّم (ص: ٢٣٧).

اللهِ عِندَ خَلْقِه كلَّ أحدٍ منهم؛ فالتَّنوينُ في ﴿أَجَلٍ﴾ للنَّوعيَّةِ، أي: الجنسِ، وهو صادقٌ على آجالٍ مُتعدِّدةٍ بعدَدِ أصحابِها، ومعْنى ﴿مُّسَمًّى﴾ أنَّه مُحدَّدٌ مُعيَّنٌ، وعُبِّرَ عن التَّعيينِ بالتَّسميةِ؛ لشَبَهِ عَدَمِ الاختلاطِ بيْنَ أصحابِ الآجالِ(١).

- قولُه: ﴿إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُۚ لَوۡ كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ يَحتمِلُ أنْ تكونَ الجُملةُ استِئنافًا بَيانيًّا ناشئًا عن تَحديدِ غايةِ تأْخيرِهم إلى أجَلٍ مُسمًّى، أي: دونَ تأْخيرِهم تأخيرًا مُستمِرًّا، فيَسأَلُ السَّامعُ في نفْسِه عن عِلَّةِ تَنْهيةِ تأخيرِهم بأجَلٍ آخَرَ، فيكونَ ﴿أَجَلَ ٱللَّهِ﴾ غيرَ الأجَلِ الَّذي في قولِه: ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾. ويَحتمِلُ أنْ يكونَ قولُه: ﴿إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُۚ لَوۡ كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ تَعليلًا لِكِلا الأجَلَينِ: الأجَلِ المُفادِ مِن قولِه تعالى: ﴿مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ [نوح: ١]؛ فإنَّ لَفظَ (قبْل) يُؤذِنُ بأنَّ العذابَ مُوقَّتٌ بوقْتٍ غيرِ بَعيدٍ، فله أجَلٌ مُبهَمٌ غيرُ بعيدٍ، والأجَلِ المذكورِ بقولِه: ﴿وَيُؤَخِّرۡكُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمًّىۚ﴾، فيَكونَ ﴿أَجَلَ ٱللَّهِ﴾ صادقًا على الأجَلِ المُسمَّى، وهو أجَلُ كلِّ نفْسٍ مِن القومِ، وقيل غيرُ ذلك(٢).

- قولُه: ﴿أَجَلَ ٱللَّهِ﴾ أضاف الأجَلَ إليه سُبحانَه؛ لأنَّه الَّذي أثبَتَه، فالإضافةُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٩٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٩٠، ١٩١)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٢٢٣).

قال أبو السعود: (﴿إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ﴾ أي: ما قدَّرَ لكُم على تقدير بقائِكم على الكُفرِ... ويجوزُ أن يُرادَ بِه وقْتُ إتْيانِ العذابِ المذكورِ في قولِه تعالَى: ﴿مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾؛ فإنَّه أجَلٌ مُؤقَّتٌ له حَتْمًا، وحمْلُه على الأجَلِ الأطولِ ممَّا لا يُساعدُه المَقامُ، كيفَ لا والجُملةُ تَعليلٌ للأمرِ بالعِبادةِ المُستتبِعةِ للمَغفرةِ والتأْخيرِ إلى الأجَلِ المسمَّى، فلا بُدَّ أنْ يكونَ المَنفيُّ عندَ مَجيءِ الأجَلِ هو التَّأخيرَ الموعودَ، فكيفَ يُتصوَّرُ أنْ يكونَ ما فُرِضَ مَجيئُه هو الأجلُ المسمَّى؟!). ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٣٧).

إضافةُ كشْفٍ، أي: الأجَلُ الَّذي عيَّنه اللهُ وقدَّره لكلِّ أحدٍ. وقد يُضافُ إلى القَومِ، كقَولِه تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ﴾ [النحل: ٦١]؛ لأنَّه مَضروبٌ لهم[(١)].

- وفي مجيءِ فِعلِ ﴿كُنتُمْ﴾ قبْلَ ﴿تَعْلَمُونَ﴾ إيذانٌ بأنَّ عِلمَهم بذلك المنتفيَ -لوُقوعِه شَرْطًا لحرْفِ (لو)- مُحقَّقٌ انتفاؤُه[(٢)].

- وجَوابُ (لو) مَحذوفٌ دلَّ عليه قولُه: ﴿لَا يُؤَخَّرُ﴾، والتَّقديرُ: لَأيقنْتُم أنَّه لا يُؤخَّرُ، أو لآمَنْتُم. وأيضًا حُذِفَ مَفعولُ ﴿تَعْلَمُونَ﴾، أي: لو كُنتُم تَعلَمون ذلك[(٣)].



(١) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٩٩، ٣٠٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٩٠، ١٩١)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٢٢٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٩٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٩٣)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٢٢٣).

الآيات (٥-١٢)

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا (٥) فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَاءِي إِلَّا فِرَارًا (٦) وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ
لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا (٧)
ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا (٨) ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا (٩) فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ
إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا (١٠) يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا (١١) وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ
وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا (١٢)﴾.

غَريبُ الكَلِمات:

﴿وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ﴾: أي: تغطَّوْا بها، وجَعَلوها غِشاوةً على أسماعِهم وأبصارِهم، وذلك عبارةٌ عن الامتِناعِ عن الإصغاءِ، وأصلُ (غشي): يدُلُّ على تغطيةِ شَيءٍ بشَيءٍ[1].

﴿مِدْرَارًا﴾: أي: مُتتابِعًا غَزيرًا، والدَّرُّ: تحلُّبُ الشَّيءِ حالًا بعدَ حالٍ، وأصلُه مِنَ الدَّرِّ، أي: اللَّبَنِ، ويُستعارُ ذلك للمَطَرِ[2].

المعنى الإجماليُّ:

يَحكي اللهُ تعالى شكوى نوحٍ -عليه السَّلامُ- إليه مِن إعراضِ قومِه، فيقولُ: قال نوحٌ: رَبِّ إنِّي دَعَوتُ قَومي لَيلًا ونهارًا إلى توحيدِك، فلم يَزِدْهم دُعائي لهم إلَّا هَرَبًا وإعراضًا! وإنِّي كُلَّما دَعوتُهم إلى الإيمانِ بك لكي تَغفِرَ لهم ذُنوبَهم،

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١١٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٢٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٠٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤١٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٢٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ١١٥).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٥٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٥٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٥٥)، ((البسيط)) للواحدي (٢٢/ ٢٥٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣١٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٨٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٧٥).

جَعَلوا أصابِعَهم في آذانِهم؛ كي لا يَسمَعوا كَلامي، وتغَطَّوا بثِيابِهم؛ لئَلَّا يَرَوني، واستَمَرُّوا على شِرْكِهم ولم يَتوبوا، وتكبَّروا عن قَبولِ الحقِّ.

ثمَّ يذكرُ اللهُ تعالى ما أخبَر به نوحٌ عليه السَّلامُ عن طُرقِه في دعوةِ قَومِه، وتوجيهاتِه ونصائحِه لهم، فيقولُ: ثمَّ إنِّي دَعَوتُ قَومي إلى الحَقِّ مجاهرًا، ثمَّ إنِّي أظهَرتُ دَعوتي لهم ونشَرْتُها بيْنَهم، ودَعَوتُهم سِرًّا فيما بيْني وبيْنَهم، فقُلْتُ لهم: استَغفِروا رَبَّكم؛ إنَّه سُبحانَه متَّصِفٌ أزَلًا وأبدًا بكَمالِ المَغفِرةِ لذُنوبِ عِبادِه؛ فإنَّكم إنِ استَغْفَرتُم رَبَّكم يُرسِلْ عليكم أمطارًا مُتتابعةً مُتواصِلةً، ويُعْطِكم أموالًا وأبناءً، ويجعَلْ لكم في الدُّنيا بَساتينَ فيها أنواعُ الثِّمارِ، ويَجعَلْ لكم أنهارًا جارِيةً.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ۝٥﴾.

أي: قال نوحٌ مُشتَكِيًا إلى رَبِّه طُغيانَ قَومِه: رَبِّ إنِّي دَعَوتُ قَومي في اللَّيلِ والنَّهارِ إلى توحيدِك، وحذَّرْتُهم مِنَ الشِّركِ بك ومَعصيتِك[1].

﴿فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَاءِي إِلَّا فِرَارًا ۝٦﴾.

أي: فلم يَزِدْهم دُعائي لهم إلى الحقِّ ليتَّبِعوه إلَّا هَرَبًا منه، وإعراضًا عنه[2]!

كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ﴾ [القمر: ٩].

﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٩٠)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦١٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٣٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٩٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٣٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٩٤).

وَٱسۡتَكۡبَرُواْ ٱسۡتِكۡبَارٗا ﴿٧﴾.

﴿ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوۡتُهُمۡ لِتَغۡفِرَ لَهُمۡ جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمۡ فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ ﴾.

أي: وإنِّي كُلَّما دَعوتُهم إلى سَبَبِ المَغفِرةِ -وهو الإيمانُ بك، وتوحيدُك وطاعتُك- لِتَمحوَ بذلك ذُنوبَهم، وتتجاوَزَ عن مؤاخَذتِهم بها؛ جَعَلوا أصابِعَهم في آذانِهم، فسَدُّوها؛ كي لا يَسمَعوا كَلامي[(١)].

﴿ وَٱسۡتَغۡشَوۡاْ ثِيَابَهُمۡ ﴾.

أي: وتغَطَّوا بثِيابِهم لئَلَّا يَرَوني؛ مُبالَغةً منهم في الإعراضِ عَنِّي[(٢)].

﴿ وَأَصَرُّواْ ﴾.

أي: واستَمَرُّوا على شِرْكِهم ولم يَتوبوا[(٣)].

﴿ وَٱسۡتَكۡبَرُواْ ٱسۡتِكۡبَارٗا ﴾.

أي: وتعاظَموا وتكبَّروا عن قَبولِ الحقِّ، وعن اتِّباعِه[(٤)].

كما قال تعالى: ﴿ فَقَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرٗا مِّثۡلَنَا وَمَا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٩١)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٣٠٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٣٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٤٣١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٨).

(٢) يُنظر: ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١١٣٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٣٠٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٣٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٤٣١، ٤٣٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٨).

قال الشوكاني: (وقيل: جَعلوا ثيابَهم على رؤوسِهم لئلَّا يَسْمَعوا كلامي، فيَكونُ استِغشاءُ الثِّيابِ على هذا زيادةً في سَدِّ الآذانِ. وقيلَ: هو كنايةٌ عن العداوةِ، يُقالُ: لَبِس فُلانٌ ثيابَ العداوةِ. وقيل: استَغشَوْا ثيابَهم؛ لئلَّا يَعرِفَهم فيَدْعُوهم). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٥٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٩١)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٣٠٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٣٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٩٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٩٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٣٠٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٣٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٩٦).

نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمۡ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ ٱلرَّأۡيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمۡ عَلَيۡنَا مِن فَضۡلٍ ﴾ [هود: ٢٧].

وقال سُبحانَه: ﴿قَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلۡأَرۡذَلُونَ ﴾ [الشعراء: ١١١].

﴿ ثُمَّ إِنِّي دَعَوۡتُهُمۡ جِهَارٗا ٨ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ نُوحًا عليه السَّلامُ ارتقى في شَكواه واعتِذارِه بأنَّ دَعوتَه كانت مختَلِفةَ الحالاتِ في القَولِ؛ مِن جَهرٍ وإسرارٍ[١].

﴿ ثُمَّ إِنِّي دَعَوۡتُهُمۡ جِهَارٗا ٨ ﴾.

أي: ثمَّ إنِّي دَعَوتُ قَومي إلى الحَقِّ بمَسمَعٍ منهم، مجاهِرًا بالدَّعوةِ[٢].

﴿ ثُمَّ إِنِّيٓ أَعۡلَنتُ لَهُمۡ وَأَسۡرَرۡتُ لَهُمۡ إِسۡرَارٗا ٩ ﴾.

﴿ ثُمَّ إِنِّيٓ أَعۡلَنتُ لَهُمۡ ﴾.

أي: ثمَّ إنِّي أظهَرتُ دَعوتي لهم، وأشَعْتُها ونشَرْتُها بيْنَهم[٣].

﴿وَأَسۡرَرۡتُ لَهُمۡ إِسۡرَارٗا ﴾.

أي: ودَعَوتُهم سِرًّا فيما بيْني وبيْنَهم في الخَفاءِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٩٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٩٢)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٥٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٧٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٣٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٤٣٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٩٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٣٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٤٣٥، ٤٣٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٥٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٩٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٧٣)، ((تفسير ابن كثير)) =

﴿ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا أخبَرَ نوحٌ عليه السَّلامُ أنَّه بالَغَ في الدَّعوةِ إلى حَدٍّ لا مَزيدَ عليه، فلم يَدَعْ مِنَ الأوقاتِ ولا مِنَ الأحوالِ شَيئًا؛ سَبَّبَ عنه بيانَ ما قال في دَعوتِه، وهو التَّسَبُّبُ في السَّعادةِ كُلِّها بدَفعِ المَضارِّ، وجَلبِ المسارِّ[(١)].

﴿ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ﴾.

أي: فقُلْتُ لهم: اطلُبوا مِن رَبِّكم أن يَغفِرَ لكم ذُنوبَكم، فيَمحوَها عنكم، ويَتجاوَزَ عن مؤاخَذتِكم بها[(٢)].

﴿ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴾.

أي: إنَّ اللهَ متَّصِفٌ أزَلًا وأبدًا بكَمالِ المَغفِرةِ لذُنوبِ عِبادِه[(٣)].

= (٨/ ٢٣٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٤٣٦).

قال الماوَرْدي: (فيه وجْهانِ؛ أحدُهما: أنَّه دعاهم في وقتٍ سرًّا، وفي وقتٍ جهرًا. الثَّاني: دعا بعضَهم سرًّا، وبعضَهم جهرًا). ((تفسير الماوردي)) (٦/ ١٠١).

وقال الزمخشري: (فإنْ قُلْتَ: ذَكَر أنَّه دعاهم لَيلًا ونَهارًا، ثمَّ دعاهم جِهارًا، ثمَّ دعاهم في السِّرِّ والعَلَنِ، فيَجِبُ أن تكونَ ثلاثَ دَعَواتٍ مُختَلِفاتٍ حتَّى يَصِحَّ العَطفُ. قلتُ: قد فَعَل عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ كما يَفعَلُ الَّذي يأمُرُ بالمعروفِ ويَنهى عن المنكَرِ: في الابتداءِ بالأهوَنِ، والتَّرَقِّي في الأشَدِّ فالأشَدِّ؛ فافتتَح بالمناصَحةِ في السِّرِّ، فلمَّا لم يَقبَلوا ثَنَّى بالمجاهَرةِ، فلمَّا لم تؤثِّرْ ثَلَّث بالجَمعِ بيْنَ الإسرارِ والإعلانِ. ومعنى ﴿ ثُمَّ ﴾ الدَّلالةُ على تباعُدِ الأحوالِ؛ لأنَّ الجِهارَ أغلَظُ من الإسرارِ، والجَمعَ بيْنَ الأمْرَينِ أغلَظُ مِن إفرادِ أحَدِهما). ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦١٦).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٤٣٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٩٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٣٠١)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ٣١٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٣٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٤٣٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٩٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٤٣٧، ٤٣٨)، =

﴿يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾﴾.

أي: فإنَّكم إنِ استَغْفَرْتُم رَبَّكم يُرسِلْ عليكم أمطارًا مُتتابِعةً مُتواصِلةً[(١)].

كما قال هودٌ عليه السَّلامُ لقومِه: ﴿وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ﴾ [هود: ٥٢].

﴿وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴿١٢﴾﴾.

﴿وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ﴾.

أي: ويُعْطِكم رَبُّكم أموالًا وأبناءً، ويُكَثِّرْ ذلك لكم[(٢)].

﴿وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ﴾.

أي: ويجعَلْ لكم في الدُّنيا بساتينَ فيها أنواعُ الثِّمارِ[(٣)].

﴿وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا﴾.

أي: ويَجعَلْ لكم أنهارًا جارِيةً[(٤)].

= ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٥٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٩٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٩٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٣٠١)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٣٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٤٣٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٩٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٩٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٣٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٩٤)، ((البسيط)) للواحدي (٢٢/ ٢٥٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٣٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٩٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٣٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٥٧).

كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ٩٦].

وقال سُبحانَه: ﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ﴾ [هود: ٣].

وقال عزَّ وجَلَّ: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ﴾ [النحل: ٣٠].

وقال تبارك وتعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ [النحل: ٩٧].

وقال جَلَّ شأنُه: ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُواْ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا﴾ [الجن: ١٦].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ثُمَّ إِنِّى دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا * ثُمَّ إِنِّىٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا﴾ جَمَع بيْنَ الجَهرِ والإسرارِ؛ لأنَّ الجَمعَ بيْنَ الحالتَينِ أقوى في الدَّعوةِ وأغلَظُ من إفرادِ إحداهما(١).

٢- في قَولِه تعالى: ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا﴾ حَثٌّ على الاستِغفارِ، وإشارةٌ إلى وُقوعِ المغفرةِ لِمَن استغفَرَ(٢).

٣- قال اللهُ تعالى: ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا * يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا * وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا﴾ في هذه الآيةِ دَليلٌ على أنَّ الاستِغفارَ يُستَنزَلُ به الرِّزقُ والأمطارُ(٣). ففيها استِحبابُ الاستِغفارِ عِندَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٩٧). ويُنظر ما تقدَّم (ص: ٢٥١).
(٢) يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (١١/ ٩٨).
(٣) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٣٠٢).

الجَدْبِ وضِيقِ الرِّزقِ، وأنَّه مَجلَبةٌ له[١].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا * يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا * وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا﴾ دليلٌ على تكثيرِ الأولادِ بالعَمَلِ الصَّالحِ؛ لأنَّ نوحًا عليه السَّلامُ وَعَدَ قومَه على الاستِغفارِ إمدادًا بالبَنينَ[٢]، ولو أنَّ رجُلًا ممَّن لا يُولَدُ له اشْتَهَى أنْ يكونَ له ولدٌ فاستَغفَرَ محتَسِبًا مُستعطِفًا به أولادًا، لَوُلِدَ له، وإنْ كان مِئْنَاثًا[٣] فأَحبَّ الذُّكورَ مِن الأولادِ لم يَعْدَمْهم؛ فإنَّ اللهَ صادِقٌ في قَولِه، لا يُخْلِفُ ميعادَه[٤].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا * يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا * وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا﴾ أنَّ مَن أراد أنْ تُرفَعَ عنه العقوبةُ فَلْيَتُبْ إلى اللهِ تعالى؛ فإنَّ التَّوبةَ مِن أسبابِ رَفْعِ العُقوبةِ، وجَلْبِ المَثُوبةِ[٥].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا * يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا * وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا﴾ أنَّه لا بأسَ مِن مُلاحظةِ الأمورِ الدُّنيويَّةِ في الاستِقامةِ، وأنَّ مُلاحظتَها لا تَضُرُّه؛ فالرُّسُلُ يأمُرون أقوامَهم بالطَّاعةِ، ثُمَّ يَذكُرونَ المصالحَ الدُّنيويَّةَ، فقولُ نوحٍ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا﴾ هذه المصلحةُ الدِّينيَّةُ، و﴿يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا * وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا﴾ هذه

(١) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٧٤).

(٢) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٤١٦).

(٣) مِئنات -على وزن مِفْعال- مِن الأبنيةِ الدَّالَّةِ على الكثرةِ، يُقالُ: امرأةٌ مِذْكارٌ، إذا كانت تلِدُ الذُّكورَ، وكذلك «مِئناثٌ» في الإناثِ. يُنظر: ((الصاحبي)) لابن فارس (ص: ١٧٠).

(٤) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (١/ ٦٠١).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٢٥٨).

مصلحةٌ دُنيويَّةٌ، ولولا أنَّ الإنسانَ لا يَضُرُّه إذا لاحظَها ما ذَكَرَها الرُّسُلُ عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ(١).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قولُه تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا﴾ استُدِلَّ به على أنَّ اسمَ «القومِ» واقِعٌ على الرِّجالِ والنِّساءِ، وأنَّه لا يُفْرَدُ به الرِّجالُ إلَّا بإرادةِ ذلك وإضمارِه، لا أنَّه اسمٌ لا يَقَعُ إلَّا على الرِّجالِ فقط؛ لإحاطةِ أنَّ نوحًا عليه السَّلامُ دَعَا الرِّجالَ والنِّساءَ إلى دِينِه(٢).

٢- قال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا﴾، جَعَل دَعوتَه مَظروفةً في زَمنَي اللَّيلِ والنَّهارِ؛ للدَّلالةِ على عدَمِ الهوادةِ في حِرْصِه على إرشادِهم، وأنَّه يَترصَّدُ الوقتَ الَّذي يَتوسَّمُ أنَّهم فيه أقرَبُ إلى فَهْمِ دَعوتِه منهم في غيرِه مِن أوقاتِ النَّشاطِ، وهي أوقاتُ النَّهارِ، ومِن أوقاتِ الهُدوِّ وراحةِ البالِ، وهي أوقاتُ اللَّيلِ(٣).

---

(١) يُنظر: ((فتح ذي الجلال والإكرام بشرح بلوغ المرام)) لابن عثيمين (١/ ٣٣٧).

(٢) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٤١٥).

قيل: القَوْمُ: الجماعةُ مِن الرِّجالِ والنِّساءِ معًا؛ لأنَّ قومَ كلِّ رجُلٍ شِيعَتُه وعَشيرتُه، ولأنَّ في التَّنزيلِ: ﴿قَوْمَ فِرْعَوْنَ﴾ [الشعراء: ١١]، و﴿قَوْمَ نُوحٍ﴾ و﴿قَوْمَ هُودٍ﴾ و﴿قَوْمَ صَالِحٍ﴾ و﴿قَوْمُ لُوطٍ﴾[هود: ٨٩]، وهو اسمٌ يَجمَعُ الرِّجالَ والنِّساءَ.

وقيل: القَومُ هم الرِّجالُ خاصَّةً، ولا يقعُ على النِّساءِ إلَّا على وجْهِ التَّبعِ، واستدَلُّوا بقولِه تعالَى: ﴿لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ﴾ [الحجرات: ١١]؛ أي: رِجالٌ مِن رِجالٍ، ولا نِساءٌ مِن نِساءٍ، فلو كانت النِّساءُ مِن القَومِ لم يَقُلْ: ولا نِساءٌ مِن نِساءٍ. يُنظر: ((جمهرة اللغة)) لابن دُرَيْد (٢/ ٩٧٧، ٩٧٨)، ((الفروق اللغوية)) للعسكري (ص: ٢٨٠)، ((النهاية في غريب الحديث والأثر)) لابن الأثير (٤/ ١٢٤)، ((لسان العرب)) لابن منظور (١٢/ ٥٠٥)، ((تاج العروس)) للزَّبيدي (٣٣/ ٣٠٥، ٣٠٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦١٦)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٨١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٩٤).

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا * فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِيَ إِلَّا فِرَارًا﴾ يدُلُّ على أنَّ جميعَ الحوادِثِ بقَضاءِ اللهِ وقَدَرِه؛ وذلك لأنَّا نرى إنسانَينِ يَسمَعانِ دَعوةَ الرَّسولِ في مجلِسٍ واحِدٍ بلَفظٍ واحِدٍ، فيَصيرُ ذلك الكلامُ في حَقِّ أحدِهما سَبَبًا لحُصولِ الهِدايةِ، والمَيلِ والرَّغبةِ، وفي حَقِّ الثَّاني سَببًا لِمَزيدِ العُتُوِّ والتَّكَبُّرِ، ونهايةِ النَّفرةِ[1].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا﴾ أنَّه سُبحانَه يُعَلِّلُ أحكامَه وأفعالَه بأسمائِه؛ فليست أسماؤُه ألفاظًا مُجَرَّدةً لا مَعانيَ لها! ولو لَمْ يكُنْ لها معنًى لَمَا كان التَّعليلُ صحيحًا[2]!

٥- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا﴾، فيه سؤالٌ: نوحٌ عليه السَّلامُ أمَر الكفَّارَ قبْلَ هذه الآيةِ بالعبادةِ والتَّقْوى والطَّاعةِ، فأيُّ فائدةٍ في أنْ أمَرهم بعدَ ذلك بالاستِغفارِ؟

الجوابُ: كأنَّهم لَمَّا أمَرَهم بالعبادةِ قالوا: إنْ كنَّا على حقٍّ فلا نَترُكُه، وإنْ كنَّا على باطلٍ، فكيف يَقبَلُنا ويَلطُفُ بنا مَن عَصَيْناهُ؟ فأمَرَهم بما يَجُبُّ مَعاصيَهم، ويَجلِبُ إليهم المِنَحَ، ولذلك وَعَدَهم عليه بما هو أوقَعُ في قُلوبِهم[3].

٦- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا﴾ فيه سُؤالٌ: لِمَ قال: ﴿إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا﴾، ولم يقُلْ: (إنَّه غفَّارٌ)؟

الجوابُ: أنَّ المرادَ: أنَّه كان غَفَّارًا في حَقِّ كُلِّ مَن استَغفَروه، كأنَّه يقولُ: لا

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦٥٠).

(٢) يُنظر: ((جلاء الأفهام)) لابن القيم (ص: ١٧٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦٥٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٤٩)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٦/ ٣٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٣٨).

تظُنُّوا أنَّ مَغفِرتَه إنَّما حَدَثت الآنَ، بل هو أبدًا هكذا كان[١].

٧- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا * يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا * وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّـٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَـٰرًا﴾ فيه دَلالةٌ على أنَّ اللهَ تعالى يُجازي عِبادَه الصَّالِحينَ بطِيبِ العَيشِ؛ قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَـٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ [النحل: ٩٧]، وقال: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَـٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ٩٦]، وقال: ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَـٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَـٰهُم مَّآءً غَدَقًا﴾[٢] [الجن: ١٦].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى دَعَوْتُ قَوْمِى لَيْلًا وَنَهَارًا * فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِىٓ إِلَّا فِرَارًا﴾

- قولُه: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى دَعَوْتُ قَوْمِى لَيْلًا وَنَهَارًا﴾ جُرِّدَ فِعلُ (قال) مِن العاطفِ؛ لأنَّه حِكايةُ جَوابِ نوحٍ عن قولِ اللهِ له: ﴿أَنذِرْ قَوْمَكَ﴾، عُومِلَ مُعامَلةَ الجوابِ الَّذي يُتلقَّى به الأمْرُ على الفورِ على طَريقةِ المُحاوَراتِ؛ تَنبيهًا على مُبادَرةِ نُوحٍ عليه السَّلامُ بإبلاغِ الرِّسالةِ إلى قَومِه، وتَمامِ حِرصِه في ذلك كما أفادَه قولُه: ﴿لَيْلًا وَنَهَارًا﴾ [نوح: ٥]، وحُصولِ يأْسِه منهم، فجعَلَ مُراجعتَه ربَّه بعْدَ مُهلةٍ مُستفادةٍ مِن قولِه: ﴿لَيْلًا وَنَهَارًا﴾ بمَنزلةِ المراجَعةِ في المقامِ الواحدِ بيْنَ المُتحاورَيْنِ. ولك أنْ تَجعَلَ جُملةَ ﴿قَالَ رَبِّ﴾ إلخ مُستأنَفةً استئنافًا بيانيًّا؛ لأنَّ السَّامعَ يَترقَّبُ مَعرفةَ ماذا أجاب قومُ نُوحٍ دَعوتَه؟ فكان في هذه الجُملةِ بَيانُ ما يَترقَّبُه السَّامعُ مع زِيادةِ مُراجَعةِ نُوحٍ ربَّه تعالى[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦٥٢).
ويُنظر ما يأتي في البلاغةِ (ص: ٢٦٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٩٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ١٩٣).

- وهذا الخبَرُ مُستعمَلٌ في لازِمِ معْناه، وهو الشِّكايةُ والتَّمهيدُ لطلَبِ النَّصرِ عليهم؛ لأنَّ المخاطَبَ به عالِمٌ بمَدلولِ الخبَرِ، وذلك ما سيُفْضي إليه بقولِه: ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾ الآياتِ[(١)].

- وفائدةُ حِكايةِ ما ناجَى به نوحٌ ربَّه إظهارُ توكُّلِه على اللهِ، وانتصارُ اللهِ له، والإتيانُ على مُهِمَّاتٍ مِن العِبرةِ بقصَّتِه، بتَلوينٍ لِحكايةِ أقوالِه، وأقوالِ قومِه، وقَولِ اللهِ له، وتلك ثَمانِ مَقالاتٍ؛ هي:

أ- ﴿أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ ...﴾ إلخ [نوح: ١].

ب- ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ...﴾ إلخ [نوح: ٢].

ج- ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي ...﴾ إلخ [نوح: ٥].

د- ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ...﴾ إلخ [نوح: ١٠].

هـ- ﴿قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي ...﴾ إلخ [نوح: ٢١].

و- ﴿وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلًا ...﴾ إلخ [نوح: ٢٤].

ز- ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ ...﴾ إلخ [نوح: ٢٦].

ح- ﴿رَّبِّ ٱغْفِرْ لِي ...﴾ إلخ[(٢)] [نوح: ٢٨].

- قولُه: ﴿فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِيٓ إِلَّا فِرَارًا﴾ فيه تأْكيدٌ للمدْحِ بما يُشبِهُ الذَّمَّ، أو تأْكيدُ الشَّيءِ بما يُشبِهُ ضِدَّه، وهو هنا تأْكيدُ إعراضِهم المُشبَّهِ بالابتعادِ بصُورةٍ تُشبِهُ ضِدَّ الإعراضِ، ولَمَّا كان فِرارُهم مِن التَّوحيدِ ثابتًا لهم مِن قبْلُ، كان قولُه:

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٩٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ١٩٣، ١٩٤).

﴿ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِىٓ إِلَّا فِرَارًا ﴾ من تأكيدِ الشَّيءِ بما يُشبهُ ضِدَّه[١].

- وتَصديرُ كلامِ نُوحٍ بالتَّأكيدِ؛ لإرادةِ الاهتِمامِ بالخبرِ[٢].

٢- قولُه تعالَى: ﴿ وَإِنِّى كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْاْ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّواْ وَٱسْتَكْبَرُواْ ٱسْتِكْبَارًا * ثُمَّ إِنِّى دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا * ثُمَّ إِنِّىٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴾

- قولُه: ﴿ وَإِنِّى كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ ﴾ جاء بكَلمةِ (كلَّما) الدَّالَّةِ على شُمولِ كلِّ دَعوةٍ مِن دَعَواتِه مُقترِنةً بدَلائلِ الصَّدِّ عنها؛ لأنَّ المعنى: أنَّهم لم يُظهِروا مَخيلةً مِن الإصغاءِ إلى دَعوتِه، ولم يَتخلَّفوا عن الإعراضِ والصُّدودِ عن دَعوتِه طَرْفةَ عَينٍ[٣].

- وحُذِفَ مُتعلَّقُ ﴿ دَعَوْتُهُمْ ﴾؛ لدَلالةِ ما تَقدَّمَ عليه مِن قولِه: ﴿ أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ ﴾ [نوح: ٣]، والتَّقديرُ: كلَّما دَعوتُهم إلى عِبادتِك وتَقْواك وطاعَتي فيما أمَرْتُهم به[٤].

- واللَّامُ في قولِه: ﴿ لِتَغْفِرَ ﴾ لامُ التَّعليلِ، أي: دَعوتُهم بدَعوةِ التَّوحيدِ، فهو سبَبُ المغفرةِ، فالدَّعوةُ إليه مُعلَّلةٌ بالغُفرانِ. وجُعِلَت الدَّعوةُ مُعلَّلةً بمَغفرةِ اللهِ لهم؛ لأنَّها دَعوةٌ إلى سَببِ المغفرةِ، وهو الإيمانُ باللهِ وحْدَه وطاعةُ أمْرِه على لِسانِ رَسولِه، وفي ذلك تَعريضٌ بتَحميقِهم، وتَعجُّبٌ مِن خُلُقِهم؛ إذ يُعرِضون عن الدَّعوةِ لِما فيه نَفْعُهم، فكان مُقْتضى الرَّشادِ أنْ يَسمَعوها

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٩٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ١٩٥).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

ويَتدبَّرُوها[١].

- قولُه: ﴿جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْاْ ثِيَابَهُمْ﴾ يَجوزُ أنْ يكونَ كِنايةً عن المُبالَغةِ في إعراضِهم عمَّا دَعاهم إليه، فهمْ بمَنزلةِ مَن سَدَّ سَمْعَه، ومنَعَ بَصَرَه[٢]. ويجوزُ أنْ يكونَ تَمثيلًا لحالِهم في الإعراضِ عن قَبولِ كَلامِه، ورُؤيةِ مَقامِه بحالِ مَن يسُكُّ سمْعَه بأُنملتَيْه، ويَحجُبُ عَينَيه بطَرَفِ ثَوبِه[٣].

- وعُبِّرَ عن الأناملِ بالأصابعِ؛ للمُبالَغةِ في إرادةِ سَدِّ المَسامِعِ، بحيث لو أمكَنَ لأدْخَلوا الأصابعَ كلَّها[٤].

- والسِّينُ والتَّاءُ في (اسْتَغْشَوْا) للمُبالَغةِ[٥].

- وحُذِفَ مُتعلَّقُ ﴿وَأَصَرُّواْ﴾؛ لظُهورِه، أي: أصَرُّوا على ما همْ عليه مِن الشِّركِ[٦].

- قولُه: ﴿وَٱسْتَكْبَرُواْ ٱسْتِكْبَارًا﴾ (اسْتَكْبَرُوا) مُبالَغةٌ في تكبَّروا، أي: جَعَلوا أنفُسَهم أكبَرَ مِن أنْ يَأْتمِروا لواحدٍ منهم. وتأْكيدُ ﴿وَٱسْتَكْبَرُواْ﴾ بمَفعولِه المُطلَقِ ﴿ٱسْتِكْبَارًا﴾؛ للدَّلالةِ على تَمكُّنِ الاستِكبارِ[٧].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦١٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٤٨)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٦/ ٣٠)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٨١)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٣٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٩٥، ١٩٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٨١)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٢٢٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٩٦).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ١٩٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٤٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٣٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٩٥).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٩٦).

(٧) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦١٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٩٦).

- وتَنوينُ ﴿ٱسْتِكْبَارًا﴾ للتَّعظيمِ، أي: استِكبارًا شَديدًا، لا يَفُلُّه حدُّ الدَّعوةِ[1].

- قولُه: ﴿ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا * ثُمَّ إِنِّيٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا﴾ عُطِفَ الكلامُ بـ(ثُمَّ) الَّتي تُفيدُ في عَطْفِها الجُمَلَ أنَّ مَضمونَ الجُملةِ المعطوفةِ أهمُّ مِن مَضمونِ المعطوفِ عليها؛ لأنَّ اختِلافَ كَيفيَّةِ الدَّعوةِ ألْصَقُ بالدَّعوةِ مِن أوقاتِ إلْقائِها؛ لأنَّ الحالةَ أشدُّ مُلابَسةً بصاحِبِها مِن مُلابَسةِ زَمانِه، فذَكَر أنَّه دَعاهم جِهارًا، أي: عَلَنًا، ثمَّ ارْتَقى فذَكَرَ أنَّه جمَعَ بيْن الجَهرِ والإسرارِ؛ لأنَّ الجمْعَ بيْنَ الحالتَينِ أقْوى في الدَّعوةِ، وأغلَظُ مِن إفرادِ إحْداهما، فقولُه: ﴿أَعْلَنتُ لَهُمْ﴾ تأْكيدٌ لقولِه: ﴿دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا﴾؛ ذُكِرَ لِيُبْنى عليه عطْفُ ﴿وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا﴾، والمعْنى: أنَّه تَوخَّى ما يَظُنُّه أوْغَلَ إلى قُلوبِهم مِن صِفاتِ الدَّعوةِ؛ فجَهَر حينَ يكونُ الجهرُ أجْدى مِثلُ مَجامعِ العامَّةِ، وأسرَّ للَّذين يَظُنُّهم مُتجَنِّبينَ لَوْمَ قَومِهم عليهم في التَّصدِّي لسَماعِ دَعوتِه، وبذلك تكونُ ضَمائرُ الغَيبةِ في قولِه: ﴿دَعَوْتُهُمْ﴾، وقولِه: ﴿أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ﴾ مُوزَّعةً على مُختَلِفِ النَّاسِ[2].

- وانتصَب ﴿جِهَارًا﴾ بالنيابةِ عن المفعولِ المطلقِ المبيِّنِ لنوعِ الدعوةِ، وانتصَبَ ﴿إِسْرَارًا﴾ على أنَّه مَفعولٌ مُطلَقٌ مُفيدٌ للتَّوكيدِ، أي: إسرارًا خَفيًّا[3].

٣- قولُه تعالَى: ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا * يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا﴾ فصَّل دَعوتَه بفاءِ التَّفريعِ فقال: ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ﴾؛ فهذا القولُ هو

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٩٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦١٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٤٨، ٢٤٩)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٨٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٣٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٩٦، ١٩٧)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٢٢٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٩٧).

الَّذي قالَه لهم ليلًا ونهارًا، وجِهارًا وإسرارًا(١).

- قولُه: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا﴾ تعليلٌ لقولِه: ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ﴾؛ علَّلَ لهم بأنَّ اللهَ مَوصوفٌ بالغُفرانِ صِفةً ثابتةً تَعهَّدَ اللهُ بها لعِبادِه المستغفرينَ، فأفادَ التَّعليلَ بحرْفِ (إنَّ)، وأفاد ثُبوتَ الصِّفةِ للهِ بذِكرِ فِعلِ (كان)، وأفاد كَمالَ غُفرانِه بصِيغةِ المُبالَغةِ بقولِه: ﴿غَفَّارًا﴾، وهذا وعْدٌ بخَيرِ الآخِرةِ. ورتَّبَ على الوعْدِ بخيرِ الآخرةِ وعْدًا بخيرِ الدُّنيا بطَريقِ جَوابِ الأمرِ، وهو ﴿يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم ...﴾ الآيةَ(٢).

- قولُه: ﴿غَفَّارًا﴾ صيغةُ مبالغةٍ، وهو أبلغُ في المغفرةِ مِن (غافر)؛ لأنَّ (فعَّالًا) يدلُّ على كثرةِ صدورِ الفعلِ، و(فاعلًا) لا يدلُّ على الكثرةِ، وقوَّةُ اللفظِ تدلُّ على قوةِ المعنَى، فالألفاظُ أدلةٌ على المعاني، وأمثلةٌ للإبانةِ عنها(٣).

- وقدَّمَ إليهم الموعدَ بما هو أوقَعُ في نُفوسِهم وأحَبُّ إليهم؛ مِن المنافعِ الحاضرةِ، والفوائدِ العاجلةِ؛ تَرغيبًا في الإيمانِ وبرَكاتِه، والطَّاعةِ ونَتائجِها مِن خَيرِ الدَّارَينِ(٤).

- قولُه: ﴿يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا﴾ الإرسالُ: مُعبَّرٌ به عن الإيصالِ والإعطاءِ، وتَعديتُه بـ﴿عَلَيْكُم﴾ لأنَّه إيصالٌ مِن عُلوٍّ. والمِدرارُ: الكثيرةُ الدَّرِّ والدُّرورِ، وهو السَّيَلانُ، ومعْنى ذلك: أنْ يَتبَعَ بَعضُ الأمطارِ بَعضًا، ومِدرارٌ زِنةُ مُبالَغةٍ(٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٩٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ١٩٧، ١٩٨).

(٣) يُنظر: ((المثل السائر)) لابن الأثير (٢/ ١٩٧، ١٩٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦١٧)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٨٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦١٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٤٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٣٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٩٨).

٤- قولُه تعالَى: ﴿وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا﴾ فيه إعادةُ فِعلِ (يَجعَل) بعْدَ واوِ العطفِ في قولِه: ﴿وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا﴾ للتَّوكيدِ؛ اهتمامًا بشأْنِ المعطوفِ؛ لأنَّ الأنهارَ قِوامُ الجنَّاتِ، وتَسْقي المزارعَ والأنعامَ(١).



(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٩٨).

الآيات (١٢-٢٠)

﴿مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ۝١٣ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ۝١٤ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا ۝١٥ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا ۝١٦ وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ۝١٧ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ۝١٨ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا ۝١٩ لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ۝٢٠﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿وَقَارًا﴾: أي: عَظَمةً مُقتَضِيةً للإجلالِ، وأصلُ (وقر): يدُلُّ على ثِقلٍ في الشَّيءِ[١].

﴿أَطْوَارًا﴾: أي: تاراتٍ، حالًا بَعْدَ حالٍ؛ نُطفةً، ثمَّ عَلَقةً، ثمَّ مُضْغةً، إلى تمامِ الخَلقِ، وأصلُ (طور): يدُلُّ على امتِدادٍ في شَيءٍ مِن مكانٍ أو زمانٍ[٢].

﴿طِبَاقًا﴾: أي: مُتَطابِقةً بَعضُها فَوقَ بَعضٍ، والمُطابَقةُ: أن تَجعَلَ الشَّيءَ فَوقَ آخَرَ بقَدْرِه، وأصلُ (طبق): يدُلُّ على وَضعِ شَيءٍ مَبسوطٍ على مِثْلِه حتَّى يُغَطِّيَه[٣].

﴿بِسَاطًا﴾: أي: مَبسوطةً، مُتَّسِعةً، مُمهَّدةً كالفِراشِ، وأصلُ (بسط): يدُلُّ على امتِدادِ الشَّيءِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٨٧)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٩٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٥٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٣٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٩٩).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٨٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٨٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤٣٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٢٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ١٤٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١١٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤٣٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥١٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٠٨).

(٤) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٤٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٢٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٣٠٦).

﴿فِجَاجًا﴾: أي: مَسالِكَ وطُرُقًا، الواحِدُ فَجٌّ، والفَجُّ: الطَّريقُ الواسِعُ، وكلُّ فَتحٍ بيْنَ جَبَلينِ أو شَيئَينِ، وأصلُ (فجج): يدُلُّ على تفتُّحٍ وانفِراجٍ[1].

المعنى الإجماليُّ:

يحكي اللهُ تعالى إنكارَ نوحٍ عليه السَّلامُ على قَومِه سوءَ أدبِهم معَ اللهِ، واستِخفافَهم بما يَدعوهم إليه، وأنَّه قال لهم: ما لَكم لا تُعَظِّمونَ اللهَ تعالى حقَّ عَظَمتِه، وقد خلَقَكم حالًا بعْدَ حالٍ، فكُنتُم نُطْفةً، ثمَّ عَلَقةً، ثمَّ مُضْغةً، إلى تمامِ خَلْقِكم؟!

قال نوحٌ لِقَومِه داعيًا لهم إلى التَّأمُّلِ في عجائبِ خَلقِ اللهِ: ألَم تَرَوا كيفَ خَلَقَ اللهُ سَبْعَ سَمَواتٍ بَعضُها فوقَ بَعضٍ، وجَعَلَ القَمَرَ في السَّمَواتِ نُورًا، وجعَلَ الشَّمسَ مِصباحًا مُضيئًا؛ فتَستَدِلُّوا بذلك على كَمالِ قُدرةِ اللهِ تعالى، واستِحقاقِه للعبادةِ دونَ ما سِواه؟!

ثمَّ دعاهم إلى التَّأمُّلِ في خَلقِ أنفُسِهم، وفي مَبدئِهم ومعادِهم، فقال: واللهُ ابتدَأَ خَلْقَ أبيكم آدَمَ مِن تُرابِ الأرضِ، فأصلُ نَشأتِكم منها، ثمَّ يُعيدُكم اللهُ في الأرضِ بعْدَ مَوتِكم، ويُخرِجُكم منها يومَ القيامةِ للحِسابِ والجَزاءِ.

ثمَّ دعاهم إلى التَّأمُّلِ في خَلقِ الأرضِ الَّتي يعيشونَ عليها، فقال: واللهُ جعَلَ لكم الأرضَ مَبسوطةً ممهَّدةً كالفِراشِ؛ لتتَّخِذوا منها طُرُقًا واسِعةً مُيَسَّرةً للسَّيرِ فيها.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾﴾.

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٧٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٣٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٢٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٣٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٩٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٦٩٩).

أي: قال نوحٌ لِقَومِه مُعاتِبًا لهم على كُفْرِهم: ما لَكم لا تُعَظِّمونَ اللهَ تعالى حقَّ عَظَمتِه؛ فتُوحِّدوه وتُطيعوه[1]؟!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٩٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٥٨)، ((الفوائد)) لابن القيم (ص: ١٨٧، ١٨٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٩).

قال الماوَرْدي: (﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾ فيه خمسةُ تأويلاتٍ:

أحدُها: ما لَكم لا تَعرِفونَ للهِ عَظَمَةً. قاله مجاهِدٌ، وعِكرِمةُ.

الثَّاني: لا تَخشَونَ للهِ عِقابًا وتَرجُونَ منه ثوابًا. قاله ابنُ عبَّاسٍ في روايةِ ابنِ جُبَيرٍ.

الثَّالثُ: لا تَعرِفونَ للهِ حَقَّه، ولا تَشكُرونَ له نِعَمَه. قاله الحَسَنُ.

الرَّابعُ: لا تُؤَدُّونَ للهِ طاعةً. قاله ابنُ زَيدٍ.

الخامِسُ: أنَّ الوَقارَ: الثَّباتُ، ومنه قولُه تعالى: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾ [الأحزاب: ٣٣] أي: اثبُتْنَ، ومعناه: لا تُثبِتونَ وحدانيَّةَ اللهِ، وأنَّه إلهُكم الَّذي لا إلهَ لكم سِواه). ((تفسير الماوردي)) (٦/ ١٠١).

وقال ابن القيِّم: (وهذه الأقوالُ تَرجِعُ إلى معنًى واحدٍ، وهو أنَّهم لو عَظَّموا اللهَ وعَرَفوا حقَّ عظَمتِه وحَّدُوه وأطاعوه وشَكَروه). ((الفوائد)) (ص: ١٨٧، ١٨٨).

وممَّن قال: إنَّ الرَّجاءَ هنا بمعنى الخَوفِ، أي: ما لَكم لا تَخافونَ للهِ عظَمةً: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والفَرَّاءُ، والأخفش، وابن قُتَيبة، وابن جرير، والواحديُّ، والسمعاني، والسعدي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٤٥٠)، ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ١٨٨)، ((معاني القرآن)) للأخفش (٢/ ٥٥٠)، ((تأويل مشكل القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٢١)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٩٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٥٨)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٥٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٩).

وقد ردَّ الرَّازيُّ هذا القولَ ولم يُجَوِّزْه. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦٥٣).

وقال ابن القيِّم: (قال كثيرٌ مِن المفسِّرينَ: المعنى: ما لَكم لا تَخافونَ للهِ عَظَمةً؟ قالوا: والرَّجاءُ بمعنى الخَوفِ، والتَّحقيقُ أنَّه ملازِمٌ له؛ فكُلُّ راجٍ خائِفٌ مِن فواتِ مَرجُوِّه. والخوفُ بلا رجاءٍ يأسٌ وقُنوطٌ. وقال تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَغْفِرُواْ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ﴾ [الجاثية: ١٤] قالوا في تفسيرِها: لا يَخافُونَ وقائعَ اللهِ بهم، كوقائِعِه بمَن قَبْلَهم مِنَ الأُمَم). ((مدارج السالكين)) (٢/ ٥١).

وقيل: المعنى: ما لَكم لا تَكونونَ على حالٍ تأمُلونَ فيها تعظيمَ اللهِ إيَّاكم في دارِ الثَّوابِ. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: الزمخشريُّ، والشربيني. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦١٧)، ((تفسير الشربيني)) (٤/ ٣٩٢). =

﴿وَقَدۡ خَلَقَكُمۡ أَطۡوَارًا ١٤﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا أمَرَ نُوحٌ عليه السَّلامُ بتَعظيمِ اللهِ؛ استَدَلَّ على التَّوحيدِ بوُجوهٍ مِنَ الدَّلائِلِ[1]، فقال:

﴿وَقَدۡ خَلَقَكُمۡ أَطۡوَارًا ١٤﴾.

أي: كيف تَترُكونَ تَعظيمَ اللهِ تعالى وإجلالَه، وقد جَعَل لكم في أنفُسِكم آيةً تدُلُّ على توحيدِه، وتَحمِلُ على تَعظيمِه، وهي خلْقُه إيَّاكم حالًا بعدَ حالٍ، فكُنتُم نُطْفةً، ثمَّ عَلَقةً، ثمَّ مُضْغةً، إلى تمامِ خَلْقِكم[2]؟!

كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٖ مِّن طِينٖ * ثُمَّ جَعَلۡنَٰهُ نُطۡفَةٗ فِي قَرَارٖ مَّكِينٖ * ثُمَّ خَلَقۡنَا ٱلنُّطۡفَةَ عَلَقَةٗ فَخَلَقۡنَا ٱلۡعَلَقَةَ مُضۡغَةٗ فَخَلَقۡنَا ٱلۡمُضۡغَةَ

= وقال البِقاعي: (﴿وَقَارٗا﴾ أي: ثوابًا يوقِّرُكم فيه ولو قَلَّ؛ فإنَّ قليلَه أكثرُ مِن كثيرِ غيرِه، ولا تَخافونَ له إهانةً بالعِقابِ بأن تعلَموا أنَّه لا بدَّ مِن أن يُحاسِبَكم بعدَ البعثِ، فيُثيبَ الطَّائعَ، ويُعاقِبَ العاصيَ... ولأجْلِ أنَّ المطلوبَ تحصيلُ الأعمالِ الَّتي هي أسبابٌ ظاهريَّةٌ، عبَّر بالرَّجاءِ؛ ليَسُرَّهم بأنَّ أعمالَهم مؤثِّرةٌ، وعبَّر بالطَّمعِ في غيرِ هذه الآيةِ؛ تنبيهًا على أنَّه لا سببَ في الحقيقةِ إلَّا رحمةُ الله لحالٍ دعا إلى ذلك). ((نظم الدرر)) (٢٠/ ٤٣٩، ٤٤٠).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦٥٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٩٧)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١١٣٦)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٥٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٣٠٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٩).

قال الزجَّاج: (خلَقَكم مِن تُرابٍ، ثمَّ مِن نُطفةٍ، ثمَّ مِن عَلَقةٍ، ثمَّ مِن مُضغةٍ، ثمَّ جَعَل المُضغةَ عَظمًا، وكَسا العَظمَ لَحمًا). ((معاني القرآن وإعرابه)) (٥/ ٢٢٩).

وقال السعدي: (أي: خَلْقًا مِن بَعدِ خَلْقٍ، في بَطنِ الأُمِّ، ثمَّ في الرَّضاعِ، ثمَّ في سِنِّ الطُّفوليَّةِ، ثمَّ التَّمييزِ، ثمَّ الشَّبابِ، إلى آخِرِ ما يَصِلُ إليه الخَلْقُ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٩). ويُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٠١).

عِظَٰمٗا فَكَسَوۡنَا ٱلۡعِظَٰمَ لَحۡمٗا ثُمَّ أَنشَأۡنَٰهُ خَلۡقًا ءَاخَرَۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحۡسَنُ ٱلۡخَٰلِقِينَ ﴾ [المؤمنون: ١٢ - ١٤].

وقال سُبحانَه: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعۡفٖ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعۡدِ ضَعۡفٖ قُوَّةٗ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعۡدِ قُوَّةٖ ضَعۡفٗا وَشَيۡبَةٗ﴾ [الروم: ٥٤].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ مِنۡ عَلَقَةٖ ثُمَّ يُخۡرِجُكُمۡ طِفۡلٗا ثُمَّ لِتَبۡلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمۡ ثُمَّ لِتَكُونُواْ شُيُوخٗاۚ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبۡلُۖ وَلِتَبۡلُغُوٓاْ أَجَلٗا مُّسَمّٗى وَلَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾ [غافر: ٦٧].

﴿أَلَمۡ تَرَوۡاْ كَيۡفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ طِبَاقٗا ١٥﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا نبَّهَهم نُوحٌ عليه السَّلامُ على الفِكرِ في أنفُسِهم، وكيف انْتقَلوا مِن حالٍ إلى حالٍ، وكانتِ الأنفُسُ أقرَبَ ما يُفكِّرون فيه منهم؛ أرشَدَهُم إلى الفِكرِ في العالَمِ عُلْوِه وسُفلِه، وما أودَعَ تعالَى فيه، أي: في العالَمِ العُلويِّ مِن هذَينِ النَّيِّرَينِ اللَّذَينِ بهما قِوامُ الوُجودِ[١].

﴿أَلَمۡ تَرَوۡاْ كَيۡفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ طِبَاقٗا ١٥﴾.

أي: قال نوحٌ لِقَومِه: أَلَم تَرَوا كيف خَلَقَ اللهُ سَبْعَ سَمَواتٍ بَعضُها فوقَ بَعضٍ؛ فتَستَدِلُّوا بذلك على كَمالِ قُدرةِ اللهِ، واستِحقاقِه للعبادةِ دونَ ما سِواه[٢]؟!

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٨٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٩٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٣٠٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٠٢).

قال ابنُ عرفة: (وهذه الآيةُ مِن كلامِ نوحٍ عليه السَّلامُ لقومِه). ((تفسير ابن عرفة)) (٤/ ٢٩٦).

وقال القرطبي: (وقولُه: ﴿أَلَمۡ تَرَوۡاْ﴾ على جهةِ الإخبارِ لا المُعايَنةِ، كما تقولُ: ألم تَرَني كيفَ صنعتُ بفُلانٍ كذا). ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٣٠٤).

=

﴿وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾﴾.

﴿وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا﴾.

أي: وجَعَل اللهُ القَمَرَ في السَّمواتِ السَّبعِ نُورًا(١).

= قال ابنُ عجيبة: (والرُّؤيةُ هنا علميَّةٌ؛ إذ لا يُرَى بالبصرِ إلَّا واحدةٌ). ((تفسير ابن عجيبة)) (٧/ ١٤٦).

وقيل: الرُّؤيةُ بصَريَّةٌ. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٠٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٩٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٩).

قال ابن جرير: (وقولُه: ﴿وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا﴾ يقولُ: وجَعَل القمرَ في السَّمواتِ السَّبعِ نورًا). ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٩٩).

قيل: المرادُ بقَولِه تعالى: ﴿وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ﴾: أنَّ القَمَر في بَعضِها؛ لأنَّه في السَّماءِ الدُّنيا، كما يُقالُ: فلانٌ في المدينةِ، وهو في بعضِ نواحيها. وممَّن قال بهذا المعنى: الأخفشُ، والسمرقندي، والزمخشري، وابن عطية، والرازي، وابن جُزَي. يُنظر: ((معاني القرآن)) للأخفش (٢/ ٥٥٠)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٥٠١)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦١٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٧٥)، ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦٥٤)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤١٥).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلَفِ: الحسَنُ. يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٥/ ١٥٧).

قال الشوكاني: (وجعْلُ القمرِ في السَّمواتِ على كَونِه في سماءِ الدُّنيا؛ لأنَّه إذا كان في إحداهنَّ، فهو فيهنَّ، كذا قال ابنُ كَيْسانَ). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٥٨).

وقيل: المرادُ أنَّ أحَدَ وَجهَيِ القَمَرِ يُضيءُ السَّمَواتِ، والوَجهَ الآخَرَ يُضيءُ الأرضَ. وممَّن ذهب إليه: البِقاعي. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٤٤٣). ويُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٢٣٠).

وممَّن رُوِيَ عنه نحوُ هذا القَولِ مِنَ السَّلَفِ: عبدُ الله بنُ عَمرِو بنِ العاص، وابنُ عبَّاسٍ، وعِكْرِمةُ، وعَطاءٌ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٠٠)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ١٥٧)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٨/ ٢٩١).

وقيل: الألِفُ واللَّامُ في القَمَرِ للجِنسِ، لا للعَهدِ؛ فليس القَمَرُ خاصًّا بالأرضِ. وممَّن ذهب إلى هذا القولِ: القاسميُّ. يُنظر: ((تفسير القاسمي)) (١/ ٢١٠). ويُنظر أيضًا: ((مجلة المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٤/ ٥٧٧).

كما قال تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا﴾ [الفرقان: ٦١].

﴿وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا﴾.

أي: وجعل اللهُ الشَّمسَ مِصباحًا مُضيئًا(١).

كما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا﴾ [يونس: ٥].

﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ١٧﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّها رُجوعٌ إلى دَلائلِ الأنفُسِ، وهي كالتَّفسيرِ لقَولِه تعالى: ﴿خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾ [نوح: ١٤]؛ فإنَّه بيَّنَ أنَّه تعالى خَلَقَهم مِن الأرضِ، ثمَّ يَرُدُّهم إليها، ثمَّ يُخرِجُهم منها مرَّةً أُخرى(٢).

وأيضًا لَمَّا دلَّ اللهُ تعالَى على كَمالِ عِلمِه وتَمامِ قُدرتِه بخلْقِ الإنسانِ، ثمَّ بخلْقِ ما هو أكبَرُ منه؛ أعاد الدَّلالةَ بخَلْقِ الإنسانِ؛ لأنَّه أعظَمُ المُحدَثاتِ، وأدَلُّها على اللهِ سُبحانَه وتعالَى على وجْهٍ آخَرَ(٣).

﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ١٧﴾.

أي: واللهُ ابتدَأَ خَلْقَ أَبيكم آدَمَ مِن تُرابِ الأرضِ، فأصلُ نَشأتِكم منها(٤).

(١) يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٥٨)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ١٥٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٣٠٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦٥٤).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٤٤٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٤٥١)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٠٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٥٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٧٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٤٤٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٠٤). =

﴿ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ۝١٨﴾.

﴿ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا﴾.

أي: ثمَّ يُعيدُكم اللهُ في الأرضِ بعْدَ مَوتِكم، فتُدفَنونَ فيها، وتَصيرونَ تُرابًا كما كُنتُم قبْلَ خَلْقِكم[1].

﴿وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا﴾.

أي: ويُخرِجُكم اللهُ مِنَ الأرضِ يومَ القيامةِ للحِسابِ والجَزاءِ، فتَخرُجونَ مِن قُبورِكم أحياءً[2].

كما قال تعالى: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ [طه: ٥٥].

وقال سُبحانَه: ﴿ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ﴾ [عبس: ٢٢].

﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا ۝١٩﴾.

أي: واللهُ جعَل لكم الأرضَ مَبسوطةً ممهَّدةً كالفِراشِ[3].

= قال الرازي: (في هذه الآيةِ وَجهانِ:

أحَدُهما: معنى قَولِه: ﴿أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ﴾ أي: أنبَتَ أباكم مِن الأرضِ، كما قال: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ﴾ [آل عمران: ٥٩].

والثَّاني: أنَّه تعالى أنبَتَ الكُلَّ مِنَ الأرضِ؛ لأنَّه تعالى إنَّما يَخلُقُنا مِنَ النُّطَفِ، وهي متولِّدةٌ مِنَ الأغذيةِ المتولِّدةِ مِن النَّباتِ المتولِّدِ مِنَ الأرضِ). ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦٥٤). ويُنظر: ((تفسير الماتريدي)) (١٠/ ٢٣٠)، ((تفسير الماوردي)) (٦/ ١٠٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٠٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٧٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٣٠٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٠٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٧٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٣٠٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٣٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٠٠)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦١٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٣٠٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٣٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٩).

كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا﴾ [البقرة: ٢٢].

وقال سُبحانَه: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا﴾ [الزخرف: ١٠].

﴿لِّتَسْلُكُوا۟ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴿٢٠﴾﴾.

أي: لتتَّخِذوا منها طُرُقًا واسِعةً سَهلةً مُيَسَّرةً للسَّيرِ فيها[1].

كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ١٠].

وقال الله سُبحانَه وتعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا﴾ [الملك: ١٥].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- ممَّا يَستقيمُ به القَلبُ تَعظيمُ الأمرِ والنَّهيِ، وهو ناشِئٌ عن تَعظيمِ الآمِرِ النَّاهي؛ فإنَّ اللهَ تعالى ذَمَّ مَن لا يُعَظِّمُ أمْرَه ونَهْيَه، قال سُبحانَه وتعالى: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾[2].

٢- قال تعالى: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾ ومِن وقارِ الله تعالى أن لا تعدِلَ به شيئًا مِن خلقِه لا في اللَّفْظ -بِحَيْثُ تَقولُ: واللهِ، وحياتِك، ما لي إلَّا اللهُ وأنت، وما شاءَ اللهُ وشئتَ- ولا في الحبِّ والتَّعظيمِ والإجلالِ، ولا في الطَّاعةِ، ولا في الخوفِ والرجاءِ، ولا يجعلَه أهونَ النَّاظرينَ إليه، ولا يستهينَ بحقِّه، ويَقولَ:

---

(١) يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٥٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٩٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٣٠٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٣٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٤٤٥، ٤٤٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٠٥).

قال ابنُ عاشور: (الفَجُّ: الطَّريقُ الواسِعُ، وأكثَرُ ما يُطلَقُ على الطَّريقِ بيْن جَبَلينِ؛ لأنَّه يكونُ أوسَعَ مِن الطَّريقِ المعتادِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٠٥).

(٢) يُنظر: ((الوابل الصيب)) لابن القيم (ص: ٨).

هو مَبْنِيٌّ على المُسامحَةِ، ولا يجعلَه على الفضلة، ويقدِّمَ حقَّ المخلوقِ عليه، ولا يَجعلَ مُرادَ نَفسه مقدَّمًا على مُرادِ ربِّه، فهذا كلُّه مِن عدمِ وقارِ الله في القلبِ، وَمن وقارِ الله أن يستحيَ من اطِّلاعِه على سرِّه وضميره فيرَى فيه ما يكرهُ، ومِن وقارِه أنْ يستحيَ منه فِي الخلْوَةِ أعظمَ مِمَّا يستحي مِن أكابرِ النَّاسِ. وإنَّ مِن أعظمِ الظُّلمِ والجهلِ أن تطلبَ التَّعظيمَ والتَّوقيرَ مِن النَّاسِ وقلبُك خالٍ مِن تعظيمِ الله وتوقيرِه[1].

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا * وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا﴾ فيه تَنبيهٌ على عِظَمِ خَلقِ هذه الأشياءِ، وكَثرةِ المنافِعِ في الشَّمسِ والقَمَرِ، الدَّالَّةِ على رحمةِ الله، وسَعةِ إحسانِه؛ فالعظيمُ الرَّحيمُ يَستَحِقُّ أن يُعظَّمَ، ويُحَبَّ، ويُعبَدَ، ويُخافَ، ويُرجَى[2].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾ فيه مِن شُعَبِ الإيمانِ: الرَّجاءُ والخَشيةُ، على القَولَينِ في تَفسيرِه[3].

٢- قال تعالَى: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا * وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾؛ فالَّذي انفَرَدَ بالخَلقِ والتَّدبيرِ البديعِ مُتعيِّنٌ أنْ يُفرَدَ بالعِبادةِ والتَّوحيدِ. وفي ذِكرِ ابتداءِ خَلْقِهم تَنبيهٌ لهم على الإقرارِ بالمَعادِ، وأنَّ الَّذي أنْشَأَهُم مِن العدَمِ قادرٌ على أنْ يُعيدَهم بعْدَ مَوتِهم[4].

٣- قَولُ اللهِ تعالَى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا﴾ فيه سُؤالٌ، وهو:

---

(١) يُنظر: ((الفوائد)) لابن القيم (ص: ١٨٧).
(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٩).
(٣) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٧٤).
(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٩).

كيف قِيل لهم: ﴿ أَلَمۡ تَرَوۡاْ كَيۡفَ ﴾، و(الكَيفُ) للحالةِ والهيئةِ، وهمْ لم يُشاهِدوها، كما قال تعالَى: ﴿مَّآ أَشۡهَدتُّهُمۡ خَلۡقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَا خَلۡقَ أَنفُسِهِمۡ ﴾ [الكهف: ٥١]؟

والجوابُ: حيثُ إنَّ اللهَ خاطَبَهم هنا ﴿ أَلَمۡ تَرَوۡاْ كَيۡفَ ﴾؛ فكان هذا أمْرًا -لِفَرْطِ صِدقِ الإخبارِ به- كالمُشاهَدِ المحسوسِ المُلزِمِ لهم. وقيل غيرُ ذلك[١].

٤- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَجَعَلَ ٱلۡقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا ﴾ فيه سؤالٌ: كيف قال ذلك، والقَمَرُ ليس فيها بأسْرِها، بل في السَّماءِ الدُّنيا؟

الجوابُ: هذا كما يُقالُ: (السُّلطانُ في العراقِ) ليس المرادُ أنَّ ذاتَه حاصِلةٌ في جميعِ أحيازِ العِراقِ، بل إنَّ ذاتَه في حَيِّزٍ مِن جملةِ أحيازِ العِراقِ، فكذا هاهنا[٢].

٥- قال اللهُ تعالى: ﴿وَجَعَلَ ٱلۡقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمۡسَ سِرَاجًا﴾ في جَعلِ القَمَرِ نُورًا إيماءٌ إلى أنَّ ضَوءَ القَمَرِ ليس مِن ذاتِه؛ فإنَّ القَمَرَ مُظلِمٌ، وإنَّما يَستضيءُ بانعكاسِ أشِعَّةِ الشَّمسِ على ما يَستَقبِلُها من وَجهِه بحَسَبِ اختلافِ ذلك الاستِقبالِ مِن تبَعُّضٍ وتمامٍ[٣]، وأيضًا جَعْلُ الشَّمسِ سِراجًا: فيه إشارةٌ إلى أنَّ نُورَ القَمَرِ مِنَ الشَّمسِ مُكتَسَبٌ، حيث جَعَل الشَّمسَ بمنزلةِ نَفسِ السِّراجِ، والقمَرَ بمنزلةِ ضَوئِه ونُورِه[٤].

٦- قولُه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ نَبَاتٗا﴾ مِن أدَلِّ الأدلَّةِ على الحُدوثِ؛ لأنَّهم إذا كانوا نَباتًا كانوا مُحْدَثينَ -لا مَحالةَ- حُدوثَ النَّباتِ[٥].

(١) يُنظر: ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٨/ ٣١٠-٣١٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦٥٤).

ويُنظر ما تقدَّم (ص: ٢٦٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٠٤).

(٤) يُنظر: ((باهر البرهان)) لبيان الحق الغزنوي (٣/ ١٥٥٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦١٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٤٩)، ((تفسير أبي =

٧- لطيفة: أجسامُ بني آدَمَ بل وسائِرِ الحيواناتِ: كنَباتِ الأرضِ، تَنقَلِبُ مِن حالٍ إلى حالٍ، ثمَّ تجِفُّ وتصيرُ تُرابًا؛ قال اللهُ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ نَبَاتٗا * ثُمَّ يُعِيدُكُمۡ فِيهَا وَيُخۡرِجُكُمۡ إِخۡرَاجٗا﴾[1].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿مَّا لَكُمۡ لَا تَرۡجُونَ لِلَّهِ وَقَارٗا * وَقَدۡ خَلَقَكُمۡ أَطۡوَارًا﴾ بدَّلَ نوحٌ عليه السَّلامُ خِطابَه مع قَومِه مِن طَريقةِ النُّصحِ والأمرِ إلى طَريقةِ التَّوبيخِ بقولِه: ﴿مَّا لَكُمۡ لَا تَرۡجُونَ لِلَّهِ وَقَارٗا﴾، وهو استِفهامٌ صُورتُه صُورةُ السُّؤالِ عن أمْرٍ ثبَتَ لهم في حالِ انتفاءِ رَجائِهم تَوقيرَ اللهِ، والمقصودُ أنَّه لا شَيءَ يَثبُتُ لهم صارِفٌ عن تَوقيرِ اللهِ؛ فلا عُذْرَ لكم في عدَمِ تَوقيرِه[2].

- قولُه: ﴿مَّا لَكُمۡ لَا تَرۡجُونَ لِلَّهِ وَقَارٗا﴾ اختُلِفَ في معناه وفي تَعلُّقِ مَعمولاتِه بعوامِلِه على أقوالٍ: فإذا حُمِلَ الرَّجاءُ على معْنى تَرقُّبِ الأمرِ، وحُمِلَ الوَقارُ على معْنى العَظَمةِ المُقتضيةِ للإجلالِ؛ فالمعْنى: ما لَكمْ لا تَرجُون ثَوابًا مِن اللهِ، ولا تَخافون عِقابًا، أي: فتَعْبُدوه راجينَ أنْ يُثيبَكم على عِبادتِكم وتَوقيرِكم إيَّاه، وهذا التَّفسيرُ يَنْحو إلى أنْ يكونَ في الكلامِ اكتِفاءٌ[3]، أي: ولا تَخافون

= السعود)) (٩/ ٣٩)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٢٢٩).

(١) يُنظر: ((لطائف المعارف)) لابن رجب (ص: ٣١٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٤٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٩٩).

(٣) الاكتفاءُ: هو أنْ يَقتضيَ المقامُ ذِكْرَ شيئَينِ بَيْنَهما تَلازُمٌ وارتباطٌ، فيُكتفَى بأحدِهما عن الآخَرِ؛ لنُكتةٍ بلاغيَّةٍ؛ ومثالُ ذلك قولُ اللهِ عزَّ وجلَّ: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلٗا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلۡجِبَالِ أَكۡنَٰنٗا وَجَعَلَ لَكُمۡ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلۡحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأۡسَكُمۡۚ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تُسۡلِمُونَ﴾ [النحل: ٨١]؛ ففي قولِه: ﴿وَجَعَلَ لَكُمۡ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلۡحَرَّ﴾ إيجازٌ بالحذفِ، على سبيلِ الاكتفاءِ، إذِ التَّقْديرُ: تقيكُمُ الحَرَّ والبَرْدَ. يُنظر: ((البرهان في علوم القرآن)) للزركشي (٣/ ١١٨)، ((جواهر البلاغة)) للهاشمي (ص: ٣٣٥)، ((البلاغة العربية)) للميداني (٢/ ٤٨).

عِقابًا، وإنَّ نُكتةَ الاكتِفاءِ بالتَّعجُّبِ مِن عدَمِ رَجاءِ الثَّوابِ: أنَّ ذلك هو الَّذي يَنْبغي أنْ يَقصِدَه أهلُ الرَّشادِ والتَّقوى، والتَّقديرُ: ما لَكمْ لا تَكونونَ على حالٍ تأمُلونَ فيها تَعظيمَ اللهِ إيَّاكم في دارِ الثَّوابِ. وهذا يَقْتضي أنْ يكونَ الكلامُ كِنايةً تَلويحيَّةً عن حَثِّهم على الإيمانِ باللهِ الَّذي يَستلزِمُ رَجاءَ ثَوابِه، وخَوفَ عِقابِه؛ لأنَّ مَن رَجا تَعظيمَ اللهِ إيَّاه آمَنَ به، وعبَدَه، وعمِلَ الصَّالحاتِ.

وعلى أنَّ الرَّجاءَ بمَعْنى الاعتقادِ، و﴿لَا تَرْجُونَ﴾ حالٌ من ضَميرِ المُخاطَبينَ، والعاملُ فيها مَعْنى الاستقرارِ في ﴿لَكُمْ﴾، على أنَّ الإنكارَ مُتوجِّهٌ إلى السَّببِ فقَطْ مع تَحقُّقِ مَضمونِ الجُملةِ الحاليَّةِ لا إليهِما معًا؛ فيكونُ قولُه إنكارًا لأنْ يكونَ لهُم سَببٌ ما في عدَمِ رَجائِهم للهِ تعالَى وَقارًا؛ فقولُه: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾، أي: لا تَعتَقِدون له عَظَمةً، فتَخافوا عِصيانَه؟! وإنَّما عبَّرَ عن الاعتقادِ بالرَّجاءِ التَّابعِ لأدْنى الظَّنِّ مُبالَغةً.

وعلى القَولِ بأنَّ معنى الوَقارِ: العاقبةُ، أي: ما لَكمْ لا تَرْجُون للهِ عاقبةً، أي: عاقبةَ الإيمانِ؛ فيكونُ الكلامُ كِنايةً عن التَّوبيخِ على تَرْكِهم الإيمانَ باللهِ تعالَى[1].

- وجُملةُ ﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾ حالٌ مُقرِّرةٌ للإنكارِ مِن حيثُ إنَّها مُوجِبةٌ للرَّجاءِ؛ فهي حالٌ مِن ضَميرِ ﴿لَكُمْ﴾ أو ضَميرِ ﴿تَرْجُونَ﴾، أي: في حالِ تَحقُّقِكم أنَّه خَلَقَكم أطْوارًا، فأمَّا أنَّه خَلَقَهم فمُوجِبٌ للاعتِرافِ بعَظَمتِه؛ لأنَّه مُكوِّنُهم وصانعُهم، فحقَّ عليهم الاعترافُ بجَلالِه، وأمَّا كونُ خلْقِهم أطوارًا؛ فلأنَّ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦١٧، ٦١٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٤٩)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٦/ ٣٤، ٣٥)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٨٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٤٤٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٣٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٩٩، ٢٠٠)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٢٢٩، ٢٣٠).

الأطوارَ الَّتي يَعلَمونها دالَّةٌ على رِفقِه بهم في ذلك التَّطوُّرِ، فهذا تَعريضٌ بكُفْرِهم النِّعمةَ، ولأنَّ الأطوارَ دالَّةٌ على حِكمةِ الخالِقِ وعِلمِه وقُدرتِه؛ فإنَّ تَطوُّرَ الخلْقِ مِن طَورِ النُّطفةِ، إلى طَورِ الجنينِ، إلى طَورِ خُروجِه طِفلًا، إلى طَورِ الصِّبا، إلى طَورِ بُلوغِ الأشُدِّ، إلى طَورِ الشَّيخوخةِ، وطُروِّ الموتِ على الحياةِ، وطُروِّ البلى على الأجسادِ بعدَ الموتِ؛ كلُّ ذلك والذَّاتُ واحدةٌ، فهو دَليلٌ على تَمكُّنِ الخالِقِ مِن كَيفيَّاتِ الخلْقِ والتَّبديلِ في الأطوارِ، وهم يُدرِكون ذلك بأدْنى الْتِفاتِ الذِّهنِ، فكانوا مَحقوقينَ بأنْ يَتوصَّلوا به إلى مَعرفةِ عَظَمةِ اللهِ تعالى، وتَوقُّعِ عِقابِه؛ لأنَّ الدَّلالةَ على ذلك قائمةٌ بأنفُسِهم، وهل التَّصرُّفُ فيهم بالعِقابِ والإثابةِ إلَّا دونَ التَّصرُّفِ فيهم بالكَونِ والفسادِ[1]؟

- قَولُه: ﴿وَقَدۡ خَلَقَكُمۡ أَطۡوَارًا﴾ بدَأَ بدَلائلِ الأنفُسِ، وبعْدَها بدَلائلِ الآفاقِ؛ لأنَّها مع شَرَفِها أقرَبُ مَنظورٍ إليه لهم، فنفْسُ الإنسانِ أقرَبُ الأشياءِ إليه، فلا جَرَمَ بدَأَ بالأقرَبِ، وثَنَّى بالعُلويِّ؛ لأنَّه يليها في الشَّرَفِ ووُضوحِ الآياتِ. وتارَّةً يَبدَأُ بدَلائلِ الآفاقِ، ثمَّ بدَلائلِ الأنفُسِ؛ إمَّا لأنَّ دَلائلَ الآفاقِ أبهَرُ وأعظَمُ، فوَقَعَت البدايةُ بها لهذا السَّببِ، أو مِن أجْلِ أنَّ دَلائلَ الأنفُسِ حاضرةٌ، لا حاجةَ بالعاقلِ إلى التَّأمُّلِ فيها، إنَّما الَّذي يَحتاجُ إلى التَّأمُّلِ فيه دَلائلُ الآفاقِ؛ لأنَّ الشُّبَهَ فيها أكثَرُ، فلا جَرَمَ تَقَعُ البدايةُ بها[2].

٢- قولُه تعالَى: ﴿أَلَمۡ تَرَوۡاْ كَيۡفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ طِبَاقٗا﴾

- هذا الكلامُ إنْ كان هذا مِن حِكايةِ كَلامِ نوحٍ عليه السَّلامُ لقومِه، كان تَخلُّصًا مِن التَّوبيخِ والتَّعريضِ إلى الاستدلالِ عليهم بآثارِ وُجودِ اللهِ ووَحدانيَّتِه

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٤٩)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٦/ ٣٥)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٨٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٣٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٠١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦٥٤). ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٤٤١، ٤٤٢).

وقُدرتِه، ممَّا في أنفُسِهم مِن الدَّلائلِ إلى ما في العالَمِ منها؛ لِما في قولِه: ﴿وَقَدۡ خَلَقَكُمۡ أَطۡوَارًا﴾ [نوح: ١٤] مِن تَذكيرٍ بالنِّعمةِ وإقامةٍ للحُجَّةِ، فتَخلَّصَ منه لذِكرِ حُجَّةٍ أُخرى، فكان قد نبَّهَهم على النَّظَرِ في أنفُسِهم أولًا؛ لأنَّها أقرَبُ ما يُحِسُّونه ويَشعَرون به، ثمَّ على النَّظَرِ في العالَمِ وما سُوِّيَ فيه مِن العجائبِ الشَّاهدةِ على الخالِقِ العليمِ القديرِ. وإنْ كان مِن خطابِ اللهِ تعالَى للأُمَّةِ -وهو ما يَسمَحُ به سِياقُ السُّورةِ مِن الاعتبارِ بأحوالِ الأُمَمِ الماضيةِ المُساويةِ لأحوالِ المشركينَ- كان هذا الكلامُ اعتراضًا للمُناسَبةِ(١).

- والهمزةُ في ﴿أَلَمۡ تَرَوۡاْ﴾ للاستِفهامِ التَّقريريِّ مُكنًّى به عن الإنكارِ عن عدَمِ العِلمِ بدَلائلِ ما يَرَونه، والمعْنى: أَلَسْتُم تَرَون هَيئةَ وحالةَ خلْقِ اللهِ السَّمواتِ(٢)؟!

- وقولُه: ﴿سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ﴾ يَجوزُ أنْ يكونَ وصْفُ سبْعٍ مَعلومًا للمُخاطَبينَ مِن قومِ نوحٍ، أو مِن أُمَّةِ الدَّعوةِ الإسلاميَّةِ؛ بأنْ يَكونوا عَلِموا ذلك مِن قبْلُ، فيكون ممَّا شَمِلَه فِعلُ ﴿أَلَمۡ تَرَوۡاْ﴾، ويجوزُ أنْ يكونَ تَعليمًا للمخاطَبينَ على طَريقةِ الإدماجِ(٣).

٣- قولُه تعالَى: ﴿وَجَعَلَ ٱلۡقَمَرَ فِيهِنَّ نُورٗا وَجَعَلَ ٱلشَّمۡسَ سِرَاجٗا﴾ الإخبارُ عن القمرِ بأنَّه نورٌ مُبالَغةٌ في وصْفِه بالإنارةِ بمَنزلةِ الوصْفِ بالمَصدرِ(٤).

- قَولُه: ﴿وَجَعَلَ ٱلۡقَمَرَ فِيهِنَّ نُورٗا﴾ بدَأَ به؛ لقُربِه، وسُرعةِ حَركتِه، وقَطعِه جميعَ البروجِ في كُلِّ شَهرٍ مَرَّةً، وغَيبتِه في ليالي السِّرارِ(٥)، ثمَّ ظُهورِه، وذلك أعجَبُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٠٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٠٢)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٢٢٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٠٢).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ٢٠٣).

(٥) السِّرارُ: يومَ يَستَسِرُّ فيه الهلالُ آخِرَ يومٍ مِن الشَّهرِ أو قبْلَه، ورُبَّما استَتَر لَيلتَينِ اذا تَمَّ الشَّهرُ. =

في القُدرةِ[1].

- والسِّراجُ: المِصباحُ الزَّاهرُ نُورُه، الَّذي يُوقَدُ بفَتيلةٍ في الزَّيتِ يُضِيءُ الْتهابُها المُعدَّلُ بمِقدارِ بَقاءِ مادَّةِ الزَّيتِ تَغمُرُها، والإخبارُ به عن الشَّمسِ مِن التَّشبيهِ البليغِ، والقصدُ منه تَقريبُ المُشبَّهِ مِن إدراكِ السَّامعِ؛ فإنَّ السِّراجَ كان أقْصى ما يُستضاءُ به في اللَّيلِ[2].

- وفيه مُناسَبةٌ حسَنةٌ، حيثُ لم يُخبَرْ هنا عن الشَّمسِ بالضِّياءِ، كما في آيةِ سُورةِ (يُونسَ) ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً﴾ [يونس: ٥]، والمعنى واحدٌ، وهو الإضاءةُ، ولعلَّ إيثارَ السِّراجِ هنا لمُقارَبةِ تَعبيرِ نُوحٍ في لُغتِه، مع ما فيه مِن الرِّعايةِ على الفاصلةِ؛ لأنَّ الفواصلَ الَّتي قبْلَها جاءتْ على حُروفٍ صَحيحةٍ، ولو قِيل: (ضِياءً) لَصارتِ الفاصلةُ هَمزةً، والهمزةُ قريبةٌ مِن حُروفِ العِلةِ، فيَثقُلُ الوقفُ عليها[3].

٤- قولُه تعالَى: ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ۞ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا﴾ أنشَأَ الاستدلالُ بخلْقِ السَّمواتِ حُضورَ الأرضِ في الخَيالِ؛ فأعقَبَ نوحٌ عليه السَّلامُ به دَليلَه السَّابقَ، استِدلالًا بأعجَبِ ما يَرونه مِن أحوالِ ما على الأرضِ، وهو حالُ الموتِ والإقبارِ، ومهَّدَ لذلك بما يَتقدَّمُه مِن إنشاءِ النَّاسِ، وأُدمِجَ في ذلك تَعليمُهم بأنَّ الإنسانَ مَخلوقٌ مِن عناصرِ الأرضِ مِثلَ النَّباتِ، وإعلامُهم بأنَّ بعْدَ الموتِ حياةً أخرى[4].

= يُنظر: ((العين)) للخليل (٧/ ١٨٧)، ((السنن الكبرى)) للبيهقي (٤/ ٣٥٥).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٤٤٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٠٣).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ٢٠٤).

- قولُه: ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ نَبَاتٗا﴾ التَّقديرُ: أنشَأَ آدَمَ مِن الأرضِ، وصارتْ ذُرِّيَّتُه منه، فصَحَّ نِسبتُهم كلِّهم إلى أنَّهم أُنبِتوا منها، وأُطلِقَ على معْنى (أنشَأَكُم) فِعلُ ﴿أَنۢبَتَكُم﴾؛ للمُشابَهةِ بيْنَ إنشاءِ الإنسانِ وإنباتِ النَّباتِ مِن حيثُ إنَّ كِلَيهما تكوينٌ، كما قال تعالَى: ﴿وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنٗا﴾ [آل عمران: ٣٧]، أي: أنْشَأَها، وكما يَقولون: زَرَعَك اللهُ للخَيرِ، ويَزيدُ وَجْهَ الشَّبَهِ هنا قُربًا مِن حيث إنَّ إنشاءَ الإنسانِ مُركَّبٌ مِن عناصرِ الأرضِ[(١)].

- ولَفظُ ﴿نَبَاتٗا﴾ اسمٌ مِن (أنْبَتَ)، عُومِلَ مُعامَلةَ المصدرِ، فوَقَع مَفعولًا مُطلقًا لـ﴿أَنۢبَتَكُم﴾، ولم يَجْرِ على قِياسِ فِعلِه فيُقال: (إنْباتًا)؛ لأنَّ (نَباتًا) أخفُّ، فلمَّا تَسنَّى الإتيانُ به -لأنَّه مُستعمَلٌ فَصيحٌ- لم يُعدَلْ عنه إلى الثَّقيلِ كَمالًا في الفَصاحةِ، بخِلافِ قولِه بعْدَه: ﴿إِخۡرَاجٗا﴾؛ فإنَّه لم يُعدَلْ عنه إلى (خروجًا)؛ لعدَمِ مُلاءَمتِه لألفاظِ الفواصلِ قبْلَه المَبْنيَّةِ على ألِفٍ مِثلِ ألِفِ التَّأسيسِ[(٢)]، فكما تُعَدُّ مُخالفتُها في القافيةِ عَيبًا، كذلك تُعَدُّ المُحافَظةُ عليها في الأسجاعِ والفواصلِ كَمالًا. ويجوزُ أن يكونَ الأصلُ (أنبَتَكُم مِن الأرضِ إنباتًا، فنبَتُّم نباتًا)، فحُذِفَ مِن الجُملةِ الأُولى المصدرُ، ومِن الثَّانيةِ الفعلُ؛

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦١٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٤٩)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٨٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٣٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٠٤)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٢٢٩).

(٢) ألِفُ التَّأسيسِ: مِن مُصطَلَحاتِ عِلمِ العَروضِ والقافيةِ، وهو كلُّ ألِفٍ وقعَتْ في القافيةِ وبيْنَها وبيْن الرَّويِّ حرفٌ مُتحرِّكٌ يُسمَّى هذا الحَرْفُ المتحرِّكُ الدَّخيلَ، والتَّأسيسُ يَلزَمُ ذلك الموضِعَ في القَصيدةِ كُلِّها؛ ففي قولِ زيادِ بنِ مُعاويةَ الذُّبْيانيِّ -وهو في ((ديوانه)) (ص: ٤٧)-:

كِلِيني لِهَمٍّ يا أُمَيْمَةَ ناصِبِ ... ولَيْلٍ أُقاسِيهِ بَطيءِ الكَواكِبِ

الألِفُ مِن «كواكِبِ» تأسِيسٌ، والكافُ دَخيلٌ، والباءُ رَويٌّ، والياءُ المتولِّدةُ مِن كَسْرةِ الباءِ وصْلٌ. يُنظر: ((القوافي)) للأخفش الأوسط (ص: ٢٨)، ((أمالي ابن الشجري)) (٢/ ٤٩١)، ((العقد الفريد)) لابن عبد ربه (٦/ ٣٤٣)، ((عِلم العَروض والقافية)) لعبد العزيز عتيق (ص: ١٣٦).

اكتِفاءً في كلٍّ منهُمَا بما ذُكِرَ في الأُخرى[١].

وهذا مِن بَديعِ القُرآنِ، لا تَرى العُدولَ مِن لَفظٍ إلى آخَرَ إلَّا لمعْنًى، والنَّحْويُّ يقولُ: أُجريَ المصدَرُ على غيرِ فِعلِه، وصاحبُ المعاني يقولُ: له فائدةٌ في التَّحقيقِ وراءَ هذا؛ وهو التَّنبيهُ على تَحتُّمِ القُدرةِ، وسُرعةِ نَفاذِ حُكْمِها، حتَّى كأنَّ إنباتَ اللهِ تعالَى نفْسُ نَباتِهم، أي: إذا وُجِدَ مِن اللهِ الإنباتُ وُجِدَ لهم النَّباتُ حتْمًا، فكان أحدُ الأمْرَينِ عيْنَ الآخَرِ، فقُرِنَ به[٢].

- وقد أُدمِجَ الإنذارُ بالبعثِ في خلالِ الاستِدلالِ، ولِكَونِه أهَمَّ رُتبةً مِن الاستدلالِ عليهم بأصلِ الإنشاءِ، عُطِفَتِ الجُملةُ بحرْفِ (ثُمَّ) الدَّالَّةِ على التَّراخي الرُّتبيِّ في قولِه: ﴿ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا﴾؛ لأنَّ المقصودَ مِن الجُملةِ هو فِعلُ (يُخرِجُكم)، وأمَّا قولُه: ﴿ثُمَّ يُعِيدُكُمْ﴾ فهو تَمهيدٌ له[٣].

- وأُكِّدَ (يُخْرِجُكُمْ) بالمفعولِ المُطلَقِ ﴿إِخْرَاجًا﴾؛ لرَدِّ إنكارِهم البعثَ[٤].

٥- قولُه تعالَى: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا * لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا﴾ استِدلالٌ وامتِنانٌ؛ ولذلك عُلِّقَ بفِعلِ ﴿جَعَلَ﴾ مَجرورٌ بلامِ التَّعليلِ، وهو ﴿لَكُمُ﴾، أي: لأجْلِكم[٥].

- وتَوسيطُ ﴿لَكُمُ﴾ بيْن الجَعْلِ ومَفعولَيهِ في قولِه: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦١٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٤٩)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٦/ ٣٧)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٨٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٣٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٠٤، ٢٠٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري - حاشية ابن المُنَيِّر)) (٢/ ٣٣١)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٦/ ٣٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٠٥).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

بِسَاطًا﴾ مع أنَّ حقَّه التَّأخيرُ؛ للاهتِمامِ ببَيانِ كَونِ المَجعولِ مِن مَنافِعِهم، والتَّشويقِ إلى المؤخَّرِ؛ فإنَّ النَّفْسَ عندَ تأخيرِ ما حقُّه التَّقديمُ -ولا سِيَّما عندَ كَونِ المُقدَّمِ مُلوِّحًا بكَونِه مِن المنافعِ- تَبْقَى مُترقِّبةً له، فيَتمكَّنُ عندَ وُرودِه لها فضْلَ تَمكُّنٍ[1].

- والبِساطُ: ما يُفرَشُ للنَّومِ عليه، والجلوسِ؛ مِن ثَوبٍ أو زَرْبِيَّةٍ[2]؛ فالإخبارُ عن الأرضِ ببِساطٍ تَشبيهٌ بَليغٌ، أي: كالبِساطِ، ووَجْهُ الشَّبَهِ: تَناسُبُ سطْحِ الأرضِ في تَعادُلِ أجزائِه بحيث لا يُوجِعُ أرجُلَ الماشينَ، ولا يُقِضُّ جُنوبَ المُضطجعينَ[3].

- وليس المرادُ أنَّ اللهَ جَعَلَ حجْمَ الأرضِ كالبِساطِ؛ لأنَّ حجْمَ الأرضِ كُرَويٌّ، وقد نبَّهَ على ذلك بالعِلَّةِ الباعثةِ في قولِه: ﴿لَكُمُ﴾، والعِلَّةِ الغائيَّةِ في قولِه: ﴿لِّتَسۡلُكُواْ مِنۡهَا سُبُلٗا﴾، وحَصَلَ مِن مَجموعِ العِلَّتينِ الإشارةُ إلى جَميعِ النِّعَمِ الَّتي تَحصُلُ للنَّاسِ مِن تَسويةِ سطْحِ الأرضِ مِثل الحرْثِ والزَّرعِ، وإلى نِعمةٍ خاصَّةٍ، وهي السَّيرُ في الأرضِ، وخُصَّت بالذِّكرِ؛ لأنَّها أهمُّ؛ لاشتِراكِ كلِّ الناسِ في الاستفادةِ منها[4].



---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٣٩، ٤٠).

(٢) الزَّرْبِيَّة: الوِسادةُ تُبسَطُ للجُلوسِ عليها، والجمع: زَرابيُّ. يُنظر: ((لسان العرب)) لابن منظور (١/ ٤٤٧)، ((المعجم الوسيط)) (١/ ٣٩١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٠٥).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الآيات (٢١-٢٥)

﴿قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا ﴿٢١﴾ وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا ﴿٢٢﴾ وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾ وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا ﴿٢٤﴾ مِّمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَنصَارًا ﴿٢٥﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿خَسَارًا﴾: أي: خُسْرانًا، والخُسْرانُ في البيعِ: انتِقاصُ رأسِ المالِ، وأصلُ (خسر): يدُلُّ على النَّقصِ[(١)].

﴿كُبَّارًا﴾: أي: كَبيرًا عَظيمًا، يُقالُ: كَبيرٌ، وكُبَارٌ: بالتَّخفيفِ، وكُبَّارٌ: بالتَّشديدِ؛ كُلُّها بمعنًى واحِدٍ، وأصلُ (كبر): يدُلُّ على خِلافِ الصِّغَرِ[(٢)].

﴿لَا تَذَرُنَّ﴾: أي: لا تَدَعُنَّ، فهو بوَزْنِ وَدَعَ الشَّيءَ يَدَعُه وَدْعًا، ومَعْناه، والمُضارِعُ منه: يَذَرُ، والأمْرُ منه: ذَرْ، ولم يَرِدْ في اللُّغةِ استِعْمالُ ماضِيه ولا مَصْدَرِه، وهو بمعنَى التَّرْكِ والإهمالِ[(٣)].

المعنى الإجماليُّ:

يَحكي اللهُ تعالى تضَرُّعَ نُوحٍ إليه، وشَكْواه مِن تعنُّتِ قَومِه، فيقولُ: قال نوحٌ: ربِّ إنَّ قَومي عَصَوني، واتَّبَعوا المُبطِلينَ الَّذين لم تَزِدْهم كَثرةُ أموالِهم وأولادِهم

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٤٤٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٨٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٨١)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (٢/ ٥٣٧).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٥٣)، ((البسيط)) للواحدي (٢٢/ ٢٦٣)، ((تفسير البغوي)) (٨/ ٢٣٢).

(٣) يُنظر: ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٦٠)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٩/ ٣٦٨).

إلَّا هَلاكًا وضَلالًا، ومَكَروا مَكْرًا كبيرًا جدًّا، وقال بعضُهم لبَعضٍ: لا تَترُكوا أصنامَكم الَّتي يَنْهاكم نوحٌ عن عبادتِها، ولا تَترُكوا وَدًّا، ولا سُواعًا، ولا يَغُوثَ ويَعوقَ ونَسْرًا!

وقد أضَلُّوا كثيرًا مِنَ النَّاسِ عن طَريقِ الحَقِّ، ولا تَزِدْ -يا رَبِّ- هؤلاءِ الظَّالِمينَ بالشِّركِ والتَّكذيبِ إلَّا ضَلالًا عن الحَقِّ.

ثمَّ يذكُرُ سبحانَه عقوبةَ قومِ نوحٍ الدُّنيويَّةَ والأخرويَّةَ، فيقولُ: بسَبَبِ ذُنوبِهم أغرَقَهم اللهُ، فأُدخِلوا نارًا يُعذَّبونَ فيها، فلم يَجِدوا حينَها مَن يَنصُرُهم، ويَمنَعُهم مِن عذابِ اللهِ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَٱتَّبَعُواْ مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارًا ﴿٢١﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ نوحًا عليه السَّلامُ لَمَّا دعا قَومَه إلى اللهِ، ونَبَّهَهم على هذه الدَّلائِلِ الظَّاهِرةِ؛ حكَى عنهم أنواعَ قَبائِحِهم وأقوالِهم وأفعالِهم(١).

﴿قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي﴾.

أي: قال نُوحٌ: ربِّ إنَّ قَومي خالَفوا ما أمَرْتُهم به، ورَدُّوا ما دعَوتُهم إليه، فلم يتَّبِعوني على الحَقِّ(٢).

كما قال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُواْ عَبْدَنَا وَقَالُواْ مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ * فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ﴾ [القمر: ٩، ١٠].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦٥٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٠١)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٣٠٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٣٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٤٤٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٩).

﴿وَٱتَّبَعُواْ مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارًا﴾.

أي: واتَّبَعوا على الباطِلِ أبناءَ الدُّنيا الَّذين لم تَزِدْهم كَثرةُ أموالِهم وأولادِهم إلَّا هَلاكًا وبُعْدًا مِن اللهِ، وضَلالًا عن الحَقِّ[1].

﴿وَمَكَرُواْ مَكْرًا كُبَّارًا ﴿٢٢﴾﴾.

أي: ومَكَروا مكرًا كبيرًا جدًّا بنوحٍ والَّذينَ آمَنوا معه[2].

كما قال تعالى: ﴿وَقَدْ مَكَرُواْ مَكْرَهُمْ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ﴾ [إبراهيم: ٤٦].

﴿وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾﴾.

﴿وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ﴾.

أي: وقال بعضُهم لبَعضٍ: لا تَترُكوا أصنامَكم الَّتي يَنهاكم نوحٌ عن عبادتِها[3]!

﴿وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٠١)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٣٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٤٤٧، ٤٤٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٠٦، ٢٠٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٠٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٣٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٠٧).

قال البغوي: (واختَلَفوا في مَكرِهم. قال ابنُ عبَّاسٍ: قالوا قولًا عظيمًا. قال الضَّحَّاكُ: افتَرَوْا على الله كَذِبًا، وكذَّبوا رُسُلَه. وقيل: مَنَع الرُّؤساءُ أتْباعَهم عن الإيمانِ بنوحٍ، وحَرَّضوهم على قتلِه). ((تفسير البغوي)) (٥/ ١٥٧).

وقال ابن كثير: (والمعنَى في قولِه: ﴿وَمَكَرُواْ مَكْرًا كُبَّارًا﴾ أي: بأتْباعِهم في تَسويلِهم لهم بأنَّهم على الحقِّ والهدَى، كما يقولونَ لهم يومَ القيامةِ: ﴿بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا﴾ [سبأ:٣٣]). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٣٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٠٣)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٥٠١)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٦٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٠٧).

أي: ولا تَترُكوا عِبادةَ الصَّالِحينَ: وَدٍّ، وسُواعٍ، ويَغُوث، ويَعوقَ، ونَسرٍ[(١)]!

قال عَطاءٌ: عن ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عنهما: (صارت الأوثانُ الَّتي كانت في قَومِ نوحٍ في العَرَبِ بَعْدُ؛ أمَّا وَدٌّ كانت لكَلبٍ بدَومةِ الجَنْدلِ، وأمَّا سُواعٌ كانت لهُذَيلٍ، وأمَّا يَغُوثُ فكانت لِمُرادٍ، ثمَّ لبَني غُطَيفٍ بالجَوفِ عندَ سَبَإٍ، وأمَّا يَعوقُ فكانت لهَمْدانَ، وأمَّا نَسْرٌ فكانت لِحِمْيَر؛ لآلِ ذي الكَلاع؛ أسماءُ رِجالٍ صالحينَ مِن قَومِ نُوحٍ، فلمَّا هَلَكوا أوحى الشَّيطانُ إلى قَومِهم: أنِ انصِبوا إلى مجالِسِهم الَّتي كانوا يَجلِسونَ أنصابًا، وسَمُّوها بأسمائِهم، ففعَلوا، فلم تُعبَدْ، حتَّى إذا هلَكَ أولئك، وتنَسَّخَ[(٢)] العِلمُ، عُبِدَت!)[(٣)].

﴿وَقَدۡ أَضَلُّواْ كَثِيرٗاۖ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلٗا ٢٤﴾.

﴿وَقَدۡ أَضَلُّواْ كَثِيرٗا﴾.

أي: وقد أضَلُّوا كثيرًا مِنَ النَّاسِ عن طَريقِ الحَقِّ[(٤)].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٠٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٣٠٧)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٤/ ٣٦٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٣٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٠٨).

(٢) وتنَسَّخَ: أي: تغيَّر العِلمُ بها، وزالت المعرفةُ بحالِها. يُنظر: ((إرشاد الساري)) للقَسْطَلَّاني (٧/ ٤٠١).

وفي رواية أبي ذَرٍّ والكُشْمِيهَني: (ونُسِخ العِلمُ)، أي: عِلمُ تلك الصُّوَرِ بخُصوصِها. يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (٨/ ٦٦٩).

(٣) رواه البخاري (٤٩٢٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٠٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٥٩، ٣٦٠)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٣٤٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٣١٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٩).

قال ابنُ الجوزي: (قولُه عزَّ وجَلَّ: ﴿وَقَدۡ أَضَلُّواْ كَثِيرٗا﴾ فيه قولان؛ أحَدُهما: وقد أضَلَّت الأصنامُ كثيرًا مِن النَّاسِ، أي: ضَلُّوا بسبَبِها. والثَّاني: وقد أضَلَّ الكُبَراءُ كَثيرًا مِنَ النَّاسِ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٣٤٤).

=

كما قال تعالى حكايةً عن دُعاءِ إبراهيمَ عليه السَّلامُ: ﴿وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ۞ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ [إبراهيم: ٣٥، ٣٦].

﴿وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلًا﴾.

أي: ولا تَزِدْ هؤلاءِ الظَّالِمينَ بالشِّركِ والكُفرِ والتَّكذيبِ إلَّا ضَلالًا عن الحَقِّ؛ حتَّى يَموتوا على ضلالِهم، ويَزدادوا إثمًا وعُقوبةً على باطِلِهم[١].

كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِثْمًا ۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [آل عمران: ١٧٨].

وقال سُبحانَه: ﴿قُلْ مَن كَانَ فِى ٱلضَّلَٰلَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ مَدًّا﴾ [مريم: ٧٥].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأحقاف: ١٠].

﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٰٔتِهِمْ أُغْرِقُوا۟ فَأُدْخِلُوا۟ نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا۟ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارًا ﴿٢٥﴾﴾.

= وممَّن ذهب إلى القولِ الأوَّلِ: ابنُ جرير، واختاره ابنُ كثير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٠٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٣٦).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلَفِ: الحسَنُ. يُنظر: ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٥/ ٤٢).

وممَّن ذَهَب إلى القَولِ الثَّاني: ابنُ عطيَّةَ، والقُرطبيُّ، والسعديُّ. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٧٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٣١٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٩).

وممَّن جمَع بيْن القولَين: البِقاعي. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٤٥١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٠٥)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٢/ ٧٧٤٦)، ((تفسير الماوردي)) (٦/ ١٠٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٣١٠).

قال الواحدي: (هذا دعاءٌ عليهم بعدَ أن أعلَمَه اللهُ أنَّهم لا يُؤمِنونَ، وهو قَولُه: ﴿أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ﴾ [هود: ٣٦]). ((الوسيط)) (٤/ ٣٦٠). ويُنظر: ((تفسير الماتريدي)) (١٠/ ٢٣٥).

وقال ابن كثير: (دعاءٌ منه على قَومِه؛ لتمَرُّدِهم وكُفرِهم وعِنادِهم، كما دعا موسى على فِرعَونَ ومَلَئِه في قولِه: ﴿رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٨٨]). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٣٦). ويُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٦٠).

﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٔـٰتِهِمۡ أُغۡرِقُواْ فَأُدۡخِلُواْ نَارٗا﴾.

أي: بسَبَبِ ذُنوبِهم أغرَقَهم اللهُ، فأُدخِلوا نارًا يُعذَّبونَ فيها[١].

كما قال تعالى: ﴿وَنَصَرۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمَ سَوۡءٖ فَأَغۡرَقۡنَٰهُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٧].

وقال سُبحانَه: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمۡ أَلۡفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمۡسِينَ عَامٗا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمۡ ظَٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ١٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٠٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٦٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٣٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢١٢).

قال ابنُ عاشور: (جَمعُ الخَطيئاتِ مرادٌ بها: الإشراكُ، وتكذيبُ الرَّسولِ، وأذاه، وأذى المؤمِنينَ معه، والسُّخْريةُ منه حينَ توَعَّدَهم بالطُّوفانِ، وما يَنطوي عليه ذلك كُلُّه مِن الجرائِمِ والفواحِشِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢١٢).

وقال الزمخشري: (جَعَل دُخولَهم النَّارَ في الآخِرةِ كأنَّه مُتعَقِّبٌ لإغراقِهم؛ لاقترابِه، ولأنَّه كائنٌ لا مَحالةَ، فكأنَّه قد كان، أو أُريدَ عَذابُ القَبرِ، ومَن مات في ماءٍ أو في نارٍ أو أكلَتْه السِّباعُ والطَّيرُ: أصابه ما يُصيبُ المقبورَ مِنَ العَذابِ). ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٢٠).

وممَّن قال بأنَّ المرادَ بالنَّارِ المذكورةِ هنا: نارُ جهنَّمَ: مقاتِلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، والسمرقنديُّ، والواحدي، والسمعاني، وابن عطية. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٤٥١)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٠٦)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٥٠٢)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١١٣٨)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٦٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٧٦).

وممَّن قال بأنَّ المرادَ: عَذابُهم بالنَّارِ في قبورِهم: النَّسَفيُّ، والخازنُ، والألوسيُّ. يُنظر: ((تفسير النسفي)) (٣/ ٥٤٦)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٣٤٧)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٨٨).

ويُنظر ما يأتي (ص: ٢٩٠).

وقال البقاعي: (﴿فَأُدۡخِلُواْ﴾ أي: بقَهرِ القَهَّارِ في الآخرةِ الَّتي أوَّلُها البَرزَخُ يُعرضَونَ فيه على النَّارِ بُكْرةً وعَشيًّا ﴿نَارٗا﴾ أي: عَظيمةً جِدًّا أخَفُّها ما يكونُ مِن مبادِئِها في البَرزخِ، قال الشَّيخُ وليُّ الدِّينِ المَلَّويُّ: فعُذِّبوا في الدُّنيا بالغَرَقِ، وفي الآخِرةِ بالحَرقِ، والإياسِ مِن الرَّحمةِ، وأيُّ عذابٍ أشدُّ مِن ذلك؟!). ((نظم الدرر)) (٢٠/ ٤٥٣، ٤٥٤).

﴿فَلَمْ يَجِدُوا۟ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارًا﴾.

أي: فلم يَجِدْ قَومُ نوحٍ حينَ أُغرِقوا وأُدخِلوا النَّارَ أعوانًا ومُغيثِينَ يَنصُرونَهم، ويَمنَعونَ عنهم عذابَ اللهِ[1].

كما قال تعالى حاكيًا قَولَ ابنِ نُوحٍ: ﴿قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ ۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ﴾ [هود: ٤٣].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِى وَٱتَّبَعُوا۟ مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارًا﴾ هذه الآيةُ حُجَّةٌ على كُلِّ مَن عَوَّلَ على شَيءٍ غَيرِ اللهِ تعالى[2].

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِى وَٱتَّبَعُوا۟ مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارًا﴾ نَصَّ تعالى هنا على أنَّ قَومَ نُوحٍ اتَّبَعوا مَن هذا وَصْفُه، مع أنَّ المالَ يَزيدُ الإنسانَ نَفعًا، وقد بيَّنَ تعالى أنَّ المالَ قد يُورِثُ خَسارةً وهَلاكًا، كما في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَيَطْغَىٰٓ * أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾[3] [العلق: ٦، ٧].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- مِن أصولِ الشِّركِ باللهِ: اتِّخاذُ القُبورِ مَساجِدَ، كما قال طائفةٌ مِن السَّلَفِ في قَولِه تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾: (هؤلاء كانوا قومًا صالِحينَ في قومِ نُوحٍ، فلمَّا ماتوا عَكَفوا على قُبورِهم، ثُمَّ صَوَّرُوا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٠٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٣١١)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٣٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢١٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦٥٩).

(٣) يُنظر: ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٨/ ٣١٢).

على صُوَرِهم تماثيلَ، ثُمَّ طال عليهم الأَمَدُ، فعبَدوها!)، وقد ذكر البُخاريُّ في صَحيحِه هذا المعنى عن ابنِ عَبَّاسٍ[١]، وذكره محمَّدُ بنُ جريرٍ الطَّبَريُّ وغيرُه في التَّفسيرِ[٢]، عن غيرِ واحدٍ مِنَ السَّلَفِ[٣].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلًا﴾ حُجَّةٌ على المعتزلةِ والقَدَريَّةِ -المُنْكِرينَ أنَّ الهِدايةَ والإضلالَ بيَدِ اللهِ-؛ مِن أَجْلِ أنَّ نوحًا عليه السَّلامُ لا يجوزُ عليه أنْ يَدعوَ بالباطِلِ، ولا اللهُ تبارك وتعالى يُسْأَلُ باطِلًا، وقد سَأَلَه أنْ يَزيدَ الظَّالِمينَ ضَلالًا؛ فدلَّ على أنَّ الكفرَ الَّذي فيهم، والزَّائدَ بدُعائِه معًا: هو مِن عند رَبِّه[٤].

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٰٔتِهِمْ أُغْرِقُوا۟ فَأُدْخِلُوا۟ نَارًا﴾ استُدِلَّ به على إثباتِ عَذابِ القَبرِ؛ وذلك مِن وجهَينِ:

الوجهُ الأوَّلُ: أنَّ الفاءَ في قَولِه: ﴿فَأُدْخِلُوا۟ نَارًا﴾ تدُلُّ على أنَّه حَصَلت تلك الحالةُ عَقيبَ الإغراقِ، فلا يمكِنُ حَملُها على عذابِ الآخِرةِ، وإلَّا بطَلَت دَلالةُ هذه الفاءِ.

الوَجهُ الثَّاني: أنَّه قال: ﴿فَأُدْخِلُوا۟﴾ على سَبيلِ الإخبارِ عن الماضي[٥].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٰٔتِهِمْ أُغْرِقُوا۟ فَأُدْخِلُوا۟ نَارًا﴾ دليلٌ على أنَّ اسمَ «الخطيئةِ» واقِعٌ على الكُفرِ، ومعناها أنَّها ضِدُّ الصَّوابِ، فمَن خالَفَ اللهَ سُبحانَه وتعالى في الإيمانِ الَّذي آمَنَ به، أو واقَعَ ما نَهَى عنه مِن كُفْرٍ أو مَعصيةٍ؛ فهو

(١) أخرجه البخاري (٤٩٢٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٠٣).

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٧/ ١٩١).

(٤) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٤٢٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦٥٩).

مُخطئٌ غيرُ مُصيبٍ، وإنَّما تَختَلِفُ عُقوبةُ الفِعلَينِ فقط، فليس لِتَعَلُّقِ المُعتَزِلةِ في بابِ الوعيدِ باسمِ «خطيئةٍ ذُكِرَ في عقوبتِها خُلودٌ»: وَجهٌ(١).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا﴾ هذه الجُملةُ بدَلٌ مِن جُملةِ ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي﴾ [نوح: ٥] بدَلَ اشتِمالٍ؛ لأنَّ حِكايةَ عِصيانِ قومِه إيَّاه ممَّا اشتَمَلَت عليه حِكايةُ أنَّه دَعاهم، فيَحتمِلُ أنْ تكونَ المَقالتانِ في وقْتٍ واحدٍ جاء فيه نُوحٌ إلى مُناجاةِ ربِّه بالجوابِ عن أمْرِه له بقولِه: ﴿أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [نوح: ١]، فتَكونَ إعادةُ فِعلِ (قال) مِن قَبيلِ ذِكرِ عاملِ المُبدَلِ منه في البدَلِ؛ للرَّبطِ بيْنَ كَلامَيه؛ لطُولِ الفصلِ بيْنَهما، ويَحتمِلُ أنْ تكونَ المَقالتانِ في وَقتينِ جَمَعَها القرآنُ حِكايةً لجَوابَيه لربِّه، فتَكونَ إعادةُ فِعلِ (قال)؛ للإشارةِ إلى تَباعُدِ ما بيْن القولينِ. ويَجوزُ أنْ تكونَ الجُملةُ مُستأنَفةً استِئنافًا بيانيًّا؛ لأنَّ ما سَبَقَها مِن قولِه: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي﴾ إلى هنا، ممَّا يُثيرُ عَجَبًا مِن حالِ قومِه المَحكيِّ بحيث يَتساءَلُ السَّامعُ عن آخِرِ أمْرِهم، فابتُدِئَ ذِكرُ ذلك بهذه الجُملةِ وما بعْدَها إلى قولِه: ﴿أَنصَارًا﴾ [نوح: ٢٥]، وتأْخيرُ هذا عن قولِه: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا﴾ [نوح: ٥] ارتقاءٌ في التَّذمُّرِ منهم؛ لأنَّ هذا حِكايةُ حُصولِ عِصيانِهم بعدَ تَقديمِ الموعظةِ إليهم بقولِه: ﴿يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا﴾ إلى قولِه: ﴿سُبُلًا فِجَاجًا﴾(٢) [نوح: ١١- ٢٠].

- وفيه مُناسَبةٌ حسَنةٌ، حيثُ قالَ تعالَى هنا: (قَالَ نُوحٌ) بغيرِ واوٍ، ثمَّ قال: ﴿وَقَالَ نُوحٌ﴾ [نوح: ٢٦]، بزِيادةِ الواوِ؛ لأنَّ الأوَّلَ ابتداءُ دُعاءٍ، والثَّاني عُطِفَ

---

(١) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٤٢٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٤٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٠٦).

عليه[١].

- وإظهارُ اسمِ نُوحٍ مع القولِ الثَّاني دونَ إضمارٍ؛ لبُعدِ مَعادِ الضَّميرِ لو تَحمَّلَه الفعلُ[٢].

- قولُه: ﴿رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي ...﴾ هذا الخبرُ مُستعمَلٌ في لازِمِ معناه، وهو الشِّكايةُ والتَّمهيدُ لطَلَبِ النَّصْرِ عليهم؛ لأنَّ المُخاطَبَ به عالِمٌ بمَدْلولِ الخبَرِ. وذلك ما سَيُفْضي إليه بقولِه: ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ...﴾ الآياتِ [نوح: ٢٦]. وتأْكيدُ الخبرِ بـ(إنَّ)؛ للاهتمامِ بما استُعمِلَ فيه مِن التَّحسُّرِ والاستِنْصارِ[٣].

- وفي قولِه: ﴿وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا﴾ عَدَلَ عن التَّعبيرِ عن الكافِرينَ بالكُبراءِ ونحْوِه إلى المَوصولِ؛ لِما تُؤذِنُ به الصِّلةُ مِن بَطَرِهم نعمةَ اللهِ عليهم بالأموالِ والأولادِ، فقَلَبوا النِّعمةَ عندَهم مُوجِبَ خَسارٍ وضَلالٍ[٤].

- وأُدمِجَ في الصِّلةِ أنَّهم أهلُ أموالٍ وأولادٍ؛ إيماءً إلى أنَّ ذلك سَببُ نَفاذِ قولِهم في قَومِهم، وائتمارِ القَومِ بأمْرِهم؛ فأمْوالُهم إذ أنْفَقوها لتأْليفِ أتْباعِهم؛ قال تعالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [الأنفال: ٣٦]، وأولادُهم أرْهَبوا بهم مَن يُقاوِمُهم[٥]. ففي وصْفِهم بذلك إشعارٌ بأنَّهم إنَّما اتَّبَعوهم لوَجاهتِهم الحاصِلةِ لهم بسَبَبِ الأموالِ والأولادِ، لا لِما شاهَدُوا

---

(١) يُنظر: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ٢٤١)، ((بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز)) للفيروزابادي (١/ ٤٨٢)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٨٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٠٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ٢٠٦، ٢٠٧).

فيهم مِن شُبهةٍ مُصحِّحةٍ للاتِّباعِ في الجُملةِ(١).

- وجَعَل أموالَهم وأولادَهم الَّتي لم تَزِدْهم إلَّا وَجاهةً ومَنفعةً في الدُّنيا زائدةً خَسارًا في الآخرةِ، وأجْرى ذلك مُجرى صِفةٍ لازمةٍ لهم، وسِمةٍ يُعرَفون بها؛ تَحقيقًا له وتَثبيتًا، وإبطالًا لِما سِواه؛ فكنَّى عن الرُّؤساءِ بقولِه: ﴿مَن لَّمۡ يَزِدۡهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارٗا﴾، كما يُكنَّى عن الإنسانِ بقولِهم: حَيٌّ مُستوي القامةِ، عَريضُ الأظفارِ؛ لأنَّه صِفةٌ لازِمةٌ، أي: كاشِفةٌ مُوضِّحةٌ، فنَفى عنهم جَميعَ وُجوهِ الأرباحِ والمنافعِ، وأثبَتَ لهم الخَسارَ(٢).

- والخَسارُ: مُعبَّرٌ به عن حُصولِ الشَّرِّ مِن وَسائلَ شأْنُها أنْ تكونَ سَببَ خيرٍ، كخَسارةِ التَّاجِرِ مِن حيثُ أرادَ الرِّبحَ، فإذا كان هؤلاء خاسِرينَ فالَّذين يَتْبَعونهم يَكونونَ مِثلَهم في الخسارةِ، وهم يَحسَبون أنَّهم أرْشَدوهم إلى النَّجاحِ(٣).

- وماصَدَقَ(٤) (مَن) فريقٌ مِن القومِ أهلُ مالٍ وأولادٍ ازْدادوا بذلك بَطَرًا دونَ الشُّكرِ، وهم سادَتُهم؛ ولذلك أُعيدَ عليه ضَميرُ الجمْعِ في قولِه: ﴿وَمَكَرُواْ﴾، وقولِه: ﴿وَقَالُواْ﴾، وقولِه: ﴿وَقَدۡ أَضَلُّواْ كَثِيرٗا﴾(٥) [نوح: ٢٤].

٢- قولُه تعالَى: ﴿وَمَكَرُواْ مَكۡرٗا كُبَّارٗا﴾

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٤٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦١٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٥٠)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٦/ ٣٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٤٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٠٧).

(٤) الماصَدَق -عند المناطقة-: الأفرادُ الَّتي يتحقَّقُ فيها معنى الكُلِّيِّ، ويُقابِلُه: المفهومُ، وهو: مجموعُ الصِّفاتِ والخصائصِ الموضحةِ لمعنًى كلِّيٍّ. يُنظر: ((المعجم الوسيط)) (١/ ٥١١) و(٢/ ٧٠٤). ويُنظر أيضًا: ((ضوابط المعرفة)) لحبنكة (ص: ٤٥، ٤٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٠٧).

- قولُه: ﴿كُبَّارًا﴾ مُبالَغةٌ، أي: كبيرًا جدًّا[١].

٣- قولُه تعالَى: ﴿وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ يَحتمِلُ أنْ يكونَ لقومِ نوحٍ أصنامٌ كثيرةٌ جَمَعَها قولُ كُبرائِهم: ﴿لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ﴾، ثمَّ خَصُّوا بالذِّكرِ أعظَمَها، وهي هذه الخمسةُ، فيَكونَ ذِكرُها مِن عطْفِ الخاصِّ على العامِّ؛ للاهتِمامِ به. ويَحتمِلُ ألَّا يكونَ لهم غيرُ تلك الأصنامِ الخَمسةِ؛ فيَكونَ ذِكرُها مُفصَّلةً بعْدَ الإجمالِ؛ للاهتِمامِ بها، ويكونَ العطْفُ مِن قَبيلِ عطْفِ المُرادِفِ، ولقصْدِ التَّوكيدِ أُعِيدَ فِعلُ النَّهيِ ﴿وَلَا تَذَرُنَّ﴾، ولم يُسلَكْ طَريقُ الإبدالِ، والتَّوكيدُ اللَّفظيُّ قدْ يُقرَنُ بالعاطِفِ كقولِه تعالَى: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ * ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ﴾[٢] [الانفطار: ١٧، ١٨].

- وتَكريرُ (لا) النَّافيةِ في قولِه: ﴿وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ﴾ لتَأكيدِ النَّفيِ الَّذي في قولِه: ﴿لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ﴾، وعدَمُ إعادةِ (لا) مع قولِه: ﴿وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾؛ لأنَّ الاستِعمالَ جارٍ على ألَّا يُزادَ في التَّأكيدِ على ثلاثِ مرَّاتٍ[٣].

٤- قولُه تعالَى: ﴿وَقَدْ أَضَلُّوا۟ كَثِيرًا ۖ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّـٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَـٰلًا﴾

- يَجوزُ أنْ تكونَ جُملةُ ﴿وَلَا تَزِدِ ٱلظَّـٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَـٰلًا﴾ تَتمَّةَ كلامِ نوحٍ، مُتَّصِلةً بحِكايةِ كَلامِه السَّابقِ، فتَكونَ الواوُ عاطفةً جُزءَ جُملةٍ مَقولةٍ لِفعلِ ﴿قَالَ﴾ [نوح: ٢١] على جُزئِها الَّذي قبْلَها عطْفَ المَفاعيلِ بَعضِها على بَعضٍ. ويجوزُ أنْ تكونَ هذه الجُملةُ غيرَ مُتَّصلةٍ بحِكايةِ كَلامِه في قولِه: ﴿قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦١٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٥٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٤٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٠٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٠٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ٢٠٩، ٢١٠).

عَصَوۡنِي﴾ [نوح: ٢١]، بلْ هو حِكايةُ كلامٍ آخَرَ له صدَرَ في مَوقفٍ آخَرَ؛ فتَكونَ الواوُ عاطفةً جُملةَ مَقولةِ قولٍ على جُملةِ مَقولةِ قولٍ آخَرَ، أي: نائبةٍ عن فِعلِ ﴿قَالَ﴾(١). ويجوزُ أنْ تكونَ جُملةً مُعترِضةً، وهي مِن كَلامِ اللهِ تعالَى لنوحٍ عليه السَّلامُ، فتَكونَ الواوُ اعتراضيَّةً، ويُقدَّرُ قولٌ مَحذوفٌ: وقُلْنا: لا تَزِدِ الظَّالِمينَ، والمعنى: ولا تَزِدْ في دُعائِهم؛ فإنَّ ذلك لا يَزيدُهم إلَّا ضَلالًا، فالزِّيادةُ منه تَزيدُهم كُفرًا وعِنادًا. وبهذا يَبْقى الضَّلالُ مُستعمَلًا في معْناه المشهورِ في اصطلاحِ القُرآنِ، فصِيغةُ النَّهيِ مُستعمَلةٌ في التَّأييسِ مِن نفْعِ دَعوتِه إيَّاهم(٢).

- والمرادُ بالظَّالِمينَ: قومُه الَّذين عَصَوه، فكان مُقْتضى الظَّاهرِ التَّعبيرَ عنهم بالضَّميرِ عائدًا على ﴿قَوۡمِي﴾ مِن قولِه: ﴿دَعَوۡتُ قَوۡمِي لَيۡلٗا وَنَهَارٗا﴾ [نوح: ٥]، فعُدِلَ عن الإضمارِ إلى الإظهارِ على خِلافِ مُقتضى الظَّاهرِ؛ لِما يُؤذِنُ به وصْفُ الظَّالِمينَ مِن استِحقاقِهم الحِرمانَ من عِنايةِ اللهِ بهم لظُلْمِهم، أي: إشراكِهم باللهِ(٣).

- وفيه مُناسَبةٌ حسَنةٌ، حيثُ قال هنا: ﴿وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلٗا﴾، وقال في آخِرِ السُّورةِ: ﴿وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارَۢا﴾؛ فاختَصَّ الأوَّلَ بالإضلالِ، والثَّانيَ بالإهلاكِ الَّذي هو التَّبارُ؛ ووجْهُ ذلك: أنَّ الأوَّلَ جاء بعْدَ قولِه: ﴿وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسۡرٗا * وَقَدۡ أَضَلُّواْ كَثِيرٗا﴾ [نوح: ٢٣]. وأمَّا الآخَرُ فخَتَمَه بقولِه: ﴿تَبَارَۢا﴾، أي: هَلاكًا؛ مُوافَقةً لقولِه قبْلُ: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرۡ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٢٠)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٨٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٤٠، ٤١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢١٠)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٢٣٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢١١).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٤١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢١٠، ٢١١).

(٤) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (ص: ١٣٠٥، ١٣٠٦)، ((أسرار التكرار في =

٥- قولُه تعالَى: ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٔـٰتِهِمْ أُغْرِقُوا۟ فَأُدْخِلُوا۟ نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا۟ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارًا﴾ جُملةٌ مُعترِضةٌ بيْنَ مَقالاتِ نوحٍ عليه السَّلامُ، وليستْ مِن حِكايةِ قولِ نوحٍ عليه السَّلامُ؛ فهي إخبارٌ مِن اللهِ تعالَى لِرَسولِه محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بأنَّه قدَّرَ النَّصرَ لِنُوحٍ والعِقابَ لِمَن عَصَوه مِن قَومِه قبْلَ أنْ يَسألَه نوحٌ استِئصالَهم، فإغراقُ قومِ نُوحٍ مَعلومٌ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وإنَّما قُصِدَ إعلامُه بَسببِه. والغَرَضُ مِن الاعتراضِ بها التَّعجيلُ بتَسليةِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم على ما يُلاقِيه مِن قَومِه ممَّا يُماثِلُ ما لاقاهُ نوحٌ عليه السَّلامُ مِن قَومِه. ويَجوزُ أنْ تكونَ مُتَّصِلةً بجُملةِ ﴿وَلَا تَزِدِ ٱلظَّـٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَـٰلًا﴾ [نوح: ٢٤] على وَجْهِ أنْ تكونَ مِن كَلامِ اللهِ تعالَى الموجَّهِ إلى نوحٍ عليه السَّلامُ، بتَقديرِ: وقُلْنا: لا تَزِدِ الظَّالمينَ إلَّا ضَلالًا، وتَكونَ صِيغةُ المُضِيِّ في قولِه: ﴿أُغْرِقُوا۟﴾ مُستعمَلةً في تَحقُّقِ الوعدِ لِنُوحٍ بإغراقِهم، وكذلك قولُه: ﴿فَأُدْخِلُوا۟ نَارًا﴾[1].

وقيل: هو اعتراضٌ وُسِّطَ بيْنَ دُعائِه عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ؛ للإيذانِ مِن أوَّلِ الأمرِ بأنَّ ما أصابَهم مِن الإغراقِ والإحراقِ لم يُصِبْهم إلَّا مِن أجْلِ خَطيئاتِهم الَّتي عدَّدَها نوحٌ عليه السَّلامُ، وأشارَ إلى استحقاقِهم للإهلاكِ مِن أجْلِها، لا أنَّها حِكايةٌ لنفْسِ الإغراقِ والإحراقِ على طَريقةِ حِكايةِ ما جَرى بيْنَه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ وبيْنَهم مِن الأحوالِ والأقوالِ، وإلَّا لأُخِّرَ عن حِكايةِ دُعائِه: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾[2].

= القرآن)) للكرماني (ص: ٢٤١)، ((ملاك التأويل)) للغرناطي (٢/ ٤٨٣)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٤٨٣)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٨٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢١٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٤١).

- وقُدِّمَ ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٔـٰتِهِمۡ﴾ على عامِلِه لإفادةِ القصْرِ[(١)]، أي: أُغرِقوا فأُدخِلوا نارًا من أجْلِ مَجموعِ خَطيئاتِهم، لا لمُجرَّدِ استجابةِ دَعوةِ نوحٍ عليه السَّلامُ الَّتي ستُذكَرُ عقِبَ هذا؛ ليُعلَمَ أنَّ اللهَ لا يُقِرُّ عِبادَه على الشِّركِ بعْدَ أنْ يُرسِلَ إليهم رَسولًا، وإنَّما تأخَّرَ عَذابُهم إلى ما بعْدَ دَعوةِ نوحٍ عليه السَّلامُ؛ لإظهارِ كَرامتِه عندَ ربِّه بيْنَ قومِه، ومَسرَّةً له وللمؤمنينَ معه، وتَعجيلًا لِما يَجوزُ تأْخيرُه. و(مِن) تَعليليَّةٌ، و(ما) مُؤكِّدةٌ لمعْنى التَّعليلِ، والتَّفخيمِ[(٢)].

- قولُه: ﴿أُغۡرِقُواْ فَأُدۡخِلُواْ نَارٗا﴾ المرادُ عَذابُ القَبرِ، أو عذابُ الآخِرةِ، والتَّعقيبُ بالفاءِ علَى الأوَّلِ ظاهِرٌ، وهو على هذا لعَدَمِ الاعتِدادِ بما بيْنَ الإغراقِ والإدخالِ، فكأنَّه شبَّه تخلُّلَ ما لا يُعتَدُّ به بعدَمِ تَخلُّلِ شيءٍ أصلًا. أو لأنَّ المُسبَّبَ كالمُتعقِّبِ للسَّببِ وإنْ تَراخَى عنه لفَقْدِ شَرطٍ، أو وُجودِ مانعٍ، كما أنَّه عبَّر عن المُستقبَلِ بالماضي لتَحقُّقِه. ولا يَخفَى ما في ﴿أُغۡرِقُواْ فَأُدۡخِلُواْ نَارٗا﴾ مِن الحُسنِ الذي لا يُجارَى، وللهِ تعالَى درُّ التَّنزيلِ[(٣)].

- قوله: ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٔـٰتِهِمۡ أُغۡرِقُواْ فَأُدۡخِلُواْ نَارٗا﴾ [نوح: ٢٥] فيه ما يعرف بالطباق الخفي، وهو أن تكونَ الضِّدِّيَّةُ في الصُّورةِ متوهَّمةً، فتَبدو المُطابَقةُ خفيَّةً لتعلُّقِ أحدِ الرُّكنَينِ بما يُقابِلُ الآخَرَ تعلُّقَ السَّببيَّةِ أو اللُّزومِ؛ فإنَّ إدخالَ النَّارِ يستلزِمُ الإحراقَ المُضادَّ للإغراقِ[(٤)].

(١) سيأتي تعريفُه (ص: ٣٩١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٢٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٥٠)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٨٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٤١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢١٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٢٠، ٦٢١)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٥٠)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٨٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٤١)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٨٨).

(٤) يُنظر: ((البرهان في علوم القرآن)) للزركشي (٣/ ٤٥٥ - ٤٥٧)، ((خزانة الأدب)) للحموي =

- وتَنكيرُ النَّارِ إمَّا لتَعظيمِها وتَهويلِها، أو لأنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ أعدَّ لهم على حسَبِ خَطيئاتِهم نَوعًا مِن النارِ(١).

- وتَفريعُ ﴿فَلَمۡ يَجِدُواْ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارٗا﴾ تَعريضٌ بالمشرِكين مِن العرَبِ الَّذين كانوا يَزعُمون أنَّ الأصنامَ تَشفَعُ لهم، وتَدفَعُ عنهم الكَوارثَ -أي: في الدُّنيا؛ لأنَّهم لا يُؤمِنون بالبعثِ-، وتَهكُّمٌ بهم، كأنَّه قال: فلمْ يَجِدوا لهم مِن دونِ اللهِ آلهةً يَنصُرونهم، ويَمنَعونهم مِن عَذابِ اللهِ(٢).



= (١/ ١٥٩، ١٦٠)، ((مفاتيح التفسير)) لأحمد سعد الخطيب (ص: ٥٦٧).

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٢٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٥٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٤١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٢٠، ٦٢١)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٥٠)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٨٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٤١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢١٢، ٢١٣).

الآيات (٢٦-٢٨)

﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ۝٢٦ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ۝٢٧ رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًۢا ۝٢٨﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿دَيَّارًا﴾: أي: أحَدًا يَدورُ فيها، وهو مِن ألفاظِ العُمومِ الَّتي تُستَعمَلُ في النَّفيِ العامِّ، وهو فَيْعالٌ مِنَ الدَّوَرانِ، وقيل: مِن الدَّارِ، أي: نازِلَ دارٍ، وأصلُ (دور): يدُلُّ على إحداقِ الشَّيءِ بالشَّيءِ مِن حوالَيه[1].

﴿تَبَارًا﴾: أي: هَلاكًا وخُسرانًا، وأصلُ (تبر) هنا: الهلاكُ[2].

المعنى الإجماليُّ:

يَحكي اللهُ تعالى ما دعا به نوحٌ عليه السَّلامُ على قومِه -بعْدَ أنْ يئِس مِن إيمانِهم-، وما دعا به للمؤمِنينَ، فيقولُ: وقال نوحٌ: رَبِّ لا تُبْقِ على الأرضِ أحَدًا حيًّا مِنَ الكافِرينَ.

ثمَّ ذكَر نوحٌ عليه السَّلامُ السَّببَ في ذلك، فقال: إنَّك إنْ أبقَيْتَهم أحياءً يُضِلُّوا عِبادَك المؤمِنينَ، ولا يَلِدوا إلَّا مَن سيَكونُ فاجِرًا شديدَ الفَسادِ، وكثيرَ الكُفرِ بربِّه.

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٨٨)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٠٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٢١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣١٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٤٥٧).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٨٨)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٠٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٥٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٦٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٦٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤١٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٢٨).

ثمَّ ختَم نوحٌ عليه السَّلامُ دعاءَه بقولِه: رَبِّ اغفِرْ لي ولوالِدَيَّ، ولِمَن دَخَل مَنزِلي مِنَ المُؤمِنينَ، واغفِرْ للمُؤمِنينَ والمؤمِناتِ، ولا تَزِدِ الظَّالِمينَ أنفُسَهم بكُفرِهم إلَّا هَلاكًا.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾﴾.

أي: وقال نوحٌ: رَبِّ لا تُبْقِ على الأرضِ أحَدًا حيًّا مِنَ الكافِرينَ(١).

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٨٨)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٠٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٣١٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٣٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢١٣).

قال الأُلوسيُّ: (الدَّيَّارُ مِن الأسماءِ الَّتي لا تُستعمَلُ إلَّا في النَّفْيِ العامِّ؛ يُقالُ: ما بالدَّارِ دَيَّارٌ أو دَيُّورٌ -كقَيَّامٍ وقَيُّومٍ- أي: ما بها أحدٌ، وهو فَيْعالٌ؛ مِن الدَّارِ أو مِن الدَّوْرِ، كأنَّه قِيل: لا تَذَرْ على الأرضِ مِنَ الكافِرينَ مَن يَسكُنُ دارًا، أو لا تَذَرْ عليها منهم مَن يَدورُ ويَتحرَّكُ). ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٨٨).

ممَّن اختار القولَ الأوَّلَ في الجملةِ -أي: أنَّ الدَّيَّارَ مأخوذٌ مِن الدَّارِ، والمعنى: الَّذي يَنزِلُ ويحلُّ بالدِّيارِ-: ابنُ قُتَيْبةَ، والواحديُّ، وجلال الدين المحلي، والشنقيطي، وابنُ عاشور. يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٨٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٦٠)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٧٦٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٤٦١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢١٣). ويُنظر أيضًا: ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٣١٣).

وممَّن اختار القولَ الثَّانيَ في الجملةِ -أي: أنَّ الدَّيَّارَ مأخوذٌ مِن الدَّوَرانِ، والمعنى: الَّذي يَدورُ في الأرضِ فيَذهَبُ ويَجيءُ-: ابنُ جرير، والثعلبيُّ، والبغوي، وابن عطية، والنسفي، والعُلَيمي، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٠٧)، ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ٤٧)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ١٥٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٧٧)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٥٤٦)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ١٧٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٩).

قال البِقاعي: (﴿دَيَّارًا﴾ أي: أحدًا يَدورُ فيها، وهو مِن ألفاظِ العُمومِ الَّتي تُستعمَلُ في النَّفيِ العامِّ، فيُقالُ مِن الدَّورِ أو الدَّارِ، لا فَعَّالٌ، وإلَّا لَكان دَوَّارًا، ويجوزُ -وهو أقرَبُ- أن يكونَ هذا الدُّعاءُ عندَ رُكوبِه السَّفينةَ، وابتداءِ الإغراقِ فيهم، يريدُ به العُمومَ؛ كراهيةَ أن يبقى أحدٌ منهم =

كما قال تعالى: ﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ﴾ [الأنبياء: ٧٦].

﴿إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا (٢٧)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان الرُّسُلُ عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ لا يَقولونَ ولا يَفعَلونَ إلَّا ما فيه مَصلحةُ الدِّينِ؛ عَلَّل نوحٌ عليه السَّلامُ دُعاءَه بقَولِه[(١)]:

﴿إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ﴾.

أي: إنَّك إنْ أبقَيْتَهم أحياءً يُضِلُّوا عِبادَك المؤمِنينَ، فيَصُدُّوهم عن الحَقِّ، ويُزَيِّنوا لهم الباطِلَ[(٢)].

﴿وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾.

أي: ولا يَلِدوا إلَّا مَن سيَكونُ فاجِرًا شديدَ الفَسادِ، وكثيرَ الكُفرِ برَبِّه[(٣)].

= على ذِروةِ جَبَلٍ أو نحوِه، لا أصلِ الإغراقِ، وأن يكونَ معنى ما قَبْلَه الحُكمَ بإغراقِهم، وتحتُّمَ القَضاءِ به، أو الشُّروعَ فيه). ((نظم الدرر)) (٢٠/ ٤٥٧).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٤٥٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٠٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٣٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢١٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٠٧)، ((أحكام أهل الذمة)) لابن القيم (٢/ ١١٠٩، ١١١٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٣٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢١٤).

قال السعدي: (أي: بَقاؤُهم مَفسَدةٌ مَحْضةٌ لهم ولغَيرِهم، وإنَّما قال نوحٌ عليه السَّلامُ ذلك؛ لأنَّه مع كثرةِ مخالطتِه إيَّاهم، ومُزاوَلتِه لأخلاقِهم، عَلِمَ بذلك نتيجةَ أعمالِهم). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٩).

وقال ابنُ عاشور: (عَلِمَ نُوحٌ أنَّهم لا يَلِدونَ إلَّا فاجِرًا كَفَّارًا بأنَّ أولادَهم يَنشَؤونَ فيهم، فيُلَقِّنونَهم دينَهم، ويَصُدُّونَ نُوحًا عن أن يُرشِدَهم، فحَصَل له عِلمٌ بهذه القَضيَّةِ بدَليلِ التَّجربةِ). =

﴿رَّبِّ ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًۢا ﴿٢٨﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا دعا نوحٌ عليه السَّلامُ على الكُفَّارِ، استَغفَرَ للمُؤمِنينَ؛ فبدأ بنَفْسِه، ثمَّ بمَن وجَبَ بِرُّه عليه، ثمَّ للمُؤمِنينَ[1].

﴿رَّبِّ ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ﴾.

أي: وقال نوحٌ: رَبِّ امْحُ الذُّنوبَ عنِّي وعن والِدَيَّ، واسْتُرْها علينا، ولا تُؤاخِذْنا بها[2].

﴿وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا﴾.

أي: واغفِرْ لِمَن دَخَل مَنزِلي مِنَ المُؤمِنينَ[3].

= ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢١٤).

واستظهَر البِقاعي أنَّ هذا الكلامَ لا يَقولُه إلَّا عن وَحيٍ، كما في سورةِ هودٍ عليه السَّلامُ، مِن قَولِه تعالى: ﴿أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ﴾ [هود: ٣٦]. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٤٥٨).

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٨٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٠٨)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٢/ ٧٧٤٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٣١٣)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ٣١٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٥٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٣٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢١٥).

ممَّن اختار أنَّ المرادَ بـ ﴿بَيْتِيَ﴾: مَنْزِلي: الثعلبيُّ، والبغوي، والزمخشري، وابنُ جُزَي، والعليمي، وأبو السعود. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ٤٨)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ١٥٨)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٢١)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤١٦)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ١٧٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٤٢). ويُنظر أيضًا: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٤٥٩). =

﴿وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾

أي: واغفِرْ ذُنوبَ جَميعِ المُؤمِنينَ والمؤمِناتِ[1].

﴿وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا﴾

أي: ولا تَزِدِ الظَّالِمينَ أنفسَهم بكُفرِهم إلَّا هَلاكًا[2].

= وقال ابنُ كثير: (ولا مانِعَ مِن حَملِ الآيةِ على ظاهِرِها، وهو أنَّه دعا لكُلِّ مَن دَخل مَنزِلَه وهو مُؤمِنٌ). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٣٧).

وذهب ابن عاشور إلى أنَّ المرادَ أهلُه وذَووه المؤمِنونَ، فدَخَل أولادُه وبَنوهم والمؤمِناتُ مِن أزواجِهم الَّذين يَسكُنون معه، فالمرادُ بالدُّخولِ في الآيةِ دُخولٌ مخصوصٌ، وهو الدُّخولُ المتكَرِّرُ الملازِمُ. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢١٥).

وقيل: المرادُ: مَسْجدي. وممَّن ذهب إلى هذا القَولِ: ابنُ جرير، ومكِّي، والقرطبي، ونسَبَه ابنُ عطيَّةَ إلى جمهورِ المفسِّرينَ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٠٨)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٢/ ٧٧٤٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٣١٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٧٧).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: الضَّحَّاكُ، والكلبيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٠٨)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ١٥٨).

وقريبٌ مِن هذا القولِ قولُ مَن قال: ﴿دَخَلَ بَيْتِيَ﴾: أي: دخَل شريعتي، واختاره ابنُ عرفة، ورُوِيَ عن ابنِ عبَّاسٍ ﴿دَخَلَ بَيْتِيَ﴾، أي: في ديني، وهو قولُ جُوَيْبِرٍ؛ وذلك لأنَّ مَن دخل مَسجِدَه مؤمِنًا، فقد دخل في دينِه. يُنظر: ((تفسير ابن عرفة)) (٤/ ٣٠٢)، ((البسيط)) للواحدي (٢٢/ ٢٧٥)، ((تفسير الماوردي)) (٦/ ١٠٦).

وقيل: المرادُ: سَفينتي. وممَّن ذهب إلى هذا القَولِ: السمعانيُّ. يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٦١). ويُنظر أيضًا: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٥٠٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٠٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٣١٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٣٧).

قال القرطبي: (﴿وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ عامَّةً إلى يومِ القيامةِ. قاله الضَّحَّاكُ. وقال الكلبيُّ: مِن أمَّةِ محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم. وقيل: مِن قَومِه. والأوَّلُ أظهَرُ). ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٣١٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٠٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٣٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٠).

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا * إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ في كَلامِ نُوحٍ عليه السَّلامُ دَلالةٌ على أنَّ المُصلِحينَ يَهتَمُّونَ بإصلاحِ جِيلِهم الحاضِرِ، ولا يُهمِلونَ تأسيسَ أُسُسِ إصلاحِ الأجيالِ الآتيةِ؛ إذِ الأجيالُ كُلُّها سواءٌ في نَظَرِهم الإصلاحيِّ[١].

٢- قَولُ اللهِ تعالى حكايةً عن نوحٍ عليه السَّلامُ: ﴿رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ فيه أدَبٌ عَظيمٌ مِن آدابِ الدُّعاءِ، وهو جَمعُ الوالِدَينِ والمؤمِنينَ في الدُّعاءِ، والابتِداءُ بنَفْسِه[٢]، فيُؤخَذُ مِنه: أنَّ سُنَّةَ الدُّعاءِ أنْ يُقدِّمَ الإنسانُ الدُّعاءَ لنفْسِه على الدُّعاءِ لغَيرِه[٣].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾ دعا نوحٌ عليه السَّلامُ على الكافِرينَ أجمَعينَ، ودعا النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم على مَن تحزَّبَ على المؤمِنينَ، وألَّبَ عليهم[٤]، وكان هذا أصلًا في الدُّعاءِ على الكُفَّارِ في الجُملةِ[٥].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا * إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ ردٌّ على المُعتَزِلةِ والقَدَريَّةِ شَديدٌ؛ وذلك أنَّ نوحًا عليه السَّلامُ مع نُبُوَّتِه جَمَعَ في دُعائِه بيْنَ إضلالِهم للعِبادِ وإيلادِهم

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢١٤).

(٢) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٧٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤١٦).

(٤) يُنظر ما أخرجه البخاري (٢٩٣٣)، ومسلم (١٧٤٢).

(٥) يُنظر: ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٤/ ٣١٢).

الفُجَّارَ والكُفَّارَ؛ فلم يُنكِرْه عليه ربُّه، ثُمَّ أنزَلَه على نبيِّنا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في كتابِه مَدْحًا للدَّاعي، وذَمًّا للمَدعُوِّ عليه، وأخبَرَ نصًّا بغَيرِ تفسيرٍ ولا تأويلٍ أنَّ المولودَ مِن قَومِه يُولَدُ فاجرًا كافرًا قبْلَ أنْ يَكتَسِبَهما كَبيرًا بسَيِّئِ عَمَلِه[1]!

فإن قيل: ما الجمعُ بيْنَ هذا وبيْن حديثِ: ((كُلُّ مَولودٍ يُولَدُ على الفِطرةِ))[2]؟

فالجوابُ: أنَّه يولَدُ على الفِطرةِ، ثمَّ يَصيرُ في ثاني حالٍ فاجِرًا كَفَّارًا[3].

وأيضًا فقوله تعالى: ﴿وَلَا يَلِدُوٓاْ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ مُختَصٌّ بِمَن عاشَ منهم إلى أن بلَغ، بدليلِ حديثِ الفِطرةِ السَّابقِ[4].

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾ فيه سُؤالٌ: كيف دعا نوحٌ على قَومِه بذلك، مع أنَّه أُرسِلَ إليهم؛ لِيَهدِيَهم ويُرشِدَهم؟

والجوابُ: أنَّه لم يَدْعُ عليهم هذا الدُّعاءَ إلَّا بَعْدَ أن تحَدَّوه، ويَئِسَ منهم؛ أمَّا تحَدِّيهم ففي قَولِهم: ﴿قَالُواْ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾ [هود: ٣٢]، وقَولِه: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُواْ عَبْدَنَا وَقَالُواْ مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ * فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّي

---

(١) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٤٢٤).

(٢) أخرجه البخاري (١٣٨٥) واللفظ له، ومسلم (٢٦٥٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عرفة)) (٤/ ٣٠٠).

(٤) يُنظر: ((الفتاوى الحديثية)) لابن حجر الهيتمي (ص: ٧٨).

وقال ابن القيِّم: (إن قيل: فالغلامُ الَّذي قتَلَه الخَضِرُ طُبِع يومَ طُبِع كافرًا، وقال نوحٌ عن قومِه: ﴿وَلَا يَلِدُوٓاْ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾... قيل: هذا لا يُناقِضُ كونَه مولودًا على الفِطرة؛ فإنَّه طُبِع وَوُلِد مُقدَّرًا كُفْرُه إذا عقَلَ، وإلَّا ففي حالِ ولادتِه لا يَعرِفُ كفرًا ولا إيمانًا، فهي حالٌ مُقدَّرةٌ لا مُقارِنةٌ للعامِلِ، فهو مولودٌ على الفِطرةِ ومولودٌ كافرًا باعتِبارَينِ صحيحَينِ ثابتَينِ له، هذا بالقَبولِ وإيثارِ الإسلامِ لو خُلِّيَ، وهذا بالفعلِ والإرادةِ إذا عقَلَ. فإذا جمَعْتَ بيْن الفِطرةِ السَّابقةِ والرَّحمةِ السَّابقةِ العاليةِ والحِكمةِ البالغةِ والغِنى التَّامِّ، وقرَنْتَ بيْن فِطرتِه ورحمتِه وحكمتِه وغِناهُ؛ تبيَّنَ لك الأمرُ). ((شفاء العليل)) (ص: ٢٦٢).

مَغۡلُوبٞ فَٱنتَصِرۡ﴾ [القمر: ٩، ١٠]. وأمَّا يأسُه منهم فلِقَولِه تعالى: ﴿وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤۡمِنَ مِن قَوۡمِكَ إِلَّا مَن قَدۡ ءَامَنَ﴾[1] [هود: ٣٦].

٤- قولُه تعالَى حكايةً عن نوح عليه السَّلامُ: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرۡ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ دَيَّارًا * إِنَّكَ إِن تَذَرۡهُمۡ يُضِلُّواْ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓاْ إِلَّا فَاجِرٗا كَفَّارٗا﴾ احتجَّ به الخوارجُ على أنَّ أطفالَ المشركينَ كُفَّارٌ، في النَّارِ. ولا حُجَّةَ لهم في هذه الآيةِ؛ لأنَّ نُوحًا عليه السَّلامُ إنَّما أرادَ قَومَه خاصَّةً؛ لأنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ قال له: ﴿لَن يُؤۡمِنَ مِن قَوۡمِكَ إِلَّا مَن قَدۡ ءَامَنَ﴾ [هود: ٣٦]، فأيْقَنَ نوحٌ بهذا؛ أنَّه لنْ يُؤمِنَ منهم أحَدٌ[2].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرۡ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ دَيَّارًا * إِنَّكَ إِن تَذَرۡهُمۡ يُضِلُّواْ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓاْ إِلَّا فَاجِرٗا كَفَّارٗا﴾ جوازُ الدُّعاءِ على القومِ إذا أُيِسَ مِن صلاحِهم، وتَمَرَّدوا تَمَرُّدًا بالِغًا[3].

٦- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّكَ إِن تَذَرۡهُمۡ يُضِلُّواْ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓاْ إِلَّا فَاجِرٗا كَفَّارٗا﴾ إنْ قيلَ: كيف عَرَف نوحٌ عليه السَّلامُ ذلك؟

الجوابُ: بالنَّصِّ والاستِقراءِ؛ أمَّا النَّصُّ فقَولُه تعالى: ﴿أَنَّهُۥ لَن يُؤۡمِنَ مِن قَوۡمِكَ

---

(١) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٨٣)، ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٨/ ٣١٣).

(٢) يُنظر: ((الفصل في المِلَل والأهواء والنِّحَل)) لابن حزم (٤/ ٦١)، ((أحكام القرآن)) لابن الفرس (٣/ ٥٩٧).

وأطفالُ المشركين الَّذين ماتوا قبلَ أن يُمَيِّزوا شيئًا قد اختلَفوا في حُكمِهم اختلافًا كثيرًا، وذكر ابنُ القيِّم في هذه المسألةِ ثمانيةَ مَذاهِبَ، والمذهبُ الثَّامنُ: أنَّهم يُمتحَنونَ في عَرْصةِ القيامةِ، ويُرسَلُ إليهم هناك رسولٌ، وإلى كلِّ مَن لم تَبلُغْه الدَّعوةُ، فمَن أطاع الرَّسولَ دخل الجنَّةَ، ومَن عصاه أدخله النَّارَ. قال: (وعلى هذا فيكونُ بعضُهم في الجنَّةِ، وبعضُهم في النَّارِ. وبهذا يتألَّفُ شملُ الأدِلَّةِ كلِّها، وتَتوافَقُ الأحاديثُ). ((طريق الهجرتين وباب السعادتين)) (ص: ٣٨٧- ٣٩٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ١٤٩).

إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ ﴾ [هود: ٣٦]، وأمَّا الاستِقراءُ فهو أنَّه لَبِثَ فيهم ألْفَ سَنةٍ إلَّا خَمسينَ عامًا، فعرَف طِباعَهم وجَرَّبَهم، وكان الرَّجُلُ منهم يَنطَلِقُ بابنِه إليه، ويقولُ: (احذَرْ هذا؛ فإنَّه كَذَّابٌ! وإنَّ أبي أوصاني بمِثلِ هذه الوَصيَّةِ!)، فيموتُ الكبيرُ، ويَنشأُ الصَّغيرُ على ذلك(١)!

فلا تَعارُضَ بيْن هذه الآيةِ والآياتِ الأُخَرِ الَّتي تدُلُّ على أنَّ الغيبَ لا يَعلَمُه إلَّا اللهُ، كقولِه: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [النمل: ٦٥]، وكقولِ نوحٍ نفْسِه فيما ذَكَرَه اللهُ عنه في سُورةِ (هودٍ): ﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ﴾ [هود: ٣١] الآيةَ؛ لأنَّه عَلِم ذلك بوَحْيٍ مِن اللهِ أنَّ قومَه لا يُؤمِنُ منهم أحدٌ إلَّا مَنْ آمَنَ(٢).

٧- في قولِه تعالى: ﴿إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ سُؤالٌ: هل يُخبِرُ نوحٌ اللهَ تعالى بالواقِعِ، ألَيسَ اللهُ تعالى عالِمًا به؟!

الجوابُ: بلى، هو عالِمٌ به، لكِنَّ قَصْدَه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ بيانُ الحامِلِ له على هذا الدُّعاءِ، وهو أنَّه يَعتَقِدُ أنَّه إذا أبقاهم فإنَّهم لا يَلِدونَ إلَّا فاجِرًا كفَّارًا، وإلَّا فاللهُ تعالى عليمٌ به؛ فيكونُ هذا كالاعتِذارِ عن هذا السُّؤالِ العامِّ: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾(٣).

٨- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ خَصَّ نَفْسَه أوَّلًا بالدُّعاءِ، ثمَّ المتَّصِلينَ به؛ لأنَّهم أَولى وأحَقُّ بدُعائِه(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦٥٩).

ويُنظر ما تقدَّم (ص: ٣٠١).

(٢) يُنظر: ((دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب)) للشنقيطي (ص: ٢٤٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ٢٠٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦٦٠).

٩- قال اللهُ تعالى: ﴿رَّبِّ ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ﴾ هذا يدُلُّ على أنَّ أبوَيْ نُوحٍ عليه السَّلامُ كانا مُؤمِنَينِ(١).

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿رَّبِّ ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ بِشارةٌ لكلِّ مُؤمِنٍ ومُؤمِنةٍ تَكونُ إلى يومِ القيامةِ؛ لأنَّ نوحًا عليه السَّلامُ نبيٌّ، ودُعاؤُه مُستقيمٌ(٢).

١١- في قَولِه تعالى: ﴿رَّبِّ ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ دَلالةٌ على أنَّ الميِّتَ يَنتَفِعُ بدُعاءِ الخَلْقِ له(٣).

١٢- قولُه تعالى: ﴿وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًا﴾ فيه سُؤالٌ: ما جُرْمُ الصِّبيانِ حِينَ أُغرِقوا؟

الجوابُ مِن وُجوهٍ:

الوجهُ الأوَّلُ: قال الحسَنُ: (عَلِمَ اللهُ بَراءةَ الصِّبيانِ، فأهْلَكَهم بغَيرِ عَذابٍ).

الوجهُ الثَّاني: غَرِقوا معهم لا علَى وجْهِ العِقابِ، بلْ كما يَموتون بالغَرَقِ والحَرْقِ، وكان ذلك زِيادةً في عَذابِ الآباءِ والأمَّهاتِ إذا أبْصَروا أطْفالَهم يَغرَقون.

الوجهُ الثَّالثُ: أنَّه قيل: إنَّ اللهَ تعالَى أيْبَسَ أصلابَ آبائِهم، وأعْقَمَ أرحامَ نِسائِهم قبْلَ الطُّوفانِ بأربعينَ سَنةً أو تِسعينَ، فلم يكُنْ معهم صَبيٌّ حينَ أُغرِقوا، ويدُلُّ عليه قولُه: ﴿ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ﴾ إلى قولِه: ﴿وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ﴾ [نوح: ١٠-١٢]، وهذا يدُلُّ -بحسَبِ المفهومِ- على أنَّهم إذا لم يَستغفِروا فإنَّه تَعالى لا يُمْدِدُهم

(١) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (٩/ ٨٣).

(٢) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٤٢٦).

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٤/ ٣٠٦).

بالبَنينَ[١].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا * إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾

- قولُه: ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾ عطفٌ على ﴿قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي﴾ [نوح: ٢١]؛ أعقَبَه بالدُّعاءِ عليهم بالإهلاكِ والاستِئصالِ بألَّا يُبقِيَ منهم أحدًا، أي: لا تُبْقِ منهم أحدًا على الأرضِ. وأُعِيدَ فِعلُ (قال)؛ لوُقوعِ الفَصلِ بيْن أقوالِ نُوحٍ عليه السَّلامُ بجُملةِ ﴿مِّمَّا خَطِيئَاتِهِمْ ...﴾ [نوح: ٢٥] إلخ، أو بها وبجُملةِ ﴿وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا﴾ [نوح: ٢٤]. وقُرِنَت بواوِ العطْفِ لتَكونَ مُستقِلَّةً فلا تَتبَعَ جُملةَ ﴿إِنَّهُمْ عَصَوْنِي﴾؛ للإشارةِ إلى أنَّ دَعوةَ نُوحٍ عليه السَّلامُ حَصَلَت بعْدَ شِكايتِه بقولِه: ﴿إِنَّهُمْ عَصَوْنِي﴾[٢].

- و﴿دَيَّارًا﴾: اسمٌ مَخصوصٌ بالوُقوعِ في النَّفيِ يَعُمُّ كلَّ إنسانٍ، ومعْنى دَيَّارٍ: مَن يحُلُّ بدارِ القَومِ، كِنايةً عن إنسانٍ[٣].

- وجُملةُ ﴿إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ﴾ تَعليلٌ لسُؤالِه ألَّا يَترُكَ اللهُ على الأرضِ أحدًا مِن الكافِرين، يُريدُ أنَّه خَشِيَ أنْ يُضِلُّوا بعضَ المؤمنينَ، وأنْ يَلِدوا أبناءً يَنْشَؤون على كُفْرِهم[٤].

- و(الكَفَّارُ): مُبالَغةٌ في الموصوفِ بالكُفْرِ، أي: إلَّا مَن يَجمَعُ بيْنَ سُوءِ الفِعلِ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦٦٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢١٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٢١)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٥٠)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٨٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٤١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢١٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢١٤)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٢٣٣).

وسُوءِ الاعتقادِ[١].

٢- قولُه تعالَى: ﴿رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًا﴾ جعَل الدُّعاءَ لنفْسِه ووالِدَيْه خاتمةَ مُناجاتِه؛ فابْتَدأَ بنَفْسِه، ثمَّ بأقرَبِ النَّاسِ به -وهما والِداهُ-؛ لأنَّهم أَولى وأحقُّ بدُعائِه، ثمَّ عمَّمَ أهْلَه وذَويه المؤمنينَ، فدَخَل أولادُه وبَنُوهم والمؤمناتُ مِن أزواجِهم، وعبَّرَ عنهم بمَن دَخَلَ بَيْتَه كِنايةً عن سُكْناهم معه -على قولٍ-؛ فالمُرادُ بقولِه: ﴿دَخَلَ بَيْتِيَ﴾ دُخولٌ مَخصوصٌ، وهو الدُّخولُ المُتكرِّرُ الملازِمُ، ثمَّ عمَّمَ المؤمنينَ والمؤمناتِ، ثمَّ عاد بالدُّعاءِ على الكَفَرةِ بأنْ يَحرِمَهم اللهُ النَّجاحَ؛ فختَم الكلامَ مرَّةً أُخرى بالدُّعاءِ على الكافِرينَ، وهو على حدِّ قولِه المُتقدِّمِ: ﴿وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلًا﴾[٢] [نوح: ٢٤].

- و(التَّبارُ): الهَلاكُ والخَسارُ؛ فهو تَخصيصٌ للظَّالِمينَ مِن قَومِه بسُؤالِ استِئصالِهم بعْدَ أنْ شَمِلَهم وغيرَهم بعُمومِ قولِه: ﴿لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾[نوح: ٢٦]؛ حِرصًا على سَلامةِ المجتمَعِ الإنسانيِّ مِن شَوائبِ المَفاسِدِ، وتَطهيرِه مِن العناصرِ الخبيثةِ[٣].



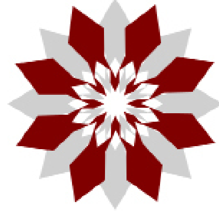
(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢١٤).

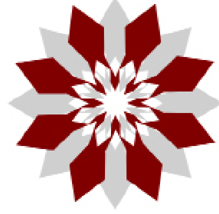
(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٢١)، ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦٦٠)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٨٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٤٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢١٥).

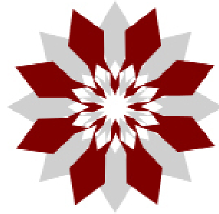
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢١٥).

تَفْسِيرُ

سُورَةِ الجِنِّ







سورةُ الجِنِّ

أسماءُ السُّورةِ:

سُمِّيَتْ هذه السُّورةُ بسُورةِ (الجِنِّ)(١).

بيانُ المكِّيِّ والمَدَنيِّ:

سُورةُ الجِنِّ مكِّيَّةٌ، ونقَلَ الإجماعَ على ذلك غيرُ واحدٍ مِن المفسِّرينَ(٢).

مَقاصِدُ السُّورةِ:

مِن أهَمِّ مَقاصِدِ السُّورةِ:

ذِكرُ ما يتَّصِلُ بخبرِ الجنِّ، واستِماعِهم القرآنَ، وما كان مِن مَردودِ ذلك عليهم، وما للمُستَجيبينَ لأمرِ اللهِ والمُعرِضينَ عنه(٣).

مَوضوعاتُ السُّورةِ:

مِن أهمِّ الموضوعاتِ الَّتي اشتَمَلَتْ عليها السُّورةُ:

١- سَماعُ جَماعةٍ مِن الجِنِّ للقرآنِ، وإيمانُهم به، وحِكايةُ ما صَدرَ منهم مِن أقوالٍ.

٢- استِراقُ الجِنِّ للسَّمعِ، ثمَّ مَنْعُهم مِن ذلك.

٣- ذِكرُ انقِسامِ الجِنِّ إلى صالِحينَ وغيرِ صالِحينَ.

---

(١) سُمِّيت هذه السُّورةُ سورةَ الجنِّ؛ لاشتِمالِها على خبَرِ الجِنِّ وذِكرِ أحْوالِهم. يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٤٨٤).

(٢) ممَّن نقَلَ الإجماعَ على ذلك: ابنُ عطيَّةَ، وابنُ الجَوزيِّ، والقرطبيُّ، والبِقاعي. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٤٩)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٣٤٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١)، ((مصاعد النظر)) للبقاعي (٣/ ١٢٦).

(٣) يُنظر: ((التفسير الوسيط)) لطنطاوي (١٥/ ١٢٧).

٤- جَزاءُ المُسْتقيمينَ على أمْرِ اللهِ والمُعْرِضينَ عنه.

٥- ذِكرُ ما أُمِرَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بتَبْليغِه.

٦- ذِكرُ اختِصاصِ اللهِ بعِلمِ الغَيبِ.



الآيات (١-٧)

﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا (١) يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ
فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا (٢) وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا (٣) وَأَنَّهُ كَانَ
يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا (٤) وَأَنَّا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ تَقُولَ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا (٥) وَأَنَّهُ كَانَ
رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا (٦) وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ
أَحَدًا (٧)﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿نَفَرٌ﴾: أي: جماعةٌ ما بيْنَ الثَّلاثةِ إلى العَشَرةِ، والنَّفَرُ: اسْمُ جَمْعٍ، يَقَعُ على جماعةٍ مِن الرِّجالِ خاصَّةً، ولا واحدَ له مِن لَفظِه. والنَّفْرُ: الانْزِعاجُ عن الشَّيءِ وإلى الشَّيءِ، كالفَزَعِ إلى الشَّيءِ وعن الشَّيءِ، والنَّفَرُ والنَّفيرُ والنَّفَرَةُ: عِدَّةُ رِجالٍ يُمْكِنُهم النَّفْرُ(١).

﴿جَدُّ﴾: أي: عَظَمةُ وجلالُ، وأصلُ (جدد) هنا: يدُلُّ على العَظَمةِ(٢).

﴿سَفِيهُنَا﴾: أي: إبليسُ أو مَرَدةُ الجِنِّ، أو جاهِلُنا، والسَّفَهُ: الخِفَّةُ، والجهلُ،

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٨٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٧٠)، ((المفردات في غريب القرآن)) للراغب (ص: ٨١٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٥٤)، ((النهاية في غريب الحديث والأثر)) لابن الأثير (٥/ ٩٣).
قال الكفوي: (النَّفَرُ: من الثَّلاثةِ إلى التِّسعةِ، ولا يُستعمَلُ فيما فَوقَ العَشَرةِ، ولا في طائفةِ النِّساءِ، وإذا استُعْمِلَ فيما فَوْقَها أو في طائفةِ الرِّجالِ والنِّساءِ يُفَسَّرُ حِينَئذٍ بالنَّفسِ). ((الكليات)) (ص: ٦٨٦).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٩، ٤٨٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٧٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤٠٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٢٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٨).

والسَّفيهُ: الخفيفُ العَقلِ، وأصلُ (سفه): يدُلُّ على خِفَّةٍ وسَخافةٍ[١].

﴿شَطَطًا﴾: أي: كَذِبًا وجَوْرًا، ومعنى الشَّطَطِ في اللُّغةِ: مُجاوَزةُ القَدْرِ، وأصلُ (شطط): يدُلُّ على الإفراطِ في البُعدِ والمَيلِ[٢].

﴿يَعُوذُونَ﴾: أي: يَلجَؤُونَ ويَستَجيرونَ. والعَوذُ: الالتِجاءُ إلى الغَيرِ، والتَّعَلُّقُ به، وأصلُ (عوذ): يدُلُّ على الالتِجاءِ إلى الشَّيءِ[٣].

﴿رَهَقًا﴾: أي: ضَلالًا وإثْمًا وظُلْمًا، والرَّهَقُ: الإثمُ وغِشْيانُ المَحارِمِ، وأصلُ (رهق) هنا: يدُلُّ على غِشْيانِ الشَّيءِ الشَّيءَ[٤].

مُشكِلُ الإعرابِ:

﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا * يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا * وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا﴾

قولُه تعالى: ﴿وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا﴾ قُرِئَت هذه الآيةُ بفَتحِ إنَّ وكَسْرِها[٥]:

فمَن كسَرَها عَطَفَها على قَولِ الجِنِّ: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا﴾، فيَكونُ التَّقديرُ:

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٢٠، ٤٨٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٧٩)، ((التفسير البسيط)) للواحدي (٢/ ١٦٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤١٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٢٠)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٢١).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٦٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٨٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٥٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٣٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٧٢).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ١٨٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٩٤).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٨٩، ٤٩٠)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٢٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٥١)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٠).

(٥) قرأها أبو جعفرٍ، وابنُ عامرٍ، وحمزةُ، والكِسائيُّ، وخَلَفٌ، وحفصٌ بفتحِ الهمزةِ، والباقونَ بكَسْرِها. يُنظر: ((النشر في القراءات العشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٩١).

وقالوا: إنَّه تعالى جَدُّ رَبِّنا.

ومَن فَتَح الهمزةَ عَطَفَها على (الهاءِ) في قَولِ الجِنِّ: ﴿فَـَٔامَنَّا بِهِۦ﴾، فيكونُ التَّقديرُ: وآمَنَّا بأنَّه تعالى جَدُّ رَبِّنا. بتقديرِ الجارِّ؛ لاطِّرادِ حَذْفِه قبْلَ (أنْ) و(أنَّ). وقيل غيرُ ذلك[1].

المعنى الإجماليُّ:

يَبتدِئُ اللهُ تعالى هذه السُّورةَ الكريمةَ بأمرِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بأنْ يحَدِّثَ بما حصَل مِن سماعِ بعضِ الجنِّ للقرآنِ، وما قالوه، فيقولُ سُبحانَه: قُلْ -يا مُحَمَّدُ-: أوحَى اللهُ إلَيَّ أنَّه استمَعَ جماعةٌ مِن الجِنِّ للقُرآنِ، فقالوا: إنَّا سَمِعْنا قرآنًا عجيبًا يدُلُّ على الحَقِّ والهُدى، فآمَنَّا به، ولن نُشرِكَ برَبِّنا أحَدًا من خَلْقِه، وأنَّه تعالَت عَظَمةُ ربِّنا لم يتَّخِذْ زَوجةً ولا وَلَدًا، وأنَّه كان يقولُ جاهِلُنا على اللهِ كَذِبًا، وأنَّا كُنَّا نَظُنُّ أنَّ الإنسَ والجِنَّ صادِقونَ في ادِّعاءاتِهم، وأنَّهم لن يَجرُؤوا على الكَذِبِ على اللهِ تعالى، وأنَّه كان رِجالٌ مِن الإنسِ إذا نَزَلوا مَنزِلًا يَستَعيذونَ ويَستَجيرونَ بعظيمِ ذلك المكانِ مِنَ الجِنِّ، فزاد الإنسُ الجِنَّ طُغْيانًا وكِبْرًا، وأنَّ كُفَّارَ الجِنِّ ظَنُّوا -كما ظَنَّ كُفَّارُ الإنسِ- أنَّ اللهَ لن يَبعَثَ أحدًا يومَ القيامةِ للحِسابِ والجزاءِ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿قُلۡ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسۡتَمَعَ نَفَرٞ مِّنَ ٱلۡجِنِّ فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعۡنَا قُرۡءَانًا عَجَبٗا ١﴾.

﴿قُلۡ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسۡتَمَعَ نَفَرٞ مِّنَ ٱلۡجِنِّ﴾.

(١) يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٢٣٤)، ((معاني القراءات)) للأزهري (٣/ ٩٦، ٩٧)، ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (٢/ ٧٦٣)، ((البسيط)) للواحدي (٢٢/ ٢٨١)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (١٠/ ٤٨١)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٩٤).

سَبَبُ النُّزولِ:

عن عبدِ اللهِ بنِ عبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: ((انطلَقَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في طائفةٍ مِن أصحابه عامِدينَ إلى سُوقِ عُكاظٍ، وقد حِيلَ بيْنَ الشَّياطينِ وبيْنَ خَبَرِ السَّماءِ، وأُرسلَت عليهم الشُّهُبُ، فرجَعَت الشَّياطينُ إلى قَومِهم، فقالوا: ما لَكم؟! فقالوا: حِيلَ بيْنَنا وبيْنَ خبرِ السَّماءِ، وأُرسِلَت علينا الشُّهُبُ! قالوا: ما حالَ بيْنَكم وبيْنَ خبرِ السَّماءِ إلَّا شَيءٌ حَدَث؛ فاضرِبوا مَشارِقَ الأرضِ ومَغارِبَها، فانظُروا ما هذا الَّذي حالَ بيْنَكم وبيْنَ خبرِ السَّماءِ؟! فانصرَف أولئك الَّذين توَجَّهوا نحوَ تِهامةَ إلى النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وهو بنَخْلةَ[1] عامِدينَ إلى سوقِ عُكاظٍ، وهو يُصلِّي بأصحابه صلاةَ الفَجرِ، فلمَّا سَمِعوا القرآنَ استَمَعوا له، فقالوا: هذا -واللهِ- الَّذي حال بيْنَكم وبيْنَ خبرِ السَّماءِ، فهنالك حينَ رَجَعوا إلى قومِهم، وقالوا: يا قومَنا: ﴿إِنَّا سَمِعۡنَا قُرۡءَانًا عَجَبٗا * يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلرُّشۡدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦۖ وَلَن نُّشۡرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدٗا﴾ [الجن: ١، ٢]، فأنزل اللهُ على نبيِّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ﴿قُلۡ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسۡتَمَعَ نَفَرٞ مِّنَ ٱلۡجِنِّ﴾، وإنَّما أُوحِيَ إليه قَوْلُ الجِنِّ))[2].

﴿قُلۡ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسۡتَمَعَ نَفَرٞ مِّنَ ٱلۡجِنِّ﴾.

أي: قُلْ -يا مُحَمَّدُ-: أوحَى اللهُ إليَّ أنَّه استمَعَ جماعةٌ مِن الجِنِّ للقُرآنِ[3].

(١) نخلة: موضعٌ بيْن مكَّةَ والطَّائف. يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (٨/ ٦٧٤).

(٢) رواه البخاريُّ (٧٧٣) واللَّفظُ له، ومسلمٌ (٤٤٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣١٠)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٥٠٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٣٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٤٦٤، ٤٦٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٢٠).

قال الزمخشري: (﴿نَفَرٞ مِّنَ ٱلۡجِنِّ﴾ جماعةٌ منهم ما بيْنَ الثَّلاثةِ إلى العَشَرةِ). ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٢٣).
=

﴿فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعۡنَا قُرۡءَانًا عَجَبٗا﴾.

أي: فقال أولئك النَّفَرُ مِنَ الجِنِّ: إنَّا سَمِعْنا قرآنًا عجيبًا بديعًا خارِجًا عن العادةِ، فلا حديثَ مِثلُه[1].

﴿يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلرُّشۡدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦۖ وَلَن نُّشۡرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدٗا ٢﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا بيَّنوا فَضْلَ القرآنِ مِن جهةِ الإعجازِ وغَيرِه؛ بيَّنوا المقصودَ بالذَّاتِ الدَّالَّ على غَوصِهم على المعاني، بَعْدَ عِلْمِهم بحُسنِ المباني[2].

﴿يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلرُّشۡدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ﴾.

أي: قالوا: وهذا القُرآنُ يدُلُّ على الحَقِّ والخَيرِ والصَّوابِ والهُدى، فآمَنَّا به[3].

= وقال الكرماني: (والنَّفَرُ دونَ العَشَرةِ. قيل: كانوا تِسعةً، وقيل: سَبعةً). ((تفسير الكرماني)) (٢/ ١٢٥٩).

وقال البِقاعي: (وهل هذا الاستماعُ هو المذكورُ في «الأحقاف» أو غَيرُه، قال أبو حيَّانَ: المشهورُ أنَّه هو. وقيل: هو غيرُه، والجِنُّ الَّذين أتَوه بمكَّةَ جِنُّ نَصِيبينَ، والَّذين أتوه بنَخلةَ جِنُّ نِينَوى، والسُّورةُ الَّتي استَمَعوها قال عِكرِمةُ: العَلَقُ. وقيل: الرَّحمنُ. ولم يُذكَرْ هنا ولا في الأحقافِ أنَّه رآهم، ويَظهَرُ مِن الحديثِ تعدُّدُ الواقعةِ). ((نظم الدرر)) (٢٠/ ٤٦٣). ويُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٩٣). ويُنظر أيضًا: ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١).

ويُنظر ما تقدَّم في سورة الأحقاف الآية (٢٩) (٣٣/ ٣٣٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣١٠)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٥٠٣)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٦٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٧٩)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٥٤٨، ٥٤٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٦٤).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٤٦٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣١٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٦٣)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٢٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٦٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٢١). =

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩].

وقال سُبحانَه: ﴿قَالُوا۟ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الأحقاف: ٣٠].

﴿وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا﴾.

أي: ولن نَجعَلَ أحدًا مِن خَلْقِه شَريكًا له(١).

﴿وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا ۝٣﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا سَمِعُوا القرآنَ، ووُفِّقُوا للتَّوحيدِ والإيمانِ؛ تَنبَّهوا للخطأِ فيما اعتَقَده كفَرةُ الجنِّ مِن تَشبيهِ الله تعالَى بخَلْقِه في اتِّخاذِ الصَّاحبةِ والولدِ، فاستَعْظموه ونزَّهُوه تعالَى عنه(٢).

= قال السعدي: (الرُّشْدُ: اسمٌ جامعٌ لكلِّ ما يُرشدُ النَّاسَ إلى مصالحِ دينِهم ودُنياهم). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٠).

(١) وقال ابن القيِّم: (أعظَمُ الرُّشدِ والحَقِّ الَّذي يَهدي إليه: مَعرِفةُ اللهِ سُبحانَه، وإثباتُ صِفاتِه، وعُلُوِّه على خَلْقِه ومُبايَنتِه لهم؛ إذ بذلك يتِمُّ الاعترافُ به وإثباتُه، ونَفْيُ ذلك نَفيٌ له ولصِفاتِه). ((اجتماع الجيوش الإسلامية)) (٢/ ٣٢٦).

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣١٠)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٦٤)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٢٣)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ١٨١).

قال الشوكاني: (﴿وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا﴾ مِن خَلْقِه، ولا نتَّخِذَ معه إلهًا آخَرَ؛ لأنَّه المتفرِّدُ بالرُّبوبيَّةِ). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٦٤).

وقال الواحدي: (﴿وَلَن نُّشْرِكَ﴾: لن نَعدِلَ ﴿بِرَبِّنَآ أَحَدًا﴾ يعنون: إبليسَ، أي: لا نُطيعُه في الشِّركِ باللهِ). ((الوسيط)) (٤/ ٣٦٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٢٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٥١)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٤٣).

﴿وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا﴾.

أي: وأنَّه تعالَت عَظَمةُ ربِّنا وجَلالُه[١].

﴿مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا وَصَفوه بهذا التَّعالي الأعظَمِ المستلزِمِ للغِنى المطلَقِ، والتَّنزُّهِ عن كلِّ شائبةِ نقْصٍ؛ بَيَّنوه بنَفْيِ ما يُنافِيه بقولِهم إبطالًا للباطِلِ[٢]:

﴿مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا﴾.

أي: لم يتَّخِذِ اللهُ تعالى زَوجةً له، ولم يتَّخِذْ وَلَدًا[٣].

كما قال تعالى: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: ١٠١].

﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى ٱللَّهِ شَطَطًا ٤﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٤٦١)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣١٥)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٢٣٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٦٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٢٢).

قال ابنُ عطية: (قرأ جمهورُ النَّاسِ ﴿جَدُّ رَبِّنَا﴾ -بفتحِ الجيمِ، وضمِّ الدَّالِ- وإضافتِه إلى الرَّبِّ، وقال جمهورُ المفسِّرينَ: معناه: عَظَمتُه). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٧٩).

ومِن المفسِّرينَ مَنْ جعَل: ﴿وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا﴾ مُفَسَّرًا بما بَعْدَه على معنى: تعالت عَظَمةُ ربِّنا عن اتِّخاذِ الصَّاحبةِ والولَدِ. وممَّن نصَّ على هذا المعنى: الزَّجَّاجُ، والواحديُّ، وابنُ كثير. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٢٣٤)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١١٣٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٣٨، ٢٣٩).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٤٦٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣١٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٣٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٠).

أي: وأنَّه كان يقولُ جاهِلُنا -الملازِمُ للطَّيشِ والغَيِّ- على اللهِ كَذِبًا وجَورًا بعيدًا عن العَدلِ والصَّوابِ، ومِن ذلك ادِّعاءُ الشَّريكِ والزَّوجةِ والولَدِ لله سُبحانَه وتعالى[1].

﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن تَقُولَ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۝٥﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَروا ما هُدُوا إليه مِنَ الحَقِّ في اللهِ، وفيمَن كان يَحمِلُهم على الباطِلِ؛ ذكَروا عُذْرَهم في اتِّباعِهم للسَّفيهِ، وفي وُقوعِهم في مَواقِعِ التُّهَمِ[2].

(١) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٤٦٢)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٢٠، ٣٢١)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٦٣)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٢٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٣٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٤٦٩، ٤٧٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٢٣).

قال ابن عطية: (لا خِلافَ أنَّ هذا مِن قَولِ الجِنِّ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٧٩).

قيل: المرادُ بالسَّفيهِ هنا: إبليسُ. وممَّن ذهب إلى هذا القولِ: ابنُ جرير، والسمرقنديُّ، وابنُ جُزَي، وأبو حيَّان، والعُلَيمي، ونسَبَه الألوسيُّ وغيرُه إلى جمهورِ المفسِّرينَ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٢٠)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٥٠٤)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤١٧)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٩٥)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ١٨٢)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٩٥).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: قَتادةُ، ومجاهِدٌ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٢٠)، ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ٥٠).

وقيل: السَّفيهُ هنا: اسمُ جِنسٍ، فيَعُمُّ إبليسَ وغيرَه. واستحسَنَ ابنُ عطيَّةَ هذا القولَ، واختاره البِقاعيُّ، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٧٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٤٦٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٢٣).

قال ابن عطيَّة: (السَّفيهُ المذكورُ قال جميعُ المفسِّرينَ: هو إبليسُ لعنه الله. وقال آخَرونَ: هو اسمُ جِنسٍ لكلِّ سفيهٍ منهم. ولا مَحالةَ أنَّ إبليسَ صدرٌ في السُّفهاءِ، وهذا القولُ أحسَنُ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٨٠).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٤٧٠).

﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن تَقُولَ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۝٥﴾.

أي: وأنَّا قبْلَ سَماعِنا للقُرآنِ وإيمانِنا باللهِ كُنَّا نَظُنُّ أنَّ الإنسَ والجِنَّ صادِقونَ في ادِّعاءاتِهم، وأنَّهم لن يَجرُؤوا على الكَذِبِ على اللهِ تعالى، فيَدَّعُوا له الشَّريكَ والصَّاحِبةَ والوَلَدَ كَذِبًا وزُورًا[١]!

﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ۝٦﴾.

﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾.

أي: وأنَّه كان رجالٌ مِن الإنسِ إذا نَزَلوا مَنزِلًا يَستَعيذونَ ويَستَجيرونَ بعظيمِ ذلك المكانِ وسَيِّده مِنَ الجِنِّ؛ طلبًا للأمانِ والسَّلامةِ مِمَّا يخافونَ ويَحذَرونَ[٢]!

﴿فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾.

أي: فزاد الإنسُ الجِنَّ طُغْيانًا وكِبرًا حينَ رأَوُا الإنسَ يَستَعيذونَ بهم[٣].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٢١)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٦٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٧٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٣٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٢٣).

قال ابن جرير: (كانوا يحسَبونَ أنَّ إبليسَ صادِقٌ فيما يَدعو بَني آدمَ إليه مِن صُنوفِ الكُفرِ؛ فلمَّا سَمِعوا القرآنَ أيْقَنوا أنَّه كان كاذبًا في كلِّ ذلك). ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٢٢).

وقال السعدي: (أي: كنَّا مغترِّينَ قبلَ ذلك، وغَرَّنا القادةُ والرُّؤساءُ مِن الجِنِّ والإنسِ، فأحسَنَّا بهم الظَّنَّ، وظنَنَّاهم لا يتجرَّؤونَ على الكذِبِ على الله؛ فلذلك كنَّا قبْلَ هذا على طريقِهم، فاليومَ إذْ بانَ لنا الحَقُّ، رجَعْنا إليه، وانقَدْنا له، ولم نُبالِ بقولِ أحدٍ مِنَ النَّاسِ يُعارِضُ الهُدى). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٢٢)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٢/ ٢٠٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٣٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٤٧٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٢٤-٣٢٦)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٢/ ٢٠٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٣٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٠). =

= قال السمعاني: (فيه قَولانِ؛ أحدُهما: أنَّ الإنسَ زادوا الجِنَّ رَهَقًا، أي: عَظَمةً في أنفُسِهم، كأنَّ الإنسَ لَمَّا استعاذوا بالجِنِّ ازداد الجِنُّ في أنفُسِهم عَظَمةً.
والقولُ الثَّاني: هو أنَّ الإنسَ ازدادوا رهقًا بالاستعاذةِ مِنَ الجِنِّ. ومعناه: طُغْيانًا وإثمًا، كأنَّ الإنسَ لَمَّا استعاذوا بالجِنِّ وأمِنوا على أنفُسِهم ازدادوا كُفرًا، وظَنُّوا أنَّ أَمْنَهم كان مِنَ الجِنِّ.
وقيل: رَهقًا أي: غِشيانًا للمَحارِمِ. وقيل: مُقارَفةً للْإثمِ). ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٦٦).
وممَّن قال بأنَّ المرادَ: زاد الإنسُ الجنَّ بهذا التَّعوُّذ طُغيانًا: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والسمرقنديُّ، والواحديُّ، وابنُ تيميَّةَ، وابنُ القيِّمِ، والسعديُّ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٤٦٢)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٥٠٥)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١١٤٠)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٩/ ٣٣، ٣٤)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٢/ ٢٠٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٠).

ونَسَبَه الرَّسْعَنيُّ إلى جمهورِ المفسِّرينَ. يُنظر: ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٣٠٩).
قال السعدي: (كان الإنسُ يَعبُدونَ الجِنَّ، ويَستعيذونَ بهم عندَ المَخاوِفِ والأفزاعِ، فزاد الإنسُ الجِنَّ رهَقًا، أي: طغيانًا وتكَبُّرًا لَمَّا رأَوُا الإنسَ يَعبُدونَهم، ويَستعيذونَ بهم). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٠).
وقال الرازي (قولُه: ﴿فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ قال المفسِّرونَ: معناه: زادوهم إثمًا وجُرْأةً وطُغْيانًا وخطيئةً وغَيًّا وشرًّا، كلُّ هذا مِن ألفاظِهم). ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦٦٨).
وقيل: المرادُ: أنَّ الجِنَّ زادَتِ الإنسَ -لَمَّا استعاذوا بهم- إثمًا، واستِحلالًا للمَحارِمِ. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: ابنُ جرير، والرَّازيُّ، وابنُ جُزَي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٢٦)، ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦٦٨)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤١٨).
وقيل: المرادُ: أنَّ الجِنَّ زادَت الإنسَ -لَمَّا استعاذوا بهم- خوفًا وذُعرًا منهم؛ فاشتَدَّ خَوفُهم منهم، وصاروا أكثَرَ تعوُّذًا بهم. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: ابنُ كثير، وجعله السعديُّ احتمالًا في معنى الآيةِ. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٣٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٠).
قال ابنُ جُزَي: (ضَميرُ الفاعلِ للجِنِّ، وضَميرُ المفعولِ للإنسِ، والمعْنى: أنَّ الجِنَّ زادُوا الإنسَ ضَلالًا وإثمًا لَمَّا عاذُوا بهم، أو زادُوهم تَخويفًا لَمَّا رَأَوْا ضَعْفَ عُقولِهم). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤١٨).
وقال ابنُ عاشور: (الَّذي أختارُه في معنى الآيةِ: أنَّ العَوْذَ هنا هو الالتجاءُ إلى الشَّيءِ، والالتِفافُ =

﴿وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا۟ كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ ٱللَّهُ أَحَدًا ۝٧﴾.

أي: وأنَّ كُفَّارَ الجِنِّ ظَنُّوا -كما ظَنَّ كُفَّارُ الإنسِ- أنَّ اللهَ لن يبعَثَ أحدًا يومَ القيامةِ للحِسابِ والجزاءِ[1].

= حَوْلَه، وأنَّ المرادَ: أنَّه كان قومٌ مِن المشركينَ يَعبُدونَ الجنَّ؛ اتقاءَ شَرِّها. ومعنى ﴿فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾: فزادَتْهم عبادتُهم إيَّاهم ضَلالًا. والرَّهَقُ: يُطلَقُ على الإثمِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٢٥).

وقال البِقاعي: (﴿فَزَادُوهُمْ﴾ أي: الإنسُ الجنَّ باستِعاذتِهم هذه المُرَتَّبِ عليها إعاذتُهم، والجنُّ الإنسَ بترئيسِ الإنسِ لهم وخَوفِهم منهم ﴿رَهَقًا﴾ أي: ضيقًا وشدَّةً وغِشْيانًا لِما هم فيه مِن أحوالِ الضَّلالِ، الَّتي يَلزَمُ منها الضِّيقُ والشِّدَّةُ). ((نظم الدرر)) (٢٠/ ٤٧٢، ٤٧٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٢٤-٣٢٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٦٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٨٠، ٣٨١)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٤٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٢٦).

قال ابنُ عطيَّةَ: (قولُهم: ﴿أَن لَّن يَبْعَثَ ٱللَّهُ أَحَدًا﴾ يحتَمِلُ معنيَينِ؛ أحدُهما: بعْثُ الحَشرِ مِن القبورِ. والآخَرُ: بعْثُ آدميٍّ رَسولًا). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٨١).

وممَّن ذهب إلى المعنى الأوَّلِ -أي: أنَّه البعثُ بعدَ الموتِ-: السمرقنديُّ، والثعلبي، والواحدي، والسمعاني، والبغوي، والرازي، والرَّسْعَني، والنَّسَفي، وجلال الدين المحلي، والعُلَيمي، والشوكاني، والسعدي، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٥٠٥)، ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ٥١)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٦٥)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٦٦)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ١٦٠)، ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦٦٨)، ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٣١٠)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٥٥٠)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٧٧١)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ١٨٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٦٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٢٦).

وممَّن ذهب إلى المعنى الثَّاني: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، وأبو حيَّانَ، والألوسيُّ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٤٦٢)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٢٦)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٩٦)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٩٦).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: الكلبيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٢٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٤٠).

واختلَف المفسِّرونَ في قائِلِ هذا الكلام: ﴿وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا۟ كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ ٱللَّهُ أَحَدًا﴾؛ فقيل: هو مِن قَولِ اللهِ تعالى مخاطِبًا كُفَّارَ الإنسِ؛ لإخبارِهم بأنَّ كُفَّارَ الجِنِّ قد ظنُّوا كما ظنَنْتُم في شأنِ =

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

قَولُ اللهِ تعالى: ﴿فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعۡنَا قُرۡءَانًا عَجَبٗا * يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلرُّشۡدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦۖ وَلَن نُّشۡرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدٗا﴾ جَعَلوا السَّبَبَ الدَّاعيَ لهم إلى الإيمانِ وتوابِعِه: ما عَلِموه مِن إرشاداتِ القُرآنِ، وما اشتَمَل عليه مِن المصالِحِ والفوائِدِ، واجتنابِ المَضارِّ؛ فإنَّ ذلك آيةٌ عظيمةٌ وحُجَّةٌ قاطِعةٌ لِمَن استنارَ به، واهتَدى بهَدْيِه، وهذا هو الإيمانُ النَّافِعُ، المُثمِرُ لكُلِّ خَيرٍ، المبنيُّ على هدايةِ القُرآنِ، بخِلافِ إيمانِ العوائِدِ والمَرْبَى والإلْفِ ونَحوِ ذلك؛ فإنَّه إيمانُ تقليدٍ تحتَ خَطَرِ الشُّبُهاتِ والعوارِضِ الكَثيرةِ[1].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿قُلۡ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسۡتَمَعَ نَفَرٞ مِّنَ ٱلۡجِنِّ فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعۡنَا قُرۡءَانًا عَجَبٗا﴾، يَقتضي أنَّ الرَّسولَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لم يَعلَمْ بحُضورِ الجِنِّ لاستِماعِ القُرآنِ قبْلَ نُزولِ هذه الآيةِ[2].

= بَعثِ الرُّسُلِ أو العِبادِ. وممَّن ذهب إلى هذا: الواحديُّ، وابنُ الجوزي. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٦٥)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٣٤٨).

وقيل: هو مِن قَولِ الجِنِّ بَعضِهم لبعضٍ، أي: ظَنَّ كُفَّارُ الإنسِ في ذلك كما ظَنَنْتُم يا مَعشَرَ الجِنِّ. وممَّن ذهب إلى هذا: الرازيُّ، وابنُ جُزَي. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦٦٨)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤١٨).

قال الرازي: (حَمْلُه على كلامِ الجِنِّ أَولى؛ لأنَّ ما قبْلَه وما بعدَه كلامُ الجِنِّ، فإلقاءُ كلامٍ أجنبيٍّ عن كلامِ الجِنِّ في البَيْنِ غيرُ لائقٍ). ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦٦٨).

وقال الشوكاني: (هذا مِن قولِ الجِنِّ للإنسِ، أي: وإنَّ الجِنَّ ظَنُّوا كما ظننتُم أيُّها الإنسُ أنَّه لا بعثَ). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٦٦).

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢١٩).

٢- قال اللهُ تعالى: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓا۟ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا * يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا﴾ في هذا توبيخٌ للكُفَّارِ مِن بني آدَمَ؛ حيث آمَنَت الجِنُّ بسَماعِ القرآنِ مرَّةً واحدةً، وانتَفَعوا بسَماعِ آياتٍ يسيرةٍ منه، وأدركوا بعُقولِهم أنَّه كلامُ اللهِ، وآمَنوا به، ولم ينتَفِعْ كفَّارُ الإنسِ -ولا سيَّما رؤساؤُهم وعُظَماؤُهم- بسَماعِه مرَّاتٍ متعدِّدةً، وتِلاوتِه عليهم في أوقاتٍ مختلِفةٍ، مع كَونِ الرَّسولِ منهم، يَتلوه عليهم بلِسانِهم[(١)]!

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓا۟ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا﴾ فيه أنَّ النَّبيَّ -عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ- كما بُعِثَ إلى الإنسِ، فقد بُعِثَ إلى الجِنِّ[(٢)]. فهو رسولٌ إلى الجِنِّ، كما هو رسولٌ إلى الإنسِ؛ فإنَّ اللهَ صَرَف نَفَرَ الجِنِّ لِيَستَمِعوا ما يُوحَى إليه، ويُبلِّغوا قومَهم[(٣)].

٤- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓا۟ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا﴾ فيه أنَّ الجِنَّ مكَلَّفونَ كالإنسِ[(٤)].

٥- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓا۟ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا﴾ فيه أنَّ الجِنَّ يَستَمِعونَ كَلامَنا، ويَفهَمونَ لُغاتِنا[(٥)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٦٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦٦٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩١).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦٦٥).

قال تقيُّ الدِّينِ السُّبكي: (إنَّ قوةَ هذا الكلامِ تَقْتضي أنَّهم انقادوا له، وآمَنوا بعدَ شِركِهم، وذلك يَقْتضي أنَّهم فهِموا أنَّهم مُكلَّفونَ به، وكذلك كثيرٌ مِن الآياتِ التي في هذه السُّورةِ التي خاطَبوا بها قومَهم). ((فتاوى السبكي)) (٢/ ٥٩٥)

(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦٦٥).

٦- قولُ اللهِ تعالى: ﴿قُلۡ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسۡتَمَعَ نَفَرٞ مِّنَ ٱلۡجِنِّ فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعۡنَا قُرۡءَانًا عَجَبٗا﴾ فيه أنَّ المؤمِنَ مِنَ الجِنِّ يدعو غيرَه مِن قبيلتِه إلى الإيمانِ[1].

٧- قولُ اللهِ تعالى: ﴿قُلۡ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسۡتَمَعَ نَفَرٞ مِّنَ ٱلۡجِنِّ فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعۡنَا قُرۡءَانًا عَجَبٗا﴾ فيه سؤالٌ: الَّذين رُمُوا بالشُّهُبِ هم الشَّياطينُ، والَّذين سَمِعوا القرآنَ هم الجِنُّ، فكيف وَجهُ الجَمعِ؟

الجوابُ مِن وجهَين:

الوجهُ الأولُ: أنَّ الَّذين رُمُوا بالشُّهُبِ كانوا مِنَ الجِنِّ، إلَّا أنَّه قيل لهم: شياطينُ، كما قيل: (شياطينُ الجِنِّ والإنسِ)؛ فإنَّ الشَّيطانَ: كلُّ مُتمَرِّدٍ بعيدٍ عن طاعةِ اللهِ تعالى.

الوجهُ الثَّاني: أنَّ الجِنَّ كانوا مع الشَّياطينِ، فلمَّا رُمِيَ الشَّياطينُ أخَذ الجِنُّ الَّذين كانوا معهم في تجَسُّسِ الخبرِ[2].

٨- قولُ اللهِ تعالى: ﴿قُلۡ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسۡتَمَعَ نَفَرٞ مِّنَ ٱلۡجِنِّ فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعۡنَا قُرۡءَانًا عَجَبٗا * يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلرُّشۡدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦۖ وَلَن نُّشۡرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدٗا﴾ فيه بيانُ ذكاءِ الجِنِّ، ومعرفتِهم بالحَقِّ، وأنَّ الَّذي ساقَهم إلى الإيمانِ هو ما تحَقَّقوه مِن هدايةِ القرآنِ؛ وحُسنِ أدَبِهم في خِطابِهم[3].

٩- إذا تُلِيَ القرآنُ على إنسانٍ فقد قامتْ عليه الحُجَّةُ، ولهذا فإنَّ الجنَّ ولَّوْا إلى قَومِهم مُنذِرينَ بمُجرَّدِ سماعِهم القُرآنَ، قال تعالى: ﴿قُلۡ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسۡتَمَعَ نَفَرٞ مِّنَ ٱلۡجِنِّ فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعۡنَا قُرۡءَانًا عَجَبٗا * يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلرُّشۡدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ﴾، وقال تعالى:

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦٦٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٦٦٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩١).

﴿قَالُواْ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الأحقاف: ٣٠]. فقراءةُ القرآنِ مُلْزِمةٌ، لكنْ إذا كان الشَّخصُ لا يَفهمُ لغةَ القرآنِ فلا تكونُ مُلْزِمةً؛ لقَولِه عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ [إبراهيم: ٤]، ولا يَحصُلُ البيانُ وهو لا يَدري لُغةَ القُرآنِ[١]!

١٠- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا﴾، أي: ولن نَعودَ إلى ما كنَّا عليه مِنَ الإشراكِ به، وهذا يدُلُّ على أنَّ أولئك الجِنَّ كانوا مِن المُشرِكينَ[٢].

١١- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا﴾ حُجَّةٌ على تسميةِ المخلوقينَ بأسماءِ الخالقِ عزَّ وجلَّ؛ إذِ «الأحَدُ» اسمٌ مِن أسماءِ اللهِ تبارك وتعالى[٣].

١٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا﴾ دليلٌ على أنَّ العربَ تُسمِّي بالاسمِ الواحدِ المعانيَ الكثيرةَ؛ إذِ «الجَدُّ» في هذا الموضعِ: العَظَمةُ والجلالُ، وفي غيرِه: «البختُ»، و«أبو الأبِ»، وفيه أيضًا رَدٌّ على المعتزلةِ -فيما يَزعُمونَ-: أنَّ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٢٩٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦٦٦).

(٣) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٤٢٨).

لكنْ في ذلك تفصيلٌ؛ فقد جاء في فتاوى اللَّجنة الدَّائمة: (ما كان من أسماءِ الله تعالى عَلَم شَخصٍ، كلَفظ «الله»: امتنع تسميةُ غيرِ الله به؛ لأنَّ مُسمَّاه مُعيَّنٌ لا يَقبَلُ الشَّركةَ، وكذا ما كان من أسمائِه في معناه في عدَمِ قَبولِ الشَّركة، كالخالقِ والبارئ؛ فإنَّ الخالِقَ: مَن يُوجِدُ الشَّيءَ على غيرِ مثالٍ سابقٍ، والبارئ: مَن يوجِدُ الشَّيءَ بريئًا مِن العَيبِ، وذلك لا يكونُ إلَّا مِن الله وحْدَه؛ فلا يُسمَّى به إلَّا اللهُ تعالى. أمَّا مَا كان له معنًى كُلِّيٌّ تَتفاوَتُ فيه أفرادُه من الأسماءِ والصِّفاتِ، كالمَلِك، والعزيز، والجبَّار، والمتكبِّر؛ فيجوزُ تسميةُ غيره بها؛ فقد سمَّى الله نفْسَه بهذه الأسماءِ، وسمَّى بعضَ عبادِه بها). ((فتاوى اللجنة الدائمة- المجموعة الثانية)) (٢/ ٣٦٨).

الشَّيءَ إذا سُمِّيَ باسمٍ، ثمَّ سُميَّ به غيرُه لزِم أنْ يُشبِهَه بجميعِ جِهاتِه[١]!

١٣- قال تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا﴾، فعَلِموا مِن جَدِّ اللهِ وعَظَمتِه ما دَلَّهم على بُطلانِ قولِ مَن يَزعُمُ أنَّ له صاحبةً أو ولَدًا؛ لأنَّ له العَظَمةَ والكَمالَ في كلِّ صِفةِ كَمالٍ، واتِّخاذُ الصَّاحبةِ والولَدِ يُنافي ذلك؛ لأنَّه يُضادُّ كَمالَ الغِنى[٢]، ولأنَّ الصَّاحبةَ إنَّما تكونُ للضَّعيفِ العاجزِ الَّذي تَضْطَرُّه الشَّهوةُ الباعثةُ إلى اتِّخاذِها له، وأنَّ الولَدَ إنَّما يكونُ عن شَهوةٍ أزعَجَتْه إلى الوِقاعِ الَّذي يَحدُثُ منه الولَدُ، فقال النَّفَرُ مِن الجِنِّ: عَلا مُلْكُ ربِّنا وسُلطانُه وقُدرتُه وعَظَمتُه أنْ يكونَ ضَعيفًا ضَعْفَ خَلْقِه الَّذين تَضطَرُّهم الشَّهوةُ إلى اتِّخاذِ صاحبةٍ، أو وِقاعِ شَيءٍ يكونُ منه ولَدٌ[٣].

١٤- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ فيه دليلٌ على المنعِ مِن أكثَرِ الرُّقى والعزائِمِ[٤].

١٥- الاستِعاذةُ بالأمواتِ أو الأحياءِ غيرِ الحاضِرينَ القادِرينَ على العَوذِ: شِركٌ، ومنه قَولُه تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾[٥].

١٦- في قَولِه تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ أنَّ الاستِعاذةَ بالجِنِّ حرامٌ؛ لأنَّها لا تفيدُ المُستعيذَ، بل تَزيدُه رَهَقًا -أي: خَوفًا وضَعفًا-، فعُوقِبَ بنَقيضِ قَصْدِه، وهذا على اعتبارِ أنَّ «الواوَ» ضميرُ الجِنِّ، و«الهاءَ»

---

(١) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٣١٧، ٤٢٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣١٦).

(٤) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٧٥).

(٥) يُنظر: ((شرح ثلاثة الأصول)) لابن عثيمين (ص: ٦٤).

ضميرُ الإنسِ[١].

١٧- قال اللهُ تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ الإنسُ سُمُّوا إنسًا لأنَّهم يؤنَسونَ، أي: يُرَونَ. كما قال تعالى حكايةً عن موسى عليه السَّلامُ: ﴿إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا﴾ [طه: ١٠]، أي: رأيتُها، والجِنُّ سُمُّوا جِنًّا لاجتِنانِهم، يجتَنُّونَ عن الأبصارِ، أي: يَستَتِرونَ، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ﴾ [الأنعام: ٧٦]، أي: استولى عليه، فغَطَّاه وستَرَه[٢].

١٨- في قَولِه تعالى: ﴿يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ تسميتُه الجِنَّ رجالًا، إلَّا أنَّه لم يُطْلِقْ عليهم: الرِّجالَ، بل هي تسميَّةٌ مقيَّدةٌ بقَولِه: ﴿مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾، فهم رجالٌ مِن الجِنِّ، ولا يَستَلزِمُ ذلك دُخولَهم في الرِّجالِ عندَ الإطلاقِ، كما تقولُ: «رجالٌ مِن حِجارةٍ» و «رِجالٌ مِن خشَبٍ» ونحوَه؛ وعليه فلا يُشْكِلُ هذا مع قولِه سُبحانَه: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ﴾ [يوسف: ١٠٩] في أنَّه لم يُرْسِلْ جِنِّيًّا، ولا امرأةً، ولا بَدَويًّا[٣].

١٩- في قَولِه تعالى: ﴿بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ أنَّ للجِنِّ رجالًا، ولهم إناثٌ[٤].

٢٠- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا۟ كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ ٱللَّهُ أَحَدًا﴾ يدُلُّ على أنَّ الجِنَّ كما أنَّهم كان فيهم مُشرِكٌ ويَهوديٌّ ونَصرانيٌّ، ففيهم مَن يُنكِرُ البَعثَ[٥]. على قولٍ في تفسيرِ الآيةِ.

(١) يُنظر: ((القول المفيد على كتاب التوحيد)) لابن عثيمين (١/ ٢٥١).
(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٧/ ٤٦٥).
(٣) يُنظر: ((طريق الهجرتين)) لابن القيم (ص: ٤١٦).
(٤) يُنظر: ((القول المفيد على كتاب التوحيد)) لابن عثيمين (١/ ٢٥١).
(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦٦٨).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا﴾

- افتِتاحُ السُّورةِ بالأمرِ بالقولِ يُشيرُ إلى أنَّ ما سيُذكَرُ بعْدَه حدَثٌ غَريبٌ، وخاصَّةً بالنِّسبةِ للمشرِكينَ الَّذين هم مَظِنَّةُ التَّكذيبِ به، كما يَقتضيهِ قولُه: ﴿كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا﴾(١) [الجن: ٧].

- قولُه: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ﴾ الَّذين أُمِرَ الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بأنْ يقولَ لهم: إنَّه أُوحِيَ إليه بخبَرِ الجنِّ؛ هم جميعُ النَّاسِ الَّذين كان النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يُبلِّغُهم القُرآنَ مِن المسلمينَ والمشرِكين، أراد اللهُ إبلاغَهُم هذا الخبَرَ؛ لِما له مِن دَلالةٍ على شرَفِ هذا الدِّينِ، وشرَفِ كِتابِه، وشرَفِ مَن جاء به، وفيه إدخالُ مَسرَّةٍ على المسلِمينَ، وتَعريضٌ بالمُشرِكين؛ إذ كان الجنُّ قدْ أدْرَكوا شرَفَ القُرآنِ وفَهِموا مَقاصِدَه وهمْ لا يَعرِفون لُغتَه، ولا يُدرِكون بَلاغتَه، فأقْبَلوا عليه، والَّذين جاءهُم بلِسانِهم وأدْرَكوا خَصائصَ بَلاغتِه أنْكَروه وأعْرَضوا عنه(٢)!

- وفي الإخبارِ هنا عن استِماعِ الجنِّ للقُرآنِ بأنَّه أُوحِيَ إليه ذلك إيماءٌ إلى أنَّه ما عَلِمَ بذلك إلَّا بإخبارِ اللهِ إيَّاهُ بوُقوعِ هذا الاستماعِ، فالآيةُ تَقْتضي أنَّ الرَّسولَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ لم يَعلَمْ بحُضورِ الجنِّ لاستماعِ القُرآنِ قبْلَ نُزولِ هذه الآيةِ، وأمَّا في قولِه: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ...﴾ [الأحقاف: ٢٩] الآياتِ؛ فتَذكيرٌ بما في هذه الآيةِ، أو هي إشارةٌ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢١٨).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ٢١٩).

إلى قصَّةٍ أُخرى رَواها عبدُ اللهِ بنُ مَسعودٍ[١]، ولا عَلاقةَ لها بهذه الآيةِ[٢].

وذلك على قولٍ.

- وتأْكيدُ الخبَرِ المُوحَى بحرْفِ (أنَّ)؛ للاهتِمامِ به؛ لغَرابتِه[٣].

- وضَميرُ ﴿أَنَّهُ﴾ ضَميرُ الشَّأنِ، وخبَرُه جُملةُ ﴿اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ﴾، وفي ذلك زِيادةُ اهتمامٍ بالخبَرِ المُوحى به[٤].

- قولُه: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا﴾ فيه تأْكيدُ الخبَرِ بـ(إنَّ)؛ لأنَّهم أخْبَروا به فَريقًا منهم يَشُكُّون في وُقوعِه، فأتَوا في كَلامِهم بما يُفيدُ تَحقيقَ ما قالُوه[٥].

- ووَصْفُ القُرآنِ بالعجَبِ وَصْفٌ بالمَصدرِ على سبيلِ المُبالَغةِ، أي: هو عجبٌ في نفسِه؛ لفَصاحةِ كَلامِه، وحُسنِ مَبانيه، ودِقَّةِ مَعانيه، وغَرابةِ أُسلوبِه، وبَلاغةِ مَواعظِه، وكَونِه مُباينًا لسائرِ الكُتبِ[٦].

٢- قولُه تعالَى: ﴿يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا﴾

- قولُه: ﴿يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ﴾، أي: بالقُرآنِ؛ لَمَّا كان الإيمانُ بالقرآنِ يَقْتضي الإيمانَ بمَن جاء به وبمَن أنْزَلَه، قالوا: ﴿وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا﴾؛ فعطْفُ: ﴿وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا﴾ مِن بابِ عطْفِ المُسبَّبِ على السَّببِ، وحرْفُ الجمْعِ

(١) يُنظر ما أخرجه مسلم (٤٥٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢١٩، ٢٢٠).

ويُنظر ما تقدَّم (ص: ٣١٩)، وما تقدَّم في تفسيرِ سورةِ الأحقافِ (٣٣/ ٣٣٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٢٠).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ٢٢١).

(٦) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٢٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٥١)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٩٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٤٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٢١).

يُفوِّضُ التَّرتيبَ إلى ذِهنِ السَّامعِ، وهو أبلَغُ مِن الفاءِ. ويُمكنُ أنْ يُقالَ: إنَّ مَجموعَ قولِهم: ﴿فَـَٔامَنَّا بِهِۦۖ وَلَن نُّشۡرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدٗا﴾ مُسبَّبٌ عن مَجموعِ قولِهم: ﴿إِنَّا سَمِعۡنَا قُرۡءَانًا عَجَبٗا * يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلرُّشۡدِ﴾؛ فكَوْنُه قُرآنًا عجَبًا -أي: مُعجِزًا بَديعًا- يُوجِبُ الإيمانَ به، وكَونُه يَهدي إلى الرُّشدِ مُوجِبٌ قلْعَ الشِّركِ من أصْلِه، والدُّخولَ في دِينِ اللهِ كلِّه[1].

- وقولُ الجنِّ: ﴿وَلَن نُّشۡرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدٗا﴾، أي: يَنْتفي ذلك في المُستقبَلِ، وهذا يَقْتضي أنَّهم كانوا مُشركين، ولذلك أكَّدوا نفْيَ الإشراكِ بحرْفِ (لن)؛ فكما أُكِّدَ خبَرُهم عن القرآنِ والثَّناءِ عليه بحرْفِ (إنَّ)، أُكِّدَ خبَرُهم عن إقلاعِهم عن الإشراكِ بحرْفِ (لنْ)[2].

٣- قولُه تعالَى: ﴿وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةٗ وَلَا وَلَدٗا﴾

- الجَدُّ -بفتْحِ الجيمِ-: العَظَمةُ والجَلالُ، وهذا تَمهيدٌ وتَوطئةٌ لقولِه: ﴿مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةٗ وَلَا وَلَدٗا﴾؛ لأنَّ اتِّخاذَ الصاحبةِ للافتقارِ إليها؛ لأُنْسِها وعَونِها والالتِذاذِ بصُحبتِها، وكلُّ ذلك مِن آثارِ الاحتياجِ، وللهِ تعالَى الغِنَى المُطلَقُ، وتعالَى جَدُّه بغِناهُ المطلَقِ، والولدُ يُرغَبُ فيه للاستِعانةِ والأُنسِ به، مع ما يَقتضيه مِن انفصالِه مِن أجزاءِ والِدَيْه؛ وكلُّ ذلك مِن الافتِقارِ والانتقاصِ[3].

- وتأْكيدُ الخبَرِ بحرْفِ (أنَّ)؛ لأنَّه مَسوقٌ إلى فَريقٍ يَعتقِدون خِلافَ ذلك مِن الجنِّ[4].

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٢٣)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٦/ ٤٨، ٤٩)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٩٣، ٢٩٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٢١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ٢٢٢).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ٢٢٣).

- وضَميرُ الجَماعةِ في قولِه: ﴿رَبِّنَا﴾ عائدٌ إلى كلِّ مُتكلِّمٍ مع تَشريكِ غيرِه؛ فعلَى تَقديرِ أنَّه مِن كَلامِ الجِنِّ، فهو قولُ كلِّ واحدٍ منهم عن نفْسِه ومَن معَه مِن بَقيَّةِ النَّفَرِ(١).

- وقولُه: ﴿مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا﴾ بيانٌ لِحُكْمِ تعالِي جَدِّه سُبحانَه(٢).

- والاقتِصارُ في بَيانِ تَعالِي جَدِّ اللهِ على انتفاءِ الصَّاحبةِ عنه والولَدِ يُنبِئُ بأنَّه كان شائعًا في عِلمِ الجنِّ ما كان يَعتقِدُه المشرِكون أنَّ الملائكةَ بَناتُ اللهِ مِن سَرَواتِ -أي ساداتِ وأشرافِ وخَواصِّ- الجنِّ، وما اعتقادُ المشركينَ إلَّا ناشئٌ عن تَلقينِ الشَّيطانِ، وهو مِن الجنِّ، ولأنَّ ذلك ممَّا سَمِعوه مِن القرآنِ، مِثل قولِه: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ﴾(٣) [الأنعام: ١٠١].

- وإعادةُ (لا) النَّافيةِ مع المَعطوفِ للتَّأكيدِ؛ للدَّلالةِ على أنَّ المعطوفَ مَنفيٌّ باستِقلالِه؛ لدَفْعِ توهُّمِ نفْيِ المجموعِ(٤).

٤- قولُه تعالَى: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى ٱللَّهِ شَطَطًا﴾

- تأْكيدُ الخبَرِ بحرْفِ (أنَّ)؛ لأنَّه مَسوقٌ إلى فَريقٍ يَعتقِدون خِلافَ ذلك مِن الجنِّ(٥).

- قولُه: ﴿شَطَطًا﴾ نعْتٌ لمَصدرٍ مَحذوفٍ، أي: قولًا شَطَطًا، وهو البُعدُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٢٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٢٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٥١)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٤٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٢٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٢٣).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

ومُجاوَزةُ الحدِّ، أوْ هُو شطَطٌ في نفْسِه؛ لفَرْطِ بُعدِه عن الحقِّ[١].

٥- قولُه تعالَى: ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن تَقُولَ ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗا﴾ اعتِذارٌ عمَّا اقتَضاهُ قولُهم: ﴿فَـَٔامَنَّا بِهِۦۖ وَلَن نُّشۡرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدٗا﴾ [الجن: ٢] مِن كَونِهم كانوا مُشرِكين لجَهْلِهم، وأخْذِهم قولَ سُفهائِهم يَحسَبونَهم لا يَكذِبون على اللهِ تعالَى[٢].

- والتَّأكيدُ بحرْفِ (أنَّ)؛ لقصْدِ تَحقيقِ عُذرِهم فيما سلَفَ مِن الإشراكِ[٣].

- وتأْكيدُ المَظنونِ بحرْفِ (لنْ) يُفيدُ أنَّهم كانوا مُتوغِّلينَ في حُسنِ ظَنِّهم بمَن ضَلَّلوهم، ويدُلُّ على أنَّ الظَّنَّ هنا بمعْنى اليقينِ، وهو يَقينٌ مُخطِئٌ[٤].

- قولُه: ﴿كَذِبٗا﴾ مَصدرٌ مُؤكِّدٌ لـ﴿تَقُولَ﴾؛ لأنَّه نوعٌ مِن القولِ، أو وصْفٌ لمَصدرِه المحذوفِ، أيْ: قولًا كذِبًا، أيْ: مَكذوبًا فيه[٥].

٦- قولُه تعالَى: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٞ مِّنَ ٱلۡإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٖ مِّنَ ٱلۡجِنِّ فَزَادُوهُمۡ رَهَقٗا﴾ التَّأكيدُ بـ(أنَّ) راجِعٌ إلى ما تَفرَّعَ على خبَرِها مِن قَولِهم: ﴿فَزَادُوهُمۡ رَهَقٗا﴾[٦].

٧- قولُه تعالَى: ﴿وَأَنَّهُمۡ ظَنُّواْ كَمَا ظَنَنتُمۡ أَن لَّن يَبۡعَثَ ٱللَّهُ أَحَدٗا﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٥١)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٦/ ٥٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٤٣)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٢٣٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٥١)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٤٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٢٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٢٤).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٢٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٥١)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٩٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٤٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٢٤)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٢٣٧).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٢٥).

- التَّأكيدُ بحرْفِ (أنَّ) للاهتِمامِ بالخبَرِ؛ لغَرابتِه(١).

- وجُملةُ ﴿كَمَا ظَنَنتُمْ﴾ مُعترِضةٌ بيْنَ ﴿ظَنُّوا۟﴾ ومَعمولِه، فيَجوزُ أنْ تكونَ مِن القولِ المَحكيِّ، يقولُ الجنُّ بَعضُهم لبعضٍ؛ يُشبِّهونَ كُفَّارَهم بكفَّارِ الإنسِ، وقيل غيرُ ذلك(٢).

- و﴿كَمَا﴾ نعْتٌ لمَصدرٍ مَحذوفٍ، أي: ظنُّوا ظنًّا مِثلَ ظَنِّكم(٣).

- قولُه: ﴿لَّن يَبْعَثَ ٱللَّهُ أَحَدًا﴾ فيه التَّعبيرُ بحرْفِ (لن)؛ للدَّلالةِ على أنَّهم كانوا غيرَ مُتردِّدينَ في إحالةِ ذلك(٤).

- والإخبارُ عن هذا فيه تَعريضٌ بالمشركينَ بأنَّ فَسادَ اعتقادِهم تَجاوَزَ عالَمَ الإنسِ إلى عالَمِ الجنِّ(٥).



(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٢٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٢٣٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٢٦).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الآيات (٨-١٠)

﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴿٨﴾ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ ۖ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ﴿٩﴾ وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴿١٠﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿وَشُهُبًا﴾: أي: نارًا ساطِعةً مُحرِقةً يُرجَمُ بها مَن استَرَق السَّمعَ، والشِّهابُ: الشُّعلةُ السَّاطِعةُ مِن النَّارِ المُوقَدةِ، وأصلُ (شهب): يدُلُّ على بياضٍ في شَيءٍ مِن سَوادٍ[1].

﴿رَّصَدًا﴾: أي: أُرْصِدَ وأُعِدَّ له؛ لِيُرْمَى به، وهو فَعَلٌ بمعنى مَفعولٍ، وأصلُ (رصد): يدُلُّ على تهيُّؤٍ لِرقبةِ شَيءٍ[2].

المعنى الإجماليُّ:

يحكي الله سبحانَه عن هؤلاء الجنِّ ما قالوه عندَ اقترابِهم مِن السَّماءِ؛ طلَبًا لمعرفةِ أخبارِها، وذلك قبْلَ أنْ يؤمِنوا، وأنَّهم قالوا: وأنَّا أتَيْنا السَّماءَ لِنَستَمِعَ فيها بعضًا مِن أخبارِ الغَيبِ، كما كنَّا نَصنَعُ، فوجَدْناها مملوءةً بحُرَّاسٍ أشِدَّاءَ مِن الملائكةِ، وشُهُبٍ مُحرِقةٍ لِمَن يُريدُ استِراقَ السَّمعِ، وأنَّا كُنَّا فيما مضَى نَقعُدُ في مَواضِعَ مِنَ السَّماءِ؛ مِن أجْلِ استِماعِ بَعضِ ما تتحَدَّثُ به الملائِكةُ ممَّا هو كائِنٌ، فمَنْ أراد مِن الشَّياطينِ الاستِماعَ الآنَ لأخبارِ السَّماءِ، فإنَّه يُرمَى بشِهابٍ

(١) يُنظَر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٢٠)، ((البسيط)) للواحدي (٢٢/ ٢٩٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٦٥).

(٢) يُنظَر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٥٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٠٠)، ((البسيط)) للواحدي (٢٢/ ٢٩٧)، ((تفسير البغوي)) (٨/ ٢٣٩).

مِن نارٍ أُرصِدَ وأُعِدَّ له، وأنَّا لا نَدري الغايةَ مِمَّا يَحدُثُ في السَّماءِ: أهو عَذابٌ أُرِيدَ بأهلِ الأرضِ، أمْ أراد بهم رَبُّهم هُدًى وخَيرًا؟

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴿٨﴾﴾.

أي: وأنَّا أتَيْنا السَّماءَ لِنَستَمِعَ فيها بعضًا مِن أخبارِ الغَيبِ كما جَرَت عادتُنا، فوجَدْناها مملوءةً بحُرَّاسٍ أشِدَّاءَ مِن الملائكةِ يَحفَظونَها مِن الشَّياطينِ، ومملوءةً بشُهُبٍ تَرجُمُهم وتُحرِقُهم إن أرادوا استِراقَ السَّمعِ(١).

﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ ۖ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ﴿٩﴾﴾.

﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ﴾.

أي: وأنَّا كُنَّا فيما مضَى نَقعُدُ في مواضِعَ مِنَ السَّماءِ؛ مِن أجْلِ استِماعِ بَعضِ ما تتحَدَّثُ به الملائِكةُ ممَّا هو كائِنٌ(٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٢٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٦٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١١)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٤٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٢٧).

قال ابن عاشور: (الشُّهُبُ: جمعُ شِهابٍ، وهو القِطعةُ الَّتي تنفَصِلُ عن بعضِ النُّجومِ، فتَسقُطُ في الجوِّ أو في الأرضِ أو البَحرِ، وتكونُ مُضاءةً عندَ انفصالِها، ثمَّ يزولُ ضَوؤُها ببُعدِها عن مُقابلةِ شُعاعِ الشَّمسِ، ويُسَمَّى الواحِدُ منها عندَ علماءِ الهيئةِ نَيْزَكًا، باسمِ الرُّمحِ القصيرِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٢٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٢٧)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٥٠٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٤٧٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٦٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٢٧).

قال البِقاعي: (قد جاء في الخبَرِ أنَّ صِفةَ قُعودِهم هي أن يكونَ الواحِدُ منهم فوقَ الآخَرِ حتَّى يَصِلوا إلى السَّماءِ، قال أبو حيَّانَ: فمتى احترقَ الأعلى كان الَّذي تحتَه مكانَه، فكانوا =

﴿فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا﴾.

أي: فمَنْ أراد مِن الشَّياطينِ الاستماعَ الآنَ لأخبارِ السَّماءِ، فإنَّه يُرمَى بشِهابٍ مِن نارٍ مُرَصَدٍ له؛ لِمَنعِه مِنَ الاستماعِ، أو إحراقِه[1].

كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّـٰهَا لِلنَّـٰظِرِينَ * وَحَفِظْنَـٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَـٰنٍ رَّجِيمٍ * إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ﴾[الحجر: ١٦ - ١٨].

وقال سُبحانَه: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ * وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَـٰنٍ مَّارِدٍ * لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ * دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ * إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾ [الصافات: ٦ - ١٠].

وعن أبي هُرَيرةَ رَضيَ اللهُ عنه، قال: إنَّ نبيَّ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((إذا قضَى اللهُ الأمرَ في السَّماءِ ضَرَبت الملائكةُ بأجنحَتِها خُضْعانًا لِقَولِه، كأنَّه سِلسلةٌ على صَفوانٍ[2]، فإذا فُزِّعَ[3] عن قُلوبِهم قالوا: ماذا قال ربُّكم؟ قالوا للَّذي قال: الحَقَّ، وهو العَليُّ الكبيرُ، فيَسمَعُها مُستَرِقُ السَّمعِ، ومُستَرِقُ السَّمعِ هكذا بعضُه فوقَ بَعضٍ -ووصَفَ سُفْيانُ بكَفِّه فحرَفَها وبَدَّد بيْنَ أصابِعِه- فيسمَعُ الكَلِمةَ فيُلْقيها إلى مَن تحتَه، ثمَّ يُلقيها الآخَرُ إلى مَن تحتَه، حتَّى يُلقيَها على لسانِ الساحِرِ أو الكاهِنِ، فرُبَّما أدرَك الشِّهابُ قبْلَ أن يُلقيَها، ورُبَّما ألْقاها قبْلَ

= يَستَرِقونَ الكَلِمةَ فيُلْقونَها إلى الكُهَّانِ، فيَزيدونَ معها الكَذِبَ). ((نظم الدرر)) (٢٠/ ٤٧٧).
ويُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٩٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٢٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٤٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٤٧٧، ٤٧٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٠).
قال ابنُ كثير: (لا يتخَطَّاه ولا يتعَدَّاه، بل يَمحَقُه ويُهلِكُه). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٤٠).

(٢) صَفوانٌ: هو الحَجَرُ الأملَسُ. يُنظر: ((إرشاد الساري)) للقسطلاني (٧/ ١٩٢).

(٣) فُزِّعَ أي: أُزيلَ الخَوفُ. يُنظر: ((إرشاد الساري)) للقسطلاني (٧/ ١٩٢).

أن يُدرِكَه، فيَكذِبُ معها مِئة كَذْبةٍ، فيُقالُ: أليس قد قال لنا يومَ كذا وكذا: كذا وكذا؟! فيُصَدَّقُ بتلك الكَلِمةِ التي سَمِعَ مِنَ السَّماءِ))(١).

وعن عائشةَ رَضيَ اللهُ عنها، قالت: ((سَأل أُناسٌ رَسولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم عن الكُهَّانِ، فقال لهم رَسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ليسُوا بشَيءٍ، قالوا: يا رَسولَ اللهِ، فإنَّهم يحَدِّثونَ أحيانًا بالشَّيءِ يكونُ حَقًّا! فقال رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: تلك الكَلِمةُ مِنَ الحَقِّ يَخطَفُها الجِنِّيُّ، فيَقُرُّها في أُذُنِ وليِّه قَرَّ الدَّجاجةِ(٢)، فيَخلِطون فيها أكثَرَ مِن مِئةِ كَذْبةٍ))(٣).

وعن عائشةَ رَضيَ الله عنها، أنَّها سَمِعَت رسولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقولُ: ((إنَّ الملائِكةَ تَنزِلُ في العَنانِ -وهو السَّحابُ-، فتذكُرُ الأمرَ قُضِيَ في السَّماءِ، فتَستَرِقُ الشَّياطينُ السَّمعَ فتَسمَعُه، فتُوحيه إلى الكُهَّانِ، فيَكذِبون معها مِئةَ كَذبةٍ مِن عندِ أنفُسِهم))(٤).

﴿وَأَنَّا لَا نَدۡرِيٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ أَمۡ أَرَادَ بِهِمۡ رَبُّهُمۡ رَشَدٗا ١٠﴾.

أي: وأنَّا لا نَدري الغايةَ مِن وَراءِ حِراسةِ السَّماءِ بالملائِكةِ والشُّهُبِ: أهي إنزالُ عذابٍ بأهلِ الأرضِ، أمْ أرادَ ربُّهم بهم هُدًى وخَيرًا وصَلاحًا(٥)؟

(١) رواه البخاري (٤٨٠٠).

(٢) القَرُّ: ترديدُك الكلامَ في أذُنِ المخاطَبِ حتى يفهَمَه، وقَرُّ الدجاجةِ: صَوتُها إذا قطَّعَتْه. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٤/ ٣٩).

(٣) رواه البخاري (٦٢١٣) واللفظ له، ومسلم (٢٢٢٨).

(٤) رواه البخاري (٣٢١٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٢٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٦٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٤٧٨، ٤٧٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩١).

وقال ابنُ عاشور: (فحاصلُ المعْنى: إنَّا الآنَ لا نَدْري ماذا أُريدَ بأهلِ الأرضِ مِن شَرٍّ أو خيرٍ بعْدَ أنْ كنَّا نَتجسَّسُ الخبَرَ في السَّماءِ... وهي مِن قَبيلِ قولِه تعالى: ﴿وَمَآ أَدۡرِي مَا يُفۡعَلُ بِي وَلَا بِكُمۡ﴾ =

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِيٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ أَدَبٌ عالٍ للجنِّ؛ حيثُ قالوا في الشَّرِّ: ﴿أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلْأَرْضِ﴾ ولم يُضيفوه إلى الله، وفي الرَّشَدِ قالوا: ﴿أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ ولم يقولوا: «أمْ أُريدَ بهم رَشَدٌ»[(١)].

فاختِلافُ صُورةِ الكلامِ في قولِه: ﴿أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ لاختِلافِ الأحوالِ؛ فإنَّ ما قبْلَ (أَمْ) صُورةٌ مِن الكلامِ تُخالِفُ صُورةَ ما بعْدَها؛ لأنَّ الأُولى فيها فِعلُ الإرادةِ مَبنيٌّ للمَجهولِ، والثَّانيةَ فيها فِعلُ الإرادةِ مَبنيٌّ للمعلومِ، والحالُ الدَّاعي لذلك نِسبةُ الخَيرِ إليه سُبحانَه في الثَّانيةِ، ومَنْعُ نِسبةِ الشَّرِّ إليه في الأُولى؛ جَرْيًا على واجِبِ الأدبِ مع اللهِ تعالَى في تَحاشي إسنادِ الشَّرِّ إليه[(٢)]، وهذه طَريقةُ القرآنِ، ومنه قَولُ الخَضِرِ في شَأنِ الجِدارِ واليَتيمَينِ: ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا﴾ [الكهف: ٨٢]، وقال في خرْقِ السَّفينةِ: ﴿فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا﴾ [الكهف: ٧٩]، ثُمَّ قال بعْدَ ذلك: ﴿وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِي﴾[(٣)] [الكهف: ٨٢].

= [الأحقاف: ٩]. وليس المرادُ منها -فيما نَرى- أنَّهم يَنْفُون أنْ يَعلَموا ماذا أرادَ اللهُ بهذه الشُّهب؛ فإنَّ ذلك لا يُناسِبُ ما تَقدَّمَ مِن أنَّهم آمَنوا بالقرآنِ؛ إذ قالوا: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا * يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ﴾ [الجن: ١، ٢]، وقولُهم: ﴿فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا﴾ فذلك صَريحٌ في أنَّهم يَدْرون أنَّ اللهَ أراد بمَن في الأرضِ خَيرًا بهذا الدِّينِ، وبصَرْفِ الجِنِّ عن استراقِ السَّمعِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٣١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ٢٧٥). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٤٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري- حاشية ابن المُنَيِّر)) (٤/ ٦٢٥)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٩٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٤٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٣١)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٢٤٤).

(٣) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ٣٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٦٢).

٢- لَمَّا أخْبَروا عن إيمانِهم أنَّه كان عَقِبَ سَماعِهم مِن غيرِ تَوقُّفٍ، ثمَّ ذَكَروا منْعَهم مِن الاستراقِ؛ ذَكَروا أنَّه اشتَبَهَ عليهم المنْعُ، فلمْ يَعلَموا سِرَّه، فقالوا: ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِيٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ دَلالةً على أنَّ جَهْلَ بَعضِ المسائلِ الفرعيَّةِ لا يَقدَحُ، ونَدْبًا إلى رفْعِ الهِمَّةِ عن الخَوضِ في شَيءٍ بغيرِ عِلمٍ، وحثًّا على التَّفويضِ إلى علَّامِ الغُيوبِ(١).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا﴾ يؤخَذُ منه أنَّ الشُّهُبَ تكاثرَت في مدَّةِ الرِّسالةِ المُحَمَّديَّةِ؛ حِفظًا للقُرآنِ من دسائِسِ الشَّياطينِ، كما دَلَّ عليه قَولُه عَقِبَه: ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ ۖ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا﴾(٢) [الجن: ٩].

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا﴾ فيه سؤالٌ: هذه الشُّهُبُ كانت موجودةً قبْلَ المَبعَثِ، فما معنى تخصيصِها بمُحَمَّدٍ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ؟

الجوابُ مبنيٌّ على مقامينِ:

المقامُ الأوَّلُ: أنَّ هذه الشُّهُبَ ما كانت موجودةً قبْلَ المبعَثِ، وهذا قولُ ابنِ عبَّاسٍ وأُبَيِّ بنِ كَعبٍ رضيَ اللهُ عنهم.

المقامُ الثَّاني: أنَّ هذه الشُّهُبَ كانت موجودةً قبلَ المبعَثِ، إلَّا أنَّها زِيدَت بعدَ المبعَثِ، وجُعِلَت أكمَلَ وأقوى، وهذا هو الَّذي يدُلُّ عليه لفظُ القُرآنِ؛ لأنَّه قال: ﴿فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ﴾، وهذا يدُلُّ على أنَّ الحادِثَ هو المَلءُ والكثرةُ، وكذلك قَولُه: ﴿نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ﴾، أي: كُنَّا نجِدُ فيها بعضَ المقاعِدِ خاليةً مِن الحَرَسِ

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٤٧٨، ٤٧٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٢٧).

والشُّهُبِ، والآنَ مُلِئَت المقاعِدُ كُلُّها؛ فعلى هذا: الَّذي حَمَل الجِنَّ على الضَّربِ في البلادِ، وطَلَبِ السَّبَبِ: إنَّما هو كثرةُ الرَّجمِ، ومَنْعُ الاستراقِ بالكُلِّيَّةِ[١].

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْآنَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا﴾ لو قال قائِلٌ: كيف تتعَرَّضُ الجِنُّ لإحراقِ نَفْسِها بسَبَبِ استماعِ خبَرٍ بعدَ أن صار ذلك معلومًا لهم؟

فالجوابُ: أنَّ الْجِنَّ لَا تنكَفُّ عن ذلك؛ لأنَّهم مُنساقونَ إليه بالطَّبعِ -معَ ما ينالُهم مِن أذَى الرَّجمِ والاحتراقِ-، شأنَ انسياقِ المخلوقاتِ إلى ما خُلِقَتْ له، مثلَ تهافُتِ الفَراشِ على النَّارِ، لاحتمالِ ضَعفِ القوَّةِ المُفكِّرةِ في الجنِّ، بحيثُ يغلِبُ عليها الشَّهوةُ، ونحنُ نرَى البشرَ يقتَحِمونَ الأخطارَ والمهالِكَ تبَعًا للهوَى[٢]. وقيل: إنَّ اللهَ تعالى يُنسِيهم ذلك حتَّى تَعظُمَ المحنةُ[٣].

٤- مِن آياتِ النَّبيِّ محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم ودلائلِ نُبوَّتِه الَّتي في القرآنِ ما ذكَره مِن أنَّ السَّماءَ مُلِئت حرَسًا شديدًا وشُهُبًا، بخِلافِ ما كانت العادةُ جاريةً به، قال تعالى: ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ ۖ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْآنَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا﴾، وقال تعالى: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ * وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ * إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ﴾ [الشعراء: ٢١٠ - ٢١٢]، وهذا كان النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يَقرؤُه على النَّاسِ، وهم يقرؤونه؛ ولم يُنكِرْه أحدٌ، ولا ارتابَ به مؤمنٌ، ولا احتجَّ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦٦٩، ٦٧٠). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٨١).

وعن عبدِ الله بنِ عبَّاسٍ رضي الله عنهما، قال: ((أخبَرَني رجلٌ مِن أصحابِ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم مِن الأنصارِ، أنَّهم بينَما هم جلوسٌ ليلةً معَ رسولِ الله صلَّى الله عليه وسلَّم رُمِي بنَجمٍ فاستَنار، فقال لهم رسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّم: ماذا كنتُم تقولونَ في الجاهليَّةِ إذا رُمِي بمثلِ هذا؟...)). أخرجه مسلمٌ (٢٢٢٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٢٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٤)، ونسَبَه للجاحظ. ويُنظر: ((الحيوان)) للجاحظ (٦/ ٤٥٦).

به عليه كافرٌ؛ فدلَّ أنَّ النَّاسَ عَلِموا صِدْقَ ما أَخبرتْ به الجِنُّ مِن أنَّ السَّماءَ مُلِئَتْ حرسًا شديدًا وشُهُبًا؛ وأنَّهم لم يَتَمَكَّنوا حينَئذٍ ممَّا كانوا يَتمَكَّنُون منه قبْلَ ذلك مِن الاستماعِ، ومعلومٌ أنَّ هذا أمْرٌ يَراه النَّاسُ بأبصارِهم؛ فإنَّ امتلاءَ السَّماءِ بالشُّهُبِ أمرٌ يراه النَّاسُ كلُّهم، فلو لَمْ يكُنْ كذلك لَكان النَّاسُ يُكَذِّبون بهذا -مؤمنُهم، وكافرُهم-، فإنَّ الجماعةَ العظيمةَ -الَّذين لم يَتَواطَؤوا- يَمتَنِعُ اتِّفاقُهم على الكذبِ، وعلى التَّصديقِ بما يَعلمون أنَّه كذبٌ، وعلى كِتمانِ ما يَعلَمونه، وعلى تَركِ إنكارِ ما يَعلمون أنَّه كَذِبٌ. وقد سَمِع القرآنَ ألوفٌ مؤلَّفةٌ أَدركوا مَبْعَثَه، وشاهَدوا أحوالَ السَّماءِ؛ ولم يُنكِرْ ذلك أحدٌ، بل تظاهرتِ الأخبارُ بمِثْلِ ما أَخْبَرَ به القرآنُ مِن الرَّمي العظيمِ بالشُّهُبِ الَّذي لم يُعهَدْ مِثلُه(١).

٥- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَأَنَّا لَا نَدۡرِيٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ أَمۡ أَرَادَ بِهِمۡ رَبُّهُمۡ رَشَدٗا﴾ فيه نَصٌّ على أنَّ الجِنَّ لا تَعلَمُ الغيبَ(٢).

٦- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَأَنَّا لَا نَدۡرِيٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ أَمۡ أَرَادَ بِهِمۡ رَبُّهُمۡ رَشَدٗا﴾ قد يَبدو مِن هذه الآيةِ إشكالٌ؛ حيث قالوا أوَّلًا: ﴿إِنَّا سَمِعۡنَا قُرۡءَانًا عَجَبٗا * يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلرُّشۡدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ﴾ [الجن: ١، ٢]، ثمَّ يقولون: ﴿وَأَنَّا لَا نَدۡرِيٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ أَمۡ أَرَادَ بِهِمۡ رَبُّهُمۡ رَشَدٗا﴾، والواقِعُ أنَّهم تساءَلوا لَمَّا لَمَسوا السَّماءَ فمُنِعوا منها لِشدَّةِ حِراستِها، وأقَرُّوا أخيرًا لَمَّا سَمِعوا القرآنَ، وعَلِموا السَّبَبَ في تشديدِ حِراسةِ السَّماءِ؛ لأنَّهم لَمَّا مُنِعوا ما كان يخطُرُ ببالِهم أنَّه مِن أجْلِ الوَحيِ؛ لِقَولِه: ﴿وَأَنَّهُمۡ ظَنُّواْ كَمَا ظَنَنتُمۡ أَن لَّن يَبۡعَثَ ٱللَّهُ أَحَدٗا﴾(٣) [الجن: ٧]. وذلك على قولٍ في معنى البعثِ.

---

(١) يُنظر: ((الجواب الصحيح)) لابن تيمية (٦/ ٥٧).

(٢) يُنظر: ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٨/ ٣١٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

٧- في قَولِه تعالى: ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ حُجَّةٌ على المعتزِلةِ والقَدَريَّةِ؛ لإخبارِ اللهِ جلَّ جلالُه عن الجنِّ بإرادتِه سبحانَه الشَّرَّ بمَن في الأرضِ كإرادتِه بهم الرَّشَدَ؛ ولم يُنكِرْه مِن قَولِهم، ولا نَسَبَهم إلى الكَذِبِ عليه فيه، بل أنزَلَه في جملةِ القرآنِ العَجَبِ على رَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم[1].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا﴾

- التَّأكيدُ في قولِه: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ﴾ بحرْفِ (أنَّ)؛ لغَرابةِ الخبَرِ، باعتبارِ ما يَلِيه مِن قولِه: ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ ...﴾ إلخ[2].

- واللَّمسُ مُعبَّرٌ به عن اختبارِ أمْرٍ؛ لأنَّ إحساسَ اليدِ أقْوى إحساسٍ، فشُبِّهَ به الاختبارُ[3]. أو عُبِّر به عن الطَّلَبِ، أي: طَلَبْنا بُلوغَ السَّماءِ أو خبَرَها[4].

- وقولُه: ﴿شَدِيدًا﴾ صِفةٌ للحرَسِ على اللَّفظِ؛ لأنَّه اسمُ جمْعٍ، ولو لُحِظَ المعْنى لَقال: (شِدادًا) بالجمْعِ[5].

- وأيضًا هذا الكلامُ: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا﴾ تَوطئةٌ وتَمهيدٌ لقولِهم بعْدَه: ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ الْآنَ

---

(١) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٤٢٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٢٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ٢٢٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٢٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٥٢)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٩٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٤٤)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٢٣٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٢٤)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٩٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٤٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٢٧).

﴿يَجِدۡ لَهُۥ شِهَابٗا رَّصَدٗا﴾ إلى آخِرِه؛ إذ المَقصودُ أنْ يُخبِروا مَن لا خبَرَ عندَه من نَوعِهم بأنَّهم قدْ تَبيَّنوا سَببَ شِدَّةِ حِراسةِ السَّماءِ، وكَثرةِ الشُّهبِ، وأمَّا نفْسُ الحِراسةِ وكَثرةِ الشُّهبِ فإنَّ المُخبَرِينَ -بفتحِ الباءِ- يُشاهِدونَه[(١)].

٢- قولُه تعالَى: ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقۡعُدُ مِنۡهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمۡعِۖ فَمَن يَسۡتَمِعِ ٱلۡأٓنَ يَجِدۡ لَهُۥ شِهَابٗا رَّصَدٗا﴾ مِن تَمامِ قولِهم: ﴿وَأَنَّا لَمَسۡنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدۡنَٰهَا مُلِئَتۡ حَرَسٗا شَدِيدٗا وَشُهُبٗا﴾، وإنَّما أُعِيدَ معه كَلِمةُ ﴿وَأَنَّا﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّ الخبَرَ الَّذي تَضمَّنَه هو المقصودُ، وأنَّ ما قبْلَه كالتَّوطئةِ له، فإعادةُ ﴿وَأَنَّا﴾ توكيدٌ لَفظيٌّ[(٢)].

- قولُه: ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقۡعُدُ مِنۡهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمۡعِ﴾ (مِن) في قولِه: ﴿مِنۡهَا﴾ تَبعيضيَّةٌ، أي: مِن ساحاتِها، وهو مُتعلِّقٌ بـ﴿نَقۡعُدُ﴾، وليس المَجرورُ حالًا مِن ﴿مَقَٰعِدَ﴾ مُقدَّمًا على صاحِبِه؛ لأنَّ السِّياقَ في الكَلامِ على حالِهم في السَّماءِ؛ فالعِنايةُ بمُتعلَّقِ فِعلِ القُعودِ أَوْلى[(٣)].

- والمَقاعِدُ: جمْعُ مَقعَدٍ، وهو مَفعَلٌ للمكانِ الَّذي يقَعُ فيه القعودُ، وأُطلِقَ هنا على مَكانِ المُلازَمةِ؛ فإنَّ القُعودَ يُطلَقُ على مُلازَمةِ الحُصولِ[(٤)].

- واللَّامُ في قولِه: ﴿لِلسَّمۡعِ﴾ لامُ العِلَّةِ، أي: لأجْلِ السَّمعِ[(٥)].

- وفي ﴿مَقَٰعِدَ لِلسَّمۡعِ﴾ مَبحَثٌ في مَباحثِ فَصاحةِ الكلماتِ، حيثُ جاءت هذه اللَّفظةُ ﴿مَقَٰعِدَ﴾ في القُرآنِ حَسنةً مَرْضيَّةً، غيرَ مُضافةٍ إلى مَن تَقبُحُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٢٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ٢٢٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

إضافتُها إليه، وهذا بخِلافِ قولِ الرَّضيِّ في رِثاءِ أبي إسحاقَ الصَّابئِ(١):

أعْـزِزْ علَـيَّ بـأنْ أراكَ وقـدْ خـلا عـن جانِبَيْـك مَقاعِـدُ العُـوَّادِ

فإنَّ إيرادَ هذه اللَّفظةِ (أي: مَقاعد) في هذا الموضعِ صَحيحٌ، إلَّا أنَّه يُوافِقُ ما يُكرَهُ ذِكرُه، لا سيَّما وقدْ أضافَه إلى مَن يُحتمَلُ (أي: ما يكْرَه) إضافتُه إليه، وهمُ العُوَّادُ، ولو انفرَدَ لَكان الأمْرُ فيه سهْلًا، ولو قال الشاعرُ بدَلًا مِن (مَقاعِدِ العُوَّادِ): (مَقاعِدُ الزِّيارةِ) لَزالَت تلك الهُجنةُ؛ فإنَّ لِمُصطلحاتِ النَّاسِ في استِعمالِ الكَلِماتِ أثرًا في وَقْعِ الكلِماتِ عندَ الأفهامِ(٢).

- وقولُه: ﴿فَمَن يَسۡتَمِعِ ٱلۡأٓنَ يَجِدۡ لَهُۥ شِهَابٗا رَّصَدٗا﴾ تَفريعٌ على مَحذوفٍ دلَّ عليه فِعلُ ﴿كُنَّا﴾ وترَتُّبُ الشَّرطِ وجَزائِه عليه، وتَقديرُه: كنَّا نَقعُدُ منها -أي: مِن السَّماءِ- مَقاعِدَ للسَّمعِ، فنَستمِعُ أشياءَ، ﴿فَمَن يَسۡتَمِعِ ٱلۡأٓنَ يَجِدۡ لَهُۥ شِهَابٗا رَّصَدٗا﴾(٣).

- قيل: جِيءَ بصِيغةِ الشَّرطِ وجَوابِه؛ لأنَّ الغرَضَ تَحذيرُ إخوانِهم مِن التَّعرُّضِ للاستِماعِ؛ لأنَّ المُستمِعَ يَتعرَّضُ لِأذى الشُّهبِ(٤). أو يكونُ ذلك لِمُجرَّدِ أنَّهم يُخبِرونَ عن الحالِ.

٣- قولُه تعالَى: ﴿وَأَنَّا لَا نَدۡرِيٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ أَمۡ أَرَادَ بِهِمۡ رَبُّهُمۡ رَشَدٗا﴾ نَتيجةٌ ناتِجةٌ عن قولِهم: ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقۡعُدُ مِنۡهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمۡعِ﴾ [الجن: ٩] إلخ؛ لأنَّ ذلك

(١) يُنظر: ((ديوان الرضي)) (ص: ٢٩٥)، وفيه (مقاود) بدلًا من (مقاعد).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٢٨، ٢٢٩).

ويُنظر أيضًا: ((سر الفصاحة)) للخفاجي (ص: ٨٥)، ((المثل السائر)) لابن الأثير (١/ ٢٠٢)؛ فالشَّرطُ السَّادسُ عندَ الخفاجيِّ في الكلمةِ الفصيحةِ: ألَّا تكونَ الكلمةُ قد عُبِّرَ بها عن أمْرٍ آخَرَ يُكرَه ذِكرُه، فإذا أُورِدَت وهي غيرُ مَقصودٍ بها ذلك المعْنى، قَبُحَت.

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٢٩).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

السَّمعَ كان لمَعرفةِ ما يَجْري به الأمرُ مِن اللهِ للملائكةِ، وممَّا يُخبِرُهم به ممَّا يُريدُ إعلامَهم به، فكانوا على عِلمٍ مِن بَعضِ ما يَتلقَّفونه، فلمَّا مُنِعوا السَّمعَ صاروا لا يَعلَمون شيئًا مِن ذلك، فأخْبَروا إخوانَهم بهذا؛ عَساهم أنْ يَعتبروا بأسبابِ هذا التَّغيُّرِ، فيُؤمِنوا بالوحْيِ الَّذي حرَسَه اللهُ مِن أنْ يطَّلِعَ عليه أحدٌ قبْلَ الَّذي يُوحَى به إليه والَّذي يَحمِلُه إليه. وهذا تَمهيدٌ لِما سَيَقولونه مِن قولِه: ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ﴾، ثمَّ قولِهم: ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعۡجِزَ ٱللَّهَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [الجن: ١٢]، ثمَّ قولِهم: ﴿وَأَنَّا لَمَّا سَمِعۡنَا ٱلۡهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦ﴾، إلى قولِه: ﴿فَكَانُواْ لِجَهَنَّمَ حَطَبٗا﴾[1] [الجن: ١٣- ١٥].

- وتَكريرُ (أنَّ) واسْمِها للتَّأكيدِ؛ لِكَونِ هذا الخبَرِ مُعرَّضًا لشَكِّ السَّامِعينَ مِن الجنِّ الَّذين لم يَختبِروا حِراسةَ السَّماءِ[2].

- والرَّشَدُ: إصابةُ المَقصودِ النَّافعِ، وهو وَسيلةٌ للخَيرِ؛ فلهذا الاعتبارِ جُعِلَ مُقابِلًا للشَّرِّ[3].



(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٣٠، ٢٣١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ٢٣١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٣١)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٢٤٤).

الآيات (١١-١٣)

﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا ﴿١١﴾ وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعۡجِزَ ٱللَّهَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَن نُّعۡجِزَهُۥ هَرَبًا ﴿١٢﴾ وَأَنَّا لَمَّا سَمِعۡنَا ٱلۡهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦۖ فَمَن يُؤۡمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخۡسًا وَلَا رَهَقًا ﴿١٣﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿طَرَآئِقَ قِدَدًا﴾: أي: أصنافًا وضُروبًا وفِرَقًا مُختَلِفةً، والطَّرائِقُ جمعُ طَريقةٍ، وهي طَريقةُ الرَّجُلِ ومَذْهَبُه، والقِدَدُ هي الضُّروبُ والأجناسُ المُختَلِفةُ، جمع قِدَّةٍ: وهي القِطعةُ مِن الشَّيءِ، يُقالُ: صَار القَومُ قِدَدًا: إذا تفرَّقَت أحوالُهم وأهواؤُهم، وقيل: القِدَدُ نحوُ الطَّرائِقِ، وهو تأكيدٌ لها هاهنا، يُقالُ لكُلِّ طَريقةٍ: قِدَّةٌ، والطَّريقُ: السَّبيلُ الَّذي يُطْرَقُ بالأرجُلِ، ثمَّ استُعمِلَ في كلِّ مَسلَكٍ يَسلُكُه الإنسانُ في فِعْلٍ، محمودًا كان أو مذمومًا، وأصلُ (قدد): يدُلُّ على قَطعِ الشَّيءِ طُولًا[١].

﴿بَخۡسًا﴾: أي: نَقْصًا مِن عَمَلِه وثَوابِه، وأصلُ (بخس): يدُلُّ على نَقصٍ[٢].

﴿رَهَقًا﴾: أي: ظُلْمًا أو مَكروهًا يَغْشاه، وأصلُ (رهق): يدُلُّ على غِشيانِ الشَّيءِ الشَّيءَ[٣].

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٩٠)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٣٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٢٠)، ((البسيط)) للواحدي (٢٢/ ٣٠٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥١٨، ٦٥٧).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٩٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٢٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٠٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٢٩).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٨٩، ٤٩٠)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٢٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٢٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٥١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٢٠).

المعنى الإجماليُّ:

يحكي اللهُ تعالى ما قالَه هؤلاء الجنُّ يَصِفُونَ به حالَهم وواقعَهم، وأنَّهم قالوا: وأنَّا مِنَّا المُطيعونَ للهِ، ومِنَّا مَنْ هم دُونَهم، كنَّا فِرَقًا ومَذاهِبَ مُتفَرِّقةً، وأنَّا عَلِمْنا يقينًا أنَّنا في سُلطانِ اللهِ وقَبضتِه، ولن نَنجُوَ مِن العذابِ إذا أراده بنا في الأرضِ، وإن هرَبْنا منه لم نَنْجُ، فلَنْ نُعْجِزَه إنْ طَلَبَنا، وأنَّا لَمَّا سَمِعْنا القُرآنَ آمَنَّا به، فمَن يؤمِنْ بربِّه فلا يَخافُ أن يَنقُصَ اللهُ شَيئًا مِن حَسَناتِه، ولا أن يَزيدَ شيئًا في سيِّئاتِه.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَۖ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا﴾.

﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ﴾.

أي: وأنَّا مِنَّا المُطيعونَ للهِ، ومِنَّا مَنْ هم دُونَهم[1].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٢٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٦٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩١).

قال ابنُ جُزَيٍ في قولِه: ﴿وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ﴾: (أراد به الَّذين ليس صلاحُهم كاملًا، أو الَّذين ليس لهم صلاحٌ؛ فإنَّ «دُونَ» قد تكونُ بمعنَى «أقَلّ»، أو بمعنى «غَيْر»). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤١٨).

قيل: المرادُ بمَن هم دونَ ذلك: الكُفَّارُ. وممَّن ذهب إلى هذا القولِ: مقاتِلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ أبي زَمَنِين. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٤٦٣)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٥/ ٤٥).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلَفِ: ابنُ عبَّاسٍ. يُنظر: ((الدر المنثور)) للسيوطي (٨/ ٣٠٤).

وقيل: المرادُ: مَن هم أقلُّ مرتبةً منهم في الصَّلاحِ. وقد مال إليه القرطبيُّ، وذهب إليه ابنُ القيِّم، والشوكانيُّ. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٥)، ((طريق الهجرتين وباب السعادتين)) لابن القيم (ص: ٤١٥، ٤١٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٦٧). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٣٢).

قال ابنُ القيِّم: (تضَمَّنت هذه الآياتُ انقِسامَهم إلى ثلاثِ طَبَقاتٍ: صالحينَ، ودونَ الصَّالِحين، وكُفَّارٍ. وهذه الطَّبَقاتُ بإزاءِ طبَقاتِ بني آدمَ؛ فإنَّها ثلاثةٌ: أبرارٌ، ومُقتَصِدونَ، وكُفَّارٌ. فالصَّالحونَ بإزاءِ الأبرارِ، ومَنْ دونَهم بإزاءِ المقتَصِدينَ، والقاسِطون بإزاءِ الكُفَّارِ). ((طريق الهجرتين =

﴿كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا﴾.

أي: كنَّا مَذاهِبَ مُتعَدِّدةً، وآراءً مُتفَرِّقةً، وأهواءً مختلِفةً(١).

﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعۡجِزَ ٱللَّهَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَن نُّعۡجِزَهُۥ هَرَبٗا ١٢﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا كان شأْنُ الصَّلاحِ أنْ يكونَ مَرْضيًّا عندَ اللهِ تعالَى، وشأْنُ ضِدِّه بعكْسِ ذلك؛ أعْقَبوا لتَعريضِ الإقلاعِ عن ضِدِّ الصَّلاحِ بما يَقْتضي أنَّ اللهَ قدْ أعدَّ لغيرِ الصَّالحينَ عِقابًا، فأيْقَنوا أنَّ عِقابَ اللهِ لا يُفلِتُ منه أحدٌ استَحقَّه(٢).

﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعۡجِزَ ٱللَّهَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَن نُّعۡجِزَهُۥ هَرَبٗا ١٢﴾.

أي: وأنَّا عَلِمْنا يقينًا أنَّنا في سُلطانِ اللهِ وقَبضتِه وتحتَ قُدرتِه، فلا يُمكِنُنا الإفلاتُ منه في الأرضِ والنَّجاةُ مِن السُّوءِ والعذابِ إذا أراده بنا، وإنْ هَرَبْنا منه لم نَنْجُ، فلَنْ نُعجِزَه إنْ طَلَبَنا(٣).

= وباب السعادتين)) (ص: ٤١٥، ٤١٦).

وقال السعدي: (أي: فُسَّاق، وفُجَّار، وكُفَّار). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٢٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٤١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩١).

قال ابن تيمية: (أي: على مَذاهِبَ شتَّى، كما قال العُلماءُ: منهم المسلِمُ، والمشرِكُ، والنَّصرانيُّ، والسُّنِّيُّ، والبِدْعيُّ). ((مجموع الفتاوى)) (١١/ ٣٠٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٣٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٣١)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٢٧)، ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦٧٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٦)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٩٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٤٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٤٨٢)، ((تفسير الكوراني)) (ص: ٢٥١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٣٤). =

﴿وَأَنَّا لَمَّا سَمِعۡنَا ٱلۡهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦۖ فَمَن يُؤۡمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخۡسٗا وَلَا رَهَقٗا ١٣﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه بعدَ أن ذكَّروا قَومَهم بعذابِ اللهِ في الدُّنيا؛ عادوا إلى ترغيبِهم في الإيمانِ

= قال السمعاني: (معنى الظَّنِّ هاهُنا: اليقينُ، أي: أيقَنَّا أن لن نُعجِزَه في الأرضِ). ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٦٨).

وقال الرازي: (و﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ و﴿هَرَبٗا﴾ فيه وجهان:

الأوَّلُ: أنَّهما حالانِ، أي: لن نُعجِزَه كائنينَ في الأرض أيْنَما كُنَّا فيها، ولن نُعجِزَه هارِبينَ منها إلى السَّماءِ.

والثَّاني: لن نُعجِزَه في الأرضِ إن أراد بنا أمرًا، ولن نُعجِزَه هرَبًا إن طَلَبَنا). ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦٧٠).

ممَّن اختار القولَ الأوَّلَ: الزمخشريُّ، والنسفي، وجلال الدين المحلي، والعُلَيمي، والألوسي. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٢٧)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٥٥١)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٧٧١)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ١٨٥)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٩٩).

قال الألوسي: (لن نُعجِزَ اللهَ تعالى كائنينَ ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾، أي: أيْنَما كُنَّا من أقطارِها ﴿وَلَن نُّعۡجِزَهُۥ هَرَبٗا﴾ أي: هارِبينَ منها إلى السَّماءِ، فالأرضُ محمولةٌ على الجملةِ. ولَمَّا كان ﴿وَلَن ...﴾ إلخ في مُقابَلةِ ما قَبْلُ، لَزِمَ أن يكونَ الهرَبُ إلى السَّماءِ، وفيه تَرَقٍّ ومُبالَغةٌ، كأنَّه قيل: لن نُعجِزَه سُبحانَه في الأرضِ ولا في السَّماءِ). ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٩٩).

وممَّن اختار القولَ الثَّانيَ: ابنُ جرير، والثعلبيُّ، الواحدي، والبغوي، والخازن، والقاسمي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٣١)، ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ٥٢)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١١٤١)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ١٦١)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٣٥١)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٣٣٣).

قال ابن عاشور: (ذِكرُ ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ يؤذِنُ بأنَّ المرادَ بالهرَبِ في قَولِه: ﴿وَلَن نُّعۡجِزَهُۥ هَرَبٗا﴾ الهرَبُ مِن الرَّجمِ بالشُّهبِ، أي: لا تَطمَعوا أن تَستَرِقوا السَّمعَ؛ فإنَّ رَجْمَ الشُّهُبِ في السَّماءِ لا يُخطِئُكم...، ويَجوزُ أنْ يكونَ ﴿نُّعۡجِزَهُۥ﴾ الأوَّلُ بمعْنى نُغالِبَ...، أيْ: لا يَغْلِبونَ قُدْرَتَنا، ويكونَ ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ مَقصودًا به تَعميمُ الأمكنةِ...، والمرادُ: أنَّا لا نَغلِبُ اللهَ بالقوَّةِ، ويكونَ «نُعجِز» الثَّاني بمعْنى الإفلاتِ، ولذلك بُيِّنَ بـ﴿هَرَبٗا﴾). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٣٤).

باللهِ وَحْدَه، وتحذيرِهم مِن الكُفرِ بطريقِ المفهومِ[١].

﴿وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦ﴾.

أي: وأنَّا لَمَّا سَمِعْنا القُرآنَ الَّذي يَهدِي إلى الحَقِّ، آمَنَّا به دونَ تردُّدٍ[٢].

﴿فَمَن يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا﴾.

أي: فمَن يؤمِنْ بربِّه فلا يَخافُ أن يَنقُصَ اللهُ شَيئًا مِن حَسَناتِه، ولا أن يَزيدَ شيئًا في سيِّئاتِه[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٣٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٣١)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٤٨٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٣١)، ((طريق الهجرتين)) لابن القيم (ص: ٤٢٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٤٢).

ممَّن ذهب إلى القولِ المذكورِ في قولِه تعالى: ﴿فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا﴾: ابنُ جرير، ومكِّي، والسمعاني، وابن القيم، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٣١)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٢/ ٧٧٧٠)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٦٨)، ((طريق الهجرتين وباب السعادتين)) لابن القيم (ص: ٤٢٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٦٨).

قال ابن كثير: (﴿فَمَن يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا﴾ قال ابنُ عبَّاسٍ، وقَتادةُ، وغيرُهما: فلا يَخافُ أن ينقصَ مِن حسناتِه، أو يُحمَلَ عليه غيرُ سيِّئاتِه، كما قال تعالى: ﴿فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾ [طه: ١١٢]). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٤٢).

وقال الشوكاني: (﴿فَمَن يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا﴾ أي: لا يخافُ نقصًا في عمَلِه وثوابِه، ولا ظُلْمًا ومكروهًا يَغشاه، والبَخْسُ: النُّقصانُ، والرَّهَقُ: العُدوانُ والطُّغيانُ، والمعنى: لا يخافُ أن ينقصَ مِن حسناتِه، ولا أن يُزادَ في سيِّئاتِه). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٦٨).

وقال الواحدي: (﴿وَلَا رَهَقًا﴾ ظُلْمًا، بأن يَذهَبَ عمَلُه كلُّه. قاله الكلبيُّ ومقاتلٌ. وقال عَطاءٌ: ﴿رَهَقًا﴾: عذابًا. قال المُبَرِّدُ: البَخسُ: الظُّلمُ، والرَّهقُ: ما يَغشاه مِن المكروهِ، فيَدخُلُ فيه العذابُ، ونُقصانُ الحسناتِ والثَّوابِ). ((البسيط)) (٢٢/ ٣٠٥). ويُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٤٦٣).

=

كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾ [طه: ١١٢].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّـٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا﴾ يعنُونَ بالصَّالحينَ: أنفُسَهم، وبمَن دونَ الصَّلاحِ: بَقيَّةَ نَوعِهم، فلمَّا قاموا مَقامَ دَعوةِ إخوانِهم إلى اتِّباعِ طَريقِ الخَيرِ، لم يُصارِحوهم بِنِسبتِهم إلى الإفسادِ، بل أبهَموا وقالوا: ﴿مِنَّا ٱلصَّـٰلِحُونَ﴾، ثمَّ تلطَّفوا فقالوا: ﴿وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ﴾ الصَّادِقُ بمراتبَ مُتفاوِتةٍ في الشَّرِّ والفَسادِ؛ لِيَتطَلَّبَ المُخاطَبونَ دلائِلَ التَّمييزِ بيْنَ الفريقَينِ، على أنَّهم ترَكوا لهم احتِمالَ أن يُعنى بالصَّالحينَ الكامِلونَ في الصَّلاحِ، فيَكونَ المعنيُّ بمَن دونَ ذلك: مَن هم دونَ مَرتبةِ الكمالِ في الصَّلاحِ، وهذا مِن بليغِ العباراتِ في الدَّعوةِ والإرشادِ إلى الخيرِ[1].

٢- قال الله تعالى: ﴿فَمَن يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا﴾، وإذا سَلِمَ مِنَ الشَّرِّ حصَلَ له الخيرُ، فالإيمانُ سَبَبٌ داعٍ إلى حصولِ كُلِّ خَيرٍ، وانتِفاءِ كُلِّ شَرٍّ[2].

٣- قال تعالى: ﴿فَمَن يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا﴾؛ لأنَّه لم يَبخَسْ أحدًا حقًّا، ولا ظلَمَ أحدًا، فلا يَخافُ جزاءَهما، وفيه دَلالةٌ على أنَّ مِنْ حقِّ مَنْ آمَنَ باللهِ تعالَى أنْ يَجتنِبَ المَظالِمَ[3].

= وقال السعدي: (﴿فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا﴾، أي: لا نَقْصًا، ولا طُغيانًا، ولا أذًى يَلحَقُه). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٣٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٢٨).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُه تعالى: ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَۖ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا﴾، وقَولُه: ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَۖ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُوْلَٰٓئِكَ تَحَرَّوْاْ رَشَدًا * وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُواْ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾ [الجن: ١٤، ١٥]، وقَولُه: ﴿فَمَن يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا﴾ فيه أنَّ الجِنَّ مكلَّفونَ بطاعةِ اللهِ سُبحانَه وتعالى، مأمورونَ مَنهيُّونَ، مُجازَونَ بأعمالِهم، وأنَّ منهم المسلِمَ والكافِرَ، والصَّالحَ ودونَ ذلك(١).

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعْجِزَ ٱللَّهَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُۥ هَرَبًا﴾ أنَّ اللهَ قادِرٌ على العِبادِ حيثُ كانوا(٢).

٣- قال تعالى حكايةً عن الجنِّ: ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعْجِزَ ٱللَّهَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُۥ هَرَبًا﴾ فذكروا ما يَقْتضي أنَّ اللهَ قدْ أعدَّ لغيرِ الصَّالحينَ عِقابًا، فأيْقَنوا أنَّ عِقابَ اللهِ لا يُفلِتُ منه أحدٌ استحَقَّه، وقَدَّموه على الأمرِ بالإيمانِ الَّذي في قَولِه: ﴿وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ﴾ [الجن: ١٣] الآيةَ؛ لأنَّ دَرءَ المفاسدِ مُقَدَّمٌ على جَلبِ المصالحِ، والتَّخليةَ مُقَدَّمةٌ على التَّحْليةِ، وقدِ استفادوا عِلمَ ذلك ممَّا سَمِعوا مِن القُرآنِ، ولم يَكونوا يَعلَمون ذلك مِن قبْلُ؛ إذ لم يَكونوا مُخاطَبينَ بتَعليمٍ في أُصولِ العقائدِ، فلمَّا ألْهَمَهم اللهُ لاستِماعِ القرآنِ، وعَلِموا أُصولَ العقائدِ؛ حذَّروا إخوانَهم اعتقادَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩١)، ((فتاوى نور على الدرب)) لابن عثيمين (١/ ١٩١).
قال ابنُ تَيميَّةَ: (لا رَيبَ أنَّهم مَأمورونَ بأعمالٍ زائدةٍ على التَّصديقِ، ومَنْهيُّون عن أعمالٍ غيرِ التَّكذيبِ؛ فهم مأمورونَ بالأصولِ والفُروعِ بحَسَبِهم؛ فإنَّهم لَيسوا مُماثِلي الإنسِ في الحدِّ والحقيقةِ، فلا يكونُ ما أُمِروا به ونُهُوا عنه مُساوِيًا لِما على الإنسِ في الحدِّ، لكنَّهم مُشارِكونَ الإنسَ في جِنسِ التَّكليفِ بالأمرِ والنَّهيِ والتَّحليلِ والتَّحريمِ. وهذا ما لم أعلَمْ فيه نِزاعًا بيْن المسلمينَ). ((مجموع الفتاوى)) (٤/ ٢٣٣).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٥/ ٢٠٦).

الشِّركِ ووَصْفَ اللهِ بما لا يَليقُ به؛ لأنَّ الاعتقادَ الباطِلَ لا يُقِرُّه الإدراكُ المستقيمُ بعْدَ تَنبيهِه؛ لبُطلانِه(١).

٤- قولُه تعالى: ﴿فَمَن يُؤْمِنْ بِرَبِّهِۦ﴾، أي: بوُجودِه وانفرادِه بالإلهيَّةِ، كما يُشعِرُ به إحضارُ اسمِه بعُنوانِ الرَّبِّ؛ إذِ الرَّبُّ هو الخالقُ، فما لا يَخلُقُ لا يُعبَدُ(٢).

٥- في قَولِه تعالى: ﴿وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦ ۖ فَمَن يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا﴾ أنَّ مُحْسِني الجِنِّ في الجَنَّةِ، كما أنَّ مُسيئَهم في النَّارِ. ووَجهُ الاحتجاجِ بالآيةِ أنَّ البَخْسَ المَنْفِيَّ هو نُقصانُ الثَّوابِ، والرَّهَقَ: الزِّيادةُ في العُقوبةِ على ما عَمِلَ؛ فلا يُنْقَصُ مِن ثوابِ حَسَناتِه، ولا يُزادُ في سيِّئاتِه، ونظيرُ هذا قولُه تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾ [طه: ١١٢]، أي: لا يَخافُ زيادةَ سيِّئاتِه، ولا نُقصانَ حَسَناتِه(٣).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا﴾

- قولُه: ﴿كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا﴾، أي: كنَّا ذَوي مَذاهِبَ مُفترِقةٍ مُختلِفةٍ، أو كُنَّا في اختلافِ أحوالِنا مِثلَ الطَّرائِقِ المُختلِفةِ، على حذْفِ المُضافِ مِن ﴿طَرَآئِقَ﴾، وإقامةِ المُضافِ إليه (ذَوِي أو مِثْل) مُقامَه، أو كانتْ طَرائِقُنا طَرائِقَ قِدَدٍ، على حذْفِ المُضافِ -الَّذي هو الطَّرائقُ- وإقامةِ الضَّميرِ المُضافِ إليه مُقامَه(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٣٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ٢٣٥).

(٣) يُنظر: ((طريق الهجرتين)) لابن القيم (ص: ٤٢٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٢٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٥٢)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٩٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٤٤)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٢٤٢).

- وقيل: قولُه: ﴿كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا﴾ تَشبيهٌ بَليغٌ؛ شُبِّهَ تَخالُفُ الأحوالِ والعقائدِ بالطَّرائقِ تُفْضي كلُّ واحدةٍ منها إلى مَكانٍ لا تُفْضي إليه الأُخرى[١].

- ووُصِفَت ﴿طَرَآئِقَ﴾ بـ﴿قِدَدًا﴾؛ لدَلالتِها على معْنى التَّقطُّعِ والتَّفرُّقِ[٢]؛ فالقِدَّةُ: القِطعةُ مِن جِلْدٍ ونحْوِه، المَقطوعةُ طُولًا كالسَّيرِ، شُبِّهَت الطَّرائقُ في كَثرتِها بالقِدَدِ المُقتطَعةِ مِن الجِلْدِ يُقطِّعُها صانعُ حِبالِ القِدِّ، كانوا يُقيِّدون بها الأسْرى[٣].

- وأيضًا هذا الخبَرُ مُستعمَلٌ في التَّعريضِ بذَمِّ الاختِلافِ بيْن القَومِ، وأنَّ على القَومِ أنْ يَتَّحِدوا، ويَتطلَّبوا الحقَّ؛ لِيَكونَ اتِّحادُهم على الحقِّ، وليس المقصودُ منه فائدةَ الخبَرِ؛ لأنَّ المُخاطَبينَ يَعلَمون ذلك، والتَّوكيدُ بـ(أنَّ) مُتوجِّهٌ إلى المعْنى التَّعريضيِّ[٤].

٢- قولُه تعالَى: ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعْجِزَ ٱللَّهَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُۥ هَرَبًا﴾ عطْفٌ على المجرورِ في قولِه: ﴿فَـَٔامَنَّا بِهِۦ﴾ [الجن: ٢]، والتَّقديرُ: وآمَنَّا بأنْ لن نُعجِزَ اللهَ في الأرضِ. وذِكرُ فِعلِ ﴿ظَنَنَّآ﴾ تأْكيدٌ لَفظيٌّ لِفعلِ (آمَنَّا) المُقدَّرِ بحرْفِ العَطْفِ؛ لأنَّ الإيمانَ يَقينٌ، وأُطلِقَ الظَّنُّ هنا على اليقينِ، وهو إطلاقٌ كثيرٌ[٥]، وقرينةُ استعمالِ الظَّنِّ هنا في اليَقينِ هي تأْكيدُ المَظنونِ بحرْفِ (لَنْ)[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٣٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٢٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٥٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٤٤، ٤٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٣٣). ويُنظر ما تقدَّم في غريبِ الكلماتِ (ص: ٣٥٠).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ٢٣٤).

- قولُه: ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعْجِزَ ٱللَّهَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُۥ هَرَبًا﴾ الإعجازُ هنا كِنايةٌ عن الإفلاتِ والنَّجاةِ(١).

٣- قولُه تعالَى: ﴿وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦ ۖ فَمَن يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا﴾ عطْفٌ على المَجرورِ في قولِه: ﴿فَـَٔامَنَّا بِهِۦ﴾ [الجن: ٢]، والمقصودُ بالعطْفِ قولُه: ﴿فَمَن يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا﴾، وأمَّا جُملةُ ﴿لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦ﴾ فتوطئةٌ لذلك(٢).

- وأُرِيدَ بالهُدى القُرآنُ؛ إذ هو المَسموعُ لهم، ووَصَفوه بالهُدى للمُبالَغةِ في أنَّه هادٍ(٣).

- وجُملةُ ﴿فَمَن يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا﴾ يَجوزُ أنْ تكونَ مِن القولِ المَحكيِّ عن الجنِّ، ويجوزُ أنْ تكونَ كَلامًا مِن اللهِ مُوجَّهًا للمشركينَ، وهي مُعترِضةٌ بيْنَ الجُملتينِ المُتعاطفَتَينِ(٤).

- وجُملةُ ﴿فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا﴾ جوابٌ لشَرْطِ (مَن)، جُعِلَت بصُورةِ الجُملةِ الاسميَّةِ فقُرِنَت بالفاءِ مع أنَّ ما بعْدَ الفاءِ فِعلٌ، وشأْنُ جَوابِ الشَّرطِ ألَّا يَقترِنَ بالفاءِ إلَّا إذا كان غيرَ صالحٍ لأنْ يكونَ فِعلَ الشَّرطِ، فكان اقترانُه بالفاءِ وهو فِعلٌ مُضارِعٌ مُشيرًا إلى إرادةِ جَعْلِه خبَرَ مُبتدأٍ مَحذوفٍ بحيث تكونُ الجُملةُ اسميَّةً، والاسميَّةُ تَقترِنُ بالفاءِ إذا وَقَعت جَوابَ شَرْطٍ، فكان التَّقديرُ هنا: (فهو لا يَخافُ)؛ ليَكونَ دالًّا على تَحقيقِ سَلامتِه مِن خَوفِ البَخسِ والرَّهَقِ، وليَدُلَّ على اختصاصِه بذلك دونَ غيرِه الَّذي لا يُؤمِنُ برَبِّه، فتَقديرُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٣٤).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ٢٣٤، ٢٣٥).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ٢٣٥).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

المُسنَدِ إليه قبْلَ الخبَرِ الفِعليِّ هنا يَقْتضي التَّخصيصَ والتَّقَوِّيَ. وقد يُقالُ: إنَّ العُدولَ عن تَجريدِ الفعلِ مِن الفاءِ وعن جَزْمِه؛ لدفْعِ إيهامِ أنْ تكونَ (لا) ناهيةً، فهذا العُدولُ صَراحةٌ في إرادةِ الوعْدِ، دونَ احتمالِ إرادةِ النَّهيِ(١).



(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٢٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٥٢)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٦/ ٥٨)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٩٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٤٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٣٥)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٢٤٥).

الآيات (١٤-١٧)

﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُوْلَٰٓئِكَ تَحَرَّوْاْ رَشَدًا ﴿١٤﴾ وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُواْ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾ وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُواْ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴿١٦﴾ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴿١٧﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ٱلْقَٰسِطُونَ﴾: أي: الظَّالِمونَ الَّذين كفَروا، العادِلُونَ عن الحَقِّ إلى الباطِلِ، يُقالُ: قَسَطَ: أي: جارَ. وأقسَطَ: إذا عَدَلَ، والقَسْطُ -بفتحِ القافِ-: الجَورُ، والقُسوطُ: العُدولُ عن الحَقِّ[1].

﴿تَحَرَّوْاْ﴾: أي: تَوخَّوا وقَصَدوا، والتَّحَرِّي: القَصدُ للشَّيءِ، مِن قَولِهم: ذلك أحْرَى، أي: أحَقُّ وأقرَبُ، وأصلُه يدُلُّ على القُربِ والقَصدِ[2].

﴿رَشَدًا﴾: الرَّشَدُ والرُّشْدُ: نقيضُ الضَّلالِ، وهو الاهتِداءُ والدَّيمومةُ عليه، وأصلُ (رشد): يدُلُّ على استِقامةِ الطَّريقِ[3].

﴿حَطَبًا﴾: أي: وَقودًا للنَّارِ، وأصلُ (حطب): يدُلُّ على وَقودٍ[4].

﴿غَدَقًا﴾: أي: كثيرًا غَزيرًا، يُقالُ: غَدِقَت العَينُ تَغدَقُ، فهي غَدِقةٌ: إذا كَثُرَ ماؤُها،

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٨٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٨٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٧).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٩٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٥٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٣٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٧).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٩٨)، ((البسيط)) للواحدي (١٣/ ٥٣٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٥٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٢٠٧).

(٤) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٧٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٤٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٧).

وأصلُ (غدق): يدُلُّ على غُزْرٍ وكَثرةٍ[(١)].

﴿لِنَفْتِنَهُمْ﴾: أي: لِنَختَبِرَهم، والفِتنةُ في الأصلِ: الاختِبارُ، والابتلاءُ، مأخوذةٌ مِن الفَتْنِ: وهو إدخالُ الذَّهبِ النَّارَ؛ لِتَظهَرَ جَودتُه مِن رداءَتِه[(٢)].

﴿يَسْلُكْهُ﴾: أي: يُدْخِلْه، والسُّلوكُ: النَّفاذُ في الطَّريقِ، يُقالُ: سَلَكْتُ الطَّريقَ أسْلُكُه. وسَلَكْتُ الشَّيءَ في الشَّيءِ: أنْفَذْتُه، وأصلُ (نفذ): يدُلُّ على نُفوذِ شيءٍ في شيءٍ[(٣)].

﴿صَعَدًا﴾: أي: شَديدًا شاقًّا، والصَّعَدُ: المشَقَّةُ، تقولُ: تصَعَّدَني الأمرُ: إذا شَقَّ عليك، وهو مَصدَرُ صَعِدَ، يُقالُ: صَعِدَ صَعَدًا وصُعودًا، فوُصِفَ به العَذابُ؛ لأنَّه يتصَعَّدُ المعَذَّبَ، أي: يَعْلوه ويَغلِبُه فلا يُطيقُه، وأصلُ (صعد): يدُلُّ على ارتفاعٍ ومشَقَّةٍ[(٤)].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى حكايةً عن الجنِّ: وأنَّا مِنَّا المُسلِمونَ المُطيعونَ للهِ، ومِنَّا الجائِرونَ

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٩٠)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٣٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٥٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤١٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٨).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٩١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٧٢)، ((البسيط)) للواحدي (٢٢/ ٣١٢)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٦٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٢٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٢١).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٩٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٢١)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٧٠).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٩١)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٣٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٠٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٨٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٩).

عن طريقِ الحَقِّ، فمَنْ أسلَمَ للهِ تعالى بالتَّوحيدِ، وخَضَع له بالطَّاعةِ، فأولئك قصَدُوا الحَقَّ والصَّوابَ، وأمَّا الجائِرونَ عن الإسلامِ فكانوا وَقُودًا لجهنَّمَ.

ثمَّ يبيِّنُ الله تعالى سُنَّةً مِن سُنَنِه في عبادِه، فيقولُ: وأنْ لو استقام الظَّالِمونَ على طريقةِ الحَقِّ، لَأَسْقاهم اللهُ ماءً كثيرًا غزيرًا، وأرغَدَ لهم العَيشَ؛ لِيَختَبِرَهم اللهُ فيما وسَّعَ عليهم مِنَ الرِّزقِ، ومَن يُعرِضْ عن القُرآنِ الكريمِ يُدخِلْه اللهُ عَذابًا شَديدًا شاقًّا.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُوْلَٰٓئِكَ تَحَرَّوْاْ رَشَدًا ١٤﴾.

﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَ﴾.

أي: وأنَّا مِنَّا المُسلِمونَ المُطيعونَ لله، السَّائِرونَ على صِراطِه المستقيمِ، ومِنَّا الجائِرونَ العادِلونَ عن طريقِ الحَقِّ القَويمِ(١).

﴿فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُوْلَٰٓئِكَ تَحَرَّوْاْ رَشَدًا﴾.

أي: فمَنْ أسلَمَ للهِ تعالى بالتَّوحيدِ، وخَضَع له بالطَّاعةِ؛ فأولئك الَّذين توَخَّوا وقصَدُوا الحَقَّ والصَّوابَ، وسَلَكوا طريقَه الموصِلَ إلى الجنَّةِ(٢).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٣٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٤٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٣٦).

قال القرطبي: (قَولُه تعالى: ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَ﴾ أي: وأنَّا بعدَ استماعِ القُرآنِ مُختَلِفونَ؛ فمِنَّا مَن أسلَمَ، ومِنَّا مَن كَفَر). ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٣٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٦٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٨٢)، ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦٧١)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٤٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٤٨٤، ٤٨٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩١).

ممَّن اختار أنَّ هذا مِن كلامِ الجنِّ: مقاتِلُ بنُ سُلَيمانَ، ومكِّي، وابن الجوزي، وأبو حيَّان. =

﴿وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ١٥﴾.

أي: وأمَّا الجائِرونَ عن الإسلامِ، العادِلونَ باللهِ تعالى غَيرَه؛ فكانوا وَقُودًا لجهنَّمَ، تتوقَّدُ بهم؛ جزاءً على أعمالِهم(١).

كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

وقال سُبحانَه: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٨].

﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا ١٦﴾.

أي: وأنْ لو عَدَل الظَّالِمونَ إلى طريقِ الصَّوابِ، واستقاموا على طريقةِ الحَقِّ، لَأَسْقَيْناهم ماءً كثيرًا غَزيرًا عظيمَ النَّفعِ، نُكثِّرُ به الرِّزقَ، ونُزَيِّنُ به الأرضَ، ونُرغِدُ به العَيشَ(٢).

= يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٤٦٤)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٢/ ٧٧٧١)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٣٤٨)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٩٩).

وممَّن اختار أنَّ هذا مِن كلامِ الله تعالى، لا الجِنِّ: ابنُ عطيَّة، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٨٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٣٦).

(١) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٤٦٤)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٣٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩١).

قال القرطبي: (قوله: ﴿فَكَانُوا۟﴾ أي: في عِلمِ اللهِ تعالى). ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٧).

وقال البِقاعي: (﴿فَكَانُوا۟﴾ بجِبِلَّاتِهم). ((نظم الدرر)) (٢٠/ ٤٨٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٣٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٦٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٧-١٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٤٨٦، ٤٨٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٣٧، ٢٣٨). =

كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ [المائدة: ٦٦].

وقال سُبحانَه: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ٩٦].

= وممَّن قال بأنَّ المرادَ: الاستقامةُ على طريقةِ الحَقِّ والهُدى: ابنُ جرير، والواحديُّ، والقرطبي، والبِقاعي، والسعدي، وابن عاشور. يُنظر: المصادر السابقة.

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلَفِ: ابنُ عبَّاسٍ، ومجاهدٌ، وسعيدُ بنُ جُبَيرٍ، وقَتادةُ، والضَّحَّاكُ، وسعيدُ بنُ المُسيِّبِ، وعَطاءٌ، والحسَنُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٣٥)، ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ٥٣).

وقيل: المرادُ: طريقةُ الكُفرِ والضَّلالةِ. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: الفَرَّاءُ، وابنُ قُتَيْبةَ. يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (١/ ٣٣٥)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٩٠).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلَفِ: أبو مِجْلَزٍ، والرَّبيعُ بنُ أنسٍ، وزَيدُ بنُ أسْلَمَ، والكلبيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٣٨)، ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ٥٣).

قال ابنُ كثير: (القَولُ الثَّاني: ﴿وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ﴾ الضَّلالةِ ﴿لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقًا﴾ أي: لَأوسَعْنا عليهم الرِّزقَ؛ استِدراجًا... وله اتِّجاهٌ، ويتأيَّدُ بقَولِه: ﴿لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٤٣).

وقال الرَّسْعَنيُّ: (وقال مُقاتلٌ وجُمهورُ المفسِّرينَ: هذا إخبارٌ عن أهْلِ مكَّةَ. المعنى: وأنْ لو استَقاموا على طَريقةِ الهُدى.

وذهَبَ قومٌ إلى أنَّ المرادَ بها: طَريقةُ الكفرِ. وهو قولُ محمَّدِ بنِ كعْبٍ، والرَّبيعِ، والفَرَّاءِ، وابنِ قُتَيْبةَ.

فعلى الأوَّلِ يكونُ المعنى: لو آمَنوا لَوسَّعْنا عليهم؛ ﴿لِنَفْتِنَهُمْ﴾ لِنَختَبِرَهم فنَنظُرَ كيف شُكْرُهم. وعلى الثَّاني يكونُ المعنى: وأنْ لو استَقاموا على طَريقتِهم في الكفرِ لَوسَّعْنا عليهم؛ لِنُوقِعَهم في الفِتنةِ). ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٣١٤). ويُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٤٦٤).

وهذه الجملةُ مِن قولِ الله تعالى، لا الجِنِّ. وممَّن نصَّ على ذلك: مكِّيٌّ، والقرطبيُّ، والشَّوكانيُّ. يُنظر: ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٢/ ٧٧٧١)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٦٩).

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿فَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطۡغَوۡاْ﴾ [هود: ١١٢].

وقال سُبحانَه: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا * وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢، ٣].

وقال تبارك وتعالى حكايةً عن نوح عليه السَّلامُ: ﴿فَقُلۡتُ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارٗا * يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا * وَيُمۡدِدۡكُم بِأَمۡوَٰلٖ وَبَنِينَ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ جَنَّٰتٖ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ أَنۡهَٰرٗا﴾ [نوح: ١٠ - ١٢].

وعن سُفيانَ بنِ عَبدِ اللهِ الثَّقَفيِّ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((قلتُ: يا رَسولَ اللهِ، قُلْ لي في الإسلامِ قَولًا لا أسألُ عنه أحدًا بَعْدَك. قال: قُلْ: آمَنْتُ باللهِ، فاستَقِمْ))[١].

﴿لِّنَفۡتِنَهُمۡ فِيهِۚ وَمَن يُعۡرِضۡ عَن ذِكۡرِ رَبِّهِۦ يَسۡلُكۡهُ عَذَابٗا صَعَدٗا ١٧﴾.

﴿لِّنَفۡتِنَهُمۡ فِيهِ﴾.

أي: لِنختَبِرَهم فيما وسَّعْنا عليهم مِنَ الرِّزقِ، فيَنكَشِفَ الشَّاكِرُ مِن غَيرِه، ويَظهَرَ مَن يَستَمِرُّ منهم على الهِدايةِ، ومَن يرتَدُّ إلى الغَوايةِ[٢]!

كما قال تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلۡنَا مَا عَلَى ٱلۡأَرۡضِ زِينَةٗ لَّهَا لِنَبۡلُوَهُمۡ أَيُّهُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗا * وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيۡهَا صَعِيدٗا جُرُزًا﴾ [الكهف: ٧، ٨].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَنَبۡلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلۡخَيۡرِ فِتۡنَةٗ﴾ [الأنبياء: ٣٥].

---

(١) رواه مسلم (٣٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٣٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٦٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٤٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩١).

قال ابنُ جُزَي: (﴿لِّنَفۡتِنَهُمۡ فِيهِ﴾ إنْ كانت الطَّريقةُ الإيمانَ والطَّاعةَ، فمعْنى الفِتنةِ: الاختبارُ، هلْ يُسلِمون أمْ لا؟ وإنْ كانت الطَّريقةُ الكفرَ، فمعْنى الفِتنةِ: الإضلالُ والاستدراجُ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤١٩).

وقال تبارك وتعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞ﴾ [التغابن: ١٥].

وعن عَمرِو بنِ عَوفٍ البَدْريِّ رَضِيَ اللهُ عنه: أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((واللهِ ما الفَقرَ أَخشَى عليكم، ولكِنِّي أخشَى أن تُبسَطَ عليكم الدُّنيا كما بُسِطَت على مَن كان قَبْلَكم، فتَنافَسوها كما تَنافَسوها، وتُهلِكَكم كما أهلَكَتْهُم!))[١].

﴿وَمَن يُعۡرِضۡ عَن ذِكۡرِ رَبِّهِۦ يَسۡلُكۡهُ عَذَابٗا صَعَدٗا﴾.

أي: ومَن يُعرِضْ عن القُرآنِ -فلا يتَّبِعُه ولا يعمَلُ به-؛ يُدخِلْه اللهُ عَذابًا شَديدًا شاقًّا لا يُطيقُه[٢].

(١) رواه البخاري (٤٠١٥)، ومسلم (٢٩٦١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٣٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٦٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٩، ٢٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٤٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩١).

ممَّن اختار أنَّ المرادَ بقولِه تعالى: ﴿ذِكۡرِ رَبِّهِۦ﴾: القرآنُ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، ومكِّي، والواحدي، وابن الجوزي، وجلال الدين المحلي، والسعدي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٤٦٤)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٣٨)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٢/ ٧٧٧٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٦٧)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٣٤٨)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٧٧٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩١).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ، وابنُ زَيدٍ. يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٦/ ١١٨)، ((البسيط)) للواحدي (٢٢/ ٣١٢).

ومِن المفسِّرينَ مَن قال: إنَّ المرادَ: توحيدُ ربه، كالسَّمَرْقَنْديِّ. ومنهم مَن قال: الإيمانُ بربِّه، كالسَّمْعانيِّ. ومنهم مَن قال: عبادةُ ربِّه، كالخازِنِ، والعُلَيميِّ. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٥٠٦)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٧٠)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٣٥١)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ١٨٦).

قال الألوسي: (الذِّكرُ مصدرٌ مُضافٌ لمفعولِه تُجُوِّزَ به عن العبادةِ. أو هو بمعنى التَّذكيرِ مُضافٌ لفاعِلِه، ويُفسَّرُ بالموعظةِ. وقال بعضُهم: المرادُ بالذِّكْرِ: الوحيُ). ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ١٠١). ويُنظر: ((حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي)) (٨/ ٢٥٨).

قال الماوَرْدي: (﴿وَمَن يُعۡرِضۡ عَن ذِكۡرِ رَبِّهِۦ﴾ قال ابنُ زَيدٍ: يعني: القرآنَ. وفي إعراضِه عنه =

كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ ۚ إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾ [السجدة: ٢٢].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا﴾ فيه أنَّ مَنْ آمَنَ باللهِ فقد توخَّى سَبَبَ النَّجاةِ، وما يحصُلُ به الثَّوابُ؛ لأنَّ الرَّشَدَ سَبَبُ ذلك(١).

٢- قال اللهُ تعالى: ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا﴾، وهذا كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم﴾ [المائدة: ٦٦]، وقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ٩٦]، فكُلُّها نصوصٌ على أنَّ الأُمَّةَ إذا استقامت على الطَّريقةِ القويمة؛ شِرعةِ اللهِ، فَتَح عليهم بَرَكاتٍ مِنَ السَّماءِ والأرضِ، ومفهومُ ذلك: أنَّ مَن لم يَستَقِمْ على الطَّريقةِ فقد يكونُ انحرافُه أو شِرْكُه مُوجِبًا لحِرمانِه مِن نعمةِ اللهِ -تعالى- عليه(٢).

٣- مَن أحَبَّ تَصفيةَ الأحوالِ، فلْيَجتَهِدْ في تصفيةِ الأعمالِ؛ قال اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا﴾(٣).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا﴾ أنَّ مُؤْمِني الجِنِّ في الجَنَّة؛ فالرَّشَدُ هو الهُدى والفَلاحُ، وهو الَّذي يَهدي إليه القُرآنُ، ومَن لم يَدْخُلِ الجَنَّةَ لم

= وجهانِ؛ أحدُهما: عن القَبولِ، إنْ قيلَ: إنَّها في أهلِ الكُفرِ. الثَّاني: عن العَمَلِ، إنْ قيلَ: إنَّها في المؤمنينَ). ((تفسير الماوردي)) (٦/ ١١٨). ويُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٣٦).

(٢) يُنظر: ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٨/ ٣١٩).

(٣) يُنظر: ((صيد الخاطر)) لابن الجوزي (ص: ٣١).

يَنَلْ غايةَ الرَّشَدِ، بل لم يَحصُلْ له مِن الرَّشَدِ إلَّا مجَرَّدُ العِلمِ[(١)]!

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلْقَـٰسِطُونَ فَكَانُواْ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾ فيه سُؤالٌ: لِمَ ذكَرَ عِقابَ القاسِطينَ، ولم يذكُرْ ثوابَ المُسلِمينَ؟

الجوابُ: بل ذكَرَ ثوابَ المؤمِنينَ، وهو قَولُه تعالى: ﴿تَحَرَّوْاْ رَشَدًا﴾ [الجن: ١٤]، أي: توَخَّوا رشَدًا عَظيمًا لا يَبلُغُ كُنْهَه إلَّا اللهُ تعالى، ومِثلُ هذا لا يتحَقَّقُ إلَّا في الثَّوابِ[(٢)].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلْقَـٰسِطُونَ فَكَانُواْ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾ أنَّ كافِرَ الجِنِّ في النَّارِ ككافِرِ الإنسِ[(٣)].

٤- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلْقَـٰسِطُونَ فَكَانُواْ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾ فيه سؤالٌ: الجِنُّ مخلوقون مِن النَّارِ، فكيف يَكونونَ حَطَبًا للنَّارِ، وكيفَ يُعَذَّبون بها؟

الجوابُ: أنَّهم وإن خُلِقوا مِنَ النَّارِ لكِنَّهم تغَيَّروا عن تلك الهيئةِ، وصاروا خَلْقًا آخَرَ[(٤)]. فالإنسانُ أصلُه الطِّينُ، وليس طينًا حقيقةً، لكنَّه كان طينًا، كذلك الجانُّ كان نارًا في الأصلِ[(٥)]. وأيضًا فإنَّ النَّارَ يكونُ بَعضُها أقوى مِن بَعضٍ، فالأقوى يُؤَثِّرُ على الأضعَفِ، ومعلومٌ أنَّ النَّارَ طَبَقاتٌ بَعضُها أشَدُّ مِن بَعضٍ، وهذا أمرٌ مَلموسٌ؛ فقد تكونُ الآلةُ مَصنوعةً مِن حَديدٍ، وتُسَلَّطُ عليها آلةٌ مِن حديدٍ أيضًا أقوى منها فتَكسِرُها. كما قيل: (لا يَفُلُّ الحديدَ إلَّا الحديدُ)، فلا

---

(١) يُنظر: ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ٣٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦٧١).

(٣) يُنظر: ((شرح العقيدة السفارينية)) لابن عثيمين (١/ ٤٩٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦٧١)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٣٥١).

(٥) يُنظر: ((آكام المرجان في أحكام الجان)) للشبلي (ص: ٣١).

يَمنَعُ كَونُ أصلِه مِن نارٍ ألَّا يتعذَّبَ بالنَّارِ، كما أنَّ أصلَ الإنسانِ مِن طِينٍ مِن حَمَأٍ مَسنونٍ، ومِن صَلصالٍ كالفَخَّارِ، وبَعْدَ خَلْقِه فإنَّه لا يَحتَمِلُ التَّعذيبَ بالصَّلصالِ ولا بالفخَّارِ؛ فقد يُقضَى عليه بضَربةٍ مِن قِطعةٍ مِن فَخَّارٍ[1]. واللهُ تعالى قادرٌ أن يعذِّبَ النَّارَ بالنَّارِ[2].

٥- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلْقَـٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾ لا يُعارِضُ قَولَه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ [المائدة: ٤٢]؛ لأنَّ القاسِطَ هو الجائرُ، والمُقسِطَ هو العادِلُ، فهما ضِدَّانِ[3].

٦- مِن عُقوباتِ المعاصي: أنَّها تَمحَقُ بَرَكةَ العُمُرِ، وبَرَكةَ الرِّزقِ، وبرَكةَ العِلمِ، وبرَكةَ العمَلِ، وبرَكةَ الطَّاعةِ، وبالجُملةِ فإنَّها تَمحَقُ بَركةَ الدِّينِ والدُّنيا، فلا تجِدُ أقَلَّ بَرَكةً في عُمُرِه ودِينِه ودُنياه ممَّن عصى اللهَ، وما مُحِقَت البَركةُ مِنَ الأرضِ إلَّا بمعاصي الخَلْقِ؛ قال اللهُ تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَـٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ٩٦]، وقال تعالى: ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَـٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَـٰهُم مَّآءً غَدَقًا ۝ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾، وإنَّ العبدَ لَيُحرَمُ الرِّزقَ بالذَّنْبِ يُصيبُه[4].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَـٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَـٰهُم مَّآءً غَدَقًا ۝ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ أنَّ الإعطاءَ قد يكونُ فِتنةً[5].

٨- قَولُه تعالى: ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَـٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَـٰهُم مَّآءً غَدَقًا﴾ هذا وَعْدٌ بالجزاءِ

(١) يُنظر: ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٨/ ٢٣١).
(٢) يُنظر: ((تفسير الخازن)) (٤/ ٣٥١).
(٣) يُنظر: ((دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب)) للشنقيطي (ص: ٢٤٦).
(٤) يُنظر: ((الجواب الكافي)) لابن القيم (ص: ٨٤).
(٥) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٠/ ١٥٤).

على الاستِقامةِ في الدِّينِ جَزاءً حَسنًا في الدُّنيا، يكونُ عُنوانًا على رِضا اللهِ تعالَى، وبِشارةً بثَوابِ الآخِرةِ[١].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُوْلَٰٓئِكَ تَحَرَّوْاْ رَشَدًا ۞ وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُواْ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾

- قولُه: ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَ﴾ عطفٌ على المَجرورِ بالباءِ في قولِه: ﴿فَـَٔامَنَّا بِهِۦ﴾ [الجن: ٢]، والمَقصودُ بالعطْفِ قولُه: ﴿فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُوْلَٰٓئِكَ تَحَرَّوْاْ رَشَدًا﴾، وما قبْلَه توطئةٌ له، وهذا تفصيلٌ لقولِهم: ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ﴾ [الجن: ١١]؛ لأنَّ فيه تَصريحًا بأنَّ دونَ ذلك هو ضِدُّ الصَّلاحِ[٢].

- وقدْ جاء هذا التَّقسيمُ وإنْ كان قدْ تقدَّمَ ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ﴾؛ ليُذكَرَ حالُ الفريقينِ مِن النَّجاةِ والهَلَكةِ، ويُرغِّبَ مَن يَدخُلُ في الإسلامِ[٣].

- قولُه: ﴿فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُوْلَٰٓئِكَ تَحَرَّوْاْ رَشَدًا ۞ وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُواْ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾ على القولِ بأنَّ هذا خارجٌ عن الكَلامِ المَحكيِّ عن الجنِّ، وأنَّه كَلامٌ مِن جانبِ اللهِ تعالَى لمَوعظةِ المشرِكينَ مِن النَّاسِ فهو في معْنى التَّذييلِ، وإنَّما قُرِنَ بالفاءِ لتَفريعِه على القِصَّةِ؛ لاستخلاصِ العِبرةِ منها، فالتَّفريعُ تَفريعُ كَلامٍ على كَلامٍ، وليس تَفريعَ معْنى الكلامِ على معْنى الكلامِ الَّذي قبْلَه[٤].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٣٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ٢٣٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٩٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٣٦).

- وتَنوينُ ﴿رَشَدًا﴾؛ للتَّعظيمِ[١].

- وإقحامُ فِعلِ (كانوا)؛ لتَحقيقِ مَصيرِهم إلى النَّارِ، حتَّى كأنَّهم كانوا كذلك مِن زمَنٍ مَضى[٢].

٢- قولُه تعالَى: ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا * لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا﴾

- الضميرُ في قولِه: ﴿ٱسْتَقَٰمُوا۟﴾ يجوزُ أنْ يعودَ إلى القاسِطينَ، ويجوزُ أنْ يكونَ عائِدًا إلى غيرِ مذكورٍ في الكلامِ، ولكِنَّه معروفٌ مِن المقامِ؛ إذِ السُّورةُ مَسوقَةٌ للتَّنبيهِ على عنادِ المُشْركينَ وطَعْنِهم في القرآنِ، فضميرُ ﴿ٱسْتَقَٰمُوا۟﴾ عائدٌ إلى المشْرِكينَ[٣].

- الاستقامةُ على الطَّريقةِ تَمثيلٌ لهَيئةِ المُتَّصِفِ بالسُّلوكِ الصَّالحِ، والاعتقادِ الحقِّ، بهَيئةِ السَّائرِ سَيرًا مُستقيمًا على طَريقةٍ؛ ولذلك فالتَّعريفُ في الطَّريقةِ للجِنسِ لا للعهْدِ[٤].

- قولُه: ﴿لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا﴾، أيْ: لَوسَّعْنا عليهم الرِّزقَ. وتَخصيصُ الماءِ الغَدَقِ -وهو الكثيرُ- بالذِّكرِ؛ لأنَّه أصلُ المَعاشِ والسَّعةِ، ولعِزَّةِ وُجودِه بيْن العرَبِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٥٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٤٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٣٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٣٧).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ٢٣٨).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٢٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٥٣)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٠٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٤٥).

وفي هذا إنذارٌ بأنَّه يُوشِكُ أنْ يُمسَكَ عن أهلِ مكَّةَ المطرُ- وذلك على قولٍ-، فيَقَعوا في القحْطِ والجُوعِ، وهو ما حَدَثَ عليهم بعْدَ هِجرةِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ إلى المدينةِ ودُعائِه عليهم بسِنينَ كسِنِي يُوسُفَ[1]؛ فإنَّه دَعا بذلك في المدينةِ في القُنوتِ، وقدْ كانوا يومَ نُزولِ هذه الآيةِ في بُحبُوحةٍ مِن العيشِ وفي نَخيلٍ وجنَّاتٍ، فكان جعْلُ تَرتُّبِ الإسقاءِ على الاستقامةِ على الطَّريقةِ -كما اقتضاهُ الشَّرطُ بحَرْفِ (لَو)- مُشيرًا إلى أنَّ المرادَ: لَأَدَمْنا عليهم الإسقاءَ بالماءِ الغَدَقِ، وإلى أنَّهم لَيسوا بسالِكِينَ سَبيلَ الاستقامةِ، فيُوشِكُ أنْ يُمسَكَ عنهم الرِّيُّ، ففي هذا إنذارٌ بأنَّهم إنِ استَمَرُّوا على اعوِجاجِ الطَّريقةِ أُمسِكَ عنهم الماءُ، وبذلك يَتناسَبُ التَّعليلُ بالإفتانِ في قولِه: ﴿لِّنَفۡتِنَهُمۡ فِيهِ﴾ مع الجُملةِ السَّابقةِ؛ إذ يكونُ تَعليلًا لِما تَضمَّنَه معْنى إدامةِ الإسقاءِ؛ فإنَّه تَعليلٌ للإسقاءِ الموجودِ حِينَ نُزولِ الآيةِ، ولَيس تَعليلًا للإسقاءِ المفروضِ في جَوابِ (لَو)؛ لأنَّ جَوابَ (لَو) مُنتَفٍ، فلا يَصلُحُ لأنْ يُعلَّلَ به، وإنَّما هم مَفْتونونَ بما هُمْ فيه مِن النِّعمةِ، فأراد اللهُ أنْ يُوقِظَ قُلوبَهم بأنَّ استمرارَ النِّعمةِ عليهم فِتنةٌ لهم، فلا تَغُرَّنَّهم[2].

- وجُملةُ ﴿لِّنَفۡتِنَهُمۡ فِيهِ﴾ إدماجٌ[3]، فهي مُعترِضةٌ بيْنَ جُملةِ ﴿وَأَلَّوِ ٱسۡتَقَٰمُواْ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسۡقَيۡنَٰهُم مَّآءً غَدَقٗا﴾ وبيْنَ جُملةِ ﴿وَمَن يُعۡرِضۡ عَن ذِكۡرِ رَبِّهِۦ يَسۡلُكۡهُ عَذَابٗا صَعَدٗا﴾[4].

- وأُكِّدَت الكنايةُ عن الإنذارِ المأخوذةُ مِن قولِه: ﴿وَأَلَّوِ ٱسۡتَقَٰمُواْ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسۡقَيۡنَٰهُم مَّآءً غَدَقٗا﴾ بصَريحِ الإنذارِ بقولِه: ﴿وَمَن يُعۡرِضۡ عَن ذِكۡرِ رَبِّهِۦ يَسۡلُكۡهُ عَذَابٗا

(١) أخرجه البخاري (١٠٠٦)، ومسلم (٦٧٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٣٨، ٢٣٩).
(٣) تقدَّم تعريفُه (ص: ٤٦).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٣٩).

صَعَدًا﴾، أي: فإنْ أعْرَضوا انقَلَبَ حالُهم إلى العذابِ، فسَلَكْنا بهم مَسالِكَ العَذابِ(١).

- قولُه: ﴿وَمَن يُعۡرِضۡ عَن ذِكۡرِ رَبِّهِۦ يَسۡلُكۡهُ عَذَابٗا صَعَدٗا﴾ فيه العُدولُ عن الإضمارِ إلى الإظهارِ في قولِه: ﴿عَن ذِكۡرِ رَبِّهِۦ﴾ دونَ أنْ يقولَ: (عن ذِكْرِنا)، أو (عن ذِكْري)؛ لاقتضاءِ الحالِ الإيماءَ إلى وَجْهِ بِناءِ الخبَرِ؛ فإنَّ المُعرِضَ عن ربِّه الَّذي خلَقَه وأنشَأَه ودبَّرَه حَقيقٌ بأنْ يُسلَكَ عَذابًا صَعَدًا(٢).

- قولُهص: ﴿وَمَن يُعۡرِضۡ عَن ذِكۡرِ رَبِّهِۦ يَسۡلُكۡهُ عَذَابٗا صَعَدٗا﴾ على قِراءةِ ﴿نَسْلُكْه﴾ بنُونِ العظَمةِ، ففيه الْتفاتٌ(٣).

- قولُه: ﴿يَسۡلُكۡهُ عَذَابٗا صَعَدٗا﴾ الأصلُ: يَسْلُكْه في عَذابٍ، كقولِه: ﴿مَا سَلَكَكُمۡ فِي سَقَرَ﴾ [المدثر: ٤٢]، فعُدِّيَ إلى مَفعولينِ: إمَّا بحذْفِ الجارِّ وإيصالِ الفِعلِ، كقولِه: ﴿وَٱخۡتَارَ مُوسَىٰ قَوۡمَهُۥ﴾ [الأعراف: ١٥٥]، وإمَّا بتَضمينِه معْنى (نُدخِلْه)(٤)، وعلى القولِ بأنَّ ﴿عَذَابٗا﴾ انتَصَبَ على نزْعِ الخافضِ، وهو حرْفُ الظَّرفيَّةِ (في)، فهي ظَرفيَّةٌ تدُلُّ على أنَّ العَذابَ إذا حلَّ به يُحيطُ به إحاطةَ الظَّرفِ بالمَظروفِ(٥).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٣٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ٢٣٩، ٢٤٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ٢٤٠).

قرَأ الكوفيُّونَ (عاصمٌ وحمزةُ والكِسائيُّ وخلَفٌ) ويعقوبُ: ﴿يَسۡلُكۡهُ﴾ بالياءِ، وقرأها الباقونَ بالنُّونِ. يُنظر: ((النشر في القراءات العشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٩٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٢٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٣٩).

- وقولُه: ﴿صَعَدًا﴾، أي: شاقًّا صَعْبًا يَعلُو المُعذَّبَ ويَغلِبُه، على أنَّه مَصدرٌ وُصِفَ به مُبالَغةً[١].

- واستُعمِلَ السَّلكُ هنا في معْنى شِدَّةِ وُقوعِ الفعلِ، والمعْنى: نُعذِّبْه عَذابًا لا مَصرِفَ عنه[٢].



(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٢٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٥٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٤٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٤٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٣٩).

الآيات (١٨-٢٤)

﴿ وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾ وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُواْ يَكُونُونَ
عَلَيْهِ لِبَدًا ﴿١٩﴾ قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُواْ رَبِّي وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٠﴾ قُلْ إِنِّي لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا
﴿٢١﴾ قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٢﴾ إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦۚ
وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴿٢٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْاْ مَا يُوعَدُونَ
فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا ﴿٢٤﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿لِبَدًا﴾: أي: جماعاتٍ بَعضُها فوقَ بَعضٍ، شُبِّهَت بالشَّيءِ المتلَبِّدِ بعضُه فوقَ بَعضٍ، وهو مِن: تلَبَّدَ الشَّيءُ على الشَّيءِ: أي تجَمَّعَ، وأصلُ (لبد): يدُلُّ على تكَرُّسِ الشَّيءِ بَعضِه فوقَ بَعضٍ[1].

﴿يُجِيرَنِي﴾: أي: يَنصُرَني، ويَدفَعَ عنِّي، وأصلُه مِنَ الجِوارِ بمعنى التَّأمينِ[2].

﴿مُلْتَحَدًا﴾: أي: مَلجأً أَميلُ إليه، وأصلُ (لحد): يدُلُّ على مَيلٍ[3].

مُشكِلُ الإعرابِ:

قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا * إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦ ﴾

---

(١) يُنظَر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٢٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٨٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٤٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٤٥)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٨١).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٩٢)، ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢٣٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٤٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٣٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢١٣).

قَولُه: ﴿إِلَّا بَلَٰغًا﴾: فيه أوجهٌ؛ أحدُها: أنَّه استِثناءٌ مُنقَطِعٌ، أي: لكِنْ إنْ بَلَّغْتُ عن اللهِ رَحِمني. الثَّاني: أنَّه مُتَّصِلٌ، وتأويلُه: أنَّ الإجارةَ مُستعارةٌ للبلاغِ، إذ هو سَبَبُها، وسببُ رحمتِه تعالى، والمعنى: ولن أجِدَ مِن دُونِه مَنجًى إلَّا بلاغًا، أي: لا يُنجِيني إلَّا أن أُبلِّغَ عن اللهِ ما أُرسِلْتُ به، وعليه يكونُ بدلًا مِنْ ﴿مُلْتَحَدًا﴾؛ لأنَّ الكلامَ غيرُ موجَبٍ. أو يكونُ مَنصوبًا على الاستثناءِ. الثَّالثُ: أن يكونَ مُستثنًى مُنقَطِعًا مِن قَولِه: ﴿لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا﴾ [الجن: ٢١]، فقال: ﴿إِلَّا بَلَٰغًا﴾ استِثناءً منه، أي: لا أملِكُ إلَّا أنْ أُبَلِّغَكم ما أُرْسِلْتُ به. وقولُه: ﴿قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي ...﴾ جملةٌ اعتُرِضَ بها؛ لتأكيدِ نَفيِ الاستِطاعةِ عن نَفْسِه.

﴿وَرِسَٰلَٰتِهِۦ﴾ فيه وجهانِ؛ أحدُهما: أنَّها مَنصوبةٌ عطفًا على ﴿بَلَٰغًا﴾، كأنَّه قال: لا أملِكُ لكم إلَّا التَّبليغَ والرِّسالةَ. والثَّاني: أنَّها مجرورةٌ عَطْفًا على ﴿ٱللَّهِ﴾، أي: إلَّا أن أُبلِّغَ عن اللهِ وعن رِسالاتِه(١).

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى آمِرًا عِبادَه أنْ يُوَحِّدوه في مَحالِّ عبادتِه: وأنَّ المساجِدَ لله تعالى وَحْدَه؛ فلا تُشرِكوا باللهِ فيها أحدًا مِن خَلْقِه.

ثمَّ يُبيِّنُ سبحانَه حالَ الجنِّ مِن الصَّالحينَ معَ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم: وأنَّه لَمَّا قام محمَّدٌ يدعو اللهَ، كاد الجنُّ يَكونونَ عليه جماعاتٍ.

ثمَّ يأمُرُ الله تعالى نبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّم أنْ يبيِّنَ حقيقةَ ما يدعو إليه، فيقولُ: قلْ -يا محمَّدُ-: إنَّما أدْعُو ربِّي وَحْدَه، ولا أُشرِكُ به أحدًا مِن خَلْقِه. قُلْ: إنِّي لا أملِكُ لكم ضَرًّا ولا نَفعًا، ولا ضَلالةً ولا صوابًا. قُلْ: إنِّي لن يُنقِذَني مِن اللهِ أحدٌ

(١) يُنظَر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ١٩٥)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٢٣٥)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٣١)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (١٠/ ٥٠٠).

إنْ أرادني بسُوءٍ، ولن أَجِدَ مِن دونِ اللهِ مَلْجأً ألجأُ إليه، إلَّا أن أبَلِّغَ عنه ما أُرسِلْتُ به.

ثمَّ يُبيِّنُ سبحانَه سوءَ عاقبةِ مَن يُخالِفُ أمْرَه، فيقولُ: ومَن يَعْصِ اللهَ ورسولَه في التَّوحيدِ والعبادةِ؛ فإنَّ له نارَ جهنَّمَ خالِدًا فيها أبدًا.

ثمَّ يهدِّدُ اللهُ الكافرينَ بسببِ استهزائِهم بالمؤمنينَ، فيقولُ: حتَّى إذا رأى الكُفَّارُ ما وعَدَهم اللهُ به مِنَ العَذابِ، فسيَعلَمونَ حِينَها مَنِ الأضعَفُ ناصِرًا والأقَلُّ عددًا: هم أو المُؤمِنونَ؟

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ١٨﴾.

أي: وأنَّ جميعَ المساجِدِ الَّتي هي بيوتٌ لعِبادةِ اللهِ تعالى: هي له وَحْدَه؛ فلا تُشرِكوا باللهِ فيها أحدًا مِن خَلْقِه، وأفرِدوه وَحْدَه بالسُّؤالِ والعبادةِ[١].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٤٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢١)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٤٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩١).
قال الرازي: (التَّقديرُ: قُلْ: أُوحِيَ إلَيَّ أنَّ المساجِدَ لله. ومذهبُ الخليلِ أنَّ التَّقديرَ: ولأنَّ المساجِدَ لله فلا تدعوا، فعلى هذا اللَّامُ مُتعلِّقةٌ بـ﴿فَلَا تَدْعُواْ﴾، أي: فلا تدعوا مع اللهِ أحدًا في المساجِدِ؛ لأنَّها لله خاصَّةً). ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦٧٣).
ممَّن ذهب إلى التَّقديرِ الأوَّلِ: ابنُ جرير، والقرطبيُّ، والبِقاعي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٤٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٤٨٩).
وممَّن ذهب إلى التَّقديرِ الثَّاني، أي: ولأنَّ المساجِدَ لله: الخليلُ -كما نسَبَه إليه سيبويه- وذهب إليه ابنُ أبي زَمَنين، والسَّمْعانيُّ. يُنظر: ((الكتاب)) لسيبويه (٣/ ١٢٧)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٥/ ٤٦)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٧٠).
قال مقاتِلُ بنُ سُلَيمانَ: (﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ﴾ يعني: الكنائِسَ والبِيَعَ والمساجِدَ، للهِ ﴿فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾؛ وذلك أنَّ اليهودَ والنَّصارى يُشرِكونَ في صلاتِهم في البِيَعِ والكنائِسِ، فأمَرَ اللهُ المؤمِنينَ أن يوحِّدوه). ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٤٦٤).
وقال القرطبي: (وقيل: المعنى: أفرِدوا المساجِدَ لِذكرِ اللهِ، ولا تتَّخِذوها هُزُوًا ومَتجَرًا =

كما قال تعالى: ﴿وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [الأعراف: ٢٩].

وقال سُبحانَه: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ فَعَسَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ أَن يَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ﴾ [التوبة: ١٨].

﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُواْ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ١٩﴾.

أي: وأنَّه لَمَّا قام محمَّدٌ يدعو اللهَ، كاد الجِنُّ يَكونون عليه جماعاتٍ يَتراكَمُ بَعضُها على بَعضٍ(١).

= ومَجلِسًا، ولا طُرُقًا، ولا تجعلوا لغيرِ اللهِ فيها نصيبًا. وفي الصَّحيح: «مَن نَشَد ضالَّةً في المسجدِ، فقولوا: لا ردَّها اللهُ عليك؛ فإنَّ المساجِدَ لم تُبْنَ لهذا» [أخرجه مسلم (٥٦٨)]. ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٢).

وقيل: معنى قولِه: ﴿ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ﴾ الصَّلواتُ للَّه، وقيل: الأعضاءُ التي يُسجَدُ عليها للَّه، وقيل: هي كلُّ موضعٍ صلَّى فيه الإنسانُ. يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٦/ ١١٩)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٣٤٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٤٢-٣٤٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٤٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٤١، ٢٤٢).

قيل: المعنى: كاد الجِنُّ مِن تكاثُرِهم على الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم حينَ سمِعوه يقرأُ القُرآنَ يَكونونَ عليه متراكِمينَ ومُقترِبينَ منه؛ مِن ازدحامِهم عليه؛ حرصًا ورغبةً منهم في استماعِ القرآنِ. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى في الجملة: مقاتِلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ قُتَيْبَةَ، والواحديُّ، والرَّسْعَني، والعُلَيمي، والشَّوكاني، والقاسمي، والسعدي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٤٦٥)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٩١)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١١٤٢)، ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٣١٧)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ١٨٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٧١)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٣٣٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩١).

وقيل: المرادُ: لَمَّا قام محمَّدٌ يدعو النَّاسَ إلى توحيدِ الله تعالى، كاد المشركونَ أن يَكونوا عليه جَميعًا؛ ليُطفِئوا نورَ اللهِ تعالى. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى في الجملةِ: ابنُ جرير، واستظهره =

﴿قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُواْ رَبِّي وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا ٢٠﴾.

أي: قلْ -يا محمَّدُ-: إنَّما أدْعُو ربِّي وَحْدَه، ولا أُشرِكُ به أحدًا مِن خَلْقِه[1].

﴿قُلْ إِنِّي لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ٢١﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه انتِقالٌ مِن ذِكرِ ما أُوحِيَ به إلى النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، إلى تَوجيهِ خِطابٍ مُستأنَفٍ إليه؛ فبَعْدَ أنْ حُكِيَ في هذه السُّورةِ ما أوحَى اللهُ إلى رَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ ممَّا خَفِيَ عليه مِن الشُّؤونِ المُتعلِّقةِ به مِن اتِّباعِ مُتابِعينَ، وإعراضِ مُعرِضين؛ انتُقِلَ إلى تَلقينِه ما يَرُدُّ به على الَّذين أظْهَروا له العِنادَ، ولبَيانِ عَجْزِه عن شُؤونِ نفْسِه، وأنَّ الأمرَ كلَّه بيَدِ اللهِ[2].

﴿قُلْ إِنِّي لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ٢١﴾.

أي: قُلْ -يا محمَّدُ-: إنِّي لا أملِكُ لكم ضَرًّا ولا نَفعًا، ولا ضَلالةً ولا صوابًا

= ابنُ كثير، وذهب إليه ابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٤٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٤٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٤١، ٢٤٢).

وقال البقاعي: (﴿كَادُواْ﴾ أي: قَرُبَ القاسِطونَ مِن الفريقَينِ الجنِّ والإنسِ، ﴿يَكُونُونَ عَلَيْهِ﴾ أي: على عبْدِ اللهِ، ﴿لِبَدًا﴾ أي: مُتراكِمينَ بعضُهم على بعضٍ مِن شِدَّةِ ازدحامِهم، حتَّى كان ذلك جِبلَّةً لهم؛ تَعجُّبًا ممَّا رَأَوا منه مِن عِبادتِه، وإرادةً لرَدِّه عن ذلك). ((نظم الدرر)) (٢٠/ ٤٩١).

قال الواحدي: (قوله: ﴿عَبْدُ ٱللَّهِ﴾ يعني: النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في قَولِ الجميعِ). ((البسيط)) (٢٢/ ٣١٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٤٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٤٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩١).

قال ابنُ جرير: (قُلْ -يا محمَّدُ- للنَّاسِ الَّذين كادوا يَكونونَ عليك لِبَدًا). ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٤٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٤٣).

وسَدادًا؛ فإنَّما المرجِعُ في ذلك كُلِّه إلى اللهِ عزَّ وجلَّ، وإنَّما أنا عبدٌ ليس لي مِنَ الأمرِ شَيءٌ(١).

كما قال تعالى: ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ ۚ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٨].

وقال سُبحانَه: ﴿قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا﴾ [الفتح: ١١].

﴿قُلْ إِنِّى لَن يُجِيرَنِى مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٢﴾﴾.

﴿قُلْ إِنِّى لَن يُجِيرَنِى مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ﴾.

أي: قُلْ -يا محمَّدُ-: إنِّي لن يُنقِذَني مِن اللهِ أحدٌ إنْ أراد أن يُصيبَني بضُرٍّ(٢).

كما قال تعالى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ [يونس: ١٠٧].

وقال سُبحانَه: ﴿قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَـٰشِفَـٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَـٰتُ رَحْمَتِهِۦ﴾ [الزمر: ٣٨].

﴿وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا﴾.

أي: ولن أَجِدَ مِن دونِ اللهِ مَلجَأً ألجأُ إليه(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٤٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٥٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٤٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٤٩٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٤٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٤٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٤٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٤٩٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٤٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٦)، ((الروح)) لابن =

﴿إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦۚ وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴿٢٣﴾﴾.

﴿إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦ﴾.

أي: لن أجِدَ مِن دونِ اللهِ مَلجَأً إلَّا أن أبَلِّغَ عنه ما أُرسِلْتُ به؛ فإنَّ فيه الأمانَ والنَّجاةَ[1].

﴿وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾.

مُناسَبَتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان قولُه: ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَدۡعُواْ رَبِّي وَلَآ أُشۡرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا﴾ [الجن: ٢٠] إلى هنا، كَلامًا مُتضمِّنًا أنَّهم أشْرَكوا وعانَدوا الرَّسولَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ حينَ دَعاهم إلى التَّوحيدِ، واقتَرَحوا عليه ما تَوهَّموه -تَعجيزًا له- مِن ضُروبِ الاقتراحِ؛ أُعقِبَ ذلك بتَهْديدِهم ووَعيدِهم بأنَّهم إنْ داموا على عِصيانِ اللهِ ورَسولِه سيَلْقَون نارَ جهنَّمَ؛ لأنَّ كلَّ مَن يَعْصي اللهَ ورسولَه كانت له نارُ جهنَّمَ[2].

﴿وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾.

= القيم (ص: ٢٦٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٤٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٤٤).

(١) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٤٦٥)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٢٣٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٦)، ((مجموع الفتاوى)) (٢٧/ ٤٣٢).

وممَّن قال بهذا المعنى المذكورِ: مقاتِلُ بنُ سُلَيمانَ، والزَّجَّاجُ، والقرطبيُّ، وابنُ تيميَّةَ. يُنظر: المصادر السابقة.

وقيل: المعنى: إنِّي لا أملِكُ لكم ضَرًّا ولا رَشَدًا، ولكنِّي أُبلِّغُ عن اللهِ، فأمَّا الرَّشَدُ والخِذْلانُ فبيَدِ اللهِ، هو مالِكُه وَحْدَه، فيَهدي مَن يَشاءُ، ويَخذُلُ مَن يشاءُ. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى في الجملةِ: ابنُ جرير، والواحديُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٤٩، ٣٥٠)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١١٤٢). ويُنظر أيضًا: ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٧٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٤٥).

أي: ومَن يعْصِ اللهَ تعالى ورَسولَه في التَّوحيدِ والعبادةِ، فقد استحَقَّ الخُلودَ الأبَديَّ في نارِ جهنَّمَ(١).

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوۡاْ مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعۡلَمُونَ مَنۡ أَضۡعَفُ نَاصِرٗا وَأَقَلُّ عَدَدٗا ٢٤﴾.

أي: حتَّى إذا رأى الكُفَّارُ ما وعَدَهم اللهُ مِن العذابِ وشاهَدوه عِيانًا، وأيْقَنوا بوُقوعِه؛ فسيَعلَمونَ حِينَها مَنِ الأضعَفُ ناصِرًا ومانِعًا لهم مِن العَذابِ، ومَن الأقَلُّ عددًا: هم أو المؤمِنونَ الموَحِّدونَ لله تعالى(٢)؟

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٥٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٦٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٦، ٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩١).

قال السِّعديُّ: (وهذا المرادُ به المعصيةُ الكُفْريَّةُ، كما قيَّدَتْها النُّصوصُ الأُخَرُ المُحكَمةُ. وأمَّا مُجرَّدُ المعصيةِ فإنَّه لا يُوجِبُ الخلودَ في النَّارِ، كما دَلَّت على ذلك آياتُ القرآنِ، والأحاديثُ عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وأجْمَعَ عليه سَلَفُ الأُمَّةِ وأئمَّةُ هذه الأُمَّةِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٥٠، ٣٥١)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٥٠٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٥٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٤٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩١).

ممَّن اختار في الجملةِ أنَّ المعنى: يوعَدون في الدُّنيا وفي الآخرةِ: السمرقنديُّ، والرَّسْعَني، والبيضاوي، والقرطبي، وابنُ جُزَي، والبِقاعي، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٥٠٧)، ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٣٢٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٥٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٧)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٢٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٤٩٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٧٢).

وممَّن قال بأنَّ المراد: ما يُوعَدونَ يومَ القيامةِ: البَغَويُّ، والخازن، وابن كثير. يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٥/ ١٦٣)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٣٥٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٤٦).

قال الزَّمخشريُّ: (فإنْ قلتَ: بِمَ تَعلَّق ﴿حَتَّىٰٓ﴾ وجُعِلَ ما بعْدَه غايةً له؟ قلتُ: بقولِه: ﴿يَكُونُونَ عَلَيۡهِ لِبَدٗا﴾، على أنَّهم يَتظاهَرونَ عليه بالعَداوةِ، ويَستضعِفون أنْصارَه، ويَستقِلُّون عَدَدَهم، حتَّى إذا رَأَوا ما يُوعَدون مِن يومِ بَدْرٍ وإظهارِ اللهِ له عليهم، أو مِن يومِ القيامةِ؛ فسَيعلَمون حينَئذٍ أنَّهم أضعَفُ ناصرًا وأقلُّ عدَدًا. ويجوزُ أنْ يَتعلَّقَ بمَحذوفٍ دلَّت عليه الحالُ: مِن استضعافِ =

كما قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوۡاْ مَا يُوعَدُونَ إِمَّا ٱلۡعَذَابَ وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ فَسَيَعۡلَمُونَ مَنۡ هُوَ شَرٌّ مَّكَانٗا وَأَضۡعَفُ جُندٗا﴾ [مريم: ٧٥].

وقال سُبحانَه: ﴿وَسَيَعۡلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَيَّ مُنقَلَبٖ يَنقَلِبُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢٧].

وقال عزَّ وجَلَّ: ﴿وَإِنَّآ أَوۡ إِيَّاكُمۡ لَعَلَىٰ هُدًى أَوۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ [سبأ: ٢٤].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

قَولُ اللهِ تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَدۡعُواْ رَبِّي وَلَآ أُشۡرِكُ بِهِۦٓ أَحَدٗا * قُلۡ إِنِّي لَآ أَمۡلِكُ لَكُمۡ ضَرّٗا وَلَا رَشَدٗا﴾ فيه بيانُ حالةِ الخَلقِ، وأنَّ كُلَّ أحدٍ منهم لا يستَحِقُّ مِن العبادةِ مِثقالَ ذَرَّةٍ؛ لأنَّ الرَّسولَ محمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إذا كان لا يملِكُ لأحدٍ نفعًا ولا ضَرًّا، بل ولا يملِكُ لِنَفْسِه، عُلِمَ أنَّ الخَلْقَ كُلَّهم كذلك، فمِنَ الخطَأِ والغَلَطِ اتِّخاذُ مَن هذا وَصْفُه إلهًا آخَرَ مع اللهِ[1]!

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلۡمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدۡعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدٗا﴾ فيه أنَّ المساجِدَ الَّتي هي أعظَمُ محالِّ العبادةِ مَبنيَّةٌ على الإخلاصِ للهِ، والخُضوعِ لعَظَمتِه، والاستِكانةِ لعِزَّتِه[2].

٢- قال الله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلۡمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدۡعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدٗا﴾ قَولُه: ﴿فَلَا تَدۡعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدٗا﴾ في ضِمْنِه أمرٌ بذِكرِ اللهِ وبدُعائِه[3].

= الكفَّارِ له، واستِقلالِهم لعَدَدِه، كأنَّه قال: لا يَزالون على ما هُمْ عليه حتَّى إذا رَأَوا ما يُوعَدون). ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٣٢).

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٨٩٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦٧٤).

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾ أضاف تعالى المساجِدَ لنَفْسِه تَشريفًا، فاستُدِلَّ به على تنزيهِها عن غيرِ العباداتِ؛ مِنَ البَيعِ، والخُصوماتِ، وإقامةِ الحُدودِ[١].

٤- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾ قيل: المساجِدُ هنا هي جَمعُ (مَسجَدٍ) بالفتحِ، وهي الأعضاءُ السَّبعةُ الَّتي يَسجُدُ عليها الإنسانُ: الجبهةُ، واليَدانِ، والرُّكبتانِ، والقَدَمانِ، أي: هي للهِ؛ فلا تَسجُدوا بها لغَيرِه؛ ففيه رَدٌّ على مَن خَصَّ السُّجودَ بالجَبهةِ فقط دونَ السِّتَّةِ الباقيةِ[٢].

٥- قَولُه تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾ استُدِلَّ به على أنَّه لا يجوزُ إضافةُ المساجدِ إلى مخلوقٍ إضافةَ مِلْكٍ واختِصاصٍ، وأنَّه لا يجوزُ نِسبةُ شيءٍ مِن المساجدِ إلى بعضِ طوائفِ المُسلمينَ للاختِصاصِ بها، فيُقالُ: هذه

---

(١) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٧٥).
اتَّفق الفُقهاءُ على أنَّه تَحرُمُ إقامةُ الحدودِ في المساجدِ، أمَّا البَيعُ والشِّراءُ فقد اتَّفق الفقهاءُ على مَنعِه، لكنْ ذهب الحَنَفيَّةُ والمالكيَّةُ والشَّافعيَّةُ إلى الكراهةِ، وذهب الحنابلةُ إلى التَّحريمِ. يُنظر: ((الموسوعة الفقهية الكويتية)) (١٧/ ١٤٨، ١٧٩).
قال العُلَيمي: (وأمَّا حُكمُ القاضي في المسجدِ؛ فقال أبو حنيفةَ ومالكٌ وأحمدُ: يجوزُ؛ لأنَّ رسولَ الله صلَّى الله عليه وسلَّم كان يَقضي بيْن الخُصومِ في المسجدِ، وكذا الخُلفاءُ الرَّاشِدونَ بعْدَه. ومذهبُ الشَّافِعيِّ: يُكرَهُ كَراهةَ تنزيهٍ، فلو اتَّفقَتْ قضيَّةٌ أو قضايا وقتَ حُضورِه في المسجدِ لصلاةٍ أو غيرِها، فلا بأسَ بفَصلِها. وأمَّا الحدودُ فلا تُقامُ في المساجدِ بالاتِّفاقِ). ((تفسير العليمي)) (٧/ ١٨٧).
(٢) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٧٥).
قال أبو حيَّانَ: (وأبعَدَ ابنُ عطاءٍ في قولِه: إنَّها الآرابُ الَّتي يُسجَدُ عليها، واحدُها مَسجَدٌ؛ بفتْحِ الجيمِ، وهي الجَبْهةُ والأنفُ، واليَدانِ، والرُّكبتانِ، والقَدَمانِ؛ عدَّ الجَبْهةَ والأنفَ واحدًا. وأبعَدَ أيضًا مَن قال: المسجدُ الحرامُ؛ لأنَّه قِبلةُ المساجدِ، ومَن قال: إنَّه جمْعُ مَسجَدٍ، وهو السُّجودُ). ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٠٠).

المساجِدُ للطَّائفةِ الفُلانيةِ، وهذه للطَّائفةِ الأُخرى؛ فإنَّها مُشتَرَكةٌ بيْن المسلمينَ عُمومًا(١).

٦- قال تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ﴾ المساجِدُ وإن كانت لله مِلْكًا وتشريفًا، فإنَّها قد تُنسبُ إلى غيرِه تعريفًا، فيقالُ: مَسجِدُ فُلانٍ(٢).

٧- أنَّ اللهَ سُبحانَه وتعالى لا يَرضى أنْ يُشْرَكَ معه في عبادتِه أحدٌ، بل هو وحْدَه المستحِقُّ للعبادةِ، ودليلُ ذلك قولُه تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾، فنهى اللهُ تعالى أنْ يَدْعُوَ الإنسانُ مع اللهِ أحدًا، واللهُ لا يَنْهَى عن شَيءٍ إلَّا وهو لا يَرضاه سُبحانَه(٣).

٨- اتَّفَق أئِمَّةُ الإسلامِ على أنَّه لا يُشْرَعُ بناءُ المشاهِدِ على القُبورِ، ولا يُشْرَعُ اتِّخاذُها مَساجِدَ، ولا يُشْرَعُ الصَّلاةُ عندَها، ولا يُشْرَعُ قصدُها لأجلِ التَّعبُّدِ عندَها بصلاةٍ أوْ اعتكافٍ أوْ استغاثةٍ أوْ ابتهالٍ أوْ نحوِ ذلك، فهذا ليس مِن دينِ اللهِ، إنَّما دِينُ اللهِ تَعظيمُ بُيوتِ اللهِ وحْدَه لا شَريكَ له، وهي المساجدُ الَّتي تُشرَعُ فيها الصَّلَواتُ جَماعةً وغيرَ جماعةٍ، والاعتكافُ، وسائرُ العِباداتِ البَدَنيَّةِ والقلْبيَّةِ؛ مِن القراءةِ والذِّكرِ والدُّعاءِ للهِ؛ قال تَعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾، وقال تعالى: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِٱلْقِسْطِ وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [الأعراف: ٢٩]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ

(١) يُنظر: ((فتح الباري)) لابن رجب (٢/ ٣٦٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢١).

عن عبدِ اللهِ بنِ عُمَرَ رضيَ الله عنهما، ((أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم سابَق بيْنَ الخَيلِ الَّتي أُضْمِرَتْ مِن الحَفْياءِ، وأَمَدُها ثَنِيَّةُ الوَداعِ، وسابَق بيْنَ الخيلِ الَّتي لم تُضْمَرْ مِن الثَّنِيَّةِ إلى مَسجِدِ بني زُرَيْقٍ...)). أخرجه البخاريُّ (٤٢٠)، وترجم له: (بابٌ: هل يُقالُ: مَسجِدُ بَني فُلانٍ؟).

(٣) يُنظر: ((شرح ثلاثة الأصول)) لابن عثيمين (ص: ٣٣).

مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ فَعَسَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴾ [التوبة: ١٨]، وقال تعالى: ﴿ فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ * رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ * لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾[1] [النور: ٣٦ - ٣٨].

٩- قولُ اللهِ تعالى: ﴿ وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا۟ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴾ فيه سُؤالٌ: لِمَ سَمَّى محمَّدًا بـ (عبدِ اللهِ)، وما ذكَره بـ (رَسولِ اللهِ) أو (نبيِّ اللهِ)؟

الجوابُ: لأنَّه إن كان هذا الكلامُ مِن جُملةِ المُوحَى، فاللَّائِقُ بتواضُعِ الرَّسولِ أن يَذكُرَ نَفْسَه بالعُبوديَّة[2]، وإنْ كان مِن كلامِ الجِنِّ، كان المعنى: أنَّ عبْدَ اللهِ لَمَّا اشتَغَل بعبوديَّةِ اللهِ فهؤلاء الكُفَّارُ لِمَ اجتَمَعوا ولِمَ حاوَلوا مَنْعَه منه، مع أنَّ ذلك هو الموافِقُ لقانونِ العَقلِ[3]؟! فالمعنى: أنَّ عبادةَ عبْدِ اللهِ للهِ ليست بأمرٍ مُستبعَدٍ عن العقلِ ولا مُستنكَرٍ حتَّى يَكونوا عليه لِبَدًا[4] -وذلك على قولٍ في التَّفسيرِ-، أو لأنَّ العبوديَّةَ مِن أشرَفِ الخِصالِ[5]. فقد وَصَف اللهُ تعالى أكرَمَ خَلْقِه عليه، وأعلاهم عِندَه مَنزِلةً بالعُبوديَّةِ في أشرَفِ مَقاماتِه؛ فوَصَفه بالعُبوديَّةِ

---

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٧/ ٤٤٩).

(٢) قال ابن جُزَي بعدَ أن ذكَر هذا الوجهَ مِن كلامِ الزمخشريِّ: (وهذا الَّذي قاله بعيدٌ، مع أنَّه إنَّما يُمكِنُ على قراءةِ: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ﴾ بفتحِ الهمزةِ، فيكونُ عطفًا على ﴿أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ﴾ [الجن: ١]. وأمَّا على القِراءةِ بالكسرِ على الاستِئنافِ فيَكونُ إخبارًا مِن الله، أو مِن جملةِ كلامِ الجِنِّ، فيَبطُلُ ما قاله). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٢٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٣٠)، ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦٧٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٠١).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عجيبة)) (٧/ ١٥٩).

في مقامِ الدعوةِ إليه، فقال: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبۡدُ ٱللَّهِ يَدۡعُوهُ كَادُواْ يَكُونُونَ عَلَيۡهِ لِبَدٗا﴾ وذكره بالعُبوديَّة في مقامِ الإسراءِ، فقال: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ لَيۡلٗا مِّنَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ إِلَى ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡأَقۡصَا﴾ [الإسراء: ١]، وذَكَره بالعُبوديَّة في مَقامِ إنزالِ الكِتابِ عليه، فقال تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡفُرۡقَانَ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦ لِيَكُونَ لِلۡعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١] وقال سُبحانه: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبۡدِهِ ٱلۡكِتَٰبَ وَلَمۡ يَجۡعَل لَّهُۥ عِوَجَا﴾ [الكهف: ١]، وذَكَره بالعُبوديَّة في مَقامِ التحَدِّي بأن يأتُوا بمِثْلِه في قَولِه: ﴿وَإِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّمَّا نَزَّلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا﴾[1] [البقرة: ٢٣].

١٠- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبۡدُ ٱللَّهِ يَدۡعُوهُ كَادُواْ يَكُونُونَ عَلَيۡهِ لِبَدٗا﴾ فيه شِدَّةُ حِرصِ الجِنِّ لاستِماعِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وتراكُمِهم عليه[2].

١١- في قَولِه تعالى: ﴿قُلۡ إِنِّي لَآ أَمۡلِكُ لَكُمۡ ضَرّٗا وَلَا رَشَدٗا * قُلۡ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٞ وَلَنۡ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلۡتَحَدًا﴾ أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لا يَملِكُ لنَفْسِه نَفْعًا ولا ضَرًّا؛ فكيف يَمْلِكُ لغيرِه؟! فالنَّبيُّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ لو أراد اللهُ به ما يُريدُ، ما استطاع أحدٌ مِن النَّاسِ أنْ يَمْنَعَ إرادةَ اللهِ فيه، وإذا كان كذلك فمِن الضَّلالِ البَيِّنِ أنْ يَستغيثَ أحدٌ برَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، بل هذا مِن الشِّركِ[3].

١٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ ردٌّ واضحٌ على مَن قال: إنَّ عذابَ النَّارِ غيرُ مُؤَبَّدٍ[4]!

١٣- إذا أُطْلِقَتِ المعصيةُ للهِ ورَسولِه دَخَلَ فيها الكُفرُ والفُسوقُ، كقَولِه

(١) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ١٢٢، ١٢٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩١).

(٣) يُنظر: ((شرح الأربعين النووية)) لابن عثيمين (ص: ٢٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الفرقان)) (ص: ٧٠).

تعالى: ﴿وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾[(١)].

١٤- قال تعالى: ﴿وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ الآيةُ في الكفَّارِ، وحمَلها المعتزلةُ على عصاةِ المؤمنينَ؛ لأنَّ مذهبَهم خلودُهم في النَّارِ. والدَّليلُ على أنَّها في الكفَّارِ وجْهانِ؛ أحدُهما: أنَّها مكِّيَّةٌ، والسُّورةُ المكِّيَّةُ إنَّما الكلامُ فيها معَ الكفَّارِ. والآخَرُ: دَلالةُ ما قبْلَها وما بعْدَها على أنَّ المرادَ بها الكفَّارُ[(٢)]، فالعِصيانُ في الآيةِ هو عِصيانُ الكُفرِ، لا عِصيانُ الذَّنْبِ، فمَن شُبِّهَ عليه مِن المعتزِلةِ، وتعَلَّقَ بظاهِرِ لَفظِ العِصيانِ، نبَّهَه عليه قولُه: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوۡاْ مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعۡلَمُونَ مَنۡ أَضۡعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا﴾؛ لأنَّ المسلِمَ -عاصيًا كان أو غيرَ عاصٍ- لم يَنْسُبْ قَطُّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إلى أنَّه لا ناصرَ له، ولا كَثرةَ عددٍ يَغْلِبُ بها! وإنَّما كان يَنْسُبُه إلى ذلك الكُفَّارُ، ويَرَونَ أنَّه مَغلوبٌ لِقلَّةِ عددِه وأنصارِه، وكانوا يَعصُونَه ولا يُطيعونَه، ويتربَّصونَ به رَيْبَ المَنونِ، وكانت مَعصيتُهم للرَّسولِ مَعصيةً للهِ تبارك وتعالى؛ فأنزَلَ اللهُ هذه الآيةَ فيهم، وأخبَرَ أنَّهم إذا أَفْضَوا إلى الخُلودِ في النَّارِ عَرَفوا أنَّهم كانوا هم الأَقَلِّينَ عددًا وأنصارًا، لا الرَّسولَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم[(٣)].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿وَأَنَّ ٱلۡمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدۡعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾

- فُرِّعَ على اختِصاصِ كَونِ المساجِدِ للهِ النَّهيُ عن أنْ يَدْعوَ المشرِكون مع اللهِ

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٧/ ٥٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٢٠).

(٣) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٤٢٩).

ويُنظر ما تقدَّم (ص: ٣٨٣).

أحَدًا، وهذا إلْزامٌ لهم بالتَّوحيدِ بطَريقِ القَولِ بالمُوجَبِ[١]؛ لأنَّهم كانوا يَزعُمون أنَّهم أهلُ بَيتِ اللهِ، فعِبادتُهم غيرَ اللهِ مُنافيةٌ لزَعْمِهم ذلك[٢].

٢- قولُه تعالَى: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبۡدُ ٱللَّهِ يَدۡعُوهُ كَادُواْ يَكُونُونَ عَلَيۡهِ لِبَدٗا ۞ قُلۡ إِنَّمَآ أَدۡعُواْ رَبِّي وَلَآ أُشۡرِكُ بِهِۦٓ أَحَدٗا﴾

- قولُه: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبۡدُ ٱللَّهِ يَدۡعُوهُ﴾ هو محمَّدٌ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وُضِعَ الاسمُ الظَّاهرُ مَوضعَ المُضمَرِ؛ إذ مُقْتضى الظَّاهرِ أنْ يُقالَ: وأنَّه لَمَّا قُمتَ تَدْعو اللهَ كادُوا يَكونون عليك، أو لَمَّا قُمتُ أدْعو اللهَ كادوا يَكونون علَيَّ؛ ولكنْ عُدِلَ إلى الاسمِ الظَّاهرِ لقَصْدِ تَكريمِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بوَصْفِ ﴿عَبۡدُ ٱللَّهِ﴾؛ لِما في هذه الإضافةِ مِن التَّشريفِ مع وَصْفِ (عبْدٍ)[٣].

- قولُه: ﴿وَأَنَّ ٱلۡمَسَٰجِدَ لِلَّهِ﴾ مِن جُملةِ المُوحَى في قولِه: ﴿قُلۡ أُوحِيَ إِلَيَّ﴾، ومَعطوفٌ على قولِه: ﴿أَنَّهُ ٱسۡتَمَعَ نَفَرٞ مِّنَ ٱلۡجِنِّ﴾، فيَكونُ قولُه: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبۡدُ ٱللَّهِ يَدۡعُوهُ﴾ مِن تَتِمَّةِ كَلامِه صَلَواتُ اللهِ عليه؛ لأنَّه هو المأمورُ بقولِه: ﴿قُلۡ أُوحِيَ إِلَيَّ﴾، فكان الأصلُ: قل: أُوحِيَ إليَّ أنَّه لَمَّا قُمتَ تَدْعو؛ فوُضِعَ مَوضعَ الضَّميرِ ﴿عَبۡدُ ٱللَّهِ﴾ للإشعارِ بما هو المُقتضي لِقيامِه، وتَواضُعًا للهِ تعالَى، وتَذلُّلًا لجَلالِه؛ تَعليمًا مِن اللهِ، وتأْديبًا له. أو يكونُ نقْلًا لكلامِ اللهِ

(١) القولُ بالموجَبِ: هو عبارةٌ عن تسليمِ مقتضَى ما جعَله المستدِلُّ دليلًا لحُكمٍ، مع بقاءِ الخِلافِ بيْنَهما فيه. أو: تسليمُ الدَّليلِ معَ بقاءِ النِّزاعِ، ومعنى ذلك: أن يُسلِّمَ الخَصمُ الدَّليلَ الَّذي استدَلَّ به المُستدِلُّ، إلَّا أنَّه يقولُ: هذا الدُّليلُ ليس فى محلِّ النِّزاعِ، إنَّما هو في غيرِه؛ فيبقَى الخِلافُ بيْنَهما. يُنظر: ((تقريب الوصول إلي علم الأصول)) لابن جُزَي (ص: ١٨٩)، ((نهاية السول شرح منهاج الوصول)) للإسنوي (ص: ٣٤٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٢٠١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٤١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ٢٤٢).

تعالَى المُوحَى إليه؛ فتَخصيصُ ذِكرِ العبدِ إدماجٌ[١] لمعْنى أنَّ العِبادةَ مِن العبدِ غيرُ مُستبعَدةٍ، فلا يَنْبغي أنْ نَتعجَّبَ منه[٢].

- قولُه: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَدْعُوا رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا﴾ كَلامٌ مُستأنَفٌ، وهو مِن تَمامِ ما أُوحِيَ به إليه[٣].

- ويُفيدُ قولُه: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَدْعُوا رَبِّي﴾ قصْرًا[٤]، أي: لا أدْعو غيرَه، أي: لا أعبُدُ غيرَه دُونَه، وعُطِفَ عليه ﴿وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا﴾ تأْكيدًا لمَفهومِ القصْرِ، وأصْلُه ألَّا يُعطَفَ، فعَطْفُه لمُجرَّدِ التَّشريكِ؛ للعِنايةِ باستِقلالِه بالإبلاغ[٥].

(١) تقدَّم تعريفُه (ص: ٤٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٣٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٥٣)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٦/ ٦٤)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٠١)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٨٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٤٦).

ويُنظر ما تقدَّم في الفوائدِ (ص: ٣٨٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٤٣)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٢٤٦).

(٤) القَصرُ أو الحَصرُ: هو تَخصيصُ شَيءٍ بشَيءٍ وحصرُه فيه، ويُسمَّى الأمرُ الأوَّلُ: مَقصورًا، والثَّاني: مقصورًا عليه؛ مِثل: إنَّما زيدٌ قائمٌ، و: ما ضربتُ إلَّا زيدًا. ويَنقسِمُ إلى قصرٍ حقيقيٍّ، وقصرٍ إضافيٍّ، وادِّعائيٍّ، وقَصْرِ قَلْبٍ. ويَنقسِمُ القَصرُ أو الحَصرُ باعتبارٍ آخَرَ إلى ثلاثة أقسامٍ: قصْرُ إفرادٍ، وقصْرُ قَلْبٍ، وقَصْرُ تعيينٍ؛ فالأوَّل: يُخاطَبُ به مَن يَعتقدُ الشَّركةَ؛ نحو: ﴿إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ [النحل: ٥١]، خُوطِبَ به مَن يَعتقدُ اشتراكَ اللهِ والأصنام في الأُلوهيَّة. والثَّاني: يُخاطَبُ به مَن يَعتقدُ إثباتَ الحُكمِ لغيرِ مَن أثبتَه المُتكلِّمُ له؛ نحو: ﴿رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ [البقرة: ٢٥٨]، خُوطِبَ به نَمرودُ، الَّذي اعتقَد أنَّه هو المحيي المميتُ دون اللهِ. والثَّالثُ: يُخاطَبُ به مَن تَساوَى عندَه الأمْران، فلمْ يَحكُمْ بإثباتِ الصِّفةِ لواحدٍ بعَيْنِه، ولا لواحدٍ بإحْدى الصِّفتَينِ بعَيْنِها. يُنظر: ((مفتاح العلوم)) للسَّكَّاكي (ص: ٢٨٨)، ((الإيضاح في علوم البلاغة)) للقَزْويني (١/ ١١٨) و(٣/ ٦)، ((التعريفات)) للجُرْجاني (١/ ١٧٥، ١٧٦)، ((الإتقان)) للسيوطي (٣/ ١٦٧)، ((جواهر البلاغة)) للهاشمي (ص: ١٦٧، ١٦٨)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن بن حسن حَبَنَّكَة الميداني (١/ ٥٢٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٠٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٤٣).

٣- قولُه تعالَى: ﴿قُلْ إِنِّي لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا﴾ استِئنافٌ ابتدائيٌّ. وقولُه: ﴿وَلَا رَشَدًا﴾ تَتميمٌ(١).

- وأيضًا في قولِه: ﴿قُلْ إِنِّي لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا﴾ احتباكٌ(٢)؛ لأنَّ الضَّرَّ يُقابِلُه النَّفعُ، والرَّشَدُ يُقابِلُه الضَّلالُ، فالتَّقديرُ: لا أمْلِكُ لكم ضَرًّا ولا نفْعًا، ولا ضَلالًا ولا رَشَدًا، فحُذِفَ مِن كلٍّ ما يدُلُّ عليه مُقابِلُه. أو جُعِلَ الضَّرُّ مُقابِلًا للرَّشدِ تَعبيرًا به عن الْغَيِّ؛ إذِ الْغَيُّ ثَمَرتُه الضَّررُ(٣).

٤- قولُه تعالَى: ﴿قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا * إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦۚ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾

- قولُه: ﴿قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا﴾ مُعترِضٌ بيْن المُسْتثنى منه ﴿لَآ أَمْلِكُ﴾ والمُسْتثنى ﴿إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦ﴾(٤). قيل: هو اعتِراضٌ لتَأْكيدِ نفْيِ الاستِطاعةِ عن نفْسِه، وبَيانِ عَجْزِه، على معْنى: أنَّ اللهَ إنْ أرادَ به سُوءًا -مِن مرَضٍ، أو مَوتٍ، أو غَيرِهما- لم يَصِحَّ أنْ يُجيرَه منه أحدٌ، أو يَجِدَ مِن دُونِه مَلاذًا يَأْوي إليه(٥).

- قولُه: ﴿وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا﴾، أي: لنْ أجِدَ مَكانًا يَعصِمُني كائنًا مِن

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٤٣)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٢٤٧). وتقدَّم تعريفُ التَّتميم (ص: ١٢٠).

(٢) تقدَّم تعريفُه (ص: ٤٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٣١)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٥٣)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٠٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٤٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٤٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٤٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٣١)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٥٤)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٠٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٤٦).

دونِ اللهِ، أي: بَعيدًا عن اللهِ غيرَ داخلٍ مِن مَلكوتِه؛ ولهذا جاء لنَفْيِ وِجْدانِه حرْفُ (لنْ)(١).

- قولُه: ﴿إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦ﴾ قيل: هو استِثناءٌ مُنقطِعٌ مِن ﴿ضَرًّا﴾ و﴿رَشَدًا﴾، وليس مُتَّصلًا؛ لأنَّ الضَّرَّ والرَّشدَ المَنفيَّينِ في قولِه: ﴿لَآ أَمۡلِكُ لَكُمۡ ضَرّٗا وَلَا رَشَدٗا﴾ هما الضَّرُّ والرَّشدُ الواقعانِ في النَّفْسِ بالإلجاءِ. ويجوزُ أنْ يكونَ مع ذلك استثناءً مُتَّصِلًا مِن ﴿مُلۡتَحَدًا﴾، أي: بتأويلِ ﴿مُلۡتَحَدًا﴾ بمعْنى مَخلَصٍ أو مَأمَنٍ، وهذا الاستثناءُ مِن أُسلوبِ تأكيدِ الشَّيءِ بما يُشبِهُ ضِدَّه. وقيل: ﴿إِلَّا﴾ في تَقديرِ الانفصالِ: (إنْ) شَرطيَّةٌ و(لا) نافيةٌ، وحُذِفَ فِعلُها لدَلالةِ المَصدرِ عليه، والتَّقديرُ: إنْ لمْ أُبَلِّغْ بلاغًا مِن اللهِ ورِسالتِه...، وهذا كما تَقولُ: إنْ لا قِيامًا فقُعودًا، أي: إنْ لم تقُمْ قِيامًا فاقعُدْ قُعودًا، وحَذْفُ هذا الفِعلِ قد يكونُ لدَلالةٍ عليه بعْدَه أو قبْلَه(٢).

٥- قولُه تعالَى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوۡاْ مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعۡلَمُونَ مَنۡ أَضۡعَفُ نَاصِرٗا وَأَقَلُّ عَدَدٗا﴾ كانوا إذا سَمِعوا آياتِ الوعْدِ بنَصْرِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ والمسلِمينَ في الدُّنيا والآخِرةِ، وآياتِ الوعيدِ للمُشرِكين بالانهزامِ وعَذابِ الآخِرةِ وعذابِ الدُّنيا؛ استَسْخَروا مِن ذلك، وقالوا: ﴿وَمَا نَحۡنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ [سبأ: ٣٥]، ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡفَتۡحُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ [السجدة: ٢٨]، إلى غيرِ ذلك؛ فهُم مَغرورونَ بالاستِدراجِ والإمهالِ؛ فلذلك عُقِّبَ وَعيدُهم بالغايةِ المُفادةِ مِن (حتَّى)، فالغايةُ هنا

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٤٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٣١)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٥٤)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٠٢، ٣٠٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٤٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٤٤)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٢٤٨).

ويُنظر ما تقدَّم في مشكلِ الإعرابِ (ص: ٣٧٧).

مُتعلِّقةٌ بمَحذوفٍ يدُلُّ عليه الكلامُ مِن سُخريةِ الكفَّارِ مِن الوعيدِ، واستِضعافِهم المسلِمينَ في العَدَدِ والعُدَدِ؛ فإنَّ ذلك يُفهَمُ منه أنَّهم لا يَزالون يَحسَبون أنَّهم غالِبون فائِزون، حتَّى إذا رَأَوْا ما يُوعَدون تَحقَّقوا إخفاقَ آمالِهم[١].

- وجِيءَ بالجُملةِ المُضافِ إليها (إذا) فِعلًا ماضيًا فقال: ﴿رَأَوْا﴾؛ للتَّنبيهِ على تَحقيقِ وُقوعِه[٢].

- قولُه: ﴿فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا﴾ السِّينُ هنا للتَّأكيدِ المُجرَّدِ، لا للاسْتِقبالِ؛ لأنَّ السِّينَ حرْفُ استِقبالٍ، ووَقْتُ رُؤيةِ العذابِ يَحصُلُ فَورَ عِلمِ الضَّعيفِ مِن القَوِيِّ، والسِّينُ تَقْتضي أنَّه يَتأخَّرُ عنه[٣].

- والاستِفهامُ بما فيه مِن الإبهامِ يَكونُ كِنايةً عن الغَرابةِ، بحيث يَسأَلُ النَّاسُ عن تَعيينِ الشَّيءِ بعْدَ البحثِ عنه[٤].

- وضَعْفُ الناصرِ وَهَنٌ لهم مِن جهةِ وَهَنِ أنْصارِهم، وقِلَّةُ العَددِ وَهَنٌ لهم مِن جانبِ أنفُسِهم، وهذا وَعيدٌ لهم بخَيبةِ غُرورِهم بالأمْنِ مِن غَلَبِ المسلمينَ في الدُّنيا؛ فإنَّهمْ كانوا يَقولونَ: ﴿نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ﴾ [القمر: ٤٤]، وقالوا: ﴿نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا﴾[٥] [سبأ: ٣٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٣٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٥٤)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٠٣، ٣٠٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٤٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٤٥)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٢٤٩).

ويُنظر ما تقدَّم (ص: ٣٨٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٣٢)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٠٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٤٦).

(٣) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٢٤٩، ٢٥٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٤٦).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الآيات (٢٥-٢٨)

﴿قُلْ إِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُۥ رَبِّىٓ أَمَدًا ۝٢٥ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ۝٢٦ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ۝٢٧ لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا۟ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَىْءٍ عَدَدًۢا ۝٢٨﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿أَمَدًا﴾: أي: غايةً وبُعدًا، والأمَدُ: مُدَّةٌ لها حَدٌّ مجهولٌ إذا أُطلِقَ[١].

﴿رَصَدًا﴾: أي: حَرَسًا وحَفَظةً مِنَ الملائكةِ، وأصلُ (رصد): يدُلُّ على تهيُّؤٍ لِرقْبةِ شَيءٍ[٢].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى: قُلْ -يا محمَّدُ- للمُشركين: لا أدري أقَريبٌ الوَقتُ الَّذي وعَدَكم اللهُ بوُقوعِ العَذابِ فيه، أم يَجعَلُه ربِّي بعْدَ أَمَدٍ بَعيدٍ؟ هو وَحْدَه عالِمُ ما غاب عن خَلْقِه، فلا يُطلِعُ على غَيبِه أحدًا من خَلْقِه إلَّا مَن ارتضاه مِن رُسُله؛ فإنَّ اللهَ يُرسِلُ مِن أمامِ الرَّسولِ -الَّذي يُطلِعُه على بَعضِ الغَيبِ- ومن خَلْفِه حَرَسًا مِن الملائكةِ يَحفَظونَه مِنَ الشَّياطين؛ لِيَعلَمَ سُبحانَه -عِلمَ وُجودٍ وظُهورٍ- أنَّ الرُّسُلَ قد تَمكَّنوا من تبليغِ رِسالاتِه كما هي، وأحاط عِلْمُ اللهِ تعالى بما عندَ الرُّسُلِ، وعَلِمَ تعالى عدَدَ كُلِّ شيءٍ وأحصاه.

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٩٢)، ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٣٢٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٣٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٤٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٥٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٠٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٣٠).

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿قُلۡ إِنۡ أَدۡرِيٓ أَقَرِيبٞ مَّا تُوعَدُونَ أَمۡ يَجۡعَلُ لَهُۥ رَبِّيٓ أَمَدًا ٢٥﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

كان المُشرِكون يُكثِرونَ أنْ يَسأَلوا رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ﴾ [النمل: ٧١]، وعن السَّاعةِ ﴿أَيَّانَ مُرۡسَىٰهَا﴾ [الأعراف: ١٨٧]، وتكرَّرتْ نِسبةُ ذلك إليهم في القُرآنِ، فلمَّا قال اللهُ تعالَى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوۡاْ مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعۡلَمُونَ مَنۡ أَضۡعَفُ نَاصِرٗا﴾ [الجن: ٢٤] الآيةَ، عُلِمَ أنَّهم سيُعيدون ما اعْتادوا قولَه مِن السُّؤالِ عن وقْتِ حُلولِ الوعيدِ، فأمَرَ اللهُ تعالى رسولَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنْ يُعيدَ عليهم ما سَبَقَ مِن جَوابِه(١).

﴿قُلۡ إِنۡ أَدۡرِيٓ أَقَرِيبٞ مَّا تُوعَدُونَ أَمۡ يَجۡعَلُ لَهُۥ رَبِّيٓ أَمَدًا ٢٥﴾.

أي: قُلْ -يا محمَّدُ- للمُشرِكينَ: لا أدري أقَريبٌ الوَقتُ الَّذي وعَدَكم اللهُ بوُقوعِ العَذابِ فيه، أمْ يَجعَلُه ربِّي بعدَ مُدَّةٍ طويلةٍ؟ فذلك غَيبٌ يَعلَمُه اللهُ تعالى ولا أعلَمُه(٢).

كما قال تعالى: ﴿وَإِنۡ أَدۡرِيٓ أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٞ مَّا تُوعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٩].

﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا ٢٦﴾.

أي: هو وَحْدَه عالِمُ ما غاب عن خَلْقِه، فلا يُطلِعُ على عِلمِ الغَيبِ الَّذي اختصَّ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٤٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٥١)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٦٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٤٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩١).

قال القرطبي: (قولُه تعالى: ﴿قُلۡ إِنۡ أَدۡرِيٓ أَقَرِيبٞ مَّا تُوعَدُونَ﴾ يعني: قيامَ السَّاعةِ. وقيل: عذابُ الدُّنيا). ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٧).

به أحدًا مِن خَلْقِه(١).

كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ﴾ [الأنعام: ٥٠].

وقال سُبحانَه: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلۡغَيۡبِ لَا يَعۡلَمُهَآ إِلَّا هُوَۚ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۚ وَمَا تَسۡقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعۡلَمُهَا وَلَا حَبَّةٖ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡأَرۡضِ وَلَا رَطۡبٖ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ﴾ [الأنعام: ٥٩].

وقال الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلِلَّهِ غَيۡبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَإِلَيۡهِ يُرۡجَعُ ٱلۡأَمۡرُ كُلُّهُۥ﴾ [هود: ١٢٣].

وقال جلَّ جلالُه: ﴿قُل لَّا يَعۡلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلۡغَيۡبَ إِلَّا ٱللَّهُۚ وَمَا يَشۡعُرُونَ أَيَّانَ يُبۡعَثُونَ﴾ [النمل: ٦٥].

وعن ابنِ عُمَرَ رَضِيَ الله عنهما، عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((مَفاتيحُ الغَيبِ خَمسٌ لا يَعلَمُها إلَّا اللهُ: لا يَعلَمُ ما تَغيضُ الأرحامُ إلَّا اللهُ، ولا يَعلَمُ ما في غدٍ إلَّا اللهُ، ولا يَعلَمُ متى يأتي المطَرُ أحَدٌ إلَّا اللهُ، ولا تَدري نَفْسٌ بأيِّ أرضٍ تموتُ إلَّا اللهُ، ولا يَعلَمُ متى تقومُ السَّاعةُ إلَّا اللهُ))(٢).

﴿إِلَّا مَنِ ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٖ فَإِنَّهُۥ يَسۡلُكُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ رَصَدٗا ٢٧﴾.

﴿إِلَّا مَنِ ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٖ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٥١)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٦٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٤٧).
قال ابنُ عاشور: (﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ﴾: خبرُ مُبتدَأٍ محذوفٍ، أي: هو عالِمُ الغَيبِ، والضَّميرُ المحذوفُ عائدٌ إلى قَولِه ﴿رَبِّيٓ﴾). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٤٧). ويُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٨٥).

(٢) رواه البخاري (٧٣٧٩).

أي: لا يُظهِرُ اللهُ على الغَيبِ أحَدًا إلَّا مَنِ ارتضاه مِن رُسُلِه؛ فإنَّ اللهَ تعالى يُطلِعُه على ما شاء منه(١).

﴿فَإِنَّهُۥ يَسۡلُكُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ رَصَدٗا﴾.

أي: فإنَّ اللهَ يُرسِلُ مِن أمامِ الرَّسولِ الَّذي يُطلِعُه على بَعضِ الغَيبِ ومِن خَلْفِه حَرَسًا مِن الملائكةِ يَحفَظونَه مِنَ الشَّياطينِ، فلا يَستطيعونَ تخليطَ الوَحيِ عليه، أو استِراقَ شَيءٍ منه(٢).

﴿لِّيَعۡلَمَ أَن قَدۡ أَبۡلَغُواْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمۡ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيۡهِمۡ وَأَحۡصَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ عَدَدَۢا ٢٨﴾.

﴿لِّيَعۡلَمَ أَن قَدۡ أَبۡلَغُواْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمۡ﴾.

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

١- قراءة: ﴿لِيُعْلَمَ﴾ بضَمِّ الياءِ مبنيًّا للمفعولِ، ونائبُ الفاعِلِ محذوفٌ يُفهَمُ مِنَ السِّياقِ، والتَّقديرُ: ليُعلَمَ النَّاسُ -أي: المُرسَلُ إليهم- أنَّ الرُّسُلَ قد أبلغوا رسالاتِ رَبِّهم. وقيل: هي بمعنى القِراءةِ الأخرى: أي: ليَعلَمَ اللهُ أنَّ الرُّسُلَ قد أبلغوا رسالاتِ رَبِّهم(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٥١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٤٨، ٢٤٩).

قال ابن كثير: (هذا يعُمُّ الرَّسولَ المَلَكيَّ والبَشَريَّ). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٤٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٥٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٩)، ((النبوات)) لابن تيمية (٢/ ٨٧٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٤٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٤٩).

قال ابن قُتَيْبَةَ: (أي: يجعَلُ بيْنَ يَدَيه وخَلْفَه رَصَدًا مِن الملائكةِ، يَحُوطونَ الوَحيَ مِن أن تَستَرِقَه الشَّياطينُ، فتُلْقِيَه إلى الكَهَنةِ، حتَّى تُخبِرَ به الكَهَنةُ إخبارَ الأنبياءِ، فلا يكونُ بيْنَهم وبيْنَ الأنبياءِ فَرْقٌ، ولا يكونُ للأنبياءِ دَلالةٌ). ((تأويل مشكل القرآن)) (ص: ٢٤٤).

(٣) قرأ بها رُوَيسٌ عن يعقوبَ. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٩٢). =

٢- قِراءةُ: ﴿لِيَعْلَمَ﴾ بفتحِ الياءِ، أي: ليَعلَمَ اللهُ -عِلْمَ ظُهورٍ- أنَّ الرُّسُلَ قد أبلغوا رسالاتِ رَبِّهم. وقيل: لِيَعلَمَ الرَّسولُ أنَّ الرُّسُلَ قَبْلَه قد أبلغوا رسالاتِ ربِّهم. وقيل: لِيَعلَمَ الرَّسولُ أنَّ الملائكةَ قد أبلَغوا رِسالاتِ ربِّهم. وقيل غيرُ ذلك[1].

﴿لِّيَعۡلَمَ أَن قَدۡ أَبۡلَغُواْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمۡ﴾.

أي: حَفِظَ اللهُ رسُلَه بملائكتِه؛ لِيَعلَمَ -عِلمَ وُجودٍ وظُهورٍ- أنَّ الرُّسُلَ قد تمكَّنوا مِن تبليغِ رسالاتِه كما هي، دونَ أن يُخالِطَها ما يُلبِّسُ عليها أو يُبدِّلُها[2].

﴿وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيۡهِمۡ﴾.

= ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((تفسير البغوي)) (٥/ ١٦٤)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ١٩٠، ١٩١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٥١).

(١) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٩٢).

ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((تأويل مشكل القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٤٤، ٢٤٥)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٥٤-٣٥٦)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٢٣٨)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ١٦٤).

(٢) يُنظر: ((تأويل مشكل القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٤٤، ٢٤٥)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٢١)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٤٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٥٠٣، ٥٠٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٥٠).

وممَّن ذهب إلى أنَّ ضَميرَ ﴿لِيَعْلَمَ﴾ يعودُ إلى الله تعالى -أي: ليعلَمَ اللهُ أنَّ الرُّسُلَ قد أبلَغوا رسالاتِ رَبِّهم-: ابنُ قُتَيْبةَ، واستظهره ابنُ جُزَي، وذهب إليه البِقاعي، وابنُ عاشور. يُنظر: المصادر السابقة.

قال الزَّجَّاج: (يجوزُ أن يكونَ: لِيَعلَمَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أنَّ الرِّسالةَ أتَتْه ولم تصِلْ إلى غيره، ويجوزُ أن يكونَ -واللهُ أعلمُ-: ليعلَمَ اللهُ أنْ قد أبلَغوا رِسالاتِه، وما بَعْدَه يدُلُّ على هذا، وهو قَولُه تعالى: ﴿وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيۡهِمۡ وَأَحۡصَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ عَدَدَۢا﴾). ((معاني القرآن وإعرابه)) (٥/ ٢٣٨).

وممَّن رجَّح أنَّ المعنى: ليعلَمَ الرَّسولُ أنَّ الرُّسُلَ قَبْلَه قد أبلغوا رسالاتِ رَبِّهم: ابنُ جرير، وابنُ أبي زَمَنين، وهو ظاهرُ اختيارِ القرطبيِّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٥٦)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٥/ ٤٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٣٠).

مُناسَبَتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان ما سَبَقَ رُبَّما أوهَمَ أنَّه مُحتاجٌ في الحِفظِ إلى الرَّصَدِ؛ أزال ذلك بقَولِه تعالى[1]:

﴿وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ﴾.

أي: وقد أحاط عِلْمُ اللهِ تعالى بكلِّ ما عندَ الرُّسُلِ[2].

﴿وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا﴾.

مُناسَبَتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان ما سَبَقَ كافيًا في المقصودِ، لكِنَّه قاصِرٌ على محلِّ الحاجةِ؛ عَمَّ تعريفًا بالأمرِ على ما هو عليه، فقال حامِلًا على شِدَّةِ الوُثوقِ بما تقولُه الرُّسُلُ عن رَبِّهم، وأنَّه لا لَبْسَ فيه ولا غائِلةَ بوَجهٍ[3]:

﴿وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا﴾.

أي: وعَلِمَ اللهُ سُبحانَه عددَ كُلِّ شيءٍ مِن خَلْقِه، فلا يَخفى عليه شَيءٌ مِن ذلك[4].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿قُلْ إِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ مَا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَدًا﴾ فيه

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٥٠٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٥٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٣١)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٢١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٥١).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٥٠٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٥٦)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١١٤٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٣١).

سُؤالٌ: أليس أنَّ النَّبيَّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ قال: ((بُعِثْتُ أنا والسَّاعةَ كهاتَينِ))[١]، فكان عالِمًا بقُربِ وُقوعِ القيامةِ، فكيف قال هاهنا: ﴿وَإِنْ أَدْرِيٓ أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ﴾؟

الجوابُ: المرادُ بقُربِ وُقوعِه هو أنَّ ما بَقِيَ مِنَ الدُّنيا أقَلُّ مِمَّا انقضى، فهذا القَدْرُ مِنَ القُربِ معلومٌ، وأمَّا معنى معرفةِ القُربِ القريبِ وعَدَمِ ذلك: فغيرُ مَعلومٍ[٢].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا * إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾ ردٌّ على المنجِّمينَ وعلى كلِّ مَن يَدَّعي أنَّه يَطَّلِعُ على ما سيَكونُ مِن حياةٍ أو موتٍ أو غيرِ ذلك! لأنه مُكَذِّبٌ للقرآنِ، وهم أبْعَدُ شيءٍ مِن الارتضاءِ مع سَلْبِ صِفةِ الرسليَّةِ عنهم[٣]. فمَن ادَّعى أنَّ النُّجومَ تَدُلُّه على ما يكونُ مِن حياةٍ أو موتٍ أو غيرِ ذلك، فقد كَفَر بما في القُرآنِ الكريمِ[٤].

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا * إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا﴾ فيه أنَّ عُلومَ الغُيوبِ قد انفرَدَ اللهُ بعِلْمِها، فلا يَعلَمُها أحدٌ مِنَ الخَلقِ إلَّا مَن ارتضاه اللهُ، وخَصَّه بعِلمِ شَيءٍ منها[٥].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا * إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾ ردٌّ على مَن يَزعُمُ مِن الشِّيعةِ أنَّ الإمامَ يَعلَمُ الغَيبَ، وهذا مِن كِبارِ حماقاتِهم، وقد أخبَرَ اللهُ جلَّ جلالُه أنَّه لا يُظْهِرُ عليه إلَّا مَن ارتضاه رَسولًا، والإمامُ ليس برَسولٍ[٦]!

(١) أخرجه البخاري (٤٩٣٦)، ومسلم (٢٩٥٠) مِن حديثِ سهلِ بنِ سعدٍ رضيَ الله عنه.

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦٧٨).

(٣) يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (١٣/ ٣٦٤).

(٤) يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٦٩)، ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦٧٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩١).

(٦) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٤٣٠).

٥- في قَولِه تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا * إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾ أنَّ سائرَ ما كان النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يُخبِرُ به مِن الغُيوبِ هو بإعلامِ اللهِ تعالى إيَّاه؛ لا أنَّه يَستَقِلُّ بعِلْمِ ذلك[(١)]!

٦- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ﴾ يدُلُّ على كَونِه تعالى عالِمًا بالجُزئيَّات[(٢)].

٧- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَىْءٍ عَدَدًۢا﴾ يدُلُّ على كَونِه تعالى عالِمًا بجميعِ الموجوداتِ[(٣)].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿قُلْ إِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُۥ رَبِّىٓ أَمَدًا﴾ جُملةُ ﴿قُلْ إِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ﴾ مُستأنَفةٌ استئنافًا بيانيًّا؛ لأنَّ القولَ المأمورَ بأنْ يَقولَه جَوابٌ لسُؤالِهم المُقدَّرِ[(٤)].

٢- قولُه تعالَى: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا﴾ استِئنافٌ مُقرِّرٌ لِما قبْلَه مِن عدَمِ الدِّرايةِ[(٥)].

- وأيضًا قولُه: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا﴾ في مَوضعِ العِلَّةِ لجُملةِ ﴿إِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ﴾ الآيةَ[(٦)].

- وتَعريفُ المُسنَدِ ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ﴾ مع تَعريفِ المُسنَدِ إليه المُقدَّرِ (هو)

(١) يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (٩/ ٢٠٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦٨٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٣٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٥٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٤٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٤٦، ٢٤٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٤٧).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٤٧).

يُفيدُ القصْرَ[١]، أي: هو عالِمُ الغيبِ لا أنا. وتَعريفُ الغيبِ تَعريفُ الجِنسِ[٢].

- وإضافةُ صِفةِ ﴿عَٰلِمُ﴾ إلى ﴿ٱلْغَيْبِ﴾ تُفيدُ العِلمَ بكلِّ الحقائقِ المُغيَّبةِ، سواءٌ كانت ماهيَّاتٍ أو أفرادًا، فيَشملُ المعْنى المَصدريَّ للغَيبِ، مِثلَ عِلمِ اللهِ بِذاتِه وصِفاتِه، ويَشملُ الأُمورَ الغائبةَ بذاتِها، مِثلَ الملائكةِ والجنِّ، ويَشملُ الذَّواتِ المُغيَّبةَ عن عِلمِ النَّاسِ، مِثلَ الوقائعِ المُستقبَلةِ الَّتي يُخبَرُ عنها أو الَّتي لا يُخبَرُ عنها؛ فإيثارُ المَصدرِ هنا لأنَّه أشمَلُ لإحاطةِ عِلمِ اللهِ بجَميعِ ذلك[٣].

- وفُرِّعَ على معْنى تَخصيصِ اللهِ تعالَى بعِلمِ الغيبِ جُملةُ ﴿فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا﴾؛ فالفاءُ لتَفريعِ حُكْمٍ على حُكْمٍ، والحُكمُ المُفرَّعُ إتمامٌ للتَّعليلِ، وتَفصيلٌ لأحوالِ عدَمِ الاطِّلاعِ على غَيبِه[٤].

- ومعْنى ﴿فَلَا يُظْهِرُ﴾، أي: فلا يُطْلِعُ ولا يُنبِئُ به، وهو أقْوى مِن (يُطلِعُ)؛ لأنَّ (يُظهِرُ) جاء مِن الظُّهورِ، وهو المُشاهَدةُ، ولتَضمينِه معْنى (يُطلِعُ) عُدِّي بحرْفِ (على)[٥].

- ووُقوعُ الفِعلِ ﴿يُظْهِرُ﴾ في حيِّزِ النَّفيِ يُفيدُ العُمومَ، وكذلك وُقوعُ مَفعولِه ﴿أَحَدًا﴾ وهو نَكرةٌ في حيِّزِه يُفيدُ العُمومَ[٦].

---

(١) تقدَّم تعريفُه (ص: ٣٩١).

(٢) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٦/ ٧٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٤٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٤٧).

(٤) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٦/ ٧٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٤٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٤٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٤٧، ٢٤٨).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ٢٤٨).

- وحرْفُ (على) مُستعمَلٌ في التَّمكُّنِ مِن الاطِّلاعِ على الغيبِ(١).

٣- قولُه تعالَى: ﴿إِلَّا مَنِ ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٖ فَإِنَّهُۥ يَسۡلُكُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ رَصَدٗا﴾ تَقريرٌ وتَحقيقٌ للإظهارِ المُستفادِ مِن الاستثناءِ، وبَيانٌ لكَيفيَّته(٢).

- والإتيانُ بالمَوصولِ والصِّلةِ في قولِه: ﴿إِلَّا مَنِ ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٖ إِلَّا مَنِ ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٖ﴾ لقَصْدِ ما تُؤذِنُ به الصِّلةُ مِن الإيماءِ إلى تَعليلِ الخبَرِ، أي: يُطلِعُ اللهُ بَعضَ رُسلِه مِن أجْلِ ما أرادهُ اللهُ مِن الرِّسالةِ إلى النَّاسِ(٣).

- والسَّلكُ: الإدخالُ، وأُطلِقَ السَّلْكُ على الإيصالِ المباشِرِ تَشبيهًا له بالدُّخولِ في الشَّيءِ بحيث لا مَصرِفَ له عنه، أي: يُرسِلُ إليه مَلائكةً مُتَّجهينَ إليه لا يَبتعِدونَ عنه حتَّى يَبْلُغَ إليه ما أُوحِيَ إليه مِن الغَيبِ، كأنَّهم شُبِّهَ اتِّصالُهم به وحراستُهم إيَّاه بشَيءٍ داخلٍ في أجزاءِ جِسمٍ، وهذا مِن جُملةِ الحِفظِ الَّذي حَفِظَ اللهُ به ذِكْرَه في قولِه تعالى: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾(٤) [الحجر: ٩].

- والمُرادُ بقَولِه: ﴿مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ﴾ الكِنايةُ عن جَميعِ الجِهاتِ، ومن تلك الكِنايةِ يُنتقَلُ إلى كِنايةٍ أُخرى عن السَّلامةِ مِن التَّغييرِ والتَّحريفِ(٥).

وقيل: خَصَّ هاتَينِ الجِهتَينِ؛ لأنَّ العَدُوَّ متى أُعرِيَت واحدةٌ منهما أَتى منها، ومتى حُفِظَتَا لم يأتِ مِن غَيرِهما(٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٤٨).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٤٨).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٤٨).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ٢٤٩).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٦) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٥٠٣)، ((تفسير الشربيني)) (٤/ ٤١٠).

٤- قولُه تعالَى: ﴿لِّيَعۡلَمَ أَن قَدۡ أَبۡلَغُواْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمۡ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيۡهِمۡ وَأَحۡصَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ عَدَدَۢا﴾

- قولُه: ﴿لِّيَعۡلَمَ﴾ يتعلَّقُ بقولِه: ﴿يَسۡلُكُ﴾، أي: يَفعَلُ اللهُ ذلك ليُبلَّغَ الغَيبُ إلى الرَّسولِ كما أُرسِلَ إليه، لا يُخالِطُه شَيءٌ ممَّا يَلبِسُ عليه الوحيَ، فيَعلَمَ اللهُ أنَّ الرُّسلَ أبْلَغوا ما أُوحِيَ إليهم كما بَعَثَهم دونَ تَغييرٍ، فلمَّا كان عِلمُ اللهِ بتَبْليغِ الرَّسولِ الوحيَ مُفرَّعًا ومُسبَّبًا عن تَبليغِ الوحْيِ كما أنْزَلَ اللهُ، جُعِلَ المُسبَّبُ عِلَّةً، وأُقيمَ مُقامَ السَّببِ إيجازًا في الكلامِ؛ لأنَّ عِلمَ اللهِ بذلك لا يكونُ إلَّا على وَفْقِ ما وَقَعَ، وهذه العِلَّةُ هي المَقصَدُ الأهمُّ مِن إطْلاعِ مَنِ ارْتَضى مِن رَسولٍ على الغيبِ، وذِكرُ هذه العِلَّةِ لا يَقْتضي انحصارَ عِلَلِ الإطْلاعِ فيها[١]. وقيل: فيه حَذْفٌ تَتعلَّقُ به اللَّامُ، أي: أخبَرْناه بحِفْظِنا الوحيَ؛ ليَعلَمَ أنَّ الرُّسلَ قبْلَه قدْ أبْلَغوا الرِّسالةَ كما بَلَّغَ الرِّسالةَ[٢].

- وإيرادُ عِلْمِه تعالَى؛ لإبرازِ اعتِنائِه تعالَى بأمْرِ الإبلاغِ، والإشعارِ بتَرتيبِ الجَزاءِ عليه، والمُبالَغةِ في الحَثِّ عليه، والتَّحذيرِ مِن التَّفريطِ فيه[٣].

- وجِيءَ بضَميرِ الإفرادِ في قولِه: ﴿مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ﴾ مُراعاةً للَفظِ ﴿رَّسُولٖ﴾، ثمَّ جِيءَ له بضَميرِ الجمْعِ في قولِه: ﴿أَن قَدۡ أَبۡلَغُواْ﴾ مُراعاةً لمعْنى ﴿رَّسُولٖ﴾، وهو الجِنسُ، أي: الرُّسلِ[٤].

- والواوُ في قولِه: ﴿وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيۡهِمۡ﴾ واوُ الحالِ أو اعتراضيَّةٌ؛ لأنَّ مَضمونَها

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٤٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٥٠)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ١٥١، ٢٥٢).

(٢) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٢٥٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٤٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٤٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٥٠).

تَذييلٌ لجُملةِ ﴿لِّيَعۡلَمَ أَن قَدۡ أَبۡلَغُواْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمۡ﴾، أي: أحاطَ بجَميعِ ما لَدى الرُّسلِ مِن تَبليغٍ وغيرِه، وأحاط بكلِّ شَيءٍ ممَّا عدا ذلك، فقولُه: ﴿وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيۡهِمۡ﴾ تعميمٌ بعْدَ تَخصيصِ ما قبْلَه بعِلمِه بتَبليغِهم ما أرسَلَ إليهم، وقولُه: ﴿وَأَحۡصَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ عَدَدَۢا﴾ تَعميمٌ أشمَلُ بعْدَ تَعميم (ما)[(١)].

- وفائدةُ قولِه: ﴿وَأَحۡصَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ عَدَدَۢا﴾ بَيانُ أنَّ عِلمَه تعالَى بالأشياءِ ليس على وجْهٍ كُلِّيٍّ إجماليٍّ، بلْ على وَجْهٍ جُزئيٍّ تَفصيليٍّ؛ فإنَّ الإحصاءَ قد يُرادُ به الإحاطةُ الإجماليَّةُ، كما في قولِه تعالَى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآ﴾ [إبراهيم: ٣٤]، أي: لا تَقدِروا على حصْرِها إجمالًا فضْلًا عن التَّفصيلِ[(٢)].

- وعُبِّرَ عن العِلمِ بالإحصاءِ؛ تَشبيهًا لعِلمِ الأشياءِ بمَعرفةِ الأعدادِ؛ لأنَّ مَعرفةَ الأعدادِ أقْوى[(٣)].



تمَّ بحَمدِ الله المجلدُ الأربعونَ

ويليه المجلدُ الحادي والأربعونَ

وأوَّلُه تفسيرُ سورةِ المُزَّمِّلِ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٤٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٥١).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٤٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٥١).



الفهرس







الفهرس

سورةُ الحاقَّةِ

سورةُ المعارجِ

سورةُ نوحٍ

سورةُ الجِنِّ

تم الصف والإخراج في مؤسسة
الدُّرَر السَّنِيَّة
www.dorar.net
nashr@dorar.net ٠٥٥٦٩٨٠٢٨٠